رواية

عودة قلب الاسد

تأليف السر ولتر سكوت

معرّبة بقلم سليم يوسف الخازن اللبناني

طبعت بمطبعة جريدة مرآة الغرب ٩٣ شارع واشنطون نيويورك
سنة ١٩٠٧



توطئة

كان يكسو جانباً عظيماً من الجبال والاودية الواقعة بين مدينتي شفيلد ودوكاستر من اعمال البلاد التي كانت تعرف في عهد وقوع حوادث هذه الرواية بانكلترا السعيدة غاب كثيف لم تزل بقاياه القليلة شاهدة على ما كان عليه من اتساع الارجاء وترامي الاطراف . اشتهر هذا الغاب لانه كان مرسحاً مثلت عليه روايات فظيعة ابان معارك الوردتين الدموية ولانه كان ملجأ يأوي اليه عدد ليس بالقليل من عصابات قطاع الطرق البواسل الذين اشتهر امرهم في تاريخ تلك الايام وخلد لهم اسماً في الاغاني الانكليزية

في ظل اشجار ذلك الغاب مثلت وكانت زواياه مشهداً لاكثر حوادث هذه الرواية واما الزمن فكان فيما حوالي اواخر ملك ريكارد الاول الانكليزي الملقب بقلب الاسد — عند ضجة رعية ذلك الملك في طلبها الى السماء اخراج سيدها من اسره الطويل وارجاعه الى بلاده وشعبه الذي رزح تحت حمل ثقيل من الظلم والاستبداد المختلف الاشكال والهيئات . ذلك لان الاشراف الذين استفحل امرهم في ايام الملك اسطفان والذين لم يزدهم رفق الملك هنري الثاني الا شكاسة قويت شوكتهم في الزمن الذي نحن بصدده رغماً عن اعتراض مجلس الامة وصوته الضعيف واخذوا في تحصين معاقلهم وزيادة عدد اتباعهم والاستعداد للظهور بمظهر القوة عند ما تتحرك الامة وتنهض — وهو نهوض لم تكن ترى الاشراف بداً من وقوعه

هذه كانت حال الاشراف وهذا كان همهم . كان كل واحد منهم بمثابة ملك صغير

في املاكه · لا من يعارض ارادته ولا من يقاوم مشيئته · يبرم ويحل ما ويما شاء · عاله عبيده · اما من جاور هولاء الاشراف من اصحاب الاملاك الذين لم يسعدهم الزمن ولم يجمع حولهم من الانصار ما جمعه حول اولئك ولم يخصهم بشرف يعادل شرف جيرانهم فلم يكن لديهم للنجاة من انتقام الاشراف واكتساح ارضهم ونهب اموالهم سوى الانضمام الى الاشراف والاحتماء بهم والارتباط معهم بعهود هجومية دفاعية تعود عليهم غالباً بالخسائر والمصائب نظراً لتهوّر الاشراف واعتدائهم وعتوهم

اصل هذا العسف او بالحري العامل الاكبر الذي حدا بالاشراف الى استعباد الطبقة الاخيرة من الشعب واذاقتهم من الظلم والاستبداد ما تعافه النفوس كان دخول النورمنديين بقيادة وليم الملقب بالظافر الى انكلترا واكتساح البلاد الى ان كانت معركة هايستنكز يوم انهزم السكسون شر هزيمة واستتب الامر للظافرين ووضعوا ايديهم على البلاد ملكاً لهم واختص كل من الاشراف المهاجرين نفسه بقسم منها · ولما كانت القوة بالمال كان بقاء اهل البلاد الاصليين فقراء وضعفاء من مصلحة الفاتحين ولذلك اباح الملوك لاشرافهم الرقاب وساعدوهم على اضعاف السكان بكل طريقة كانت مشروعة او غير مشروعة · ومنحوا الرعية من جنسهم حقوقاً منعوها عن السكسون كحقوق الصيد مثلاً وشرائه وغير ذلك

كانت لغة الفاتحين الافرنسية ولذلك اصبحت بعد فتحهم اللغة الافرنسية لغة القصر والمحاكم ولغة الطبقة الرفيعة واهملت لغة البلاد الاصلية لا يستعملها غير رعاة الخنازير والعبيد والمشتغلين بالارض يحرثونها ويقدمون ثمارها الى اسيادهم · غير ان اضطرار الاسياد الى مكالمة خدمهم وعدم استغناء هولاء عن اسيادهم الجأ الفريقين الى ابتداع مزيج من اللغة السكسونية والافرنسية يتفاهمون بواسطته نشأ عنه اللغة المعروفة بالانكليزية التي تطرّق اليها منذ ذلك العهد زيادات من اللغات الاساسية ولغات

جنوبي اوربا الى ان بلغت الى الدرجة التي نعهدها فيها الان من الاتساع والبلاغة

رأينا ذكر هذه الامور زيادة للفائدة العمومية ثم للقول ان هذا التنافر بين المنتصرين المستبدين والمغلوبين المستعبدين بقي الى ان نودي بادورد الثالث ملكاً على انكلترا

﴿ ١ ﴾

تحوّلت الشمس الى افق المغرب و بتحولها ارسلت بعض اشعتها تسيل من خلال اوراق سنديانات الغاب وتنصب على جذوعها القصيرة واغصانها الممتدة التي ظللت فيما مضى جيوش الرومان الظافرة وتسيل كانها الذهب المصهور على عشب احد ممرّات الغاب · كانت الاشجار تزحم بعضها بعضاً تارة بحيث يمتنع حتى على اشعة الشمس التسرُّب من خلال اوراقها وتنفرج اخرى فيكون منها رواقٌ بعيد النهاية يبتهج الطرف في النظر اليه · والنظر في اضاعة نفسه فيه · و يحسبه التصوُّر لسكونه وانفراده بداية قفر اشد سكوناً واعظم انفراداً

كان يرى في وسط ذلك الممرّ فسحة من الارض هجرها الشجر واقام مكانه اكمة مستديرة منتظمة الجوانب اشبه بقبة لا يستبعد ان تكون قد اوجدتها هنالك ايدي سكان البلاد الاقدمين عبدة الاوثان وشادوا على قمتها هيكلاً لمعبودهم هدمته يد مسيحية ولم تبقِ الاَّ على سبعة من حجارته الضخمة تدحرج احدها الى اسفل الاكمة وتوسط ساقية يحيط مجراها بحضيض الاكمة المستدير وتقلق بخرير مائها سكون ذلك الغاب المهيب

وقف بجانب الاكمة رجلان · اكبرهما سناً تدل هيئته على الشراسة والهمجية · مقطب الجبين كثيث الشعر · مترديا برداء غاية في البساطة مركَّب من سترة من الجلد كان في زمن من الازمان يكسوها صوف زال عنها ولم يعد بالامكان معرفة جنس

الحيوان الذي خلع على صاحبنا جبته · تصل تلك السترة الى ركبتي لابسها وتقوم لديه بمقام سترة ورداء في وقت واحد · في اعلاها ثلاثة خروق يبرز الراس من اوسطها والذراعان من الاخرين · يحيط بها ويجسم لابسها عند الخصر منطقة من الجلد السميك غير المدبوغ يتدلى منها بوق مصنوع من قرن كبش وخنجر قصير متين النصل عريضه ذو حدّين ومزود · اما راسه فقد كان مكشوفاً يقيه من الحرارة والبرد شعر احمر كث فاصبح كالترس · يحوي قدميه نعلان من جلد الخنزير البرّي مشدودان بسيور تصل الى الركبة ملفوفة على الساق لفاً محكماً

بقي ان آتي على ذكر جزء واحد من عدّة هذا الرجل وهو طوق اشبه بطوق كلب حفر عليه بالاحرف السكسونية ما معناه

« كارث بن بولف المولود عبداً لسادرك أف روذرود »

بجانب هذا الرجل رجل آخر ينقص عنه سناً يكسوه لباس يشبه لباس الاول في الزيّ ولكنه مصنوع من القماش بدلاً من الجلد · سترته ارجوانية تكسوها رسوم مضحكة مرسومة بالوان مختلفة · يعلو السترة جبة من قماش قرمزي مبطن بقماش اصفر تصل الى وسط فخذيه · يحيط بمعصمي هذا الرجل عدد من الاسورة الفضية ويحوي عنقه طوق كطوق رفيقه ولكنه من الفضة منقوش عليه بالسكسونية ايضاً ما معناه

« وَمبا ابن الساذج عبد سادرك أف روذرود »

واتماماً لوصف هذا المخلوق نقول انه كان متقبعاً بقاووق مختلف الالوان يتدلى منه عدد من الاجراس من الصنف الذي كان يناط الى البازي · تأتي بصوت كلما ادار راسه ولما لم يكن هذا الشخص يستقرّ على حال كنت تسمع صوت تلك الاجراس متواصلاً بدون فترة · اضف الى هذه الظواهر سمات الوجه التي كانت تظهر تارة بمظهر الجنون وطوراً بمظهر الخبث والدهاء تجد بين يديك مهذاراً من كانوا يحيطون

باغنياء واشراف ذلك العصر يساعدونهم على تمضية ساعاتهم التي كانوا يضطرون الى قضائها ضمن المنازل بالضحك

كان يتدلى من حزام ومبا جراب وسيف من خشب اشبه بسيوف السحرة ولربما كان ذلك لاعتقاد سيده ان في تقليده سيفاً قاطعاً خطراً

لم يكن الفرق بين لباسي الرجلين باقل منه في سمات وجهيهما · فمع ما كان عليه الاول من الانقباض والعبوسة كنت ترى في عينيه الحين بعد الآخر نوراً غريباً ربما كان سببه الشعور بثقل نير العبودية والبحث في الحالة الراهنة والنزوع الى طلب الحرية واما الثاني فكان كثير الحركة لا يستقر على حال ان في كلامه او في مجلسه · واذ كان الرجلان يتجاذبان اطراف حديث صاح كارث في نهايته

« لعنة القديس وذلد على هذه الخنازير » ثم نفخ في بوقه فدوت لصوته جنبات الغاب ورفعت الخنازير رؤوسها والتفتت اليه ثم عادت الى التهام البلوط · فقال كارث

« لعنة القديس وذلد على هذه الخنازير · لا تعدّني رجلاً ان لم يسطُ الذئب ذو الساقين ويفترس بعضها · فانكس ! يا فانكس ! ! » داعياً كلبه الكبير · فاقبل الكلب وهو يعرج · وكأنه فهم ما اراد صاحبه فاخذ يركض حول الخنازير ولكنه بدلاً من ان يجمعها اخذ في تفريقها فصاح الراعي مغضباً

« ليقتلع الشيطان اسنانك وانيابك والله ان هذه لمصيبة · أيقطع مراقب الغابات اقدام كلابنا ويتركها غير صالحة للقيام بما يطلب منها ونسكت ؟ انهض ياومبا وتحوّل من وراء الاكمة واطرد الخنازير امامك فانها لا تعصاك اذا جئتها من جهة الهواء »

« صدقت ! » قال ومبا وهو لم يتحرّك من مقعده « لقد فاتحت ساقيَّ ايها الصديق بامر الذهاب فاجابتا بانهما اذا حملتاني الى تلك الاوحال كان عملها خيانة فاضحة وعداوة ما بعدها عداوة نحو اثوابي الملكية · وعليه انصح لك ياصديقي كارث ان تضع

هنا الخنازير وشأنها تسير الى حتفها . فاذا اصبح الصباح واستاقتها شرذمة من الجند او عصابة من اللصوص او استبدلت جنسها السكسوني بالنورمندي تخلصت منها »

— ماذا تقصد بهذا التجنس ؟

— ماذا تدعى هذه الحيوانات ؟

— خنازير ايها الغبي

« احسنت » قال ومبا . هذه الحيوانات تدعى خنازير وهي لفظة سكسونية ولكنها اذا ذُبحت وقُدّدت واصبحت مأكلاً لذيذاً أُطلق عليها لفظٌ افرنسيٌّ . وهكذا قل في صديقنا الثور . وهكذا ترى ان لهذه الحيوانات عند ما تكون بين الاوساخ والاقذار اسماء سكسونية فاذا ماتت ارتفعت الى رتبة الاسياد واتخذت لنفسها حلتهم ولغتهم

قسماً بالقديس دانستن انك تنطق بحقائق محزنة ايها الرفيق قال كارث . فهولاء الاسياد لم يتركوا لنا غير الهواء الذي نتنشقه والماء الذي نشربه وذلك لكي تبقى فينا القوة اللازمة لخدمتهم . هم يخصون موائدهم بكل سمين وطيب ومضاجعهم بكل جميلة وحسناء من بناتنا ويستاقون كل شجاع وشاب من رجالنا الى الحروب التي يثيرونها ثم يخططون بعظامهم المنثورة اقطاراً شاسعة ولا يبقون الاّ على العجائز والضعفاء الذين لا يقوون على زحزحة النير او الاحتجاج على المظالم والذود عن الحقوق السكسونية . ليبارك الرب سيدنا سادرك فانه الوحيد الذي وقف في سبيل مطامع هولاء الانذال ولكن سوف يصل الى هذه البلاد رجينالد فرنت — دي — بوف عما قريب وسوف ترى ما يكون من امره مع سيدنا . ها ! ها ! احسنت يافانكس فلقد جمعت هذه الحيوانات . احسنت ! احسنت !

فقال ومبا . يا كارث ! لو لم تحسبني مجنوناً لما نطقت بما نطقت به امامي وانت تعلم ان في ذلك جناية . ولما القيت برأسك في فم الاسد . الا تعلم انه اذا بلغت كلمة واحدة

مما فهت به اذان فرنت — دي — بوف او فيليب ملفوازين كانت كافية لتعليقك على احدى هذه الاشجار عبرة لكل من يتجرأ على النطق بسوء على النورمانديين ؟

وهل تشي بي ايها الكلب ؟

آه كلاَّ لانني غبي احمق . فلو كنت حكيماً اغتنمت الفرصة السانحة . ولكن ما لنا ولهذا اخفض من صوتك فانني اسمع وقع اقدام

فقال كارث . هيا بنا مالك وللقادمين . هيا !

لست فاعلاً ولا بد لي من رؤية القادم فلعله من لدن ملك الجن يحمل اليَّ رسالة

فظهر الرعب في وجه كارث وصاح اتنطق بهذا الكلام وهوذا العاصفة ببروقها ورعودها لا تبعد عنا الاَّ اميالاً معدودة ؟ أَتأتي على ذكر الجن في هذا المكان ؟ اسمع ! فوالله لم ارَ في حياتي برقاً كهذا البرق ولا سمعت رعداً كهذا الرعد . هيا ايها الرفيق ألا تسمع انين السنديانات وزفراتها المؤذنة باقتراب الزوبعة ؟

فأثر هذا الكلام في ومبا وانضم الى رفيقه الذي التقط نبوتاً كان على الارض واخذ في سوق الخنازير بمساعدة كلبه فانكس

٢

رغماً عن الحاح كارث الشديد وانذاره ووعيده لم يدع ومبا وسيلة للابطاء الاَّ اتخذها . فكان يتسلق اشجار البندق تارةً ويقتطف من ثمارها ويقف في وسط الطريق تارة اخرى ويتبع بنظره كل من مرَّ بهما من القرويات الى ان تحجبها اشجار الغاب ولذلك لم يكن الا هنيهة حتى تمكنت تلك الاقدام التي سمع ومبا وقعها من اللحاق بهما . فالتفت الرجلان ورأيا سريَّة من الفرسان تبلغ العشرة يتقدمها فارسان تدل ظواهرهما على سمو شأنهما يتبعهما على الاثر عدد من الخدم

لم تكن هنالك صعوبة في معرفة حيثية احد المتقدمين لانه كان مترديًا بحلة كهنوتية

ولكنه رغماً عن اوامر البابا والمجامع المقدسة القاضية بالتقشف والابتعاد عن كل بذخ وتجنب كل رفاهية كان يكسو صاحبنا الحرير الغالي وينتهي كماً جبته بدائرة من الفرو النادر ويضمها عند العنق بكلة من الذهب الخالص · فكان بما عليه اشبه باحدى جميلات الطغمة المعروفة بالكويكر التي تبقى لباسها على الزيّ الذي تطلبه قوانين تلك الطغمة ولكنها لا تألو جهداً في زيادة الزينة عليه واضافة كل ما من شانه زيادة جمالها ظهوراً ودلالها تسلطاً وسحر حسنها تأثيراً · والغريب ان وجه هذا الكاهن كان خالياً من سمات الدعة والمهابة والجلال البادية على وجه الكاهن الورع التقي · ولكنك كنت ترى في مكانها ظواهر المجون والخفة · واغرب من هذا ان هذا الكاهن بالنظر الى الوظيفة التي كان يقوم باعبائها قد مرَّن اعصاب وجهه على التحوُّل بسرعة من حالة الى حالة اخرى بحيث تنقلب من الضحك الى البكاء ومن القساوة الى الشفقة باسرع من تقلب الفكر

وكان مركب الاب المحترم بغلاً تدل ظواهره على حسن الحال في اسطبل الدير وتدل ظواهر راكبه على اعتياده ركوب ما هو ارفع قدراً من البغل نظراً لثباته على البرذعة · هذا فضلاً عن جواد لم تنتج الاندلس اجود منه في مؤخرة الجماعة يقوده احد الرهبان عليه سرج من القطيفة تكسوه الرموز الكنائسية كانما البغل لم يكن سوى بدَل يستخدمه الكاهن في السفر اراحة لجواده الذي كان يبقيه الى الفرص المناسبة · وخلف قائد الجواد راهب آخر يقود بغلاً مثقلاً بحمل من الرياش اللازم للكاهن يسير خلف هذين راهبان يتحدثان سرًّا ويضحكان

اما رفيق الكاهن فكان يناهز الاربعين · لا نصيب له من السمن وكثرة الشحم طويل القامة قوي البنية شديد العضل كانما المشقات العديدة والتمرُّن الدائم ذهبت بكل رقة ونعومة من جسمه وخلفته مجموعة اعصاب كانها حبال مشدودة اعتادت

مازلة الاهوال والخلاص منها وهي على اتم الاستعداد لاستقبال ما ياتي بالابتهاج ·
على راسه قلنسوة من القاش القرمزي يعلوها الفرو الثمين وهي صغيرة بحيث لا تستر
عن عين الناظر شيئاً من ملامح لابسها — وجه تبدو فيه القسوة مجسمة والعتو
ظاهر فيه بالوانه وعينان برّاقتان تحت جبهة برزت اعصابها وزادها غضوناً جرح بتر
فيما مضى من الزمن احد الحاجبين وزاد في غرابة منظر احدى العينين · شفته العليا
يعلوها شارب شديد السواد يهتز غضباً لأقل عبارة · وبالجملة ان ذلك الوجه الذي
لوَّحته شمس الاقطار الاستوائية كان درساً يرى فيه المتأمل سابق اخطار واهوال
نوزات وخُذلات · وعزيمة تستصغر ما دون القدر من الخصوم او كانها تنشد بلسان عنترة

ولو مدَّ نحوي حادث الدهر كفهُ   لحدَّثت نفسي ان امدَّ لهُ يدا

كانت جبة الرجل تشبه جبة رفيقه من جميع الوجوه فيما سوى اللون الذي كان
قرمزياً مما دلَّ على عدم انتمائه الى فرقة من فرَق الرهبنات الاربع الرئيسية المعروفة ·
يزينها صليب من القماش الابيض قطع وخيط على الكتف الايسر · تستر الجبة قميصاً
من الزرد اجاد الصانع حبكه فلبس الجسم كانه من غزل ينتهي بكمين من الزرد
ايضاً وقفازين من الاعلى ويتصل بفخذين من البولاد صنعا لستر مقدَّم الفخذ من
صفائح فولاذية صغيرة كانها حرافيش السمك تتصل بدورها بجوربين من الزرد ايضاً
يتدلى من حزامه سيف طويل ذو حدَّين

ولم تكن مطيته بغلاً كرفيقه بل برذوناً قوياً حرصاً على جواده المدرَّع ايضاً الذي
كان يقوده احد الخدم ان تناله مشقة هو في غنى عنها · يتدلى من احد جانبي سرج
الجواد فأس حرب من الفولاذ تغطيها النقوش الدمشقية · ومن الجانب الاخر خوذة
الفارس وسيف صقيل من الصنف الذي كان يضرب به محاربة ذلك العصر باستعمال
الكفين معاً · يسير على اثر الجواد خادم آخر يحمل رمح سيده الطويل في طرفه مما يلي

السنان راية صغيرة رسم عليها صليب كالصليب الذهبي ذكرنا وجوده على كتف الفارس الايسر وترس مثلث يستر الشعار المرسوم عليه قطعة من القماش القرمزي

يتبع هذين الخادمين عدد من الحاشية تدل الوان وجوههم وثيابهم وعمائمهم البيضاء على نزعتهم. عليهم جبب مزركشة تستر الجسم الى الركبتين يتدلى من اكتافهم السيوف العربية ومن سرج جواد كل منهم عدد من الحراب التي كان يستعملها محاربة الاسلام في ذلك العصر ومما لم يزل اثر استعماله باقياً فيما يدعى « بلعب الجريد » في ايامنا هذه تحمل هولاء خيول عربية تثب في سيرها وثباً كانها الغزلان وتظهر بجانب خيول الفلاندر ونورمانديا الضخمة (التي لولا ضخامتها لما قويت على حمل درعها وصاحبها المدرّع) كالاثر بجانب العين

فلفتت هذه السرية لغرابة منظرها انظار ومبا ورفيقه. ولكن حالما وقع نظر ومبا على الكاهن عرف لاول وهلة انه رئيس رهبان دير جودفولكس المشهور بالميل للصيد والقنص وحضور الولائم ومعاطاة الكؤوس — وان صحت الاشاعات — فالى امور اخرى عالمية لا توافق مركزه كرئيس دير. غير ان السلطة الممنوحة لكهنة ذلك العصر وميل الجمهور الى عدم التدقيق في انتقاد احوالهم وحيث الكهنة ورثاؤهم — جميع هذه ساعدت الرئيس أيمَر على حفظ سمعته سالمة لا ينالها سوء. أضف الى هذه خفة روحه وكرمه في منح الغفرانات مما جعله مقرَّباً من الاشراف الذين كانت تجمعه بهم صلة نسبه النورماندي والذين كانوا يفزعون اليه في طلب الراحة لضمائرهم. اما النساء فهنّ لا يجزْنَ بحكم ولا يرمينَ بانتقاد مرّ من كان يقرّ بسلطتهنّ ويتوّه برقتهن ويمتدح جمالهنّ ودلالهنّ ويسليهنّ بالاقاصيص ولا يدع فرصة الا اغتنمها لاستجلاب رضاهنّ. ولما كان أيمر ما ذكرنا كان محبوباً من السيدات ايضاً. الرئيس أيمر كان بيضة كل موقف — صياد ماهر في الغاب. فارس في الميدان. زير في مقصورة الحسناء

قديس بين العجائز · تكفيه معرفته السطحية بالعلوم للظهور امام الكهول بمظهر العلم والمعرفة · اما كرمه وهباته للطبقة الحقيرة من الشعب فكانت تستر عوراته لديهم رغماً عما اشتهرت به هذه الطبقة من تشديدها في انتقاد من كان ارفع منها قدراً ومنزلة وعليه انحنى صاحبانا باحترام للكاهن واقتبلا بركته بخشوع واخذا بالتفرّس في وجه رفيقه مندهلين من زيه وزيّ اتباعه باهتمام صمّ اذانهما عن استماع كلام الكاهن عندما سألهما عن مكان للمبيت · فلما لحظ الكاهن ذلك رفع صوته وقال :

سألتكما ياولديّ ان ترشدانا الى مسكن رجل صالح محب لله ولكنيسته المقدسة لا يبخل على اثنين من احقر خدمها بالقرى والمبيت

فلما سمع ومبا هذا الكلام قال في سرّه : « اذا كان من أرى احقر خدم امنا الكنيسة المقدسة فما هي حال مقدّم الخدم ياترى » ثم رفع عينيه الى وجه الكاهن وقال — اذا رام الاب المحترم فراشاً وثيراً وعشاء لذيذاً فليتقدم الى دير بركنس ورث فاذا بلغه واعلن رتبته عدّ رهبان الدير زيارته شرفاً طالما طمح به امثالهم · ولكن ان كنت ايها المحترم ممن يميلون الى التقشف والنسك فتتبع هذا الطريق الى ان تصل الى صومعة ناسك متعبد وهذا لا اخاله يبخل على سيادتكم بقسم من عشائه وجانب من صلواته

فهزّ الكاهن رأسه مظهراً عدم رضاه عن رأي المهذار وقال :

لو لم يذهب صوت اجراس قاووقك ببعض عقلك لعرفت ان الرعاة لا يحملّون بعضهم بعضاً اثقالاً ولكنهم يفضلون ضيافة الرعية وبذلك يمنحونها فرصة تخدم وتكرم الله بها في شخص خدمه

فقال ومبا الحق ما نطقت به ايها المحترم بما يتعلق بالاجراس فهي وان كنتُ حماراً تنيلني شرف التشبه ببغل سيادتكم · ولكن بقطع النظر عن الاجراس انا ارى ان الاحرى بالكنيسة المقدسة ان تمنح اولادها تلك الفرصة اولاً وقبل الغير

اصمت ايها الغبي ! « صاح الكاهن شاكي السلاح بصوت قاسي النبرات « اصمت وارشدنا الى منزل

— ما اسم الرجل ايها الرئيس ؟

فاجاب الرئيس هو سادرك السكسوني

فلما طرق اذن كارث اسم سيده تقدم وقال : الطريق وعر لا يخلو من العثرات يصعب سلوكه وعائلة سادرك تنام في اول الليل

وماذا الذي يهمني من نومها قال الكاهن الفارس « هذا لا يمنعها عن النهوض والقيام بواجب الضيافة نحو مسافرين يطلبان حقاً لهما و يرجوان اجراء ما يتوجب اجراؤه امتثالاً لاوامرها وهما السيدان في كل حال »

فقال كارث لا اعلم ما اذا كانت قيادة اناس يطلبون الضيافة كحق بينما غيرهم يطلبها بتذلل ويقبلها بشكر ليت سيدي مما يليق بي ام لا

اراك تعارض لي كلاماً ايها العبد الزنيم صاح الاول وتقدم ببرذونه من كارث ورفع عصاً كانت بيده وهمَّ بضرب كارث . فقدحت عينا هدا شرراً وهمَّ بخنجره ليستله واذا بالرئيس أيمر قد اعترض رفيقه قائلاً :

لا وحق العذراء يا اخي براين انت في بلاد غير بلاد فلسطين وسكان هذه الجزيرة لا يقبلون بغير تأديب الكنيسة التي انما تؤدب من تحبه قال هذا وتحوَّل الى ومبا ونقده قطعة فضية قائلاً ارشدنا ياولدي الى مسكن سادرك فانت لا تجهله ويجب عليك ارشاد الغرباء ايًا كانوا فكيف بك وهم كهنة وخدمة العلي !

فقال ومبا لقد اطار غضب رفيقك بقية من العقل كانت باقية في هذا الراس ايها المحترم

لا باس فرفيقي قضى عمره في الحروب المقدسة سعياً وراء استرجاع القبر المقدس

وهو احد الهيكليين الذين لا اخالك تجهل امرهم فنصفه الواحد كاهن ونصفه الآخر جندي

— سر في هذا الطريق اذاً ايها الاب الى ان تبلغ صليباً مركوزاً في الارض قد غطى معظمه التراب فاذا بلغته تحوَّل الى اليسار — اذا فعلت تحرم ملجأً قبل العاصفة

فشكر الرئيس لمرشده الحكيم همته واعملت المهاميز وسارت السرية سير من يروم بلوغ مأوى قبل انقضاض العاصفة

ولما غابت الكوكبة عن نظر الرفيقين وزال من الاذان وقع حوافر الخيول التفت كارث الى رفيقه وقال :

اراهم لا يصلون الى روذرود في هذا المساء ايها الصديق !

كلا ولكن الى شفيلد وذلك اذا ساعدهم البخت اجاب وميا . ويلك اتحسبني مجنوناً لدرجة تحملني على ارشاد الكلب الى مقرّ الغزال اذا لم يكن لي غرض من صيده

— احسنت ايها الصديق فلا يحسن ان تقع عينا الرئيس أيمر على وجه السيدة روانا ولا ان يضيف سيدنا ذلك الراهب الجندي — ولكن كيف كانت الحال ياوميا دعنا نفعل ما يفعله خير الخدم : ننشر اذاننا ونفتح اعيننا نسمع ونرى ونبقي افواهنا مقفلة

لنترك هذين الان ونتبع خطوات الفرسان — جدُّوا في المسير وفي الطليعة يتحدث السيدان بالافرنسية التي ذكرنا فيما تقدم انها كانت لغة الاشراف والنورمانديين . وكان الهيكلي يقول :

لماذا اظهر الرجلان جفاء وغلظة ? ولماذا منعتني عن تأديبهما كما يستحقان ايها الرئيس المحترم ?

— الاول ايها الاخ احمق وقد لا تجد من يقوى على معرفة الاسباب التي تحمل الاحمق على عمل ما يعمله وقول ما يقوله . واما الثاني فهو واحد من الذين ذكرت لك

عن وجودهم بين السكان الذين لا يخشون امرًا ولا يألون جهدًا في ازعاج راحة ومعاكسة الفاتحين ولو عاد عليهم عملهم بالويل والعذاب

— فوالحالة هذه لماذا منعتني عن تأديبه ؟ كنت اضمن لك فيه حسن التأدب بعد خروجه من تحت يدي. انظر الى هولاء العبيد الشرقيين هم والله اشد شراسة من الذئاب ولكنهم لم يلبثوا ان غيروا طباعهم بعد ما عالجتهم نحوًا من شهر واصبحوا ودعاء كالحملان. غير انني لا اخفي عنك امرًا وهو ان هولاء اذا ثار ثائرهم فاين منهم الابالسة فهم لا يقفون عند حد ولا يرهبون قوة فضلاً عن انتسابهم الى اقوام اشتهروا باستعمال الخنجر والسم

لكل بلاد زي وعوائد ولكل قوم اطوار واخلاق ايها الاخ قال الرئيس. فلو عالجت ذلك الرجل بعصاك لأصرَّ هو ورفيقه على السكوت وكانت النتيجة اننا ضللنا السبيل واضطررنا الى الخبط في هذا الغاب وزد على ذلك انك لو ادبته كما تشتهي وتوفقنا للوصول الى منزل سادرك لجرى بينكما ما لا تحمد عاقبته لان سادرك غنيٌّ متعجرف يفتخر بانتسابه الى هيرورد احد ابطال السكسون القدماء وهو ليس بالضعيف القلب الخائر العزم والاَّ لما حفظ لنفسه المقام الذي هو فيه الان وبجواره رجلان مثل فرنت — دي — بوف (وانت ادرى الناس بهذا الرجل) وملفوازين . واليك برهانًا آخر على شجاعة الرجل هو يجاهر بنسبه الذي ذكرته لك بينما غيره يجهد في اخفاء نسبه خشية ان يناله من العسف والظلم ما يلحق المغلوبين عادةً

فقال الهيكلي : انت ايها الرئيس المحترم رجل اشتهر عنه اللطف في الشواعر والبراعة في درس الجمال والامتياز كالشعراء في وصف الحب والتفنن في دخول ابوابه بناءً على هذه وعلى وصفك لجمال السيدة روانا بتُّ اعلل النفس بانني سوف ارى في شخصها من الجمال ما يجيزني عما نالني من الغضب آنفًا وعما سيلحقني من الغيظ من

" ابيها وهو على ما ذكرت

— ليس سادرك بابيها · وهي من فرع اشرف اصلاً من اصل سادرك رغماً عن القرابة التي تجمعها · وهو وصيٌّ عليها وقيّم على املاكها وذلك لا يمنعه من ان يحبها حثل ابنته · اما عن جمالها فلا ازيدك شيئاً الان وسأترك لك الحكم فيه لدى المشاهدة فاذا لم يزل صفاء لون بشرتها وهيبة عينيها الزرقاوين المقرونة الى اللطف ورقة المعنى تزري بالحسن الشرقي — اذا لم تزل هذه من رأسك ذكر حسان فلسطين وذوائبهنَّ وعيونهنَّ السوداء او بالاحرى اذا لم تزل من مخيلتك ذكر حور الجنان فلا تنسبني الى غير الكفر والجهل ولا اكون اهلاً لان ادعي ولداً للكنيسة المقدسة

فقال الهيكلي : اذا وزنّا جمال هذه الحسناء ووجدناه ناقصاً ثبت عليك الرهن

— ثبت ! قلادتي الذهبية قبالة عشرة براميل من النبيذ المعتق · وكأني بالبراميل قد أُدخلت قبو الدير

— وسأكون انا الحكم ايها الرئيس حسب الاتفاق · فاحرص اذاً على قلادتك لانني صعب المراس وقد وطدت العزم على تعليق قلادتك في عنقي في ميدان اشبي

— ليكن ما تقول بشرط ان تنصف في الحكم · غير انني لا اجد بدّاً من تقديم نصيحة وهي ان تبرُد جانباً من لسانك لتتلطف عباراته وان تحاذر اغضاب سادرك وهو سريع الغضب لاننا اذا اغضبناه لا نجد خلاصاً من يده ثم حاذر في نظرك الى وجه روانا فقد بلغني ان سادرك طرد وحيده من بيته لانه تجاسر ورفع عينيه ونظر الى روانا نظر الحب · يخال لي ان سادرك يعتقد ان جمال هذه الفتاة كجمال العذراء يُعبد عن بُعدٍ ولا يجوز الاقتراب منه

— كفى ! قبلت نصيحتك وسأتبع الخطة التي رسمتها · ولكن اذا لجأ الرجل الى استعمال القوة اجد في نفسي وفي خادميَّ حامد وعبد الله كفاية لرد كيده الى نحره

— يجب ان لا نلجأ الى القوة ... هوذا الصليب الذي ذكره ذلك الاحمق . ألم يرشدنا الى الطريق الايسر ؟

— لا . بل قال اتخذوا الأيمن

— لا . بل الايسر لانه اشار بسيفه الخشبي الى اليسار

— لا . بل الى اليمين لان السيف كان بيده اليسرى .

اختلف الكاهنان ولم يكن بين اتباعها من يعرف لانهم لم يسمعوا كلام ومبا . وبينا هما في هذه الحيرة بصر الهيكلي بشبح اسود بجانب الطريق قد ستره الظلام فلم يرَ في بادىء الامر . فنادى حامل رمحه واشار اليه بان ينبه الراقد بكعب الرمح ففعل واذا بالشبح قد انتصب وصاح : هذا منتهى الغلظ ! لماذا تقطعون مجرى افكار رجل قد اخلد الى الليل يفاتحه باسراره ؟

فقال الرئيس : عفواً ايها الصديق فغرضنا الاسترشاد الى مسكن سادرك السكسوني فهل لك ان ترشدنا اليه ؟

فاجاب الغريب هو نفس المكان الذي اقصده للمبيت . فلو كان لي فرس لقدتكم اليه لان الطريق وعر

فقال الرئيس جوزيت خيراً قال هذا واشار الى احد الرهبان في خدمته ان يركب الغريب فرسه ويركب هو فرس سيده . ففعل

وتقدم الغريب المسافرين يقودهم قيادة خبير في تلك الغابات في طريق غير الطريق الذي اشار اليه ومبا قصد تضليلهم واجتاز بهم غاباً كثيفاً وعبر عدداً من السواقي التي لا يخلو عبورها من خطر على الغريب الجاهل نظراً لما يتاخمها من المستنقعات الى ان وصل اخيراً الى ممرّ بين الاشجار واشار باصبعه الى بناء رفع لهم وقال : هذا مقر سادرك السكسوني

فلما رأــــ الجماعة المنزل استبشروا واخصهم الرئيس · فانه انحلت عقدة لسانه وعادت اليه طلاقته التي افقدته اياها مخاوف الغاب فسأل الغريب عن نفسه فاجابه بقوله :

حاج قريب العهد بالاراضي المقدسة

فقال الهيكلي : كان الاولى بك البقاء في تلك البلاد تجاهد في سبيل استرجاع القبر المقدس

لم يستغرب الرجل ظواهر الهيكلي كأنما هي ليست اول مرة رأى فيها مثل ذلك الزي · فلما سمع كلامه اجاب :

اصبت ايها الفارس المحترم · ولكن يجب الاَّ تعجب لاهمال رجل حقير مثلي شيئاً من واجباته بينما ترى الذين اقسموا الايمان المغلظة ان يسترجعوا ذلك القبر او يموتوا في سبيل استرجاعه يتنقلون بحشمهم في بلاد بينها و بين ذلك القبر ابعاد شاسعة

فهمَّ الهيكلي بالجواب وقد ظهرت في وجهه شراسته المعهودة فمنعه الرئيس أمير معترضاً جوابه بسؤاله الغريب عن اصل معرفته بتلك الناحية وهو على ما ذكر قد صرف زمناً طويلاً في بلاد غريبة · فاجابه بانه وُلد في تلك الناحية

واذ ذاك بلغوا مدخل منزل سادرك · رأوا امامهم بناء قليل الارتفاع بعيد الاطراف تدل ظواهره على سعة حال صاحبه رغماً عن اختلافه في كل شيء عن قصور النورمنديين الرفيعة والكثيرة الابراج

اما المنزل فرغماً عن عدم ارتفاعه وخلوه من الابراج لم يعدم وسيلة للتحصن عند المهاجمة · ولولا ذلك لما طلع عليه صباح وفيه حجر على حجر

كان يحيط بالبناء خندق عميق مملوء ماء يحيط به من الخارج سياج مصنوع من اعمدة متينة ويمتدّ فوقه جسر متحرك يرفع ويخفض بحسب الاحتياج يوصل الى المدخل

العمومي · وكان المدخل عبارة عن خرق في الجدار بين زاويتين من زوايا البناء فيها المرامي ترشق منها السهام على العدو اذا هاجم المدخل

وقف الجماعة امام المدخل ونفخ الهيكلي في بوقه نفخة ردَّدت صداها جدران البناء من جانب واعماق الغاب من جانب آخر ولم يكد يدفن الليل في صدره الساكت صوت البوق والصدى معاً حتى اخذت السماء تصب على الارض مطرًا كانه السيل

٣

في قاعة بعيدة الزوايا دانية السقف مائدة مصنوعة من الواح قطعت من الغاب المجاور لم تتعهدها يد النجار كثيرًا تتململ تحت حمل ثقيل من الوان الاطعمة معدَّة لعشاء سادرك السكسوني واهل بيته

كان سقف القاعة المذكور عبارة عن الواح من الخشب يعلوها الشيح والهشيم وقد عمها جذوع الاشجار بحالتها الطبيعية على نحو السقف المعروف في الشرق · وكان في احد جوانب القاعة مستوقد يتصل بمدخنة ليست من احكام البناء على شيء تقسم دخانها بين الفضاء في الخارج والقاعة على السواء فيثقل الخارج منه الهواء ويصبغ الباقي سقف القاعة وجدرانها بصباغ اسود اين منه الزيوت · وفي كل من جدران القاعة باب كبير يوصل الى مساكن البيت العديدة يزين تلك الجدران عدد من ادوات الصيد والقتال

وكانت ارض القاعة مصنوعة من التراب والكلس خلط ومزج بالماء ثم مدَّ على الارض وضُرِب الى ان تجمَّد قليلاً وكانت مقسومة الى قسمين احدهما وهو نحو الربع من مساحة القاعة مرتفع قليلاً بشكل مسطبة عليها مائدة فوقها غطاء من قماش قرمزي غالي الثمن يحيط بالمائدة عدد من الكراسي المصنوعة من خشب السنديان المنقوش ويظللها مظلة من القماش ايضاً تقي الجالسين اليها من المطر الذي اذا سقط في الخارج

تسرب من خلال فروج الواح السقف الى الداخل — كانت هذه المائدة مخصصة لرب البيت وعائلته واضيافه من ذوي المقام

واما القسم الثاني من ارض القاعة وهو ما بقي فكان منخفضاً عن المصطبة كما ذكرنا فيه مائدة بسيطة الصنعة يجلس اليها خدم البيت ومن كان في منزلتهم من الضيوف

وكان يستر الجدران ما يلي المسطبة ستائر اصابها نصيب من الزركشة يغطي ارضها (المصطبة) طنفسة واما ما بقي من القاعة فكان عارياً خالياً من كل زينة

جلس سادرك السكسوني الى مائدته على كرسيّ مرتفع غريب الشكل والصنعة والى جانبه كرسي يشبه كرسيه وتحت قدميه مسند من الخشب دقيق الصنعة منزَّل بالعاج واقام ينتظر بفروغ صبر حلول وقت العشاء

كان سادرك ربعة القامة عريض المنكبين متسع الصدر كبير العينين ازرقهما تدل طلعته اجمالاً على بساطة القلب مع حدّة في الطبع وبالتالي التسرُّع في الغضب مع انفة وكبرياء . ولما كان هذا الرجل قد قضى عمره في المطالبة بحقوق سياسية لم يحصل على شيء منها كنت تراه شديد الحذر دائم التيقظ خوف مهاجم او عدو مفاجيء — وحق له ان يحذر والنورمانديون يحيطون به كالذئاب تراعي الكبش السمين وترقب غفلة الكلب

وكان في الستين من سنه غير انه رغماً عن السنين لم ينل الشيب نصيباً من شعره الاسود الطويل الذي كان يرسله على اكتافه . يستر جسده قباء من الفرو الغالي فوق درَّاعة قرمزية وسروال يصل الى الركبة ويحيط بخصره منطقة مزركشة بخيوط الذهب ومكللة بالجواهر وعلى ساعديه عدد من الاسورة الذهبية وفي عنقه قلادة عريضة من الذهب ايضاً

فلما ان صبر سادرك كاد يفرغ لتأخر العشاء والان نقول ان فروغ الصبر تحوَّل

الى كدر لاسباب اولها ان السيدة روانا لم تكن قد دخلت القاعة بعد لسبب تأخرها في الرجوع من الصلاة في كنيسة القرية المجاورة وثانيها تأخر خنازيره في المرعى وبالنظر الى احوال ذلك الزمن خشي ان يكون ايدي قطاع الطرق او ايدي احد جيرانه ممن كان شراً من اللصوص قد نالتها واستاقتها غنيمة وثالثها غياب مهذاره الذي كان يساعده بنكاته على هضم طعامه · فوالحالة هذه لا غرابة في قلق سادرك وكدره وحدة كلابه التي تحيط به وبعبارات فظة وتقطيبه وعبوسته وتناوله الكاس مرة بعد الاخرى من يد سافيه وطرح اسئلة متقطعة على خدمه عموماً وساقيه خصوصاً ثم لا ينتظر سماع الجواب بل يسأل سؤالاً آخر · واخيراً سأل :

لماذا تأخرت السيدة روانا عن الحضور ؟

فقالت خادمة روانا الخصوصية : هي تستبدل زينة شعرها ياسيدي · وكان كلامها بجرأة ودالة لا يستعملها في المنازل الا خادم الشخص المحبوب المدلل

فتحوّل سادرك الى ساقيه وهو يبحث عن مصرف لكدره ورفع صوته وقال :

قل بحق العشرة شياطين ما هو سبب ابطاء كارث بالقطيع وقد عهدت فيه الامانة والحرص وقد كان في عزمي رفعه من مرتبة العبيد — قل هل لحق بالقطيع سوء ؟

فاجاب الساقي قائلاً لا ارى ذلك يامولاي · فنحن في اول الليل ولم يمض على قرع جرس الكارفيو اكثر من ساعة

ولم يسمع سادرك كلمة « كارفيو » حتى جحظت عيناه وقدحت كانها زناد وصاح ليذهب ابليس بالكارفيو وبروح النغل الظالم الذي ابتدعه وبنفس العبد الزنيم الذي ينطق بلسان سكسوني بهذه الكلمة على مسمع من سكسوني آخر · الكارفيو ! هو ذاك الجرس الذي يقضي قرعه على ذوي النفوس الشريفة باطفاء انوارهم كيما تتمكن اللصوص من السرقة في الظلام · الكارفيو ! هو ذاك الجرس الذي يعرف فرنت — دي — بوف

وملفوازين فوائده كما عرفها وليم(١) اللئيم وكل نورماندي حارب في معركة هاستنكز اراني منتظراً اخباراً مشومة في هذا المساء كاستياق اولئك الاوباش قطيعي لاشباع بطون رجالهم الخالية وقتل عبدي الامين وومبا ··· ·ماذا جرى لومبا ؟ ألم يقل احدكم انه ذهب مع كارث ؟

فاجاب الساقي نعم

فاستأنف سادرك كلامه قائلاً : اي والله ! وقد احتملوا المهذار السكسوني ليطرب السيد النورمندي بنكاته وهذره · ثم صرَّ باسنانه وقال تبّاً لنا من ضعفاء اغبياء قد اضحوا سخرية وامتهن حقوقهم قوم لئام

وكانت الحدة قد اخذت منه مأخذاً فوثب عن كرسيه كانه شاب في العشرين من عمره وتناول حربته وكانت مسندة الى كرسيه وصاح : لا بد من الانتقام ! وساقصد المجلس الاعلى فلي فيه اصدقاء واشكو امري اليه · وعندي رجال ! وسوف اطلب هولاء النورمنديين الى ساحة البراز · ليبارزوني فرداً فرداً ! ليبارزوني بدروعهم وزرودهم فقد نفذت هذه الحربة في درع تزيد سماكتها عن ثلاث من التي يلبسونها اذا جمعت معاً · هم يزعمون ان الكبر قد اقعدني ولكنهم سوف يرون من كبري هولاً يوازيه · وانني وان كنت وحيداً لا ولد لي فانني اشعر بدم هيرورد البطل يجري في عروقي · ولفرد ! اوّاه يا وحيدي ولفرد ! لو تمكنت من ردع اميالك وقمع هواك لما كان ابوك الشيخ اليوم وحيداً كالسنديانة القديمة على قمة الجبل تعبث الرياح باغصانها

وكأنما الذكرى كسرت من سورة غضبه واستبدلت حدَّته بالحزن والجزع فارجع حربته الى مكانها ورجع الى كرسيه واطرق في الارض وغاص في بحر من التذكرات المؤلمة

---

(١) وليم الظافر

ولم يمض عليه وهو على نحو ما ذكرنا وقت طويل حتى اجفل لصوت بوق اتى من جهة المدخل العمومي اجابت عليه الكلاب في القاعة وفي جوانب البناء بالهرير والنباح وبعد عناء اسكتت الكلاب وصاح سادرك بخدمه : الى المدخل ايها العبيد واتوني بخبر البوق فلعله مقدمة مصيبة او فاجعة

غاب الخدم دقائق معدودة ثم عاد مقدّمهم وابلغ سيده ان القادم رئيس دير جورفولكس وبرفقته الفارس الهيكلي براين ومعها عدد من الحاشية يلتمسون المبيت تلك الليلة وفي الغد يبكرون الى الميدان الذي تقرَّر نصبه على مقربة من اشبي

فلما سمع سادرك كلام خادمه قال : كلاهما من النورمنديين ولكن مهما يكن من امرهما لحسن الضيافة فرض · ولا اقفل الله لهذا البيت باباً اذا ما طرقه طارق · اهلاً بالقادمين وسهلاً ! اذهب ياهندا « مخاطباً رئيس الخدم وكان واقفاً خلف كرسيه وبيده قضيبه الابيض وهو شعار وظيفته » بستة من الخدم وادخل القادمين الى مقرّ الضيوف وقدم لهم ماء للاغتسال وخمراً للارتواء وناراً للاصطلاء · وعين نفراً يعتنون بركائب القوم ولا تهمل امر الخدم والاتباع وحذار من اهمال امر ما مهما كان طفيفاً يكون فيه راحة لهم · ومر الطباخ بان يضيف الى المائدة ما امكنه اضافته · وقل للضيوف : لولا قسم مولاي القاضي عليه بالاَّ يخطو لاستقبال من لم يكن من دم سكسوني اكثر من ثلاث خطوات من مسطبة قاعته لما تأخر عن استقبالكم بنفسه · اذهب وحذار ان يخرج هولاء من هذا البيت ويقولوا : برهن النذل السكسوني عن فقره وبخله في وقت واحد · اذهب !

فخرج مقدّم الخدم واقام سادرك ينتظر دخول ضيوفه وهو يناجي نفسه بصوت مسموع وهي عادة اكسبه اياها طويل معاشرته للخدم · قال :

الرئيس أيمر رجل اشتهر بمجونه ويقال انه يفضل كاس الخمر وبوق الصيد على

كتاب الصلاة وقرع الاجراس . و براين هو ذلك الهيكلي الذي اشتهر بالشجاعة والبطش هو متكبر متعجرف قاسي الطباع طالما لطخ شرفه وسمعة الطغمة التي ينتمي اليها بوصمات رجسة — ولكن لا لوم عليه وهذا شان تلك الطغمة ... هي ليلة يقضيانها ونقضيها ثم تخلص منها

ثم التفت الى الساقي وقال افتح اعتق براميل الخمر الموجودة في الاقبية واحضر اكبر قرون (١) الشراب لان الهيكليين ورؤساء الاديرة يميلون الى الخمر المعتقة والكاس الكبيرة . وانت يا الكثيه اخبري سيدتك انني لا اتوقع حضورها الى القاعة ما لم تكن هي ترغب في الحضور بنوع خاص

فاجابت الكثيه يخيل لي ان سيدتي لا تهمل هذه المأدبة وانت ادرى بميلها الى استماع كل خبر جديد عن فلسطين

فحوّل سادرك عينيه الى الخادمة وفيهما نظرات احدّ من السهام غير انه ابتلع ما كان على وشك التفوّه به من الانتهار لان روانا واتباعها وملحقاتها عزيز لديه ومقدس ثم قال بلطف :

بلغيها رسالتي ايتها السيدة ولها الخيار فبيتي على الاقل يكون مملكة لابنة الفرد تأمر فيه اذا عدمت من البلاد عرشاً

فخرجت الخادمة

وكأنما كلام الخادمة اعاد افكار سادرك المحزنة الى رأسه فصاح :

فلسطين ! فلسطين ! ! كم من اذن تنشر دائرتها وتميل بكليتها الى سماع الاقاصيص عنك إما من افواه جنود الصليب المخلصين او من الحجاج المرائين . انا ايضاً حريٌّ بالسؤال ! انا ايضاً حري بالتفحص ! انا ايضاً حري بالاصغاء و بان تزداد نبضات قلبي

(١) كانوا يشربون الخمر في كؤوس تشبه القرون او هي قرون حقيقية

شدة بينما اصغي !٠٠٠٠ ولكن مكانك ايها القلب الضعيف فالولد الذي عصاني لست بابيه ٠ ولست بمهتم في امره بما يزيد عن اهتمامي في شأن الملايين من الاغبياء الذين رسموا الصليب على مناكبهم وقصدوا تلك الاصقاع ليحملوا السيف ويكونوا نُذُر الويل ودعاة الشر ويسيروا الى اقدس الاماكن في نهر من الدم البري وهم يدعون ذلك ارادة الله

قال هذا وقطب حاجبيه وحدّق بالارض لحظة ثم رفعهما الى الباب في طرف القاعة المقابل حيث ظهر مقدّم خدمه وبيده قضيبه الابيض يتبعه اربعة من الخدم بالمشاعل وخلف الضيوف

≺ ٤ ≻

وكان الرئيس قد استبدل ملابسه بافخر منها وتختم بعدد من الخواتم الكبيرة الفصوص وانتعل نعلاً من افخر انواع الجلود المجلوبة من اسبانيا ٠ وكذلك فعل الهيكلي فانه نزع درعه واستبدلها بحلة ارجوانية فاخرة يعلوها قباء الهيكليين الناصع البياض وعلى منكبه رسم الصليب ٠ غير ان هذا وان لم يكن مثقلاً بالزينة التي كانت تثقل رفيقه كان اعظم منه هيبةً ٠ تسير ادلة الاقدام بين يديه يخطر خطران من اعتاد الامر والرئاسة

دخل الرجلان القاعة يتبعها الخدم ودخل خلف الجميع الغريب الذي ارشدهم الى منزل سادرك ٠ وكان على كتفي هذا جبة سوداء مصنوعة من قماش خشن قاسٍ وعلى راسه قبعة مقسمة الختار تستر عينيه وبيده عكاز يحيط باسفله دائرة من الحديد وفي اعلاه غصن من النخيل تذكار الحجة الى بيت المقدس وعلامة قرب العهد بتلك البلاد

ولما لم يجد هذا الغريب مكاناً فارغاً على المائدة (لان خدم سادرك وخدم ضيفيه شغلوا المقاعد جميعها) قصد المستوقد وجلس بجانبه وتظاهر بتجفيف اثوابه المبللة واقام

ينتظر انتهاء احد الآكلين ليجلس مكانه او حنان مقدّم الخدم ليقدم له ما يسد به جوعه

اما الضيفان فلم يظهرا في الباب حتى نهض سادرك مشرق الجبين شان الكريم ترحيباً بضيوفه وانحدر من المسطبة وخطا ثلاث خطوات نحو القادمين واقام ينتظرهم وهو يقول :

يسوءُني والله ايها الاب المحترم ان اقف عند هذا الحد من الترحيب بك وبهذا الشجاع بين فرسان الهيكل المقدس وذلك حرصاً من الحنث على يمين اقسمتها · والان وقد عرفتَ سبب ما ربما يظهر لاول وهلة فظاظة لا اخالك الا عاذري في هذا وفي استعمالي لغة اجدادي في مخاطبتك راجياً ان تحادثني بها ما لم تكن تجهلها

فقال الرئيس : اليمين حبل تشدّ به المحرقة الى قرون المذبح فيجب ان لا يدنسها حنث ولا يجوز التملص منها الا بسماح من الكنيسة المقدسة · واما لغتك فانني احسنها واعتبرها لانها لغة جدتي التي ماتت في احد الاديرة · رفق الله بنفسها !

« لغتي الافرنسية » قال الهيكلي والخيلاء متجسمة بين كتفيه · لغتي الافرنسية وهي لغة الملك ريكارد ولغة اشرافه ولكنني اعرف من الانكليزية ما يساعدني على التفاهم مع اهل البلاد

فرمى سادرك الهيكلي بنظرةٍ احدَّ من السهم لما شاهده من خيلائه وهمَّ بالكلام ولكنه تذكر ان الرجل ضيفه فاقتصر على الاشارة الى كرسيين اقل ارتفاعاً من كرسيه وامر الخدم باحضار العشاء

فخرجت الخدم واذا بكارث وومبا في باب القاعة · فرآهما سادرك وامرهما بالاقتراب منه ففعلا · فقال :

ما هو سبب تأخركما ايها العبدان · وهل ارجعت ما عهد به اليك ياكارث سليماً ؟

— ارجعته يامولاي

— كان يجب ان تكون في هذا المكان قبل الان بساعتين وان تريحني من اساءة الظن بجيراني وكيد المكايد لهم لذنب لم يقترفوه . والله ان عدت الى مثل عملك هذا لا يكوننّ جزاؤك غير القيد والحبس

فلم يجب كارث علماً منه بحدة سيده . اما ومبا فبالدالة التي كانت لامثاله فقد تقدم من سيده وقال :

حقاً انك خالٍ في هذا المساء من كل تعقل وحكمة يا عمي سادرك

— وكيف ذلك ايها الاحمق ؟

— قل لي بما منحته من الحكمة هل يؤخذ رجل بذنب رجل آخر ؟

— كلاً ايها الاحمق

— فلماذا اذاً تأخذ كارث بذنب كلبه ؟ لم يكن تأخرنا على الطريق بل في جمع الخنازير لان الكلب لم يحسن جمعها

— فليشنق الكلب

— ولكن الذنب ليس ذنب الكلب بل ذنب حارس احراج ملفوازين الذي قطع مخلبين من مخالبه

— ليذهب ابليس بروح ملفوازين وحارس احراجه ! فوالله ان عاد الى عمله هذا قطعت اصابع يمينه وحرمته ان يشدّ وتراً ويوتر قوساً فيما بقي له من الحياة ... عذراً ايها السادة على ما بدا مني من الحدّة لجيراني اصعب مراساً ممن حاربت في الارض المقدسة يا سيدي الفارس . عفواً ! وهلموا الى هذه المائدة الحقيرة

لكن رغماً عما ادعاه سادرك من حقارة مائدته كانت مثقلة بالوان عديدة من لحوم الخنازير والطير والغزلان والارانب والماعز

فاقبل الضيوف على الطعام واذا بمقدّم الخدم قد رفع صوته وقال :
« مكانكم ايها السادة ! اعدُّوا مجلساً للسيدة روانا »
ولم يأتِ على آخر كلمة حتى فتح باب في طرف القاعة وظهرت فيه السيدة المذكورة يتبعها اربع من خادماتها

فدهش سادرك لعمل روانا وتكدر لعدم رضائه عن جلوسها لقوم غرباء يعرف عنهم ما يعرفه ولكنه نهض عن كرسيه واسرع الى روانا وقادها الى الكرسي المنصوب عن يمينه والمخصص بربة المنزل . ونهض لنهوضه الجميع وحيوا السيدة روانا فاجابتهم باحناء راسها احناء لطيفًا وجلست

ولم تكد تنال كرسيها حتى همس الهيكلي في اذن رفيقه قائلاً :
ضاع املي بقلادتك وحق لك عليّ الرهن فسارسل اليك بالخمر
فقال أبر هذا ما قلته لك ولكن خفف ما بك واخفِ ما اصابك فسادرك قد لاحظ اشارتك

فلم يعبأ الهيكلي بانذار رفيقه واخذ يحدّق بالفتاة بذهول لان جمالها كان قد اثر فيه اشدّ التأثير وعياها فعلتا بقلبه اضعاف ما فعله سحر العيون الشرقية

كانت روانا مجموعة تحوي من صفات بنات جنسها كل صفة كاملة — طويلة ممشوقة . لونها مشرب حمرة غريب في صفائه . راسها مستدير لا تشوبه شائبة في التركيب كثيرًا ما تكون سببًا لتشويه جمال الفاتنات . عيناها كانهما مصباحان علقا في قبة هيكل فخيم تبرقان حدَّة اذا غضبت . تذوبان رقة اذا تلطفت . تنفخان قوَّة اذا امرت . تنكسران تدللاً اذا تعطفت . شعر كانه حزمة من اشعة الشمس مرسل على كتفيها تبرق من خلال خصله حجارة كريمة فتزيده لمعانًا . ساعدت الصناعة في تجعيده فاتى فتنة . يحيط بذراعيها العاريتين عدد من الاسورة الذهبية وبعنقها سلسلة

من الذهب ايضاً يتدلى منها ذخيرة تلامس اعلى الصدر — ترتفع بارتفاعه اذا صوّبت نَفَسها وتنخفض بانخفاضه اذا صعّدته · وكان ثوبها من حرير بلون البحر فوقه رداء من حرير قرمزي يبلغ كماه منتصف الذراع ويتصل به عند المنكبين برقع من الحرير الابيض تتخلله خيوط ذهبية يستر الوجه والراس او يرسل على الظهر بحسب رغبة الفتاة

ولما رأت روانا عيني الهيكلي تحدقان بوجهها وهما متقدتان كأن فيهما ناراً ارخت برقعها بحركة يفهم منها ان عمله لم يلاقِ استحساناً

فلاحظ سادرك الحركة والتفت الى الهيكلي وقال :

يا سيدي ! لم تمس حرارة الشمس وجنات بناتنا بعد فهنَّ لا يقوينَ على احتمال حرارة نظرات احد جنود الصليب

— عفواً يا سيدي عن اساءة لم اتعمدها · · · والاحرى بي ان اطلب عفو السيدة اذا كان عملي يعدُّ اساءة · وهذا غاية ما تسمح لي نفسي بطلبه

فقطع الرئيس كلام رفيقه خوفاً من فلتات لسانه وقال : قد اقتصت السيدة روانا منا جميعاً لعملك ايها الرفيق · ولكنني آمل ان قساوتها لا تبلغ هذا الحد غداً في الميدان ·

لم نصمم على الذهاب بعد قال سادرك لانني لا ارغب في مشاهدة العاب لم يعتدها اجدادنا ايام كانت انكلترا حرّة

فقال الرئيس لا تحرمنا اصطحابك واسمح لي ان احبب اليك الذهاب وعلى الاخص لان برفقتنا سيدي الفارس الذي حمايته لا تنكر والطريق على ما تعهده كثير المخاوف

فاحمرَّ وجه سادرك تأثراً من ذلك التعريض وقال : ياسيدي الرئيس لا حرمت من سيفي حامياً يذب عن حقوقي وشرفي ومن اتباعي خداماً امناء على شخصي ومالي

اينما سافرت في هذه البلاد بحيث لا احتاج حماية من بشر . وذهابي فضلاً عن هذا سيكون في هذه السفرة برفقة جاري ومواطني الشريف اثلستين اف كننسبرغ بحاشية يهابها كل عدو ومعتدٍ . . . ولكن ما لنا ولهذا الان . هوذا انا اشرب هذه الكاس على محبتك ايها الرئيس المحترم شاكراً لك اهتمامك وراجياً ان تقابلني بالمثل اللهمّ الا اذا كنت تفضل لبن الدير الحامض على خمرنا هذه

فرفع الرئيس كاسه واجاب ضاحكاً انا لمثل هذه الكاس ايها الصديق فنحن لانلجأ الى اللبن الاّ في الدير واما في الخارج فنجاري الناس في شربهم واكلهم فساًشربها تاركاً اللبن لمن خلَّفته بين جدران الدير

فرفع الهيكلي كاسه بدوره وقال وانا اشرب هذه على سر السيدة روانا ! وانا والله لا الوم كاهناً معها كانت رتبته اذا غمر ملكه السموي بالخمر اذا كان عذره كعذرنا .

وكانت روانا مبرقعة كما ذكرنا فلما سمعت كلمات الهيكلي تأثرت لجسارته وقالت وكان صوتها ثابتاً وكلماتها تخرج من فمها الواحدة بعد الاخرى بهدوء وقوة :

ساتجاوز عن جسارتك ياسيدي الفارس شرطاً ان تكفّر عنها بذكر شيء من اخبار فلسطين فسماع مثل هذه الاخبار الذ في آذان كل انكليزي من تبجيلاتكم الافرنسية التي اعتدتموها وهي لا طائل تحتها

فقال : مجمل ما عندي ايتها الحسناء هو اننا قد عقدنا هدنة مع الملك صلاح الدين و . . . .

وكان ومبا قد جلس على كرسي يكلّل مسنده اذنا حمار على مسافة قريبة من سيده بحيث يتمكن من تناول قطع اللحم التي كان سادرك يقدمها من كلابه مرة ومن مهذاره اخرى . فلما سمع ومبا كلام الهيكلي قاطعه قائلاً

لقد اضنت تعدُّد هذه المُدَن جسدي وقرَّبتني من قبري

فقال سادرك وهو يستعد لاستماع النكتة · ولماذا ايها الاحمق ؟

— ذلك لانني سمعت بثلاث منها كانت الشروط في كل واحدة ان تدوم لخمسين سنة فعليه أكون الان في المئة والخمسين من عمري

فضحك سادرك وضحك غيره واما الميكلي فقال — حذار ان تموت متأثراً من مرض التعمير العضال · وكان قد عرف انه مرشده في الغاب · ثم استأنف قائلاً نعم ولا خوف عليك من موت مفاجىء اذا ثابرت على تقديم نصائح وارشاد كالتي قدمتها لرفيقي في الغاب

فصاح سادرك وهل بلغ منك ايها العبد ان تضل عابري السبيل ؟ والله ان الخبث الذي يحويه راسك اضعاف اضعاف الحمق الموجود هنالك · فيجب ان يزور السوط ظهرك ·

— مهلاً يا عمي سادرك مهلاً ! ولتشفع حماقتي بجنبي لديك هذه الدفعة فقط كان الغلط في استعمال احدى يديَّ بدلاً من الاخرى · ومن اتخذ احمق دليلاً له وجب ان يتجاوز اعظم من هذه الزلة · ألا تذكر قول المثل « من كان الديك دليله كان القن مأواه »

وقطع كلام ومبا دخول حارس الباب الذي ابلغ سيده وجود غريب في الباب يطلب المبيت

فتحوّل سادرك الى مقدّم خدمه وقال — ادخل الرجل كائناً من كان وقم بحقوق ضيافته فليل كهذا لا يُردّ فيه طارق — ليل يلجىء الحيوانات البرية الى مسالمة اخوتها الاليفة والخلود الى حمى الانسان عدوّها الالد · فكيف بالانسان ؟ ادخله على الرحب والسعة

فخرج

﴿ ٥ ﴾

وما عتم مقدم الخدم ان رجع واسرَّ الى سيده بان القادم يهودي يدعى اسحق اليوركي (نسبة الى مدينة يورك) وسأَل عما اذا كان يليق به ان يدعو اليهودي لدخول القاعة · فصاح ومبا وقد سمع ما دار بين السيد والخادم

دع كارث يقوم بهذه المهمة لان راعي الخنازير أَولى بقيادة اليهودي

فلما سمع الرئيس أَيمر كلمة « يهودي » صاح مرعوباً

أَيدخل يهودي كافر هذه القاعة ؟

ايقترب كلب يهودي ممن حارب في سبيل الصليب وذبَّ عن القبر المقدس ؟ صاح الهيكلي

فقال ومبا ونصيبي من السماء يظهر لي ان الهيكليين اكثر ميلاً الى ميراث اليهود منهم الى شخصهم

فصاح سادرك بدوره :

مهلاً ايها السادة لن يقف استحسانكم وعدمه او رضاكم ونفوركم في سبيل فتحي ابواب منزلي لغريب · ولن يمنعاني عن القيام بحقوق الضيافة لأيٍّ من البشر · ولست والله ارى سبباً يحملني على عدم احتمال وجود يهودي واحد تحت سقف بيتي وها السماء قد احتملتهم اجيالاً عديدة · هذا ولست أكلف احداً مكالمة الرجل او مجالسته او مقاسمته الطعام فسيقدم له طعام على حدة اللهمَّ الاَّ ان يرضى اصحاب العمائم من خدمك يا سيدي الفارس عن اجلاسه بينهم

خدمي يا سيدي من خيرة المسلمين ومن اشدهم تمسكاً بعقائد دينهم وكرههم لليهود يُعادل كرهنا ان لم اقل اشد

واذ ذاك دخل اليهودي واقترب من الجماعة وهو يكاد يمس الارض بلحيته عند

الانحناء زيادة في اظهار المسكنة والخضوع

كان اليهودي طويل القامة رقيقها تخاله جلداً على عظام قد انحنى منكباه لكثرة انحنائه للسلام · اما وجهه فكان معرضاً لظواهر الذكاء والحذق · طويل الانف وهي احدى مميزات اليهود اسود العينين حديد البصر عالي الجبهة كثير الغضون فيها طويل شعر الراس واللحية بلون كستنائي لا تخلو طلعته من الهيبة · غير ان هذه الملامح خفيت عن اعين الجماعة لكراهتهم اليهود وكل ما يتعلق بهم وعدم احتمال النظر اليهم فكيف بهم اذا وقفوا يدرسون ملامحهم

ويليق بنا ان نذكر الان ان الطبقة السفلى من اهل ذلك الزمن كانت تبغض اليهود نظراً لما تأصل في عقولهم بواسطة العقائد الدينية وتعاليم الكهنة والطبقة الرفيعة كانت تبغضهم حسداً وتطمع في مالهم

كان يختلف لباس اسحق عن لباس غيره من اوجه عديدة اهمها قبعته المربعة الشكل ولونها الاصفر تلك القبعة التي قضي على ابناء ملته بلبسها تمييزاً لهم عن المسيحيين · ومنطقته يتدلى منها موسى ومحفظة تحوي ادوات الكتابة

دخل اليهودي القاعة فلم يحفل به احد حتى سادرك نفسه اكتفى باحناء راسه ببرودة جواباً على تحيات اليهودي المتعددة ثم اشار اليه بالجلوس في طرف المائدة بين الخدم · فقصد اليهودي المحل المذكور واخذ يتنقل من مكان الى آخر في طلب مجلس فلم يجد لان الخدم السكسونيين اخذوا ينظرون اليه شزراً وكذلك فعل خدم الرئيس أيمر اما المشارقة فاخذ كل في فتل شاربيه والقى يده على خنجره

فوقف المسكين وقفة ابناء جنسه ازاء العالم محتقراً مهاناً · وعبثاً القى نظرات التوسل والاستعطاف · فلما رأى الراهب الغريب ما كان نهض من مقعده بجانب الموقد وقال لليهودي

تعال ايها الرجل واجلس مكاني فقد جفت اثوابي وامتلأ بطني وانت في حاجة الى الامرين

قال هذا واخذ في جمع الوقود من اطراف الموقد وطرحه في اللهيب ثم ذهب الى المائدة واحضر صحفة مملوءة لحماً وغيره ووضعه امام اليهودي ثم اقترب من المسطبة والجالسين عليها فسمع سادرك يسرد للرئيس نوادر عن كلابه و يصف اجسامها وكانت روانا تحدث احدى جواريها والميكلي يتفرّس في وجهها المبرقع وقد ضاع رشده بين الفم والعينين

فسمع الراهب الرئيس يقول لسادرك :

اعجب منك ياسيدي لعدم استعمالك اللغة الافرنسية وهي لغة الصيد والاسماء فيها مستوفية البناء والمعنى

فقال : لي من لغتي ما يغنيني عن هذه الالفاظ الدخيلة فانني انفخ في بوق الصيد بطريقة سكسونية فافهم الكلاب غرضي واتمكن من نحر الوعل بدون ان الجأ الى التعابير الغريبة

فقال الميكلي وهو يتيه كبراً وتتجسم العجرفة في صوته وكلماته

ليست الافرنسية لغة الصيد فقط بل هي لغة الحرب والحب ايضاً . وفيها من القوة في التعبير ما يساعد الواصف على وصف مواقف الاهوال بطريقة يقفُّ لها الشعر وتحمل على التحمس . وفيها من الرقة ما يجعلها تسيل لطفاً فتخلب ألباب السيدات في مواطن الغزَل

فقال سادرك : املأ كأسك ياسيدي الفارس—وانت ايضاً ياحضرة الرئيس— واسمعا اقصُّ عليكما قصة تختلف عن هذه وقعت عندما كان سن سادرك اقل منها الان بثلاثين سنة . اسأل سادرك يقلْ لك انه كان في ذلك الزمن يقوى على استمالة

السيدات بواسطة لغته البسيطة الخالية من زخارف الافرنسية· واسأَل معركة الراية المقدسة تنبئك عما اذا كانت صيحات الحرب السكسونية مسموعة في قلب الجيش الاسكتلندي بطريقة مدهشة ويتحمس لها كل ذي دم ام لا· اشربوا معي ياضيوفي على سرّ الابطال الذين حاربوا في تلك المعركة ! املأُوا كؤُوسكم واشربوا ! · قال هذا وكرع في كاسه الى ان ظهر قعرها· وكان التحمس قد بلغ منه مبلغاً عظيماً فصاح : اي والله : كان ذلك اليوم يوماً عصيباً· كان ذلك اليوم يوم تحطيم التروس· خفقت فيه مئة راية فوق هامات اولئك الشجعان وجرى الدم حولهم كالماء المراق يوماً عُدَّ فيه الموت فخراً والهزيمة عاراً· يوماً دعاه احد شعراء السكسون وليمة للسيوف وكان النسر اول المدعوين اليها· ولكن آه ! اثر شعرائنا قد خفي واعمالنا قد اغار عليها الغير وانتحلها لنفسه ولغتنا — نعم واسمنا ايضاً — لم يعد شيئاً مذكوراً وقد قارب الزوال ولا يوجد من يندب هذا السقوط ويبكي ذلك الزوال سوى رجل فريد وحيد قد اكل الدهر على ظهره وشرب· املأْ ايها الساقي الكؤُوس · واشرب ايها الفارس على ذكر الشجاع الباسل — بقطع النظر عن جنسه ولغته — الذي امتاز على الاقران وبرهن على انه البطل الحلاحل بين اولئك الذين يفتتحون لانفسهم طريقاً الى القبر المقدس بحد السيف · اذكر اسماءهم واشرب على ذكرهم

لا يليق ياسيدي بناقل هذا الشعار المقدس ان يأْتي على اسمائهم قال الهيكلي واشار الى الصليب المرسوم على كتفه· غير انني لم ارَ بين الذين اقسموا على حماية ذلك القبر من هو حقيق بحمل قصب السبق

فصاح الرئيس : اشربوا على عهد فرسان مار يوحنا المرضين فلي اخ بينهم

لا انكر فضل هؤلاء قال الهيكلي « ولكن · · · » فقطع ومبا كلامه قائلاً لو كان الملك ريكارد قلب الاسد حكيماً وقبل نصيحة احمق مثلي لبقي في انكلترا

بين رجاله الانكليز وترك امر استرجاع القبر الى الذين كانت لهم اليد الطولى في خسارته

فقالت روانا ألا يوجد في الجيش الانكليزي رجل يذكر اسمه اذا ذكرت اسماء فرسان الهيكل وفرسان مار يوحنا

فاجاب الهيكلي : عفواً يا سيدتي ! لا انكر ان الملك ريكارد اصطحب معه الى فلسطين جيشاً من الشجعان ولكن هولاء يعدُّون من الدرجة الثانية بالنسبة الى اولئك الذين جعلوا من صدورهم متاريس لحماية تلك الارض المقدسة

ولم يكد يتلفظ الهيكلي بالكلمة الاخيرة حتى صاح الراهب الغريب بصوت جهوري وقال « هم ليسوا من الدرجة الثانية من البشر » وكان يسمع الحديث ودلائل الضجر بادية على وجهه وكأنه لم يتمالك نفسه ففاه بما تقدم ثم عقَّب قائلاً · قلتُ ان محاربة الانكليز لم يتقدمهم احد ولم يفضلهم بشر في الذب عن حمى القبر المقدس واقول ايضاً انه بعد ما اخذ قلب الاسد عكاء توسط الميدان مع خمسة من فرسانه طالباً براز من شاء المبارزة · وازيد على ذلك ان قلب الاسد وكلاً من فرسانه الخمسة كرَّ ثلاثاً على الخصوم المتقدمين وطرح كلٌّ في كل كرّة واحداً من اولئك الخصوم وازيد على ما قلت ان سبعة من المغلوبين كانوا من فرسان الهيكل والفارس براين يعرف صدق كلامي

يعجز القلم عن وصف الهيئة التي اتخذها وجه الهيكلي لدى سماعه هذا الكلام · لانه تغير تغيراً عظيماً وارتجفت اعضاؤه والقى بكفه على مقبض سيفه ولولا خوفه من عاقبة عمله في ذلك المجلس لهوى به على الراهب

اما سادرك فلما كان حرًّا يحب الحق وباسلاً يعجبه الشجعان برقت عيناه تحمساً ولم يحفل بما بدا من ضيفه وتحوَّل بكليته الى الراهب وصاح

هل تذكر اسماء اولئك الشجعان الذين رفعوا قدر انكلترا وعزَّزوا اسمها

— اذكرها ومن غيري أولى بالذكرى والرواية ؟

— اذكر اسماءهم ولك هذا السوار الذهبي

— سوف اذكرهم لا طمعاً في ذهبك فقد اقسمت الاّ امس ذهباً لزمن محدود

فصاح وميا « خذه وانا البسه »

فقال الراهب · اولهم وهو الاول في الشرف والنبل · والاول في ساحة النزال · والاول في الشهرة والمقام ريكارد قلب الاسد

فقال سادرك صفحت عن انتسابه الى الدوق وليم فانعم به من بطل

— وثانيهم ارل ليستر · وثالثهم السر مدلتون اف كلسلاند

— سكسوني الدم وربي

— والرابع السر دوالي

— امه سكسونية فما ظلم

وكانت حمية سادرك قد بلغت درجة قصوى وانفتح منخراه وبرقت عيناه

— والخامس السر تدنهام

— سكسوني عريق في الانتساب · فمن هو السادس ؟

فسكت الراهب هنيهة شأن من يبحث في ذاكرته عن امر نسيه ثم قال

السادس شاب حديث العهد بحمل السلاح لم يكن وجوده بين اولئك الفرسان عن اهلية او استحقاق ولست اتذكر اسمه

فصاح الهيكلي مغضباً · تناسيك هذا او تجاهلك ليس من الصواب في شيء · فلا يصدّق انك تنسى اسم هذا وتذكر اسماء اولئك · كان ذلك الفارس الذي القاني الى الارض بفضل كبوة كباها جوادي · الفارس أيفنهو الذي احرز شهرة واظهر اهلية وشجاعة لم يظهرها غيره قط باعتبار حداثته · ولكن اسمعوا ما اقوله واشهدوا به فاني

سأتكلم بصوت يسمعه الداني والقاصي — اذا كان الفارس ايفنهو في انكلترا ورغب في اعادة ما اعلنه امام اسوار عكا من طلب المبارزة مرة اخرى فانا القاه كما انا الان وله ان يشتمل ما شاء ويتدرّع بما شاء

لو كان ايفنهو سامعاً كلامك لما احوجك الى اعادته غير انه اذا رجع ايفنهو من فلسطين فانا اضمن لك اجابة دعوتك هذه

انعم بك من كفيل ما هي ضمانتك ؟

— « هذه الذخيرة » قال الراهب واخرج من جيبه حقة من العاج تحوي قطعة من الصليب الحقيقي كان قد اخذها من دير جبل الكرمل

فرسم الرئيس اثر الصليب وردّد صلاة اشترك فيها الحضور عدا اليهودي والخدم المسلمين والهيكلي الذي بدلاً من ان يرفع قلنسوته و يخشع انتزع قلادة ذهبية وطرحها على المائدة امام الرئيس وقال : لتكن هذه لدى الرئيس قبالة ذخيرتك . فاذا دخل ايفنهو انكلترا وامتنع عن مبارزتي نوّهت بجبنه في اقطار العالم ونقشت اسمه مقروناً اليه كلمة نذل على جدران كل هيكل في اوربا

فقالت روانا : لا ارى مسوّغاً لكلامك هذا ياسيدي الفارس فانا ارفع صوتي اذ انني لا اسمع صوتاً آخر واقول ان الفارس ايفنهو لم يتأخر ولن يتثاقل عن منازلة اي من الفرسان وان لم تكفِ ضمانة الاخ الراهب فانا اضيف اليها اسمي وشرفي واقول ان ايفنهو سوف يهب هذا الفارس المعتد بنفسه ما طلبه

فقال سادرك يا سيدتي لو لم تكن قد تمت شروط الضمان على ما تقتضيه عادات النورمانديين لما تأخرت عن ضمانة ايفنهو بشرفي رغماً عما نالني بسببه كوالد

فقال الرئيس اكتملت الشروط وساحتفظ بهذه الذخيرة المقدسة وهذه القلادة الثمينة في خزانة الدير الى ان يقضي الله بما يشاء

قال هذا وناول الذخيرة احد اتباعه من الرهبان والتى بالقلادة في جيبه ثم قال :
والان يا سيدي سادرك مر لنا بالكاس الاخيرة وبمن يقودنا الى مضاجعنا لانني اسمع في اذني دوياً ربما كان سببه فعل الخمرة في دماغي

ولم يكن الرئيس قد اكتفى من الشراب ولكنه خشي بوادر حدّة السكسوني وعدم تأدب رفيقه وعليه ملأ القوم كؤوسهم وافرغوها للمرة الاخيرة ونهضوا وانحنوا لسادرك وروانا وقصدوا الباب

وعند خروجهم اقترب الهيكلي من اليهودي وقال : هل في عزمك الذهاب الى الميدان في الغد ايها الكلب الكافر ؟

— نعم يا سيدي

— الغرض من ذهابك الى ذلك المكان امتصاص عروق نبلائنا بربا ما يستدينونه منك من المال . ونهب جيوب نسائنا واولادنا بما تبيعه منهم من الترهات . ترى ألا يوجد في حقيبتك آلاف من الذهب ؟

— لا يوجد فيها مثقال واحد حتى ولا درهم يا سيدي قال اليهودي وقد اصطكت ركبتاه جزعاً « والغرض من ذهابي طلب المساعدة من ابناء ملتي لاقوم بدفع ما فرضته عليَّ الدولة من الجزية كيهودي واله ابرهيم شاهد على ما اقول — لا املك بارة واحدة يا مولاي واثوابي هذه ليست ملكي بل ملك صديقي راؤبين

فتبسم الهيكلي تبسم الاحتقار والريبة وقال : تبًّا لك من منافق كاذب

ثم تحوَّل الى خدمه الشرقيين وانهى اليهم بعض الاوامر بلسان لم يفهمه الحضور وخرج بصحبة الرئيس يتقدمها مقدّم الخدم وامام كل منهما خادمان يسيران بالمشاعل ويتبعها عدد من الخدم بالمرطبات

اما اليهودي فكانما صاعقة انقضت بين يديه — فوقف مذهولاً كمن اصيب



بفقد عقله

٦

بعد خروج الجماعة من القاعة بوقت قصير تقدم الساقي من الراهب الغريب وقال كيف انت وكأساً من الخمرة ؟ اذا كان لك في شربها مأرب فاتبعني الى المطبخ تجد هنالك عدداً من الخدم يودون سماع اخبار الاراضي المقدسة وعلى الاخص اخبار ابن سيدهم الفارس ايفنهو

وكان ومبا يسمع ما يقال فقال : تعال ايها الراهب واشرب فاني اقول لك الحق ان كأساً من الخمر بعد منتصف الليل تسوى عشراً في اوله

فأبى الراهب الدعوة معتذراً بانه قد اقسم الا يأتي على ذكر اخبار الارض المقدسة في مكان حقير كالمطبخ لان عمله هذا يعد تجديفاً

فاستاء الساقي لهذا الصد واشار الى احد حملة المشاعل ان يقود الراهب الى الحجرة المحاذية لحجرة اسحق اليهودي بدلاً من تلك التي كانوا قد اعدُّوها له

فلم يتأثر الراهب لهذا الكلام وخرج في اثر حامل المشعل الى ان اوصله هذا الى قاعة كثيرة الابواب تتصل بأروقة المنزل العديدة ينيرها مصباح حديدي يتدلى من السقف . ولم يكد يدخل هذه القاعة حتى اعترضته خادمة السيدة روانا وذكرت له ان سيدتها في حاجة اليه . ثم تناولت المشعل من يد الخادم وامرته بان ينتظر هنالك ريثما ترجع وسارت امام الراهب فتبعها دون ان يستغرب عملها

وبعد ما سارت به في رواق قصير صعدت سلماً خشبية وادخلته غرفة سيدتها

كان رياش هذه الغرفة وزينتها البسيطة يعادل بما يوجده من الهيبة الاحترام الذي ابداه رب المنزل لدى مقابلته روانا عند ما دخلت القاعة في اول الليل — كانت جدران الغرفة مستورة بستائر من قماش مزركش بالخيوط الحريرية يتخللها شيء من

خيوط الذهب والفضة · فيها سرير تستره كلة على نحو ما ذكرناه عن الستائر من الزركشة وعدد من المقاعد بينها كرسي رفيع امامه مسند للقدمين مصنوع من العاج المنزّل ومنقوش نقشاً غريباً · ينير الغرفة شموع مركوزة في اربع منائر فضية ولكن رغماً عما حوته تلك الغرفة من الرياش الفاخر كان ينقصها جانب عظيم من اسباب الراحة والرفاه غير ان ذلك النقص لم يكن ليؤثر باهل ذلك العصر لجهلهم اياه وعدم اعتيادهم له · فالجدران مع انها مستورة بتلك الستائر الغالية كانت الريح تدخل من ثقوبها وتتلاعب بلهيب الشموع

دخل الراهب تلك الغرفة فوجد روانا في الكرسي المرتفع المذكور انفاً يحيط بها خادماتها يحللنَ شعورها استعداداً للنوم ولجمالها هيبة لا توجد في الجمال الصيني او الحيواني كانما ارسلت الى هذه الارض لتأمر فتطاع ولتكون لها سلطة لا تُنازَع · وكأن الراهب شعر بذلك الحق فانحنى الى الارض مسلماً

فرفعت روانا صوتاً له نبرات كانها نغمات عود وقالت :

« انهض ايها الاخ الصالح فالرجل الذي يحامي عن شرف الغائب هو حقيق باحترام واكرام كل من كان حب الحقيقة دأبه واكرام المروءة والشجاعة شأنه · ليذهب الجميع عدا الكيثه فانني اريد مخاطبة هذا الحاج »

فتراجعت الخادمات الى طرف الغرفة وجلسنَ كالتماثيل اما روانا فبعد صمت قصير المدة قالت :

« ذكرت ايها الحاج هذا المساء في القاعة اسم · · · · » وتوقفت كأنها تستصعب ذكر ذلك الاسم لشدة ما ينالها من التأثر اذا مرَّ بشفتيها · ثم تغلبت على شواعرها وقالت :

ذكرت اسم ايفنهو في مكان كان الأَولى بقلوب اهله ان تضرب بشدة لدى ذكره

سروراً وافتخاراً ولكن ابى القدر الاَّ ان اكون انا الشخص الوحيد الذي يروم استطلاع اخبار ذلك الرجل · فهل تعرف من امره شيئاً ؟ كان آخر عهدنا به انه باقٍ في فلسطين بعد رجوع الجيش الانكليزي لاسباب صحية يتحمل اضطهاد الجيش الافرنسي والميكليين المشايعين له

لا اعرف من امر الفارس ايفنهو زيادة عما ذكرته سوى النزر اليسير وهو انه تخلص من اضطهاد الافرنسيس وهو على وشك الرجوع الى انكلترا حيث تكونين انت اعلم البشر بنصيبه من السعادة

وكان صوت الراهب متهدجاً

فتنهدت روانا جزعاً وسألت الراهب عما اذا كان رجوع ايفنهو يكون في القريب العاجل وعما اذا كان هنالك خطر يتهدده في الطريق · فاعرب الراهب عن جهله الامر الاول ثم قال : الفارس ايفنهو خبير بلغة الافرنسيس وعوائدهم ويسهل عليه التخفي في بلادهم فاذا رجع بطريق البندقية وجنوى ثم قطع فرنسا الى انكلترا لن يلحقه اذى في مذهبي

« ليته كان هنا سليماً معافىً » ثم قالت روانا بعد سكوت قصير المدة « وهل يقدر على حمل عدّته وخوض غبار الميدان الذي سوف ينصب في الغد حيث يظهر كل مشتمل سيفاً بأسه وبطشه وكل معتقل رمحاً شجاعته ودربته — اذا امتاز اثالستين اف كننسبرغ على الاقران وقهر منازليه سوف لا يسمع ايفنهو عند رجوعه ما يسره · اخبرني ايها الاخ الصالح···· هل ثقلت وطأة المرض عليه وهل كانت ضربته مؤلمة كيف كانت حاله عند ما فارقته ؟ »

فقال : زادت شمس الشرق في سمرة وجهه وكان جسمه اشد هزالاً منه عند تركه قبرس في حاشية قلب الاسد وكانت جبهته معرضاً للهموم والاكدار وعدا هذه

الامور لا اعرف عنه شيئاً لانني لم اكن من المقرَّبين اليه

« اوّاه ! سوف لا يجد لدى رجوعه الى وطنه ما يزحزح تلك الغيمة السوداء عن جبينه ويبسط اسرَّته » وسكتت هنيهة ثم قالت : شكراً لك ايها الغريب على ما اعلمتنيه من امر رفيق صباي · اقتربنَ ايتها الخادمات وقدمنَ لهذا الرجل الصالح كأساً من الخمر فقد طال زمن تأخيرنا له عن فراشه

فقدمت احدى الخادمات كاساً من الفضة مملوءة خمراً ممزوجاً ببعض الطيوب الى روانا فلمستها هذه بشفتيها ثم ناولتها الخادمة الى الراهب فانحنى وابتلع منها شيئاً وارجعتها · فمدت روانا يدها وقالت :

تكرَّم بقبول هذه الهدية الزهيدة ايها الصالح مقابل ما لحقك من التعب في خدمتي واكراماً للهياكل والاماكن المقدسة التي زرتها

وكادت تشرق بدمعها

فانحنى الراهب مرة اخرى وتناول قطعة الذهب وخرج من الغرفة متقفياً خطوات الخادمة الى ان بلغ القاعة التي تركا الخادم فيها · وعند ظهورها نهض الخادم وتناول المشعل من يد الخادمة وتقدم الراهب في رواق طويل الى ان انتهى به الى ناحية كثيرة الغرف او بالاحرى المخادع يرقد فيها خدم المنزل والطبقة الحقيرة من الضيوف وعند بلوغهما ذلك المكان قال الراهب

في اي المخادع ينام اسحق اليهودي ؟

— زريبة الكلب الكافر بجوار قداستك · والله وحده يعلم مقدار التنظيف الذي سوف تناله هذه الغرفة قبلما تصبح صالحة لمبيت رجل مسيحي

— وفي ايها ينام كارث راعي الخنازير ؟

— في تلك الواقعة الى يمين غرفتك كما ان اليهودي في التي الى اليسار فقداستك

فاصل يفصل الكافر المغبون عمن ينجسه

فتناول الراهب المشعل من يد الخادم وحياه ودخل الحجرة واوصد بابها واركز المشعل في شمعدان من الخشب واجال عينيه في زوايا الغرفة فوجد كرسياً قديم العهد وسريراً يعلوه قش يابس بدلاً من الفراش وجلدين او ثلاثة من جلود الغنم تقوم مقام اللحاف . فاطفأ المشعل واستلقى باثوابه على الفراش المذكور

وظل الراهب مستلقياً على فراشه بين نائم ويقظان الى ان دخلت اشعة شمس الصباح من نافذة حجرته الصغيرة . فنهض واصلح من شأن اثوابه وردَّد صلاة قصيرة وخرج ثم دخل حجرة اليهودي بكل هدوء فوجده على سرير كسريره وقد التحف الاثواب التي خلعها عنه كأنه يحاذر عليها من السرقة ابان غفلته ووجهه مضطرب ويداه تشيران باشارات عنيفة كانه في خصام ويخرج من فمه الحين بعد الآخر كلمات متقطعة باللغة العبرانية يتخللها بعض العبارات بالانكليزية مثل قوله : « كفوا واعفوا عن شيخ عاجز ضعيف اكراماً لاله ابرهيم . انا فقير معوز لا املك درهماً فلو فصلتم اعضائي بمضها عن بعض ومزقتم احشائي تمزيقاً لما نلتم مني شيئاً . . . . »

فلم يمهل الراهب اسحق ريثما اتى على آخر حلمه المريع بل نبهه بطرف عكازه فنهض مذعوراً والعرق البارد يتصبب من جبينه وضم اثوابه الى صدره وقفَّ شعر رأسه رعباً وجحظت عيناه

فتاثر الراهب مما رأى وبادر اليهودي بقوله :

« لا تخشَ بأساً يا اسحق فلست اريد بك شرًّا وقد اتيتك بصفة صديق » .

« جزاك الله ابرهيم عني خيراً » قال اليهودي وقد سرّي عنه بعض ما اصابه « حلمت . . . . ولكن يتمجد اسم ابينا ابرهيم فقد كان ذلك في حلم . . . ماذا تروم مني وما هو غرضك من هذا البكور ؟

« اتيت لاخبرك انك في خطر عظيم وانك اذا لم تسرع بالهرب وقعت شرّ وقعة »

« يا الهي ! » صاح اليهودي وقد عاد اليه خوفه · « من من البشر له بالاضرار بي مصلحة ونفع ؟ »

— « انت ادرى بالنفع الذي ينالونه منك فاعلم ان الهيكلي عند خروجه من القاعة ليلة امس امر خدمه المشارقة بلغة افهمها جيداً ان يكمنوا لك على مسافة من هذا المكان وياسروك ويذهبوا بك الى معقل ملفواز ين او فرنت — دي — بوف »

وهنا يعجز القلم عن وصف الجزع الذي لحق باليهودي عند سماعه هـذا الكلام ولكن غاية ما يمكننا قوله هو ان يديه ارتختا وانحنى رأسه على صدره وتخاذلت ركبتاه تحت ثقل جسمه وسقط الى الارض ليس كما يسقط من يروم تحريك الشفقة او طالب الرحمة بل سقط سقوط من لم يعد له قدرة على رفع ثقل يضغط على اعضائه من جميع الجهات · وبعد هنيهة صاح بصوت يفتت الاكباد قائلاً :

« الهيّ يا اله ابرهيم الحي ! الهيّ ايها الكليم المقدس ! الهيّ يا هرون المبارك ! اواه ! لم يكن ما رأيته اضغاث احلام · اواه ! هانذا اشعر بالحديد يمزق احشائي والضربات والعذابات تنتابني كما انتابت المصريين وابناء عمون من قبل »

فقال الراهب « انهض يا اسحق واصغِ لما سوف اقوله لك · يحق لك ان تجزع وتسقط تحت هذا المصاب نظراً لما يقاسيه اخوانك من الامراء والاشراف توصلاً الى ذهبهم الكثير وطمعاً في خزائنهم · انهض فساريك باباً للنجاة واخرج بك من هذا البيت قبلما يستيقظ الخدم الذين انهكهم سهر المساء البارح وسكره وساقودك في مسالك الغابة المهجورة الى ان اضعك تحت حماية احد الاشراف الذاهبين الى الميدان ممن نقوى على ارضائهم »

فلما سمع اليهودي بخبر النجاة اخذت قواه بالرجوع اليه شيئاً فشيئاً واخذ في رفع

نفسه الى ان اصبح على ركبتيه وصاح :

« اكراماً للاله الذي خلق اليهودي والوثني — الذي خلق اسرائيل و اسماعيل لا تخني لانني لا اقوى على ارضاء افقر مسيحي ولو كانت مطالبه لا تزيد عن درهم واحد

ثم انكب على قدمي الراهب وتمسك باطراف جبته فانتزعها هذا منه كانه يخاف العدوى من مرض خبيث وقال :

ليس لي بك من مأرب ايها الرجل ولو كنت تحمل ثروة ابناء جنسك لان اثوابي هذه ونذوري تابى عليَّ التمتع بنعيم الدنيا وزخارف هذه الحياة فابقَ ان شئت في هذا البيت فلعل صاحبه يحميك

— لا الا ! ان سادرك لا يقبلني في حاشيته خوفاً من العار الذي يلحق به من رفقة اليهودي ·

هيا بنا ! لنسرع ! لنمنطق احقاءنا ! لنخرج من بينهم ! هوذا عكازك — لِمَ هذا التأخر ؟؟

— يجب ان اجد طريقة للخروج من هذا البيت فهلمَّ

وخرج الراهب يتبعه اليهودي الى حجرة كارث الراعي وفتح بابها وصاح بكارث بان انهض وافتح المدخل العمومي

فغضب كارث من الامارة التي اظهرها الراهب في كلامه ورفع رأسه عن قطعة من الخشب كانت له بمثابة الوسادة وقال:

ايخرج اليهودي من هذا البيت وبصحبته راهب ؟ لا والله لانه يجب على اليهودي وغيره انتظار فتح الابواب

— ولكن يجب ان تخرج قال الراهب بصوت السيد الآمر وانحنى على اذن كارث واسرَّ اليه بعض الكلام بالسكسونية فوثب كارث من فراشه كمن قد اصيب

بدماغه وهمّ بالكلام فرفع الراهب اصبعه الى شفتيه اشارة الى وجوب السكوت وقال:
كن رصيناً يا كارث فسوف تعرف اكثر من هذا

نخفض كارث رأسه وقاد الرجلين الى المدخل ولما بلغوه صاح اليهودي « بغلي ! بغلي » !

— احضر البغل يا كارث واحضر لي بغلاً لاركبه وارافق هذا الرجل فسارجعه الى احد خدم سادرك في اشبي في غضون الميدان واما انت · · · · واقترب من كارث وهمس في اذنه تتمة العبارة

وما عتم كارث ان رجع بالبغلين · فاسرع اليهودي الى بغله وانتشل من تحت جبته كيساً من الجلد وشدّه الى السرج وهو يقول شيء من الثياب · بعض الثياب وامتطى البغل بسرعة وقوة غريبة في شخص مرَّ به ما مرَّ من السنين · واما الراهب فاعتلى ركوبته بتمهل ومدَّ يده لكارث فقبلها وسار الراكبان

ووقف كارث يتبعها النظر الى ان سترتها عن عينيه اشجار الغاب

واما نحن فلنسر في اثر الراكبين

سار الرجلان بسرعة لان الخوف كان قد اوجد في شخص اليهودي قوّة وهمة رغماً عن شيخوخته وكان يلتي الحين بعد الاخر نظراً قلقــاً تبدو منه امارات الخوف والخشية والحذر من رفيقه · والحق يقــال ان اليهودي لم يكن ملوماً بفعله هذا لانه لم يكن يوجد على وجه الارض او في الهواء او في الماء ما كان يعادل اضطهاد الناس له شدّة اضطهادهم لليهودي في ذلك العصر · فكان انكلترا على اختلاف اجناسهم وتباين اغراضهم ورغماً عن الخصام والنفور الذي كان بينهم كانوا متفقين جميعاً على اضطهاد ذلك الشعب المحتقر معتقدين ان ديانتهم تأمرهم بكره وامتهــان ونهب اليهود · وقد اشتهر في التاريخ ما فعله الملك يوحنا باحد اليهود اذ سجنه ـفي احدى قلاعه واخذ

يقلع سناً من اسنانه في كل صباح الى ان اتى على نصفها فادرك اليهودي اذ ذاك ان لا خلاص له من يد ذلك العاتي الا بدفع ما كان قد طلب منه دفعه ففعل صاغراً وبذلك نجا

كان اليهود في ذلك العهد يملكون ما كان موجوداً من النقود في انكلترا . فللحصول على هذه النقود لقضاء الحاجيات تمثل النبلاء بملوكهم واخذوا يذيقون اليهود العذاب الواناً ويبتزون اموالهم بكل واسطة . ورغماً عن هذا كله كانت ثروة اليهود تزداد كل سنة عما قبلها والسبب هو غنى البلاد الطبيعي وحذق اليهود في احراز ذلك الغنى ثم استرجاع ما ينزع منهم بطرق عديدة مثل الربا وغيره

ولما كانت الحاجة ام الاختراع ووجد اليهود انفسهم في خطر دائم من النهب والطرد ومصادرة الاموال جعلوا ثروتهم من المنقول بخلاف اولئك الذين كانت ثروتهم عقارية وابتدعوا التحاويل والوصولات على ما يقال وبذلك يتمكنون من نقل اموالهم بسهولة من مكان الى اخر بدون ان يتعبوا في حملها ومن بلاد الى اخرى على الطريقة المعروفة الان

ومن جهة اخرى كان مال اليهود سوراً لم يحميهم من الاذى احياناً وذلك بان يحمي احد الاشراف يهودياً ما للانتفاع بماله وعليه كان اليهودي اشبه (بحجر بين شاقوفين) لا يرى سلاماً ولو بذل في سبيله الدرهم الذي لا ينكر احد براعته في تحصيله

وبعد مسير طويل تحت اشجار الغاب قال الراهب :

هل ترى تلك الشجرة القديمة العهد ؟ هذه حد املاك فرنت — دي — بوف . واما املاك ملفواز بن فقد خلفناها وراءنا من زمن وعليه لم يعد عليك خطر

لينزع الله عجلات مركباتهم كما فعل بجنود فرعون قال اليهودي ولكن لا تتركني

ايها الحاج الصالح فالهيكلي ورجاله لا يعرفون حدًا ولا يحترمون ذمة

— يجب ان نفترق ايها الرجل لانه لا يليق بي ان أُرى بصحبتك وانى لي ان احميك وانا على ما ترى راهب ضعيف

— انا لا اجهل مقدرتك على حمايتي قال اليهودي فسر معي وانا اجازيك ليس بالمال لانني فقير الحال ....

فقطع الراهب كلامه قائلاً : قلت انني لا المس لك مالاً ولكنني ارى انني اذا حميتك من كيد هولاء المشارقة قد اكون اتيت عملاً اشكر عليه وهوذا نحن بجوار شفيلد ولا اشك بوجود من تعرفهم وتعتمد عليهم من ابناء جنسك في تلك المدينة

— يباركك اله يعقوب . اذا وصلت شفيلد قصدت بيت نسيبي زاراح فاذ ذاك لا اعدم وسيلة توصلني سالمًا الى غايتي

— ليكن ما تريد فالى شفيلد حيث نفترق

واستأنفا المسير وهما ساكتان الى ان بلغا ربوة تشرف على المدينة فاشار الراهب الى المدينة وقال : هذه شفيلد وهنا يجب ان افترق عنك

— لن تفارقني قبل ان اظهر لك شكري وامتناني

— قلت انني لن اقبل منك مقابلاً لجميلي ولكن اذا اردت مكافاتي فليكن ذلك بالافراج عن مسيحي واحد يقع في قبضتك

— سافعل اكثر من هذا . قف ! قف ! صاح اليهودي لان الراهب قد همَّ بالانصراف . فوقف الراهب فاستأنف اليهودي قائلاً :

انا عالم بما انت في حاجة اليه الان

اذا علمت بحاجتي لا اراك سادّها نظرًا لما ذكرته من فقرك

— انا فقير معوز قد ابتزّت اموالي يد الظلم ولكنني اعرف حاجتك وربما

قدرت على سدّها انت في حاجة الى درع وجواد .

فاجفل الراهب لكلام اسحق وصاح : اسيء شيطان وسوس لك بهذا الظن ؟

— ليكن من كان بشرط ان اكون قد اصبت الظن . واذ قد حزرت حاجتك ارى انني قادر على امدادك

— ولكن ألا ترى لباسي وحالتي . ألا ترى انني لست من رجال الحرب ؟

— انا ادرى الناس بكم ايها المسيحيون . انا اعرف ان اشرفكم وارفعكم مقاماً قد يحمل عكاز الحاج وينذر النذور قياماً بما توحيه اليه اوهامه الدينية ويزور قبور رجال قد اكلهم الدود وذلك تبركاً بتلك الزيارة

— اياك والتجديف ايها الرجل

— عفواً فقد قلت ما قلته دون ان اتروّى ولكنني قد سمعت منك في المساء الفائت عبارات كانت كشرارة الزناد تطلعك على جنس المعدن . وقد رأيت تحت هذه الجبة الكهنوتية في هذا الصباح عندما انحنيت فوق فراشي مهازي وقلادة فارس

فلم يتمالك الراهب من الابتسام وقال : لو تفحصت اثوابك يا اسحق بنفس الدقة التي تفحصت فيها اثوابي ترى ماذا كنت ارى — عجائب غرائب

ما لنا ولهذا قال اليهودي وقد اصفر وجهه . ثم تناول محفظة وانتشل منها ورقة وبسطها على قبعته وكتب عليها سطراً بالعبرانية ثم ناول الورقة الراهب وهو يقول « احمل هذه الورقة الى مدينة ليستر الى اليهودي المشهور فيها بغناه المدعو كرجاث جيرام فعند هذا ست دروع ميلانية (١) اضعفها خليقة بان يلبسها ملك وعشرة جياد ابطأها جرياً يليق ركوبة للملك ايضاً اذا اقتحم ساحة الحرب في الذب عن تاجه . فاختر من تلك الدروع والجياد ما يحلو لك . ثم يقدم لك كرجاث كل ما يحتاج

(١) نسبة الى مدينة ميلان

اليه الفارس في ميدان البراز نفذها واستعملها ثم ارجعها اليه ما لم تكن تروم ابتياعها

ولكن هل فاتك يا اسحق ان في نزال كهذا تكون عدّة الفارس المغلوب وجواده غنيمة للغالب فمن ادراك انني لا أُغلب ؟

فتفرّس اسحق هنيهة في وجه الراهب كأن امكان الخسارة قد غيرت عزمه . ولكنه استجمع قواه وقال :

« لا . لا . لن تُغلب فيد الله ستكون معك وسيكون رمحك كعصا موسى »

وهمّ بالانصراف . فامسك الراهب بردائه وقال :

قد يُقتل الجواد يا اسحق لانني سوف لا اوفر من عزمه ذرة ويخال لي انك تجهل عظم الخطر الذي يتهدد مالك

فتململ اليهودي وتلوّى كانه ينازل خصماً يريد اخضاعه . غير ان الشواعر الشريفة تغلبت على دناءته في آخر الامر فقال :

« لا بأس من ذلك . ما يتلف لا يلحقك بسببه خسارة واما ما يستخدم فعليك اجرته فكرجاث سوف يتساهل معك اكراماً لابن ملته اسحق . استودعك الله فلا تطوّح بنفسك ولا تتهوّر ايها الشاب وهذه نصيحة اعطيكها مجاناً »

قال هذا وسار في سبيله وكذلك فعل الراهب

❮ ٧ ❯

كان الشعب الانكليزي على جانب عظيم من الشقاء والبؤس في تلك الايام . كان الملك ريكارد قلب الاسد متغيباً عن بلاده في اسر دوق النمسا القاسي والغادر . ولم يكن يعرف بامره الاّ عدد قليل من رعاياه والقسم الاكبر بل الامة باجمعها لم تكن تعرف مقرّه ولا حاله ولذلك عاث الاشراف في البلاد فساداً وتطرفوا في الظلم والجور واطلقوا لانفسهم الطاعة والامارة بالسوء العنان فكان مثلهم مثل الذئب بين

الخراف في غفلة الراعي

اما البرنس يوحنا شقيق قلب الاسد وقيّم العرش في غيبته فكان قد عقد محالفة ودية مع فيليب ملك فرنسا الداهية عدو ريكارد الالد واخذ بمساعي هذا وبما له من الكلمة المسموعة في اوربا يسعى لدى دوق النمسا لكي يطيل مدة اسر اخيه الذي كان فيما سبق قد غمره بافضاله العميمة. وفي الوقت نفسه كان يوحنا يقوّي كتلته و يزيد عدد اتباعه لكي يتمكن من حبسه حيًا. ولما كان البرنس يوحنا ضعيف الراي منهمكاً بالملاذ الشهوانية وغادرًا تمكن من استمالة من كان على شاكلته من الاشراف وكل الذين يخشون رجوع قلب الاسد ومناقشتهم الحساب ثم السوقة الذين رجعوا من الحروب الصليبية فقراء اشرارًا يستحلُّون كل محرَّم ويطمعون في اشباع بطونهم الجائعة من وراء الحروب والمناهضات الاهلية

زد على هذه المصائب عصابات قطاع الطرق الذين الجأَهم الاشراف بظلمهم وضغطهم من جهة والشرائع التي سنوها من جهة اخرى الى قطع الطرق ونهب السابلة وكانت هذه العصابات كثيرة العدد بحيث عجزت الحكومة عن رد كيدها والضرب على يدها. فاحتلوا الغابات واسسوا لانفسهم مملكة يحمونها بقوة السلاح

ثم اضف الى هؤلاء الاشراف (الذين كانوا ملوكًا مطلقين في معاقلهم واملاكهم) الذين اتخذوا لانفسهم اتباعاً يركبون لركوبهم ويغزون فيهم ويحاربون تحت الويتهم ولما لم تكن ثروتهم تكفي لاعالة هؤلاء الاتباع كانوا يستدينون اموال اليهود بالربا الفاحش فتمضي الايام والربا ينخر كالسوس العقار ويفترسها كما يفتك داءُ السرطان بالجسد حتى اذا استفاقوا من غفلتهم ترقبوا الفرص للايقاع بالدائن والتخلص من مطالبته هذا بعد ان يمتصوا هم بدورهم تعب الفعلة والعيال المشتغلة في عقاراتهم — اذا اعتبرت هذه جميعها عرفت حالة البلاد لذلك العهد

ولكن رغماً عما كان عليه الشعب من المسكنة كان باجمعه — الغني والفقير الشريف والوضيع — مهتماً بامر الميدان الذي سينصب في اشبي من اعمال لستر اهتمام سكان مدريد بمصارعة الثيران

ومما يزيدهم رغبة في حضور الميدان علمهم بانه سوف يجتمع فيه زهرة فرسان انكلترا وفي مقدمتهم البرنس يوحنا نفسه

كان المكان المعين لذلك اليوم مرجة خضراء تبعد عن اشبي ميلاً واحداً يحيط بها من جهة واحدة غاب كثيف ومن جهة اخرى صف من اشجار السنديان قديمة العهد كبيرة الحجم . وكأنما يد الطبيعة اعتنت في بتكوين البقعة اعتناء خصوصياً فاقت على الغاية المطلوبة لالعاب كهذه لان جوانب المرجة كانت تنحدر بلطف فتلتقي في مستوًى من الارض يبلغ ربع الميل طولاً في نصف ذلك عرضاً يحيط به سياج من الاعمدة القوية . وفي كل من طرفيه الشمالي والجنوبي باب من الخشب المتين وقف بجانب كل منهما مناديان يصحبهما ستة من المبوقين وستة من المحاربة وعدد ليس بالقليل من الخدم الاشداء شاكي السلاح منعاً للخصام ولصد كل من كانت منزلته من الشرف لا تسمح له بدخول الساحة ومنازلة الفرسان النبلاء فيها

وكان منصوباً في طرف الميدان الآخر وعلى مسطبة طبيعية خمسة مضارب مزينة برايات حمراء وسوداء وهي الالوان التي اختارها الخمسة الطالبو البراز . وكان ترس كل من هولاء معلقاً على باب خيمته ازاء الميدان وبجانبه خادمه متزيّ بالزيّ الذي اختاره السيد لذلك اليوم

ونُصب المضرب المتوسط لبراين الهيكلي نظراً لشهرته ومهارته واقدامه وتبريزه في ميدان اللعب وساحة الحرب على السوى وكان فرنت — دي — بوف وملفوازين في مضربين على احد جانبي مضربه وهوغ دي كرانتمنسل ورلف دي فيبونت على

الجانب الاخر

هذه المضارب رُفعت عند مدخل الميدان الجنوبي وامام المدخل الشمالي فسحة من الارض يحيط بها عدد من الخيم تحوي مرطبات ومنعشة وفئة من الحدادين وغيرهم من الصناع كثيراً ما يحتاج الفرسان المتنازلون الى مساعدتهم في ساعات كهذه

وكان يحيط بسياج الميدان من الخارج عدد من صفوف المقاعد تعلو بعضها بعضاً كمقاعد ملاعب التمثيل فرشت بالطنافس وصفّت عليها المساند لاراحة الاشراف · وبين هذه المقاعد والساحة اخليت فسحة ليقف فيها محاربة الشعب وحملة السلاح واما من بقي من الجموع ممن لا شان لهم فكانوا وقوفاً او جلوساً في اطراف المرج الذي كان لسبب تحدره يساعدهم على مشاهدة الميدان · وتسلق غيرهم اشجار السنديان وجلس على اغصانها

بقي ان نذكر امراً واحداً وهو مقعد رُفع بشكل عرش تزينه الرايات وشارات الدولة يحدق به كثير من الخدم والحشم باللباس الفاخر وعدد من الجند باسلحتهم · كان هذا العرش منصوباً للبرنس يوحنا في الجانب الشرقي من الميدان يقابله في الجانب الغربي عرش يشبهه من جميع الوجوه عدا الزينة لان الرايات التي كانت تخفق فوق هذا وحواليه كان مرسوماً عليها قلوب ملتهبة وغيرها قد نفذت فيها سهام كيوبد اله الحب او مسببه ثم يحيط بهذا العرش عدد غفير من الفتيان والفتيات باللباس الفاخر يزيد طلعاتهم الصبوحة صباحة · وكان هذا العرش لربة الحب والجمال

واخذ المتفرجون يفدون افواجاً يتقدم اصحاب الميزة منهم جند بالسلاح الى المقاعد المعينة لهم بينما كان وليم دي وايفل واسطفان دي مارتيفال وهما مراقبا الميدان يتنقلان من مكان الى آخر متقلدي السلاح ليحافظا على النظام والترتيب

وهكذا اخذت المقاعد تزدحم تدريجاً بالفرسان بلباسهم السلمي وبالسيدات

باثوابهنَّ وحليهنَّ وكان عدد هولاء كبيرًا خلافًا لما يتصوره القارىء لان النساء كنَّ كالرجال يبتهجنَ برؤْية الاعمال الدموية التي كثيرًا ما كانت تحدث في حفلات كهذه

وبينا كانت الاحوال على ما ذكرنا والقوم من الطبقة الحقيرة من الشعب يزحم بعضهم بعضًا في الفسحة المتروكة لوقوفهم بين المقاعد وساحة الميدان صرخ صارخ بين الجوع والغضب ظاهر في صوته قائلاً :

كيف تجرأُ ايها الكلب الكافر على لمسي وكيف لا تخشى ان تزحم مسيحيًا نورمانديًا · اليك عني ايها الكلب والا · · · ·

كان هذا الكلام موجهًا الى اسحق الذي كان قد استبدل اثوابه بغيرها يعلوه الفرو وتزينه الخيوط الذهبية والتخريم الدقيق واصطحب ابنته رفقة وحضر الى ذلك المكان واهتم بالحصول على مقعد في مقدّمة المتفرجين · وظواهر الخوف والوجل بادية على وجه الفتاة لما سببه ظهور ابيها من الانزعاج العمومي · اما هو فمع ما كان عليه من الجبن علم ان لا خوف عليه في هذه الدفعة لانه يعلم ان الاشراف لا يقدمون على الظلم برأَى من اقرانهم لئلا يقوم من يهتم بامر المظلوم طمعًا في ماله فيُحرمه الاول زد على ذلك معرفة اسحق بان البرنس يوحنا كان يفاوض حينئذٍ يهود يورك في عقد قرض مالي توضع بعض جواهر البرنس واراضيه رهنًا عند الاستلام · وكان لاسحق القسم الاكبر من المال ولذلك لم يخشَ شرًا لاستيثاقه من حماية البرنس له فازدادت جسارته واخذ يزحم الواقفين

وبينما اليهودي يزحم القوم وصياحهم قد علا بالسباب واللعنات الموجهة اليه اذا رجل بجانبه عريض المنكبين مترد برداء اخضر اللون وفي منطقته اثنا عشر سهمًا وفي يده قوس تبلغ ست اقدام طولاً قد بدلت الطبيعة لونه الاصلي بلون البندق التفت الى اليهودي قائلاً « اذا كان ما امتصه من دم ضحاياه المالية قد نفخ بطنه وصدره

فالأولى به ان يبقى في زاويته كالعنكبوت السمينة ولا يخرج لئلا يدوسه احد ويبقر بطنه —

بينما كانت هذه الامور وقد هال اليهودي الموقف اذا بالبرنس يوحنا دخل الميدان يتبعه عدد غفير من الحاشية فيهم كهنة ليس عليهم من مميزات الكهنوت غير الطيالس والقلانس بينهم صاحبنا الرئيس ابر بجبة يعلوها الفرو والذهب وفيهم الاشراف مثل قائد المتطوعة من الفرسان وعدد من الهيكليين وفرسان مار يوحنا المرضون فتحوّلت الانظار اليه

ولزيادة الفائدة التاريخية نذكر ان فرسان هاتين الطغمتين كانوا من اعظم اعداء الملك ريكارد قلب الاسد وقد انحازوا الى فيليب ملك فرنسا في مقاومته لقلب الاسد تلك المقاومة التي ادّت بنصرات ذلك الباسل المتتابعة في فلسطين الى الضياع واضطرته الى الرجوع عن بيت المقدس راضياً من الغنيمة بالاياب والزمته ان يعقد صلحاً مجحفاً مع الملك الايوبي صلاح الدين . فهذا البغض من جهة وخشية رجوع قلب الاسد الى كرمه ومعاقبة اللصوص من جهة اخرى حمل الهيكليين وفرسان مار يوحنا على الانضمام الى البرنس يوحنا والقول بقوله ومساعدته . واما البرنس يوحنا فكان يكره الشعب السكسوني كرهاً شديداً علماً منه بكرههم اياه لظلمه وبميلهم لاخيه الملك . هذا فضلاً عن كون القسم الاكبر من الشعب على اختلاف الاجناس كان يخشى تبوُّء هذا الامير العرش ثقةً منهم بانه اذا فعل امتص دمهم قبل مالهم لكي يملأ بطون اتباعه الذين جعلوا من خيانتهم وجبنهم سلماً رقي هو عليها الى عرش اخيه

قلنا ان البرنس دخل الميدان يحف به عدد عظيم من الحاشية في سرج جواد كريم يعلوه قباء ارجواني اللون مطرّز بالذهب وعلى راسه قبعة من الفرو الغالي يحيط بها دائرة من الحجارة الكريمة وغدائره مسدولة على منكبيه وعلى ذراعه باز — دخل

الساحة واخذ يجول فيها كانه يتفحص احوالها ليعرف صلاحيتها بنفسه ثم اجال نظره في الجميع محدقاً بكل وجهٍ جميل بجسارة وخفة الملك المطلق

ان الذين لاحظوا في طلعة البرنس يوحنا وجود جرأة تبلغ به الى حد النقص في الادب والتطرف في الكبرياء وعدم الاهتمام باحساسات الغير وشواعرهم لا ينكرون وجود تلك البساطة التي تزيدها المجاملة والتلطف في الكلام لطفاً يخالها الناظر طهارة سريرة وصفاء نية اشتهر وجودها في من خصهم الله بجانب عظيم من الشجاعة الحقيقية والواقع ان الناظر كثيراً ما يمزج هذه بتلك فيلتبس عليه الامر ولا يعرف الطبع من التطبع · ولفتت انظار البرنس الحركة التي سببها ظهور اليهودي فالتفت ورأى اسحق فعرفه حالاً ولكنه لم يهتم بامره بل راعه جمال ابنة صهيون الذي زاده الرعب تأثراً وانفعالاً

كان جسم رفقه غريب التناسق عجيب التناسب يزيد تقاطيعه ظهوراً وجمالاً لباسها الشرقي· واما لمعان عينيها ودقة حاجبيها وتقوسهما وانفها الاقنى واسنانها اللؤلؤية وشعرها الاسود الطويل المتدلي بهيئة لوالب على كتفيها وعنقها الناصع وتورُّد خديها — كل هذه كانت من شأنها ان تجعل جمال رفقة في المرتبة الاولى وبان ينيلها قصب السبق عن استحقاق

وكأن رفقة كانت قد وطدت العزم على تخليف حرقة ولوعة في قلب كل ناظر فلم تكتفِ بالبادي من جمالها فتذرعت بالحرّ وحلت ثلاثة من الازرار كانت تجمع ثوبها حول عنقها فظهر اعلى صدرها ببياضه اليقق وعليه عقد من الماس واسطته تشعّ كالكوكب الدرّيّ وُضعت هنالك لتهدي النظر الضال وتبهر العين الشاردة

فلما شاهد البرنس ما ذكرناه من جمال رفقة صاح :

قسماً بما في رأس ابرهيم من الصلع ان جمال هذه اليهودية من الصنف الذي

يطرد كل درهم عقل من رؤوس الملوك · كيف ترى ايها الرئيس أيمر ؟ قسماً ببانى الهيكل الذي عجز اخونا ريكارد عن استرجاعه ان هذه الفتاة هي بيت القصيد الذي قضى عمره في وضعه

« وردة شارون وزنبقة الوادي » قال الرئيس ايمر بورع وخشوع ولكن يجب ان لايذهب من بال سموكم انها وان تكن جميلة فهي يهودية ولن تزال

« اي والله » قال البرنس وكانه لم يسمع ما قاله الرئيس · ثم استأنف قائلاً « ومار مرقس لا بد لي من اجلاس مقدّم حاجياتي والذي ارجع اليه عند احتياجي للمال واليهودية الحسناء في احد المقاعد · يا اسحق من تكون تلك الحورية الشرقية التي تأبطتها شأنك مع صندوق مالك ؟ »

ابنتي رفقة يا صاحب السمو

فقهقه البرنس ذاكراً قصة ابرهيم في مصر فضحك لضحكه من كان حوله من رجاله ثم قال : اظهرت الحكمة في الجواب يا اسحق ولكن سواء كانت ابنتك او امرأتك فجمالها يجب ان يعطى حقه · ثم رفع عينيه الى صفوف المقاعد وقال « من الجالسون في تلك المقاعد ؟ سكسون ؟ يجب ان يزحم واحدهم الآخر ليفسحوا مكاناً لهذا الرجل فجانب هولاء الخنازير احرى بمثل اليهودي

كانت الجماعة التي وجّه البرنس كلامه اليها عائلة سادرك وقريبه وحليفه اثلستاين اف كننسبرغ · وكان السكسون يعتبرون الاخير اعتباراً زائداً لان في عروقه دم ملوك السكسون القدماء فضلاً عن الكثير من اخلاقهم ونقائصهم

كان اثلستاين عظيم الجثة قوي العصب وفي إبّان العمر ولكنه بطيء الحركة تَهِم ينقصه الذكاء وسرعة الحكم ولذلك لُقِّب باثلستاين البطيء · كان اصحابه وهم كثيرون وفي مقدمتهم سادرك يقولون ان تردده ليس ناتجاً عن جبن او نقص في الشجاعة ولكن

عن ابطاء في اعمال الفكرة وعدم التسرُّع في التصميم على امر ما· وقال غيرهم ان ميله الى الشراب المتصل اليه بالوراثة قد افقده جانباً عظيماً من دماغه وليست بساطته وحسن نياته سوى بقية صفات حقها ان تذكر بالثناء لو لم يكن الشراب ومعيشة التهتك قد ذهبت بالنصيب الاوفر منها

فالى هذا الرجل الذي وصفناه وجه البرنس خطابه· فلما سمع اثلستاين كلام البرنس المهين فتح عينيه وحدّق بالبرنس بذهول لانه لم يشأ ان يمتثل للاوامر لما فيها من الاهانة ولكنه لم يدرِ ماذا يصنع او بماذا ينطق فبقي مبهوتاً حائراً

فصاح البرنس مغضباً : انظروا الى راعي الخنازير فاما ان يكون نائماً او يأبى امتثال اوامرنا· ايقظه يادي بارسي بسنان رمحك لعله يُفيق

وكان دي بارسي هذا قائد فرقة من الفرسان الذين لا يعرفون وطناً ولا قوماً بل يبيعون خدماتهم لمن يبتاعها· ولما كان هذا القائد لا همَّ له سوى امتثال اوامر سيده بقطع النظر عن نوعها مدَّ رمحه الطويل الى اثلستاين البطيء وهمَّ بوخزه واذا بسيف سادرك قد فارق غمده بسرعة البرق وسنان الرمح قد سقط الى الارض مقطوعاً كانه خيط من القطن

فاحمرَّ وجه البرنس غضباً واقسم باعظم الاقسام وهمَّ بابراز غضبه الى حيز الفعل لولا يرجعه عن عزمه حاشيته التي التفت حواليه ونصحت له بان يستخدم التأني والحكمة من جهة وهتاف الجميع استحساناً لما فعله سادرك من جهة اخرى· فجحظت عينا البرنس بفاعيل الغضب المكتوم واجال طرفه في الجمهور كانه يبحث عن فريسة يفرغ جامات غضبه عليها فوقع نظره على حامل القوس الذي ذكرناه آنفاً· وكان هذا يزيد الجلبة والهتاف وصوته قد علا فوق جميع الاصوات استحساناً لما فعله السكسوني الهرم فصاح فيه البرنس قائلاً : « لِمَ هذه الجلبة ايها الرجل ؟ »

فقال : انا اول من يهتف استحساناً ويصيح مبتهجاً عندما ارى ضربة صادقة انتجتها يد شجاع او وقع سهم صائب فوّقته ذراع قوية

يظهر لي انك قادر على وضع سهمك في النقطة البيضاء في الهَدَف

اقوى على وضع سهمي في كل مكان يستطيع الرماة وضع سهمهم فيه

سنرى قال البرنس . ثم التفت الى احد رجاله وقال : راقب هذا الرجل لانني اروم امتحان حذقه

لست ممن يخشى الامتحان ويتجنبه قال الرجل بثبات جاشه المعهود

فتحوّل البرنس عنه والتفت الى جماعة السكسون وقال : وحيث قد امرنا فافسحوا مجلساً بينكم لليهودي

عفواً يامولاي الامير صاح اليهودي ليس من مقامي ان اجلس بين حكام البلاد وكبرائها

انهض ايها الكلب وتمم ما امرت والاّ اصطنعت من جلدك سيوراً لافراس اعواني

فلم يعد في وسع اليهودي العناد فاخذ يرقى في صفوف المقاعد بتمهل بينما كان البرنس يقول : فلنرَ من يجسر على منعه من الجلوس . وكانت عينه الملتهبة غضباً محدقة بسادرك الذي كان يستعد لقذف اليهودي الى الاسفل حال اقترابه منه

« انا امنعه » صاح ومبا وانقض على اليهودي بسيفه الخشبي وانتشل من تحت عباءته قطعة من لحم الخنزير المقدَّد كان قد استحضرها خشية الجوع واستعملها كالترس واضعاً اياها على لحية اليهودي . فلما رأى هذا لحم الخنزير المحرَّم بدينه على لحيته تراجع الى الوراء بسرعة فزلّت قدمه وهوى الى اسفل . فعلا صياح الجميع وضحكهم وضحك البرنس واتباعه فصاح ومبا قائلاً

اجزني يا ابن عمي البرنس فقد قهرت خصمي بالسيف والترس

من تكون ايها الشجاع

اسمي ومبا ابن الغبي ابن من كان عقله متقلباً كالهواء وكان ابوه احد الحكام

اخلوا اذاً مكاناً لليهودي في الصف الامامي لانه ليس من العدل ان يجلس الغالب والمغلوب جنباً لجنب

فقال ومبا كان امر اليهودي والاحمق غريباً في بابه اما لحم الخنزير واليهودي فاغرب من هذا

يعجبني ذكاؤك ايها الاحمق قال البرنس يا اسحق اعرني قبصة من النقود فهمَّ اسحق بكيس من الجلد كان متدلياً من منطقته وفتحه واخذ يقلّب محتوياته مجتهداً ان لا يكون فيما يتناوله شيءٌ من الذهب · فضجر البرنس واقترب من اسحق وانتشل الكيس من يده ورمى بقطعتين من الذهب الذي وجد فيه الى ومبا وسار في سبيله بين تهليل الجميع كأن قد اتى فعلاً حسناً وعدلاً باهراً

٨

وبعد ان سار البرنس مسافة قصيرة وقف بغتةً وتحوَّل الى الرئيس ايمر وقال :

فاننا وحياتي ايها الرئيس ان نسمي ملكة للحب والجمال في هذا النهار تدفع من يدها البيضاء جائزة للغالب والمستحق · اما انا فلست متعصباً في آرائي وعليه ارى ان تنتخب لهذه الوظيفة رفقة اليهودية

يا قديسة مريم ! صاح الرئيس برعب ورفع عينيه الى السماء بخشوع · أيهودية ايها الامير ؟ اذا انتخبناها كان جزاؤنا الرجم وانا رجل لا اروم ميتة كميتة الشهداء هذا فضلاً عن حداثة سني وطمعي في التعمير · وعندي ان روانا السكسونية اجمل وارق من اليهودية

فقال البرنس : لا فرق عندي بين اليهودي والسكسوني او بين الكلب والخنزير

واروم انتخاب رفقة نكاية بهولاء السكسون اللئام

فعلا تذمر الاتباع لدى استماع كلام البرنس وصاح احدهم وكان اكبرهم سناً وارفعهم شاناً في عيني البرنس قائلاً

ان هذه اهانة لا تحتمل يا ايها الامير واعلم ان عملك هذا لا يعود على المشروع الذي انت آخذ فيه بعظيم فائدة

فاوقف البرنس جواده والتفت الى المتكلم ورفع راسه وصاح بصوت ملؤه الكبرياء والخيلاء وقال :

اتخذتك خادماً وتابعاً وليس مشيراً وناصحاً يا سيدي

فاجاب المتكلم وكان يدعى ولدماير فتزورر بصوت منخفض قائلاً :

ان من يتبع سموكم يصبح مشيراً لان مصلحتكم تصبح مصلحته وما يلحق بكم يلحق به رضي ام لم يرضَ

فلما سمع البرنس كلام ولدماير والنغمة التي رافقته لم يرَ خيراً من الاذعان فقال لم اقصد غير المزاح فانقضضتم عليَّ كالافاعي ؟ انتخبوا من شئتم

« لا وابيك » صاح دي بارسي وكان قائد المتطوعة لا وابيك بل نترك حق انتخاب الملكة للغالب وما هذه والله الاّ نعمة اخرى ينالها من يغلب فوق الجائزة وبذلك يزداد المعطي فضلاً والرابح شكراً وامتناناً اذا ما انتخب السيدة التي يروق جمالها في عينيه

فقال أيمر اذا غلب برابن فانا اراهن على سبحتي هذه انه يترك لي حق الانتخاب

فقال دي بارسي ان الهيكلي فارس شديد العزيمة ولكن يوجد بين هولاء الفرسان المحيطين بالميدان من لا يحجم عن نزاله

« كفى ايها السادة فالوقت يمرّ بسرعة وقد آن للبرنس ان يجلس في عرشه وللميزان

ان ينصب»

كان المتكلم ولدماير . ولما كان هذا الرجل نظرًا لتقرّبه من البرنس يفعل فعل الوزير الاول يأمر وينهى لم يشأ البرنس الاّ الامتثال لاشارته على اعتياده المعارضة والمعاكسة في الامور الطفيفة ظانًّا ان ذلك من قبيل اصالة الراي . فجلس في العرش المنصوب له واحاط به اتباعه من كل جهة وامر المنادي ان يعلن للملا شروط النزال فرفع المنادي صوته وقال :

اولاً — سينازل الخمسة الغالبي النزال كل من طلب نزالهم

ثانيًا — اذا احب احد الفرسان منازلة فارس معين من الخمسة فليس عليه الاّ ان يلمس ترس ذاك برمحه . فاذا فعل بكعب الرمح كان النزال بطريقة خالية من الخطر اعني ان كلاً من المتبارزين يضع على سنان رمحه قطعة سميكة من الخشب فاذا اصاب خصمه لا يلحق به اذية اللهمَّ الاّ ما يناله من نتيجة اصطدام الجوادين . ولكن اذا لمس الترس بسنان رمحه وجب ان يكون النزال بالسلاح القاطع ويحارب الفارسان كانهما وسط حرب جدّية

ثالثًا — بعد ما يحطم كل من المتبارزَين خمسة رماح قيامًا باليمين التي اقسماها يحكم البرنس ويسمي الغالب الذي يكون جزاؤُه جوادًا سليمًا من كل عيب وينال شرف انتخاب ملكة للحب والجمال بمنح الجائزة في الغد للغالب المنصور

رابعًا — سيجري غدًا نزال عمومي اذ ينقسم الفرسان الذين يرومون اظهار شجاعتهم وفروسيتهم الى فرقتين كل فرقة بقيادة فارس تنتخبه ويكون الهجوم عموميًا الى ان يأمر البرنس بالكف ويسمي من استحق الجائزة وهي اكليل من الذهب مصنوع على شكل غصن مضفور تضعه على راسه يد ملكة الحب والجمال ويلي ذلك في اليوم الذي يتلو العاب تشترك فيها العامة

وختم المادي كلامه بقوله : « الهبَة ! الهبة ايها الفرسان الاماجد »

فنثر الاشراف من مقاعدهم بدَر الفضة والذهب على المادين · لان الكرم والتنافس بالبذل كانا فرضاً بالاخص على قوم كالمنادين الذين كانوا كرواة العرب يحفظون ما يشاهدونه كالمؤرخين و يروونه اينما ساروا منوهين بفضل الفاضل وكرم الكريم وشجاعة الشجاع و بالعكس

كانت الاشراف تنثر النقود كما ذكرنا والمنادون يلتقطونها و يصيحون باعلى اصواتهم مجلّين والابواق تساعدهم قائلين : « حبذا حب الحسان — حبذا موت الاعداء — الفخر للكريم — المجد للشجاع »

ولم يمضِ طويل وقت حتى سكنت جلبة المنادين وانسحبوا صفاً واحداً من ساحة الميدان وتبعهم المبوقون · ولم يبقَ في تلك الساحة غير مراقبي الميدان على جواديهما لا يرى منهما غير العيون تبرق تحت الخوذتين · الواحد بجانب المدخل الشمالي والآخر بقرب المدخل الجنوبي

وكانت الفسحة التي ذكرنا وجودها امام المدخل الشمالي قد ازدحمت بالفرسان الذين حضروا ليناز لوا الخمسة الذين مرَّ ذكرهم · فكنت ترى تلك الفسحة فتخالها بحيرة من الفولاذ سكبت عليها الشمس جانباً من اشعتها فعكستها الخوذ والدروع التي كانت ترتفع تارة وتنخفض اخرى مع حركات الجياد كأنها امواج لطيفة الحركة

وبينا كان الجمع ينتظر بفروغ صبر فُتح المدخل الشمالي ودخل منه خمسة فرسان انتخبوا بالقرعة يسير واحد منهم في المقدمة والاربعة الاخرون زوجاً زوجاً وراءه ·

ولم تكد تطأ حوافر جيادهم ارض الميدان حتى علت من وراء مضارب الخمسة انغام الالات الموسيقية بالحان اصلها شرقي نقله الصليبيون معهم عند رجوعهم من الاراضي المقدسة

واقترب الفرسان من المضارب الخمسة ودنا كل منهم منَ مضرب الفارس الذي يروم مبارزته وقلب رمحه ولمس الترس المعلق على بابه بكعبه . فعلت من الجمع ضجة عدم الرضى حتى السيدات ايضاً اشتركنَ فيها . واما الفرسان فتراجعوا الى طرف الميدان واقاموا ينتظرون خروج اقرانهم . وبعد قليل خرج هولاء من المضارب وانحدروا من المسطبة بقيادة براين الهيكلي وهجموا على الاقران فقابلهم هولاء بالمثل بينما كانت اصوات الابواق تمزّق طبقات الهواء تمزيقاً

وكأن الحظ أبى الا ان يكون بجانب الهيكلي ورفاقه . لان هذا وفرنت دي بوف وملفوازين طرحوامنازليهم الى الارض واما الرابع فبدلاً من ان يصوّب رمحه الى ترس او خوذة خصمه كسر قناته على جسمه يعني انه لم يلمس الترس ولا الخوذة وكان هذ يعدُّ عاراً على من يأتيه لانه يدل دلالة صريحة على عدم دراية وخبرة الطاعن . واما الخامس فحطم رمحه ورمح خصمه وتخلص من العار الذي لحق برفاقه

واذ ذاك علا صوت المنادين معلنين اسم الغالب والمغلوب وشاركهم المبوقون وهتاف الجمع في زيادة الضجيج . ورجع الخمسة الى مضاربهم ورجع الاربعة المغلوبون بالخزي مسرعين من الساحة ليتفقوا مع اقرانهم على مقدار الفدية التي يجب ان يدفعوها مقابل عدّتهم وجيادهم التي كانت حسب شروط الميدان غنيمة للغالب . واما الخامس فتراجع متمهلاً بين عبارات التهاني والاعجاب

وهكذا دخل خمسة غيرهم وكان النصر حليف اصحاب المضارب في الدفعتين حتى خمدت نار التحمس بين جماعة الفرسان ولم يدخل الشوط الرابع غير ثلاثة تقدموا من المضارب وتجنبوا كلاً من مضرب الهيكلي وفرنت دي بوف لان هذين اظهرا فروسية ودربة عجيبتين . غير ان هولاء ايضاً لم يكونوا اوفر حظاً ممن سبقهم لانهم رجعوا مغلوبين كما رجع غيرهم

واما الجمع فكان بين هاتف افتخاراً باعمال الخمسة وهم القسم القليل و بين متذمر لان الخمسة لم يكونوا من اصحاب السمعة الحسنة والشرف الخالي من الشائبة . وكان الاول بين المتذمرين سادرك السكسوني الذي عدّ ما جرى عاراً لحق بانكلترا وفرسانها لان الغالبين من النورمانديين فالتفت الى اثلستاين وقال :

ارى ان الحظ قد قلب ظهر المجن لانكلترا يا مولاي فهلاً اشتركت في هذا النزال ؟

ساشترك في العراك العمومي غداً لان النهار قد قارب الزوال والوقت الباقي لا يكفي للبس عدّة الجلاد

فاستاء سادرك من هذا الكلام لانه لاحظ فيه عدم اهتمام مخاطبه تعزّز شرف انكلترا ام انخفض . ولكن المتكلم كان اثلستاين وكلامه مقدس في عيني سادرك وعليه لم ينطق بحرف وهو لو اراد ذلك لما تمكن لان ومبا اعترضه بقوله : « خير لك ان تكون الاول بين المئة من ان تكون المجلي بين الخمسة »

فحمل اثلستاين كلام ومبا على محمل التبجيل واما سادرك الذي لم تكن تخفى عليه نيات مهذاره الخبيثة فصوّب اليه نظراً كانه السهم ولولا الزمان والمكان لما تأخر عن تأديبه بطريقة كان هو ادرى الناس بها

وكان قد مضى على الشوط الرابع وقت ليس بالقصير والجمع مقيم ينتظر بفارغ الصبر ظهور مبارز ما . ولم يسمع سوى اصوات المنادين القائلين :

« حبذا حب الحسان — حبذا تحطيم الرماح — ابرزوا ايها الفرسان البواسل . ألا ترون العيون النواعس ترقب اعمالكم ؟ » واصوات الابواق من وراء مضارب الفرسان الخمسة كانها تستنهض الهمم المتقاعدة وتحرّك الشجاعة الراقدة . فلم يكن مجيب . فاخذ الفرسان الذين اقعدهم الكبر عن الاشتراك في النزال يندبون الشجاعة

والفروسية التي زعموا انها قد زالت من البلاد ناسبين ذلك الى زوال السحر الذي هو سرّ الشجاعة والاقدام في قلوب الرجال من عيون النساء · والتفت البرنس يوحنا الى حاشيته وانهى اليهم انه يجب ان يعلن ان براين الهيكلي هو صاحب اليوم لانه القى اثنين من خصومه ولم يكسر رمحه

وبينا كانت الحال على ما ذكرنا اجفل الحضور لصوت بوق من جهة المدخل الشمالي · فتحوّلت الابصار الى تلك الجهة لترى الفارس الذي لم ترعه افعال الخمسة واتى بعد ما قطع القوم الرجاء من وجود من يقتحم هذا الخطر واذا بهم يرون فارساً نحيف الجسم تستر جسده درع من الفولاذ منزّلة بالذهب يحمل ترساً عليه رسم سنديانة مقتلعة من اصولها مكتوب تحتها بالاسبانية ما معناه : « المحروم ارثه » وكانت هذه شعار الفارس · وهو ممتطٍ جواداً كالليل لا تكاد تطأ قوائمه الارض لخفته وسرعة جريه وكانت حركات الفارس غاية في هيئة الفروسية وظرف الشباب حتى لفت انظار الجمع واكتسب ميلهم وشعورهم فصاحوا به « دونك وفارس مار يوحنا فهو اضعفهم » واما الفارس فلم يظهر منه انه سمع ذلك النداء بل خفض رمحه عند مروره امام البرنس والسيدات احتراماً واقترب من مضرب قائد الخمسة وهو كما ذكرنا براين الهيكلي ورفع رمحه وقرع بسنانه الترس المعلق على باب المضرب حتى سمع القاصي والداني رنة الفولاذ

ولا تسأل عن الدهشة التي اخذت الجمع عند مشاهدتهم عمله هذا · واشدهم دهشة براين نفسه وقد كان واقفاً في باب المضرب وظواهر عدم المبالاة والاهتمام بادية على وجهه · فلما رأى فعل خصمه صاح به قائلاً

« هل اعترفت ايها الرفيق ؟ وهل صليت هذا الصباح ؟

— انني اعظم استعداداً منك لملاقاة ربي

— تأهب اذن وانظر نظرة اخيرة الى الشمس لان روحك ستذهب اليوم الى الفردوس

— شكراً لك على مجاملتك ومقابل ذلك انصح لك ان تستبدل جوادك ورمحك لانك سوف تجد نفسك في حاجة قصوى الى كليهما

ولما قال هذا تقهقر بجواده دون ان يدير راسه وانحدر من المسطبة على الصفة الى ان بلغ طرف الميدان بين هتاف الجمع المدهوش

اما الهيكلي فلم يهمل نصيحة خصمه · فاستبدل جواده بجواد كان قد بلاه فيما مضى وكذلك فعل برمحه خوف ان تكون الصدمتان السابقتان قد الحقتا ضعفاً بقناته واستبدل ترسه وانحدر الى ساحة النزال قبالة قرنه وسدّد رمحه واقام ينتظر الاشارة بالهجوم

ولم تكد الابواق تعلن الاشارة حتى اختفى الفارسان من موقفهما وانقضا انقضاض الصواعق · ولم يكن الا كتصعيد النفس وتصويبه حتى سمع صوت تحطيم الرمحين حتى كعبيهما ورأى القوم الشظايا تتطاير في الهواء والفرسين كتلة واحدة كانهما اصبحا مزيجاً واحداً واصول ذنبيهما تلامس الارض · غير ان المهاميز انهضت الفرسين بسرعة ورجع كل من المتبارزين الى موقفه وتناول رمحاً جديداً من الخدم

اما هتاف المتفرجين فلم يعرف حدًّا ولم ينقطع حتى رجع الفارسان كل الى موقفه واخذت المناديل المزركشة تخفق في الهواء كالرايات تحمساً · واحمرّت الوجنات وبرقت العيون

وبعد ما مضى على افتراقهما نحو من دقيقتين اشار البرنس بعكازه فنفخ في الابواق وهجم المتبارزان كالاول غير ان النتيجة لم تكن كتلك لان الهيكلي صوّب رمحه الى ترس خصمه فاصابه في الوسط وكانت الصدمة قوية الى حدّ ان المصاب تزحزح

في سرجه · واما الآخر فانه صوَّب رمحه في بداية الامر الى الترس كما فعل الهيكلي ولكنه قبل الالتحام بطرفة عين حوَّل السنان الى الخوذة وهي نقطة صعبة المنال ولكنها اذا اصابت الغرض طرحت الخصم · فكان من حظه انه اصاب الخوذة وعلق سنان الرمح بثنياتها ولشدة الصدمة انقطع حزام سرج الهيكلي وهوى الى الارض هو وجواده وسترهما الغبار عن العيون

ولم تكن الاَّ دقيقة واحدة حتى تخلص الهيكلي من جواده وامتشق حسامه وهزَّه في وجه خصمه · فوثب هذا الى الارض وقابل خصمه بالمثل غير ان مراقبي الميدان اعترضا وذكَّرا المتبارزين بان شروط النزال لا تسمح لهما بما همَّا بفعله فقال الهيكلي

« سوف نلتقي بعدُ فيما اظن حيث لا يوجد من يفصل بيننا »

فاجاب الآخر « اذا لم نلتقِ فلا اكون المتخلف · انا معك كما تشاء راكبًا او راجلاً بالسيف او بفأس الحرب »

عندئذٍ ابعد المراقبان الخصمين · فرجع الهيكلي الى مضربه ولم يخرج منه سحابة اليوم واما الفارس المحروم فرجع الى موقفه الاول وطلب كاساً من الخمر ورفع القسم الاسفل من خوذته من غير ان يظهر وجهه وصاح قائلاً :

« اشرب هذه على حبّ القلوب الانكليزية الشديدة الاخلاص وعلى سرّ تضعضع احوال الاجانب الظالمين »

ثم امر المنادي بان يعلن استعداده لمبارزة من بقي من فرسان المضارب واحداً واحداً فخرج فرنت — دي — بوف واسفر الهجوم عن تحطيم الرمحين وخرجت احدى قدمي فرنت دي بوف من المهماز فعدَّ مغلوباً · ثم تبع هذا الثالث فالرابع فالخامس فتم النصر للفارس « المحروم » وحكم الجميع بانه فارس اليوم

— ***** —

﴿ ٩ ﴾

كان وليم دي وايفل واسطفان دي ماتيفال مدبرا الميدان ومراقباه اول من اقترب من الفارس المحروم ورجواه بعد ان بالغا في تهنئته ان ينزع خوذته ويتقدم الى البرنس ليتناول من يده الجزاء المعين الذي كان قد ناله عن استحقاق واهلية · فلم يجبهما الفارس الى طلبهما معتذراً وذكر لهما انه توجد هناك اسباب تمنعه من اظهار وجهه للناظرين وهي اسباب كان قد ذكرها للنادين عندمدخل الميدان حين دخوله · فاكتفى الرجلان بما ذكره الفارس لانه كثيراً ما كان الفرسان في ذلك العصر — عصر السيف — يقسمون على ان يخفوا حقيقتهم مدة يتمكنون في غضونها من اجراء امر آلوا على انفسهم اجراءه فاذا انتهوا مما هم فيه اظهروا امرهم

وهكذا توجه المدبران الى البرنس وطلبا اليه بان ينعم بالجائزة على المستحق مكافأة له على إقدامه وفروسيته

وكان البرنس يوحنا على جانب عظيم من الكدر لما اصاب اصحاب المضارب الذين كان يريدهم ويستعين بهم فلما سمع كلام المدبرين تضاعف كدره وظهر الغضب في وجهه وصاح قائلاً :

« قسماً بنور جبين العذراء ان هذا الفارس عادم اللياقة والاداب كما انه محروم ارثه ودليلي ظهوره امامنا مستور الوجه والراس »

ثم تحوّل الى حاشيته وسأل : « هل يعرف احدكم منزلة هذا الفارس الشديد الخيلاء من الاشراف والنبلاء ؟ »

فقال دي بارسي لا اعرف من امره شيئاً · ووالله لم يخطر في بالي ايها الامير انه يوجد بين الاربعة الابحر التي تحيط ببريطانيا العظمى رجل يقهر هولاء الخمسة في يوم واحد والله لن انسى القوة والعزم اللذين ابداهما عند ما طرح فارس مار يوحنا الى

الارض — خلته حصاة رمى بها من مقلاع

وكان بين الحاشية واحد من تلك الجوقة فاستاء لتعريض دي بارسي فصاح

لا تلم فارس مار يوحنا فانني قد رأيت الهيكلي الذي تفاخرون به وتتباهون بقناته يدور ثلاثاً على الارض وفي كل دورة كنت ارى كفيه تقبضان ملأهما تراباً

فهمّ دي بارسي بالجواب لانه كان من المتشيعين للهيكليين فاعترضه البرنس منتهراً. فقال احد المدبرين «لم يزل الظافر واقفاً ينتظر اوامر سموّكم»

— اوامري هي ان يبقى ذلك الفارس في مكانه الى ان اتوفق الى رجل يعرف عنه شيئاً او على الاقل يعرف اسمه ولو اقتضى معرفة ذلك ما بقي من النهار ونصف الليل فلقد اقام بعمل يبقي حرارة جسمه على ما هي عليه الى ذلك الوقت

فقال ولدماير فتزور . يجب الّا تهمل سموّك امر هذا الفارس والّا تحبس عنه ما استحقه اقدامه استناداً على عذر واهن . فلا اخال احدنا يعرفه ولو بوجه التخمين فانا اظن انه احد اولئك البواسل الذين قادهم اخوكم قلب الاسد الى فلسطين وقولي هذا لا يخرج عن حد الظن والتخمين

قد يكون ارل سلسبري — قال دي بارسي

سلسبري اعظم جثةً من هذا — قال فتزور

قد يكون الملك ريكارد نفسه — قال احد الموجودين همساً في اذن جاره وهذا نقلها الى جاره وهلمّ جرًّا الى ان بلغت اذن البرنس ففارق الدم وجهه وخلّفه كوجه الميت وقال :

«لا سمح الاله الذي اعبده ! يادي بارسي ! يافتزور ! اذكرا وعدكما لي بانكما لن تتنحيا عني»

خفف ما بك ايها الامير — قال فتزور . هل تجهل ضخامة اعضاء ابن ابيك ؟

وهل تظن ان درعاً كهذه تسع ذلك الجسم العظيم ؟ ياسيديّ « مخاطباً المدبرَين » اذا رمتما خدمة البرنس فاحضرا هذا الفارس الى قائمة العرش فيزول عن البرنس همه وغمه و يرى ان الملك يزيد الفارس قيراطين في طوله وان هذا الفرس لن يقوى على حمل الملك ريكارد جولة واحدة كالتي جالها هذا الفارس في هذا اليوم

وما عتم المدبران ان عادا بالفارس المحروم الى العرش

و كانت حواس البرنس لم تزل متضعضعة لانه خشي ان ينظر فيرى بين يديه اخاه الذي عمل على اذيته واغار على حقوقه · ولكنه ضبط النفس وشكر الفارس لما بدا منه ثم امر بان يعطى الجواد المعيّن لجائزة لشجاعته قال هذا وقلبه يضطرب في داخله خشية ان يسمع صوت اخيه من وراء الخوذة · غير ان الفارس لم يفه بعبارة واحدة بل انحنى اظهاراً لشكره وتحوّل الى الجواد الذي كان قد احضره اثنان من الخدم ووثب الى سرجه دون ان يضع قدمه في الركاب ثم هزّ رمحه واغار بالجواد دفعتين ليس ليظهر فروسيته بل ليظهر للمشاهدين صفات الجواد فقابل الجمع عمله بهتاف الاستحسان والاعجاب

عندئذٍ نبه الرئيس أمير البرنس لئلا ينسى الجزء الأهم من الجائزة وهو منح الفارس حق انتخاب ملكة الحب والجمال التي سوف تمنح الغالب في اليوم التالي الجائزة من يدها البيضاء وبذلك ينتهز الفرصة ليظهر للجمع حكمه في رتب الجمال كما اظهر براعته وفروسيته في ميدان النزال

وكان الفارس قد وصل الى امام العرش وهو في دورته الثانية فرفع البرنس عكازه فاوقف الفارس جواده بسرعة اذهلت جمهور المشاهدين وزادت في هتافهم لانه حوّل حالةً ذلك الجواد من الهياج العظيم الى السكون التام فاصبح الفارس والفرس كانهما تمثال اصمّ لاحراك فيه امام العرش ورمح الفارس منخفض يكاد يلامس بسنانه الارض

تأدباً واستعداداً لاستماع مشيئة البرنس · فقال هذا :

يا سيدي الفارس المحروم (وادعوك بهذا اللقب اتماماً لرغبتك ولجهلي مكانك من النبلاء) عليك الان ان تقوم بامر هو قسم من واجباتك كما انه جزء من الميزة التي حزتها وهو انتخاب السيدة التي تمثل دور ملكة الحب والجمال وتترأس حفلة الغد · واذا كنت غريب الديار وترى نفسك في حاجة الى المساعدة فاسمح لي ان اذكر لك اسم اليسيا ابنة الشجاع ولدماير فتزورس لانها معدودة اجمل فتاة بين نساء الشرف في قصري· على اني اودان تستخدم حكمك وتستشير نظرك والفتاة التي تضع هذا التاج بين يديها ينادى بها فتكون ملكة هذا الميدان في الغد · قوّم رمحك

فقوّم الفارس رمحه فوضع البرنس على سنانه اطاراً من الحرير الاخضر يعموه دائرة من الذهب تزين حافتها العليا رؤوس سهام يتوسط كل اثنين منها صورة قلب صغير وكلها من الذهب

كان غرض البرنس من التلميح باسم ابنة تابعه على مسمع الفارس اثبات ادعائه بان ما ذكره بمناسبة رفقة اليهودية لم يكن الا مزاحاً هذا اولاً وثانياً ارضاء والد الفتاة الذي كان يهابه وخصوصاً لانه (ولدماير) لم يكتم استياءه من اعمال البرنس ذلك النهار · وهنالك غرض آخر وهو ارضاء الفتاة نفسها لان شهوات البرنس كانت تعادل تشاوفه وطموحه المملوء من اللؤم · وهنالك امر آخر لعله الاهمّ وهو رغبته في توليد بغض في قلب ولدماير للفارس الذي ابغضه هو فيما لو اهمل الفارس امرابنة تابعه وفضل عليها سواها من السيدات

فكان ما امله البرنس · لان الفارس سار بجواده متمهلاً امام صفوف المقاعد ومرّ بالفتاة المذكورة وهي شامخة بانفها كملكة تعتز بسلطان جمالها واخذ يتفرّس في الوجوه كانت التغييرات والظواهر التي بدت في وجوه الحسان في تلك الساعة خليقة

بفرشاة مصوّر . فمنهنّ من توردت خدودهنّ استحياء ومنهنّ من ابدينَ عدم الاهتمام وغيرهنّ اجفلنَ رعباً او دلاً وغيرهنّ اجهدنَ النفس في التبسم وقهقه البعض الاخر فلم تفت الفارس اشارة ولا بادية ولكنه وقف اخيراً امام مقعد السيدة روانا فساد السكوت على الجمع وتطالت الاعناق

لا يليق بنا اهمال ذكر الحمية والتحمس اللذين ابداهما سادرك السكسوني بينما كان الفارس المحروم يكرّ على منازليه فكنت تراه واقفاً في مقعده وعيناه تكادان تلتهبان ونصفه الاعلى منحنٍ فوق الحاجز يتبع بانظاره كل حركة تبدو من الفارس ولم تكن عينه فقط تتبع تلك الحركات بل كان قلبه وروحه ايضاً . وكذلك فعلت السيدة روانا . فكانت تراقب حركات الفارس وسكناته بكل انتباه ولكنها تمكنت من ضبط عواطفها فلم يبدُ عليها ما بدا على سادرك . واثلستاين نفسه على فتور نشاطه برقت عيناه وطلب كاساً من الخمر وشربه على محبة الفارس المحروم

وكان هنالك شخص آخر يظهر اهتماماً بامر الفارس المحروم نعني به اسحق اليهودي الذي كان وابنته رفقة يراقبان دخول الفارس وهجومه . فلما شاهد اسحق ذلك الهجوم وذلك الاشتباك صاح قائلاً :

« يا ابي ابرهيم ! ما اشد قساوة هذا الفارس على فرسه المجلوب من بلاد البربر فكاني بقيمة الجواد لا تزيد في عينيه عن قيمة جحش ابن اتان . والدرع ! تلك الدرع الميلانية التي تساوي من المثاقيل الوفاً فضلاً عن الربا . يا ابي ابرهيم ! »

فقالت رفقه ألا ترى يا ابي ان الفارس لم يتقِ الطعنات فهل تخاله والحالة هذه دافعاً الضربات عن الدرع والفرس ؟

فصاح اسحق : اصمتي يابنيةً فانكِ لا تعلمين بما تنطقين . جسمه وعنقه ملكٌ لهواما الفرس والدرع فهما ملك . . . يا ابي يعقوب ! كدت أُفشي سراً . . . على ان الشاب

يا رفقه محمود الطوية . انظرسي يا رفقه هوذا الفارس على وشك الهجوم ثانية على الفلسطيني . ابتهلي يا بنية وتوسلي الى الله ان يحرس الشاب الباسل والفرس السريع والدرع المتينة ايضاً . يا اله ابائي ! هوذا قد انتصر ! هوذا الفلسطيني غير المختون يسقط تحت طعنة رمحه النجلاء كما سقط ملك باشان وملك الاموريين بحد سيف اجدادنا . سوف يغنم منهم ذهباً وفضة . مثاقيل عديدة . سوف يغنم افراسهم وعددهم . سوف يربح الفولاذ والنحاس ايضاً

هذا شأن اسحق اليوركي لدى كل هجمة كان الفارس المحروم يهجمها وكثيراً ما كان يقدّر اثمان الدروع التي غنمها الغالب

اما الفارس المحروم فقد تركناه واقفاً امام مقعد سادرك وجماعته

وقف الفارس متردداً كانه لم يصمم على امر ما بعد بينما كانت عيون الالوف تراقب حركاته المنظورة بكل دقة واهتمام . ثم اخذ في خفض رمحه شيئاً فشيئاً وطرح التاج على اقدام السيدة روانا . ولم يكد يلامس التاج الارض حتى ارتفعت اصوات البوقات تخترق اثير الفلك ورفع المنادون اصواتهم منادين بروانا ملكة للحب والجمال في اليوم التالي وذاكرين العقاب الذي ينال كل من يخالفها امراً او يخرج عن طاعتها ثم ختم المنادون بقولهم « الهبة ! الهبة ! »

فالقى اليهم سادرك بما كان معه من الذهب وهو يكاد يطير فرحاً . وكذلك فعل اثلستاين

غير ان عمل الفارس لم يقع موقع القبول لدى السيدات النورمنديات اللواتي لم يعتدنَ رؤية الاكرام والاحترام موجهين الى احدى السكسونيات ولم يكن كدرهنَّ اقل من كدر الفرسان عندما رأوا الغلبة ترافق خمسة من ابطال رجالهم وذلك في ميدان وبسلاح كانوا قد ادخلوه هم بانفسهم الى تلك البلاد . غير ان مرارتهم لم تقوَ

على اخماد نار الحمية التي شبت في صدور الشعب . لان بعضه اخذ يصيح قائلاً « لتحيَ السيدة روانا المنتخبة شرعاً ملكة للحب والجمال » والبعض الآخر وغالبهم من الطبقة الحقيرة كانوا ينادون : « لتحيَ الاميرة السكسونية ! لتحيَ سلالة الفرد الابدية » واما البرنس يوحنا فلم يرَ بدًّا من مجاملة الشعب وان كان قد ساءه نداؤهم والموافقة على ما فعله الظافر وعليه امر بجواده فامتطاه ودخل الساحة تتبعه حاشيته ولما مرَّ امام السيدة اليسيا توقف وحياها ثم التفت الى اتباعه وقال : « قسماً بمن أومن به ايها السادة لئن تكن اعمال الفارس في ساحة الطعان قد دلّت على وجود عصَب وعضَل في جسمه فانتخابه دلَّ على نقص في الذوق وضعف في النظر »

ولم يكن كلام البرنس هذا ليزيد ولدماير فتزور الا كدرًا لانه سمع البرنس الذي لعدم ترويه وعجزه عن معرفة اخلاق اتباعه (وهي احدى مصائب البرنس يوحنا التي رافقته مدة حياته) يذكر علانية وعن جهل الاهمال الذي لحق بابنته وينبه السامعين اليه وهي اهانة وان لم تكن مقصودة . فقال :

« اعرف حقاً من حقوق الفرسان الاشراف يجب ان يكون اعظم تقديساً من اطلاق الحرية لهم في اختيار الحسناء التي يرومون الهيام بحبها واما ابنتي فهي ليست من اللواتي يتطفلنَ على قلوب الفرسان ولا ممن يعرضنَ حبهنَّ على ايٍّ من البشر غير ان ذلك لا ينفي كونها حاصلة في مركزها والمحيط الذي هي فيه على الاكرام والميل اللذين هما من حقها »

فلم يجب البرنس بحرف ولكنه اعمل المهماز في شاكلة جواده كانه يروم بفعله هذا اخفاء الغيظ الذي لحقه من كلام تابعه . فتخطى به الجواد الحاجز الخشبي ووقف امام مقعد روانا ولم تكن قد تناولت التاج بعد وقال

« ارفعي ايتها الحسناء شعار عظمتكِ واعملي بالسلطة التي ينيلكِ اياها . فانا اشد

وعاياكِ اخلاصاً واسرعهم الى طاعتكِ واذا شئتِ وشاء والدكِ الشريف وقومكِ الكرام قبول دعوتي الى معقل اشبي اهتممنا بارضاء ملكة الغد »

فارتج على روانا فبادر سادرك الى نجدتها وقال باللسان السكسوني :

« لا تقوى السيدة روانا على النطق بشكر سموكم وكذلك انا والشريف اثلستاين لا ننطق بغير لسان ابائنا ولا نمارس غير عوائدهم فعليه لا بدّ لي من رفض دعوة سموكم مع ابداء شكري الجزيل لتنازلكم اذ دعوتنا الى وليمتكم . غير ان السيدة روانا سوف لا تتأخر في صباح الغد عن القيام بما تطلبه منها العوائد بعدما دعاها الفارس الظافر الى تلك الوظيفة ووافق على تلك الدعوة الشعب بهتافه واستحسانه »

قال هذا وتناول التاج ووضعه على راس روانا علامة قبولها وامتثالها

فالتفت البرنس الى اتباعه وتظاهر بعدم فهمه لغة السكسون مع انه كان يحسنها وسأل : « ماذا يقول ؟ » فافهمه احد اتباعه بالافرنسية ما قاله سادرك فقال :

« حسن فسنقود في الغد هذه الملكة الصامتة الى عرشها بنفسنا . واما انت ايها الفارس — مخاطباً الفارس المحروم — فلا اخالك ترفض دعوتنا »

فاعتذر هذا بصوت ضعيف بتعبه ووجوب التجهز لميدان الغد . وكانت هذه اول مرة تكلم فيها هذا الفارس

حسن . قال البرنس . سنسعى في اهتضام طعامنا كيف كان الحال على غياب فارس اليوم وملكة الغد

واذ قال هذا حوّل راس جواده ليترك الميدان . وكان عمله هذا اشارة الى الجمع بالارفضاض . غير انه أبى ان يضرب صفحاً عما لحقه من الغيظ سحابة ذلك النهار والمقاومة التي جرحت كبرياءه وخيلاءه فالتفت وفي عينيه غضب لا يوصف وحقد ولده ما ذكرنا الى صاحب القوس الذي حادثه قبل وكان له معه ما ذكرناه في محله

وقال لاحد رجاله « اذا هرب هذا الرجل قطعت رأسك »

اما صاحب القوس فلم يخفض نظره امام نظرات البرنس الحادة ولم يظهر اقل اهتمام وقال وهو يتبسم : لن اترك هذا الميدان قبل يومين لان غرضي من الحضور اليه مشاهدة افعال الرماة الذين تتجهم احراج هذا القسم من البلاد ولست بذاهب قبل مشاهدة افعالهم

لما انا · قال البرنس لاتباعه فاروم مشاهدة حذقه في الرماية والويل له اذا لم يشفع حذقه بقلة ادبه الذي ابداه امامي

اما ولدماير فهزّ منكبيه ولم يتكلم كانه بفعله هذا يروم افهام اميره ان اعماله هذه لا تكسبه الشهرة التي يريدها ولا تقرّب قلوب الشعب منه · فعل هذا وتبع البرنس الذي ترك الميدان · وكذلك فعل الجمهور

وهكذا اخذ الجمع في الرجوع الى الامكنة التي اعدّها لمبيته · وقصد القسم الاكبر منهم بلدة اشبي · منهم الاشراف واصحاب الرتب المدعوون الى الوليمة والمبيت في القلعة يسيرون في ركاب البرنس يحيط بهم الجمع الغفير وهو يهتف استحساناً لما فعله بعض الفرسان في ذلك اليوم وتشوُّقاً الى مشاهدة ما سوف يفعله غيرهم في الغد

اما الفارس المحروم فقبل دعوة مديرَي الميدان الى المبيت في احد المضارب وداخله مسرعاً تخلصاً من هتاف الشعب الذي لا اثر للتملق فيه واجتهادهم في تفحص امره ومعرفة حقيقته

ولم يمضِ طويل وقت حتى زالت اثار الجمع من ذلك المرج ولم يعد يسمع فيه سوى حركة الخدم في نقلهم المساند عن المقاعد وصوت مطارق الحدادين الذين اخذوا في اصلاح ما تعطل من الدروع وتجهيز غيرها للغد ووقع حوافر جياد الحرس الذي اقيم على حراسة الميدان مدة الليل

﴿ ١٠ ﴾

ولم يكد يبلغ الفارس المحروم باب مضربه حتى اسرع اليه عدد من الخدم وعرضوا عليه خدماتهم وتقدموا اليه بان يأذن لهم في نزع سلاحه ودرعه وربما كان تشوقهم لمعرفة حيثية الفارس الذي ابى ان ينزع خوذته عندما امره البرنس هو الدافع الى هذه المروءة اما هو فرفض خدماتهم شاكراً ودخل المضرب يتقدمه اليه خادمه · وكان يستر جسم هذا الخادم قباء من قماش اسود وعلى راسه قبعة من الفرو تغطي الراس والقسم الاعلى من الوجه

ولما دخل الفارس المضرب نزع عنه خادمه اجزاء الدرع الثقيلة والبسه جبة طويلة واسعة الاطراف يتصل بطوقها قبعة تستر الراس والوجه معاً اذا شاء لابسها ذلك وقدَّم له طعاماً وخمراً

ولم يكد ينتهي الفارس من الطعام حتى دخل عليه خادمه واخبره بقدوم خمسة خدم تقود خمسة جياد مدرَّعة · فاخفى الفارس وجهه بالقبعة التي ذكرناها وخرج الى باب المضرب فرأى خدم الفرسان الخمسة الذين قهرهم في ذلك اليوم تقود جياد مواليها وتحمل العدَّة التي حاربوا بها

فلما رأوه قال احدهم : قياماً بما تقضي به شروط الفروسية انا بلدون خادم الفارس براين بواجلبرت الهيكلي اقدم الى الفارس المحروم (ما دمت غير عارف له غير هذا الاسم) الجواد والعدَّة التي حارب بها الفارس براين المذكور هذا النهار تاركاً الحكم لمروءة الفارس المحروم في ابقائها او قبول فدية عنها

وهكذا فعل الاربعة الباقون ذاكرين اسماء مواليهم على نحو ما ذكر هذا · فاجاب الفارس المحروم مخاطباً الاربعة ومستثنياً خادم الهيكلي قائلاً :

اما انتم فجوابي لكم واحد وهو انقلوا اكرامي واحترامي لسادتكم النبلاء والشجعان

وقولوا ان المروءة تأبى عليَّ ان احرمهم جياداً وعُدداً لا ينصفها ولا يستحقها غيرهم وكنت اود ان يكون هذا آخر كلامي لهم ولكن مركزي (ويدلكم عليه اسمي) يضطرني الى اخذ فدية عن هذه الجياد والعُدد لان ما معي ليس بملكي

فقال احد الخدم . لقد امرنا ان نقدّم مئة دينار فدية كل جواد وعدّة

— يكفيني نصف هذه القيمة واما النصف الآخر فخذوا انتم نصفه واقسموا ما بقي بين المنادين والمبوّقين

فانحنى الخدم وقبعاتهم في ايديهم شكراً واعجاباً بكرم قلما تعوّد خدم تلك الايام صدوره من مواليهم . ثم تحوّل الفارس المحروم الى خادم الهيكلي وقال : واما انت فقل لسيدك انني لا اقبل منه جواداً ولا عدّة ولا فدية الى ان انصفه بالرمح والسيف راكباً وراجلاً لانه هو الذي جرّ نفسه الى هذا وهو الذي طلب هذه الحرب الدموية وعليه لا يمكنني ان ابادله المجاملات المعروفة فضلاً عن كونه عدوّي الشديد وبيننا امر لا يزيله غير هلاك احدنا

فقال الخادم : سيدي يعرف كيف يقابل الاحتقار بمثله والطعنة بمثلها كما انه اهل لردّ المجاملة باحسن منها ولما كنتَ قد رفضت قبول شيء من القيمة التي دفعها رفاقي فساترك هذا الجواد وهذه العدّة عند باب هذا المضرب لان سيدي لن يستخدم احدها فيما بعد وتأبى عليه شهامته لمس احدها لانها ليست ملكه

احسنت ايها الخادم! قال الفارس . احسنت والله وقلتَ ما يتوجب على خادم قوله محاماةً عن اسم سيده الغائب وسمعته . ارجع هذه الى سيدك واذا رفض قبولها فخذها انت لانها لي كما تقول ولي ان اهبها لمن اشاء

فانحنى الخادم ورجع من حيث اتى مع رفاقه واما الفارس فدخل المضرب وهو يقول : اي كارث لم يلحق بشرف انكلترا عار بواسطتي ولم يلصق بفروسية رجالها

موصمة بسببي

— وانا ايضاً يا سيدي لانه مع كوني لا ازيد عن راعي خناز ير سكسوني فقد مثلت دور خادم الشرف وحامل السلاح النورمندي حق التمثيل

— ولكنني كنت اخشى طلعتك ان تنمّ عليك

— ها ٠ ها ٠ لا اخشى سوى رفيق المهذار ومبا الذي لم اتمكن بعد من معرفة حقيقة حاله وهل هو احمق حقيقة ام هو ماكر خبيث ٠ غير انني لم اتمالك نفسي من الضحك عندما مرّ سيدي بجانبي وهو يحلم بان راعي خنازيره ساهر على بعد اميال عديدة فاذا عرف بامري ٠ ٠ ٠ ٠

— كفى ٠ وهل نسيت وعدي لك ؟

— كلاّ لم انسَ وفضلاً عن ذلك فانا لست ممن يضنّ بجلده على صديقه فجلدي سميك وعنده السوط والخنجر سواء وهو اشبه بجلود رعيتي

— لا تخشَ بأساً يا كارث فسأزيل عنك ما يتهددك بحبي وحمايتي ٠ خذ هذه الدنانير العشرة

فتناول كارث النقود وهو يقول : تزيد ثروتي الان عشرة دنانير عن ثروة اي راعٍ او عبد في هذه البلاد ٠ فوا فرحي !

— كفى ! قال الفارس واحمل هذا الكيس الى اشبي واطلب اسحق اليهودي اليوركي فاذا وجدته فادفع له هذا الكيس ليتناول منه ما شاء ثمناً لجواده ودرعه

— لا وحق القديس دنستان !

— انعصي اوامري ايها العبد ؟

— حاشاي يا سيدي ٠ فانا لا اخالف لك امراً شرط ان يكون عادلاً مسيحياً لا يجحف بامانتي ٠ فما امرتني به الان هو الكفر بعينه ٠ اذا أذنت لليهودي ان يأخذ

ه شاء كنت خائناً لسيدي وخلياً من كل امانة · وامرك هذا ليس من العدل في شيء بل هو من الحق بمكان · وليس مسيحياً لان من ينهب مسيحياً ليلاً جيب يهودي كان كافراً لا نصيب لهمن المسيح

— أرضيه اذاً يا صلب العنق

— سافعل وابيك · قال هذا وتناول الكيس و خفاه تحت ردائه وهو يخاطب نفسه قائلاً : سوف لا يجدني اسحق غنيمة باردة وسوف ادفع اليه نصف ما يطلبه · ثم خرج من المضرب تاركاً سيده لافكاره المضطربة والمؤلمة

ولننتقل بالقارىء الان الى بلدة اشبي الى بيت في ضواحيها يقطنه اسرائيلي مثر اضاف اسحق وابنته وحاشيته

لا يخفى ان اليهود مما اشتهر عنهم من القسوة في المعاملة ورفض مساعدة من كانوا يدعونهم عبدة الاوثان كانوا ولا يزالون على جانب عظيم من السخاء وحسن الضيافة · في البيت المذكور وفي غرفة صغيرة يزينها الرياش الشرقي الثمين كانت رفقة قاعدة على عدد من الوسائد المزركشة على مقعد ناتىء من جدران الغرفة يغني اصحابها عن الكراسي والمقاعد على نحو « الدواوين » المعروفة في الشرق · وكانت رفقة تراقب حركات والدها باهتمام زائد لانه كان يخطر في ارض الغرفة بقدم غير ثابتة وظواهر مرتبكة وكثيراً ما كان يضم يديه و يرفع نظره الى سقف الغرفة شأن المضطرب الافكار يطلب راحة لها من حيث لا يدري · ثم صاح : « آه يا يعقوب ! آه يا آباء الاسباط الابرار ! ما هذه الصفقة الخاسرة التي لحقت بمن حافظ على الوصايا كافة ولم يهمل حرفاً ان كبيراً او صغيراً من الناموس ؟ خمسون درهماً تختطف من يدي دفعة واحدة وتنشب بها مخالب ظالم عات ؟ آه يا ابرهيم » وضرب كفاً بكف

— ولكنني رأيتك تدفع تلك الدراهم للبرنس عن رضى وقبول يا ابي

— عن رضى ! عن قبول ! لتسقط ضربات على رأسه · اعن رضى تقولين ؟ رضاي عن هذه كان كرضاي عن طرح امتعتي في خليج ليون لاخفف حمل المركب — كسوت الامواج بافخر القشتي الحريرية · عطرتها باللُبان والمرّ · اغنيت اعماق البحر بالمصنوعات الذهبية والفضية · ألم تكن تلك الساعة ساعة نحس وشؤم وتعس وبؤس وتألم مع ان يدي هي التي ضحت تلك الضحية

— ولكن السمء قبلت تلك المحرقة يا ابي ورضي العلي عن عملك · ألا يبارك اعمالك ؟ ألم يضاعف مقتنياتك ؟

— بلى · ولكن ما قولكِ اذا وضع الظالم يده عليها وحرمني اياها كما فعل اليوم وانا لا اقوى على غير الابتسام الاضطراري ؟ الحق اقول لكِ يا بنية ان كل الاحتقار اللاحق بشعبنا سهل بجانب ضحك الغير منا عندما نُظلَم ونُنهب ثم نتبسَّم تبسُّم الرضى بدلاً من ان ننشط الى الانتقام بعزم وشجاعة

— اطرد عنك هذه الافكار يا ابتي · نحن لنا مميزات عديدة · فمع ما هم عليه هولاء من العسف والظلم والقسوة تراهم لا مال لهم وهم يعتمدون على شتيت صهيون المحتقر المهان المضطهد لانهم بدون مساعدة اموالنا لا قِبل لهم بتجنيد الجنود ابّان الحرب ولا بالاحتفال بنصراتهم وقت السلم · والمال الذي نقدمه لهم يرجع الى خزائننا بالارباح الفاحشة · فنحن كالاعشاب التي لا يزيدها دوس الاقدام الاّ خصباً · وهذا فارس هذا النهار لم يحرز ما احرزه الاّ بمساعدة مالنا

— لقد غمزتِ وتراً آخر في قلبي يؤلمني غمزه يا رفقه · لان ثمن الجواد السريع والقوي والدرع المتينة الثمينة يعادل ربحي بمعاملتي مع كرجاث جيرام وهذه خسارة اخرى تستغرق ارباح اسبوع كامل — ارباح ستة ايام بين سبت وسبت ولكن مع كل هذا قد تكون الخاتمة اكثر ربحاً من البداية لان ذلك الشاب حسن الطوية

— هل ندمت يا ابي على مكافأة الرجل الذي بادأك بالخير ؟

— املي ان يفي المسيحي ما عليه من الدين لليهودي دون ان يضطره الى ذلك القاضي والشرع كأملي برؤية اسوار اورشليم قد جدد بناءها جند اسرائيل . قال هذا وعاد الى سابق خطرانه وقلقه . فلما رأت رفقه اخفاقها في اقناع والدها وازالة قلقه اخلدت الى السكوت وهي حكمة حرية بان يعمل بها كل من اخلص النصيحة او الارشاد او التعزية لانه كثيراً ما يفتح بنصيحته او ارشاده او تعزيته ابواباً هو ساع الى اقفالها

وكان الظلام قد اطبق . فدخل الخادم الغرفة بمصباحين من الفضة يتقد فيهما زيت مطيب . وخادم آخر يحمل طبقاً عليه الخمور والمآكل الفاخرة لان اليهود لا يبخلون على انفسهم بواحد من اسباب الرفاهية داخل جدران منازلهم

وبعدما رتب الخادمان ما كانا يحملانه من الآنية على منضدة كانت في الغرفة قال احدهما ان بالباب نصرانياً يطلب مواجهة اسحق . ولما كان رجل العمل النشيط لا يقدم شيئاً على عمله ارجع اسحق كأساً من الخمرة كان قد وضعها على شفتيه دون ان يذوق ما فيها وامر رفقه بالتبرقع والخادم بادخال الرجل

ولم تكد رفقه ترخي قناعها المنسوج من خيوط الفضة الدقيقة وتسترجع الفتان حتى دخل كارث ملتفاً بردائه يمشي بقدم المرتاب وبدلاً من ان ينزع قبعته شد اطرافها المدلاة على وجهه مبالغة في التنكر بحيث سترجميع اجزاء وجهه . فعل ذلك وسأل قائلاً :

— أأنت اسحق اليهودي اليوركي ؟

— انا هو فمن تكون ؟

— لا يهمك معرفة اسمي اجاب كارث

— يهمني معرفة اسمك كما يهمك معرفة اسمي قال اسحق لانه كيف اتمكن من

التعامل معك وانا لا اعرف لك اسماً ؟

— معرفة اسمك تهمني قال كارث لانني سادفع نقوداً ولا اروم دفعها الا لشخص معيّن. اما انت فستأخذ نقوداً ولا يهمك معرفة اليد التي تناولك المبلغ

— اتيت لتدفع دراهم ! ! نقوداً ! فضة وذهباً ! يا ابي ابرهيم ! ! صدقت. صدقت لا همَّ لي بمعرفة اسمك ولكن من اتيت ؟

— من الفارس المحروم لادفع لك ثمن الدرع التي دفعها اليه كرجاث جيرام مع الجواد فقد أرجع الى صاحبه

— لقد قلت لك يا رفقه ان ذلك الشاب حسن الطوية كريم . اشرب ايها الصديق كاس الخمرة هذه فهي لذيذة وانت تعب في حاجة الى مثلها . والان كم هو مبلغ النقود التي معك ؟

— يا قديسة مريم ! صاح كارث بعد ما افرغ الكاس في جوفه وارجعها « ي كوثر يشربه هولاء الكلاب ونحن المسيحيين لا نشرب غير الخمر الكدر وهو اشبه بشراب الخنازير . كم معي من النقود ؟ شيء زهيد . ويلك يا اسحق يجب ان تكون صاحب ذمة ولو كانت ذمة يهودية »

— مولاك غنم بقوة ذراعه ورمحه جياداً ودروعاً — ولكنه شاب حسن الطوية — فاليهودي يقبل هذه الجياد والعدد في الوقت الحاضر ثم يرجع الى سيدك شيئاً من المال بعد خصم ما له في ذمته

— ولكن سيدي قد تخلص من الجياد والعدد صفقة واحدة

— لقد اساء سيدك الصنيع وارتكب جهلاً وخطأً فاضحاً . ألا تعلم انه لا يوجد في هذه الناحية بين المسيحيين من يملك ثمن تلك الاشياء ولا بين اليهود من يدفع في مقابلها نصف قيمتها غيري على انني ارى مئة من الدنانير في ذلك الكيس

— هذه رؤوس سهام يا اسحق

— حسن ! قال اسحق وهو يلهث لان الطمع في الربح من جهة ورغبة انه من حيث لا يدري في اظهار الكرم في هذه الدفعة من جهة اخرى كانا يتنازعان الاسبقية في صدره · « حسن ! ولنفرض انني رضيت بثمانين ديناراً اهل توجد معك تلك القيمة؟

فعجب كارث لتساهل اليهودي وقال لم نترك لسيدي سوى النزر اليسير يا اسحق ولكن اذا كنت لا ترضى بغير هذه القيمة فلا ارى بدًّا من دفعها

— اشرب كأساً اخرى ايها الصديق واسمع · ثمانون ديناراً مقدار زهيد وترى انني لم انقاضَ شيئاً ازاء استخدام الدراهم وعدا ذلك ما ادراني ان الجواد لم يلحقه اذى في ذلك النزال العنيف ؟ فالنزال كان عنيفاً والفارسان وجواداها انقضاً كل على خصمه انقضاض ثيران باشان ولا اشك في ان اذية قد لحقت بجوادي

— وانا لا اشك ان في سبعين ديناراً كفاية لان الجواد سليم وفي مربطه الان والدرع لا تسوى اكثر من هذه القيمة فاذا لم تكتفِ بها رجعت من حيث اتيت

— لا ترجع — لا ترجع · ادفع الوزنات · المثاقيل · ادفع الثمانين ديناراً واذكر انني عاملتك بكرم

فرضي كارث وعدَّ سبعين ديناراً اولاً فتناولها اسحق وعدَّها ايضاً والقاها في كيسه ثم استخرج كارث عشرة غيرها وناولها لاسحق فاخذها هذا ويده ترتجف فرحاً واخذ يعدُّها والسرور بادٍ على وجهه

واحد وسبعون — اثنان وسبعون — سيدك شابٌ حسن الطوية · ثلاثة وسبعون — اربعة وسبعون · على دائرة هذه القطعة ثلم · خمسة وسبعون · وهذه خفيفة في وزنها · ستة وسبعون — عندما يرى سيدك نفسه في حاجة الى النقود فليطلب اسحق اليوركي · سبعة وسبعون — ولكن بضمانة كافية

ولما بلغ اسحق هذا الحد من العد توقف هنيهة فأمل كارث بان القطع الباقية لا تلحق باخواتها غير ان امله خاب لان اسحق رجع الى ما كان فيه وقال : ثلاثة وسبعون — انت رجل حسن الطوية ايضاً - تسعة وسبعون - وتستحق جزاء تعبك

وتوقف ايضاً كانه يروم دفع ذلك الدينار الى كارث واخذ يتأمل فيه و يزنه على طرف اصبعه ثم القى به الى المنضدة واصغى الى رنته فوجده تاماً مستوفياً فالقاه في الكيس ولولا ذلك لغلب الكرم على البخل ونال كارث ديناراً واضافه الى العشرة التي حصل عليها من سيده

فعل اليهودي ذلك وقال : « هذا تمام العدد وانا واثق بكرم سيدك وانه سوف يكافئك على الخدمة بما بقي من النقود في كيسك هذا »

فكشّر كارث عن انيابه · وكان التكشير عنده كالابتسام وقال : يوجد فيه بقدر ما نقدتك · ثم طوى الوصول الذي دفعه اليه اسحق ووضعه تحت قبعته وتقدم من المنضدة وسكب كاساً من الخمر وشربها وخرج · وكان اسحق محدّقاً فيه فلما رآه قد خرج قال : « غلبني الخبيث يا رفقه ولكن لا بأس ٠٠٠٠ فسيده شاب كريم النزعة و يسرني ان اراه قد ربح وزنات عديدة من الذهب والفضة ولو كان الفضل في ذلك للجواد والدرع كما كان فضل داود في قتل جليات الجبار الفلسطيني للمقلاع والحجر »

ثم لفت راسه الى رفقه ليسمع جوابها فلم يجدها لانها كانت قد خرجت من الغرفة بينما كان ابوها منهمكاً في عدّ النقود

اما كارث فلما خرج من الغرفة وجد امامه سلماً فانحدر عليها الى رواق مظلم ووقف حائراً في اي طريق يسير ليبلغ الخارج · وبينما هو في هذه الحيرة ظهرت امامه امرأة بلباس ابيض بيدها مصباح فضي واشارت اليه بان اتبعني وكانت المرأة مقنّعة فاخذت الرعبة من كارث مأخذها لانه كان كجميع ابناء عصره يخشى الغزلان

وعفاريت الغابات والنساء المترديات بالبياض واشياء اخرى خرافية اتى بها اجداده من غابات جرمانيا وفضلاً عن ذلك كان الاعتقاد بان اليهود اعتادوا التغذي بالدماء البشرية شائعاً في تلك الايام · ولكنه تبع المرأة الى احدى الغرف وشدّ ما كان سروره حينما وجد انها رفقه اليهودية الحسناء · فسألته عن ختام الامر بينه وبين ابيها فقص عليها ما جرى فقالت :

لقد انصفك والدي لان الجواد والدرع لا تساوي جزءاً من الفضل الذي بدا به سيدك ولو كانت قيمتها الحقيقية عشرة اضعاف ما دفعت فالفضل لا يكافأ بالدرهم بل بمثله والبادئ هو السابق على كل حال · كم نقدت ابي ؟

— ثمانين ديناراً

— تجد في هذا الكيس مئة دينار ارجع منها الى كيس سيدك ما اخذته منه وابقِ ما يبقى لنفسك · اخرج من هذا البيت ولا تتوقف لتبدي شكرك واياك والوقوف في هذه البلدة لئلا تفقد مالك وتخسر عقلك · رأوبين ! وصفقت كفيها فدخل احد الخدم فقالت : خذ هذا الرجل الى الباب ولا تغفل عن اقفاله بعد خروجه

فقاد رأوبين كارث الى الباب واخرجه ثم اخذ في ارجاع الاقفال والسلاسل الى اماكنها كانه حارس سجن والسكان مسجونون يخاف عليهم من الهرب · ولما رأى كارث نفسه خارج الدار صاح : قسماً براس القديس دنستان ان هذه الفتاة ليست من اليهود في شيء · هي ملك من السماء · عشرة دنانير من سيدي وعشرون من حريدة صهيون · آه ما اسعدك من يوم · يوم آخر كهذا ثم يتمكن كارث من افتداء نفسه ويصبح حرّاً كاحد الناس ويطرح عن كتفه بوق الخنازير وعصاها ويشتمل السيف والترس ويتبع سيده الى الموت ولا يخشى اذ ذاك اظهار اسمه او وجهه

١١

لم تكن اختبارات كارث قد انتهت بعد لانه بعد ان طاف في اطراف البلدة وصل الى مسلك ضيق على جانبيه غرس كثيف من الشجر والهشيم تظلل بعضه اشجار السنديان الممتدة اغصانها الى الجانبين فتحجب بكثافتها نور قمر الحصاد فيتعذر المسير على المارة في ذلك المسلك الذي لم يكن يخلو من خطر العثار

وكانت اصوات المحتفلين في البلدة مع بعض الانغام الموسيقية المتقطعة واصوات الهرج وعدم الانتظام والترتيب تصل الى آذان كارث فتقلقه لانه علم ان البلدة كانت مزدحمة بذوي الرتب والاشراف من لم تكن الالقاب عندهم سوى ستار يخفي دناءتهم ودعارتهم وممتلئة باتباعهم المقلقين

« صدقت اليهودية ! » قال كارث مخاطباً نفسه وهو لا يزال في ذلك المسلك . اقسم بالسماء وبالقديس دنستان انني كنت اود ان اكون في نهاية سفرتي هذه الان ويعلم الله انني لولا هذا الكنز الذي احمله لما اهتممت بامر ما ولست اخشى قطاع الطرق بل هولاء الاشراف واتباعهم والرهبان والمغنين والمشعوذين الذين يجب ان يخشاهم من كان حمله درهماً واحداً فكيف بي وانا احمل هذا الكنز ؟ حبذا لو كنت خارج هذه الادغال المظلمة فانجو من كيد تلامذة مار نقولا (لقب قطاع الطرق في ذلك العهد) ومن غدرهم بي

وعليه اوسع كارث خطاه جاداً في الوصول الى منبسط يفضي اليه ذلك المسلك الوعر ولكن ابى عليه بخته فانه لم يكد يبلغ طرف المسلك حيث كانت الادغال شديدة الكثافة ولم يبقَ بينه وبين السهل سوى مسافة قصيرة حتى احاط به اربعة من الذين ذكرهم وصاح به احدهم قائلاً :

سلّمنا ما تحمله ايها الصديق لان شغلنا اراحة الشعب من اتعابه ومهنتنا تخفيف

احمال المارة

فقال ولم يبقَ له سبيل للغالبة لو تيسر لي ان اضرب ثلاث ضربات في سبيل صيانة حملي لما تمكنتم من تخفيفه عني بسهولة

سوف نرى ذلك قال الرئيس وقد انتهى من شدّ وثاق كارث ثم التفت الى رجاله قائلاً : سوقوا العبد لانني ارى رغبته شديدة في قطع بعض شرايين جسمه فضلاً عن قطع رباط كيسه ليرى التبعين ينزف دمهما معاً

فاستبشر كارث ومشى امام آسريه فادخلوه الى قسم من الغاب كثيف الادغال وكثير النجم والشجر الى ان بلغوا به فرجة بين الاشجار خالية من كل نبت سوى العشب لا تظللها الاغصان ولا الاوراق وبالتالي منارة باشعة القمر الضئيلة فوجد كارث هنالك رجلين انضما الى الاربعة كأن الجميع عصابة واحدة . وكانت اوجههم مستورة باوجه مستعارة بحيث لم يكن ريب في حقيقة مهنتهم

كم تحمل من النقود ايها العبد ؟ سأله احد اللصوص

ثلاثين ديناراً وهي مالي

فلتؤخذ منه ! فلتؤخذ منه ! صاح اللصوص معاً . سكسوني يملك ثلاثين ديناراً ونراه عائداً من البلدة ولا اثر للسكر عليه ؟

جمعت هذه الدنانير وحافظت عليها لانني قد عزمت على ابتياع حريتي بها

انت حمار . قال احد اللصوص . فانك تبتاع هذه الحرية بثلاث زجاجات من النبيذ فتشربها وتصبح سيداً لسيدك وعلى الاخص اذا كان سكسونياً نظيرك

« فاذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير »

« واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير »

حقيقة مؤلمة قال كارث ولكن اذا كانت الثلاثون ديناراً تكفي لابتياع حريتي

منكم خلوا يديَّ انقدكم اياها

مكانك ايها الرجل صاح احدهم بصوت الآمر وكانت هيئته اجمالاً تدلّ على السلطة كأنما هو رئيس العصابة ارى تحت ثنيات ردائك الصفيق كيساً يحوي اكثر من القيمة التي ذكرتها

هذا مال سيدي ولم اكن لاذكره لو اكتفيتم باخذ مالي

احسنت ايها الخادم الامين «قال اللص» واعلم اننا لسنا من اتباع القديس لوقا المتعصبين له وندلُّك على طريقة تتمكن معها من النجاة والمحافظة على مالك ومال سيدك معاً وذلك اذا عاملتنا بالانصاف . اعطني هذا الكيس موقتاً . ثم تناول من تحت رداء كارث الكيس المحتوي على هبة رفقه وما بقي من مال سيده . « والان اطلعني على اسم سيدك »

الفارس المحروم

الذي حاز قصب السبق في هذا النهار وابلى البلاءَ الحسن ؟ ما اسمه ولقبه ؟

يرغب سيدي في بقاء اسمه ولقبه مجهولين ولا اراك واقفاً عليها بواسطتي

ما اسمك انت وما صلتك ؟ سأَل اللص .

اذا عرفت اسمي عرفت اسم سيدي

ما اخبثك من خادم فما لنا وللاسماء . قل هل هذه النقود بعض ارث سيدك المحروم ؟ وان لم يكن ذلك كذلك فباية واسطة توصلَّ اليها ؟

نالها بقوة يمينه وفروسيته فهذه فدية اربعة افراس وعُدد فرسانها

وكم عدد النقود ؟

مئتا دينار

مئتا دينار فقط ؟ سأَل اللص مدهوشاً . لقد تساهل سيدك مع خصومه وعاملهم

بكرَم يذكر فما هي اسماؤهم ؟

فذكر كارث اسماء الاربعة فقال اللص

ما هي القيمة التي طلبها سيدك مقابل عدّة وجواد براين الهيكلي ؟ أرأيت انك لا تقوى على خديعتي ؟

لا يكتفي سيدي من الهيكلي بسوى دمه الجاري في عروقه لان بينهما عداوة لا يزيلها الاّ الموت ولذلك لا يجامله كما يجامل سواه

احقاً ! صاح اللص وصمت هنيهة ثم استأنف قائلاً : وما هي المهمة التي قمت بها في اشبي الان ؟

ذهبت الى اسحق اليوركي لادفع اليه ثمن العدّة التي ابتاعها سيدي لميدان اليوم

وكم نقدته ثمنها ؟ اذا صح تقديري كانت محتويات كيسك لا تقل عن مائتي دينار

نقدت اسحق ثمانين ديناراً ولكنه ارجع اليّ مئة

كيف !! ماذا !! صاح اللصوص صيحة واحدة هل تجسر على الهزء بنا وتنطق في حضرتنا بهذه الاكاذيب ؟

قلت الحقيقة واذا فتحتم كيسي وجدتم المئة دينار في كيس على حدة

انت تتكلم عن رجل يهودي — اسرائيلي — ايها الرجل . صاح الرئيس . فايدي هولاء اشد جفافاً من رمال بلادهم وايسر ان ترجع تلك الرمال الماء الذي يهرقه الزائر عليها الى الكاس من ان يرجع يهودي ديناراً وصل اليه

الشفقة الموجودة في قلوب هولاء اليهود قال احد اللصوص تعادل الرحمة الموجودة في قلوب عمال الحكومة

فقال كارث ولكن ما قلته هو الحق الصراح

فصاح الرئيس برجاله قائلاً : اشعلوا شمعة فسأتفحص هذا الكيس واذا وجدت

فيه ما ذكره هذا الرجل كان عمل اليهودي اغرب من تفجر الماء من الصخرة ليرتوي به اجداده

فاضاؤوا نورًا وهمّ الرئيس بالكيس وفتحه لتفحّص محتوياته واجتمع الباقون حوله واكبّوا مثله على الكيس وكان بين هولاء الرجلان القابضان على كارث ولعظيم اهتمامهما بمحتويات الكيس اهملا امر كارث فتملص من قبضتهما واوشك ان ينجو لو لم يخاطر بنفسه لانتشال كيس سيده من ايدي اللصوص فاستخلص من يد احدهم هراوة وضرب بها رئيس العصابة ضربة على ام راسه وانقضّ على الموكلين بالكيس ليستخلصه من ايديهم . الاّ ان حذر هولاء الدائم وسرعة حركتهم واستعدادهم لكل مفاجىء — امورٌ اكسبتهم اياها ضرورة معيشتهم ومهنتهم — عاقت كارث فتمكنوا من استرجاع الكيس وتغلبوا على الخادم الامين واوثقوه . وللحال نهض الرئيس وانتهر كارث قائلاً « لقد كسرت جمجمتي ايها اللئيم » لان ضربة كارث كانت قد طرحته الى الارض . فلو كنت بين يدي غيرنا من المشتغلين بهذه الحرفة للقيت حتفك الاّ انك ستنال جزاءك بعد حين واما الان فدعنا نبحث في احوال سيدك مراعاةً لرتبته مقدمين السيد على العبد فاياك والحراك والاّ نالك الموت . ثم التفت الى رجاله وقال : ايها الرفاق انني ارى على الكيس احرفًا عبرية فالعبد صادق في قوله فعليه يجب ان نعفي الفارس من دفع ضريبة لخزينتنا لان حاله تشبه حالنا من وجوه عديدة ويجدر بنا اكرام اشباهنا كما ان الكلب لا ينهش كلبًا آخر بينما الثعالب والذئاب تحيط به من كل جانب

فسأله احد اللصوص « وكيف تشبه حاله حالنا ؟ »

ألا ترى ايها الغبي فقره وانه محروم ارثه نظيرنا ؟ ألا تراه يحصل على عيشه بحد سيفه نظيرنا ؟ ألم يعفّر وجه فرنت - دي — بوف وملفوازين بتراب الذلّ وهو عمل

خذنا تمنيناه ولسنا نحجم عنه اذا سنحت الفرصة ألا تراه عدوًّا الهيكليين حتى الموت؟
ذلك الرجل الذي يجب ان نرهب جانبه ونخشاه ولكن بقطع النظر عن هذه الامور
كلها هل تودُّون ان يكون اليهودي اسحق افضل منا واكرم ؟

كلاَّ وذلك عار علينا ايها الرئيس غير انني كنت احد رجال جاندلين وما كنت
لاهتم بامور كهذه واظن انك سوف تطلق العبد الزنيم ايضاً سليماً معافىً

نعم وسيتم ذلك اذا لم تقوَ على صرعه وترك بعض العلامات على جسده · اما انت
ايها الرجل فهل لك باستعمال تلك الهراوة التي هبت اليها وعاجلتني بها ؟

كيف رأيت فانت اعرف الناس باجابة هذا السؤال

اجابه الرئيس اي والله لقد كانت ضربتك صادقة واذا تمكنت من ايصالها بالطريقة
عينها وبالقوة نفسها الى راس هذا الرجل اطلقت سراحك وارسلتك في سبيلك سالماً
واذا عجزت عن ذلك ارى انه لا بدَّ لي من دفع فديتك من مالي ولو كنت عبداً

ثم التفت الى اللص قائلاً : « هراوتك ايها الطحان » والى اللصين الآخرين ان
ابتعدا عن الاسير وناولاه هراوة

فتناول كل من الرجلين هراوة وتقدَّما الى وسط الساحة حيث كان نور القمر
شد لمعاناً وقبض كلٌّ على وسط هراوته وتهيأ للهجوم والدفاع بين ضحك اللصوص
وهتاف بعضهم تشجيعاً لرفيقهم

وهكذا اطبق كل على خصمه يصب ضرباته ويتقي ضربات الآخر فكنت لا تسمع
غير وقع الخشب على الخشب بسرعة غريبة حتى يخيل اليك ان المتخاصمين لا يقلّون
عن العشرة · وقد اظهر كل منهما دربة ودراية نادرتين حريتين بان تكتبا في بطون
التواريخ ويتغنى بهما شعراء ذلك العصر · غير ان نزال كارث والطحان بقي طي الخفاء
لم يدر به الناس لعدم وجود شاعر يصف حركاتهما و يرسم لضرباتهما صورة من

الكلام — كما جرت العادة في ما هو اقلّ اهمية من هذا تخليداً لذكر الابطال وسيرهم

وطالت مدة العراك واخذت الطحان حدّة ظهرت على وجهه اذ رأـــى خصمه عنيداً فغضب وازداد غضبه لهزء رفاقه وازدرائهم به . واما كارث فلم يتأثر واتخذ التؤدة قاعدة وهذه اهمّ مسببات الظفر في عراك كهذا يقرب مما يدعوه المصريون «لعب الشوم البلدي»

ولما رأى الطحان ثبات خصمه تفاقم غيظه فارسل ضرباته تباعاً وبسرعة غريبة كانها برَد يسقط من السماء . فلم يكن عمله هذا الا ليزيد كارث برودة وثباتاً فيتاقى ضربات اللص بهراوته الى ان اتعبه ورأى منه ضعفاً فانقض عليه وضربه ضربة اصابت جنب رأسه الايسر فطرحه يقيس عرض الارض بطوله

فهتف اللصوص قائلين : احسنت ! احسنت !! انصفته والله فلتحيَ انكلترا الى الابد ! هوذا السكسوني افتدى ماله وجلده والطحان قد لقي من يقهره

وكان الرئيس ينظر ويتبسم فلما شاهد فعل كارث صاح : سر في سبيلك ايها الصديق وسارسل بصحبتك رجلين من اتباعي يقودانك في اسهل السبل واقربها الى مضرب سيدك ويحميانك من مفاجئ قد لا يحسن معاملتك لان امثالنا كثار في هذه الغاب ولكن لا يذهبنَّ عنك انك رفضت اطلاعنا على اسمك واسم سيدك فاياك والسؤال عن اسمائنا او السعي وراء معرفة احوالنا ها نحن انذرناك

فشكر كارث للرئيس لطفه وحسن صنعه ووعده بملازمة الصمت ونسيان امره معهم وودعه وتبع اثنين من اللصوص كانا قد تناولا هراوتيهما وتقدماه في احد مسالك الغاب الى ان بلغا به طرفها فرأوا رجلين فتقدم احد حارسي كارث واسرّ لهما بشيء فاختفيا في الادغال فعلم كارث ان العصابة غنية بالرجال ومدرَّبة بدليل وجود حرّاس يحرسون محلّ الاجتماع وينذرون المجتمعين اذا كان ثمة من خطر

وبعد مسير قليل بلغ اللصان بكارث اكمة فرأى كارث امامه ساحة الميدان والمضارب تخفق فوقها الرايات وسمع الحرّاس يقصرون مدة السهر ويتعجلون الصباح بغنائهم

« نتركك الان لاننا لا نأمن الاقتراب من المضارب ولكننا لا نفعل ذلك قبل ان نعيد على سمعك انذار الرئيس فاذا تناسيت امرنا سلمت ونمت مرتاحاً وان انت افشيته فليس قوة تحت السماء تحميك من بطشنا

سمعتم مساء ياسيديَّ · فلن انسى اوامركما ولكن هل من ضرر اذا دعوت لكما بالاشتغال بمهنة اشرف من مهنتكما هذه ؟

فلم يجب اللصان وسار كل في سبيله — ووصل كارث الى مضرب سيده فقص عليه كل ما جرى مع انذار اللصوص له

وكان عجب الفارس المحروم عظيماً مما سمع · اذهله كرم رفقه الذي عزم على عدم الانتفاع به وادهشه كرم اللصوص لان مروءة كالتي ابدوها غريبة بين امثالهم ولكن حاجته الى الراحة اضطرته الى نفي هذه الافكار من رأسه · فاستلقى على فراش كان في المضرب ونام واما كارث فتمدد على جلد دب معارضاً باب المضرب لينهض لأقل حركة او طارق

١٢

بزغ فجر اليوم التالي بجماله وجلاله لا تشوب سماءه شائبة وقد ارتفعت فيها الشمس قبل ان ظهر اشدّ المتفرجين نشاطاً الذين يبكرون عادةً في احوال كهذه ليحصلوا على مقاعد مشرفة · ثم تبع هولاء على الاثر مدبرا الميدان واتباعهما يصحبهم المنادون · وكان تبكيرهما لمعرفة اسماء الذين يرغبون في النزال العمومي في ذلك النهار وليتأكد لهما تساوي الفريقين عَدداً وعُدداً ويتثبتا من رتب الفرسان خوفاً من تطفل السوقة على

حقوق الخاصة

وحسب العوائد المتبعة كان متحتماً على الفارس المحروم ان يقود احد الفريقين كما ان براين الهيكلي الذي عدَّ في الدرجة الثانية وبصحبته اولئك الذين حاربوا الى جانبه الاَّ احدهم الذي لم يتمكن من النزال لانه كما ذكرنا كان قد اصيب باضرار بالغة في عراكه مع الفارس المحروم

ومع ان اخطار هذه المعركة العمومية كانت اعظم من خطر مبارزة الخصم الواحد لخصمه لم يتعذَّر على المدبرَين ان يجدا كثيراً من الفرسان الذين كانوا على اهبة الانتظام في سلك المبارزين الى حد ان اضطر هذان المدبران الى انتخاب خمسين فارساً لكل فرقة ورفض الباقين

ولم تأزف الساعة العاشرة من ذلك الصباح حتى كنت ترى ذلك المرج يموج كالبحر بجماعة المتفرجين بين رجال ونساء · فرساناً ومشاة والكل يتدافعون لنيل المحال الاولى في المشهد · وبينما كان الجمع على ما ذكرنا ارتفعت اصوات الابواق ايذاناً بقدوم البرنس الذي بلغ الساحة يحف به عدد من الفرسان المتأهبين للنزال وكثيرون من المتفرجين

وانهم لكذلك اذ وصل سادرك السكسوني والسيدة روانا يصحبهما اثلستاين وعليه درع دقيقة الصنعة وقد تهيأ للانخراط في سلك المتبارزين ولكنه على الرغم من اعتراضات سادرك كان قد صرَّح بانحيازه الى جانب الهيكلي لسرّ لم يفشه لسادرك واما نحن فنفشيه بما للروائيين الحقيقيين من الحقوق المعروفة

كان اثلستاين يميل الى روانا على كثيف شعوره — لان جمالها مما يفعل حتى في نفس من كان شبيهاً باثلستاين — فلما رأى ان الفارس المحروم قد فضلها دون جميع المتفرجات لذعته نار الغيرة فانحاز الى خصوم الفارس المذكور ليس ليقهره فقط بل




ليستخلص الجائزة من يده ويذيقه من فأس حربه بعض الشيء اذا وقع تحت يده

ولما نظر البرنس السيدة روانا المنتخبة ملكة لذلك اليوم تظاهر بالسرور والمجاملة ونزل عن جواده لملاقاتها. فنزع قبعته ودنا منها يساعدها على النزول وكان اتباعه قد نزعوا قبعاتهم وترجل احد الممتازين بالشرف بينهم وامسك راس جوادها

فقال البرنس على هذه الصفة نظهر خضوعنا واخلاصنا لملكة الحب والجمال ليكون عملنا هذا مثالاً لغيرنا اليوم. احطنَ ايتها السيدات بملكتكنَّ وعاملنها كما تحببنَ ان تعاملنَ بدوركنَّ

قال البرنس هذا وتقدم بروانا الى عرشها بين صفوف السيدات اللواتي تسابقنَ الى مقاعد الشرف بالقرب منها

ولم يستقب بروانا الجلوس حتى صدحت الموسيقى بين تهليل الجموع ترحيباً بها

وكانت الشمس قد ارتفعت وتكسرت اشعتها الحادّة على فولاذ دروع الفرسان الذين كانوا يزدحمون في طرفَي الميدان يدبرون خير الطرق لقهر مناظريهم

عندئذٍ رفع المنادون اصواتهم وامروا الجمع بالسكوت لتلاوة قوانين النزال وشروط المناظرة. وهذا ملخصها

« يحظر على المتبارزين الطعن بالسيف ولا يجوز استعماله الاّ للضرب. كل فارس مخيَّر بين استعمال السيف او الرمح او فأس الحرب ولكنه يحظر عليه استعمال الخنجر. اذا طرح احد فرسان الفرقتين الى الارض يمنع من الرجوع الى سرجه وله ان يبارز راجلاً مثله من الفرقة الاخرى ولا تسوغ لاحد الراكبين مبارزته

« اذا تقهقر احد المتبارزين امام قرنه الى طرف الساحة ولامس جسمه الحاجز عدَّ مغلوباً واعتبر اذ ذاك جواده وعدّته غنيمة خصمه ولا يؤذن له بعد ذلك في معاودة النزال

« اذا سقط احد الفرسان الى الارض ولم يقوَ على النهوض يؤذن لخادمه في الدخول اليه وانتشاله وكان جواده وعدّته غنيمة لخصمه ايضاً

« يجب على المتبارزين الكف عن البراز حين يطرح البرنس يوحنا عكاز الامارة والقصد بهذا فصل المتبارزين حقناً للدماء اذا شوهد ان القتال اصبح عنيفاً

« فاذا اخلّ فارس من المتبارزين باحد هذه الشروط او بدا منه نقص اوما يخالف المروءة التي تطلبها منزلته من الشرف جرّد من عدّته وقلب ترسه (علامة الدناءة) واركبوه وهو على هذه الصفة على خشب الحاجز ليكون سخرية للناظرين واضحوكة وعبرة للاقران الآخرين »

ولما انتهى المنادون من اعلان هذه الشروط حثوا الفرسان على القيام بواجباتهم لكي ينالوا الجزاء من يد ملكة الجمال والحب ويستحقوا مديحها وثناءها

واذ اتى المنادون على آخر كلمة تراجعوا الى مراكزهم ودخل الفرسان في صف مزدوج يتقدم كلٌّ من القائدَين فرقته واصطفت كل فرقة تجاه الاخرى في صفين احدهما امام الآخر

وكان موقف القائدَين في وسط الصف الامامي ولكنهما لم يقفا في مركزيهما الى ان رتبا رجالهما وتأكد لهما ملازمة كل منهم لمكانه المعين

وكان هولاء الفرسان غاية في الابهة والجلال ·عدد من الشجعان البواسل على اسبق الجياد يغشاهم الفولاذ فيبدون للعين كانهم اعمدة حديدية يتلهبون حماسة وحمية يكاد صبرهم ينفد من الانتظار كما كانت خيولهم تملأ جنبات ذلك الميدان بالصهيل وتحفر الارض بقوائمها

وكانت الفرسان لم تصوّب رماحها بعد بل تحملها مشروعة فتنعكس الشمس عن اسنتها الصقيلة ويذهب الهواء بالبيارق الصغيرة المنوطة بها ويجيء فتخفق فوق خوذ

حامليها المزدانة بالريش الثمين . عند ذلك تقدَّم مدبر الميدان ليتفحصا الفرقتين ويتحققا تكافوء العدد بينهما فوجدا كل الشروط تامة فانسحبا من بين الصفين وصاح احدهما بصوت كانه الرعد « اهجموا » . واذ قال ذلك نفخ في الابواق علامة الهجوم وباسرع من البرق سدَّد فرسان الصف الامامي من كلتا الفرقتين رماحهم وانقضوا صفاً واحداً على خصومهم فالتقوا جميعاً في وسط الميدان كانهما موجتا يمّ زاخر والتطم الجواد بالجواد والرمح بالترس والترس بالرمح وكان لذلك التلاحم صوت يسمع لمسافة ميل وعندئذٍ تقدَّم فرسان الصف الثاني ببطء ليملأوا مكان الساقط اذا كان ثمة ساقط ويتابعوا فوز رفاقهم الى النهاية او يسترجعوا ما خسر اولئك

اما نتيجة هذا الهجوم فلم تعرف حالاً لان الغبار الذي عقدته سنابك الجياد حجب المتهاجمين عن عيون الناظرين ومرَّ اكثر من دقيقة قبل ان تمكن هوُلاء من استجلاء النتيجة . ولكن الغبار انجلى اخيراً فاذا ما يقرب من نصف كل صف مطروح على الارض بعضهم بلا حراك كانهم اعجاز نخل خاوية وبعضهم قد تمكنوا من الوقوف وانقضوا على اقرانهم ممن كانوا بحال كحالهم وبعضهم حاولوا ايقاف نزيف الدم من الجراح التي اصيبوا بها وجهدوا النفس في الانسحاب واما الذين لم يسقطوا فقد طرحوا رماحهم المحطمة واستلُّوا السيوف واطبقوا على خصومهم يتبادلون الضربات وكل ينادي بندائه الحربي كأن الحياة والشرف متوقفان على نتيجة هذا العراك

وارتفعت الجلبة لتقدم الصف الثاني من كل من الفرقتين وكانت اتباع الهيكلي تصيح ها ! الابيض والاسود ! الابيض والاسود ! في سبيل الهيكل ! في سبيل الهيكل ! (١) واتباع الفارس المحروم تصيح المحروم ! المحروم !

---

(١) اشارة الى راية الهيكل التي كان نصفها الواحد ابيض والنصف الآخر اسود علامة الرفق وانصاف الاصدقاء والشدَّة وعدم الرحمة للاعداء



وكانت الغلبة تتراوح بين الفرقتين · تميل تارة الى جهة الفارس المحروم وطوراً الى جانب الهيكلي · والصخب يزيد ارتفاعاً واصوات الابواق صمّت الاذان فلم تسمع انين الجرحى وما كنت ترى سوى صفاح تلمع وزرد يتقطع تحت ضربات السيف او الفأس وريش الخوذ يتطاير في الهواء كانه ذرات الثلج · وبالاختصار تحوّل جمال الفرسان الى قبح والذي كان يبهج النظر منذ قليل من الدقائق اضحى مجلبة للرعب ولكن للعادة قوة غريبة لانه بدلاً من ان تشمئز نفوس السيدات لهذا المنظر (بقطع النظر عن الرجال) كنّ يراقبنَ ما كان يجري امامهنّ بانتباه واهتمام غريبين · ولم يقفنَ عند هذا الحد بل كنّ يلوّحنَ بمناديلهنّ وبراقعهنّ ويصحنَ قائلات :

« طعنة نجلاء ! لا شلّت يمينك ! » اذا شاهدنَ طعنةً صادقة وما شا كل من العبارات الحماسية المشجعة

واذ قد عرف القارئ حال السيدات سهل عليه معرفة حال الرجال الذين كانوا يراقبون بابصارهم كل ميل وكل طعنة ويصيحون باعلى اصواتهم كانما ايديهم هي العاملة ورماحهم الطاعنة وسيوفهم الضاربة وكنت تسمع الحين بعد الآخر صوتاً يهتف قائلاً « حاربوا ايها الشجعان · لا يخلد سوى المجد · حاربوا فالموت ولا التقهقر حاربوا ان عيون الحسان ترقب حركاتكم »

غير ان انظار الجمع كانت متجهة بالاكثر نحو قائدَي الفرقتين اللذين كانا يتبعان حركات المتحاربين ويدوران كاللولب حول اشدّهم قتالاً واقتلهم حرباً مشجعين اتباعهما بالكلام والاعمال وكثيراً ما كانا يهتمان بالوصول الى بعضهما والمنازلة يداً بيد لانهما تحققا ان الغلبة ترافق المنتصر منهما اذا التحما · ولكن في بداية الامر كان هذا مستحيلاً عليهما لان كلاً من الفرسان المحاربين كان يعترض سبيلهما طمعاً في منازلة القائد بنفسه واكتسابه الشهرة لاقدامه · اما الان وقد قل عدد المحاربين لكثرة من

سقط منهم ومن خذل وترك النزال فتمكن الفارس المحروم والهيكلي من الالتحام وانقض كل منهما على خصمه انقضاضاً تزيده العداوة الشخصية والحرص على سمعة الفروسية هولاً ورعباً · وكان من كرّهما وضرباتهما انهما جذبا اليهما هتاف الجمع بالرضى فحدّقوا بهما بشوق لمعرفة النهاية

واما في القتال العمومي فكانت الكفة راجحة حينئذٍ الى جانب الهيكلي · لان ضربات فرنت — دي — بوف من جهة واثلستاين من جهة اخرى كانت تطرح كلّ من اصابته لما كان عليه الرجلان من القوة الغريبة · ولما رأى هولاء ان الميدان قد خلا من الخصوم زعما ان اعظم الاعمال نفعاً لفرقتهما تكون في مساعدتهما للهيكلي لانه اذا سقط الفارس المحروم تم لهم النصر لا ينازعهم فيه احد · فلوى كل منهما عنان جواده وهجم على الفارس المحروم — النورماندي (فرنت — دي — بوف) من جانب والسكسوني (اثلستاين) من الجانب الآخر — بينما كان هذا موجهاً جميع اهتمامه الى الهيكلي خصمه العنيد غير منتبه الى ما يجري حوله ولولا صياح الجميع صيحة واحدة منذرة بالخطر المحدق به وانتباهه الى صيحتهم لكانت تلك الدقيقة آخر دقائقه

« الحذار · الحذار ايها الفارس المحروم ! » صاح الجمع كانما من فم واحد فانتبه الفارس المحروم وشاهد انقضاض الآخرَين عليه فسبقهم وانقض على الهيكلي بضربة هائلة وعاد بجواده الى الوراء بسرعة غريبة · فلما شاهد المهاجمان فعله اجهدا النفس في ايقاف جواديهما خوف الاصطدام وكذلك فعل الهيكلي الذي كان على وشك اعادة الضربة للفارس المحروم · والحق انه لولا براعة الرجلين في ايقاف جواديهما لما عدم المحروم من اصطدامهما ما يخفف عنه ثقل محاربته لهما · ثم خفا بجواديهما وانضما الى الهيكلي ليهجموا جميعاً على الفارس المحروم وكان جلّ اهتمامهم طرحه الى الارض مغلوباً وهو امر لم يكن بالعسير عليهم لولا سرعة جواد المحروم الذي لم يكن قد اصيب بجرح

بل كان بفضل دراية فارسه يتنقل به من مكان الى آخر بسرعة البرق بخلاف جواد الميكلي المجروح وجوادَي الآخرَين اللذين اصابهما كلال لكبر جثة فارسيهما وثقل العدة · وكان همّ الفارس المحروم ابقاء المسافة بين خصومه على ما هي عليه خوف الانضمام يداً الى يد واطباقهم عليه دفعة واحد · فكان يهاجم هذا فيضربه ثم يتحوَّل الى ذاك ثم يرجع الى هذا كانه عقاب تداعب فراخها

واما الجمع فمع شدَّة هتاف الاستحسان الذي كانوا يرفعون اصواتهم به وعبارات التحميس والتشجيع عرفوا هول وحرج موقف الفارس المحروم فصاح الاشراف المحدقون بالبرنس بصوت واحد راجين منه طرح عكازه رحمةً بالفارس واشفاقاً على الفروسية التي اظهرها ان تتلطخ بعار الانكسار

« لن اتداخل وحق نور السماء » صاح البرنس « فالفارس الذي اخفى عنا اسمه ورفض دعوتنا وغنم نخر امس يجب عليه ان يترك لغيره فرصة النصر »

ولم يأتِ البرنس على آخر كلامه حتى حدث ما غيَّر مجرى الامور

كان بين اتباع الفارس المحروم فارس اسود الدرع ترسه خالٍ من كل شارة او علامة · تحته جواد ادهم مفتول العضل هائل الجثة تدل هيئته الاجماليـة على القوة والنشاط كما كانت ظواهر فارسه تدل على الفروسية والاقدام · غير ان هذا الفارس لم يكن مهتماً بامر القتال كانه احد المتفرجين ولا دخل له في هذه الحرب ولا هو من المتحاربين الذين ربما توقفت الغلبة بكاملها على ضربة واحدة من ضرباتهم · وهذا القول لا يدل على ان هذا الفارس لم يحرّك ذراعاً · بل كان يحوّل ضربات مهاجيه وطعناتهم عنه من حيث هو وبغاية السهولة ولكنه لم يكن يهاجم او تتبع احداً حتى لقبه الجمع « بالكسلان الاسود »

الاّ انه لما رأى موقف قائد الفرقة التي هو احد افرادها وشاهد الخطر النازل به

نفض عنه غبار كسله الموهوم وضرب بمهاز يه خاصرتي جواده الممتلىء نشاطاً فخرج كانه السهم وانقض انقضاض الصاعقة وهو يصيح «المحروم المحروم. الى المعونة !»

وقد كان هجوم هذا الفارس في وقته لان الفارس المحروم كان قد ضايق الهيكلي في احدى كرّاته فانتهز فرنت — دي — بوف الفرصة واقترب من المحروم ورفع سيفه ليهوي به على راس خصمه واذا بالفارس الاسود قد ضرب به على راسه ضربة ماحقة فردّت الخوذة السيف فهوى الى عنق الجواد المدرّع وسقط الفارس وفرسه معاً وقد فقدا الشعور بفضل تلك الصاعقة الاّ انهما لم يصابا باذى . ثم تحوّل «الكسلان الاسود» الى اثلستاين ولما كان سيفه قد تحطم رمى به الى الارض وتناول فأس حربه وادارها في الهواء فوق راسه وهوى بها على راس اثلستاين فطرحه الى الارض كرفيقه ولما اتم هذا العمل رجع الى مركزه بكل برودة وخمول والجمع منذهل لعدم انتظارهم صدور عمل كهذا منه تاركاً قائده يغالب الهيكلي وهو امر لم يكن بالصعب على الفارس المحروم لان جواد الهيكلي كان قد نزف القدر الكثير من دمه ولم يعد يقوى على كرّات المحروم فسقط بفارسه الى الارض

وكانت احدى قدمي الهيكلي قد علقت بسيور السرج فلم يتمكن من الوقوف بسرعة ولو اراد ذلك لما تمكن ايضاً لان الفارس المحروم وثب الى الارض اذ شاهد سقوط خصمه وهزّ سيفه فوق راسه وامره ان يقرّ بانغلابه والاّ حز راسه

فلما رأى البرنس يوحنا حال الهيكلي هزّته الشفقة التي ضنّ بها على المحروم فرمى بعكازه الى الارض . وكانت هذه علامة الكف التام التي يعاقب من يخالفها كما ذكرنا عند ما اتينا على ذكر شروط النزال و بذلك نجا الهيكلي من ذلّ الاقرار بعجزه والاعتراف بخذلانه

ولم يكن الهيكلي والفارس المحروم والفارس الاسود وحدهم المنازلين في الميدان

لكن نزال من بقي من اتباعهم كان كالدخان بجانب اللهيب لان الجميع كانوا يتشوقون الى النتيجة التي يبلغها القائدان وفيها فصل الخطاب

ولما توقف المتحاربون امتثالاً لاشارة البرنس تسارع الخدم واخذوا في نقل مواليهم المصابين بالجراح بعضهم الى المضارب والبعض الآخر الى اماكنهم في البلدة

وهكذا انتهى ميدان اشبي ولم يمت فيه سوى اربعة من الفرسان احدهم كان موته مسبباً عن ثقل درعه وضغطها على عنقه ولكن جرح فيه نحو من ثلاثين فارساً جراحاً بليغة مات من جرائها خمسة منهم وعجز بواسطتها الكثيرون عن العود الى حمل السلاح ورافقت آثار ذلك اليوم من بقي منهم الى القبر ولهذا كانت التواريخ اذا اتت على ذكر ميدان اشبي تدعوه (من قبيل تسمية الشيء بنقيضه) « نزال المجاملة والتلطف واحتكاك السلاح المفرح في اشبي »

ولما كان قد انتهى كل نزال بقي على البرنس ان يعلن اسم الفارس الذي امتاز على اقرانه واستحق الجزاء · فصرَّح البرنس بان ذلك الفارس لم يكن سوى ذاك الذي دعاه الجمع « الكسلان الاسود » ولكن اتباعه اعترضوا بقولهم ان الغلبة تمت عن يد الفارس المحروم اذ تغلب على ستة فرسان بقوة يمينه وطرح اخيراً قائد الفرقة المخاصمة الى الارض ولكن البرنس تشبث برأيه زاعماً انه لولا مساعدة الفارس ذي الدرع السوداء لما تم للمحروم النصر · فلم تجسر الحاشية على الاعتراض بعد وتحوَّلوا يطلبون الفارس الاسود فلم يقفوا له على اثر وكان قد شاهده البعض خارجاً من الساحة حالما توقف القتال · فامر المبوقين بمناداته بالابواق ففعلوا · غير ان نداءهم ذهب في الهواء ولم يعد للبرنس عذر يحرم الفارس المحروم نيل الجائزة التي استوجبتها فروسيته وتبريزه على اقرانه · وعليه نودي بالفارس المحروم فارس ذلك اليوم القاهر وحق له الجزاء الحسن

فتقدم مديرا الميدان من الفارس المحروم وقاداه وسط اثار العراك على ارض رواها

الدم الى عرش البرنس · فقال هذا :

« ايها الفارس المحروم (ما دمت لا ترضى ان تدعى بغير هذا الاسم) نحن نخلع عليك ذكرى المجد الذي احرزته هذا النهار كما فعلنا لك بفخر اليوم السالف ونعطيك حقك في الجائزة التي تلبسك اياها يد ملكة الحب والجمال وهي علامة فخر نلتها عن استحقاق واهلية »

فانحنى الفارس باحترام ولم يجب بكلمة

وسار المدبران « بالظافر » بين هتاف الجمع وصوت الابواق ونداء المنادين وتحت ظل مناديل السيدات اللواتي كنّ يلوّحنَ بها في الهواء ولمعان اعينهنّ الساحرة التي جعلنَ منها وشاحاً منيراً يتشح به ذلك الشاب من امام عرش البرنس الى عرش روانا المالكة سعيدةً على ربّات الجمال وارباب الفروسية في ذلك النهار

ولما بلغوا به العرش اركعوه على اسفل درجاته · والغريب ان جميع حركات الفارس عقيب ما اوتي به من النصر كانت حسب اشارة قائديه لانه لم يكد يأتي بحركة خلاف التي كانا يدفعانه اليها · ولاحظ القوم فضلاً عن ذلك اضطراب جسمه عندما عبر به المدبران على الميدان الى عرش روانا

ولما جثا الفارس على درجة العرش السفلى انحدرت روانا بما لها من جمال الجلال المعطى لها والوظيفة التي قلّدتها وهمّت بالتاج لتضعه على خوذة الفارس واذا بالمدبرين قد صاحا بصوت واحد قائلين : « يجب ان يوضع التاج على رأسه المكشوف »

فتمتم الفارس بكلام لم يفهم غير ان المدبرَين اما حرصاً على القيام بشروط العوائد او تشوُّقاً لمعرفة حيثية الفارس قطعا رباطات خوذته ونزعاها واذا بهما يريان وجه شاب في الخامسة والعشرين يكسو رأسه شعر اشقر ويخالط جمال وجهه خطوط من الدم واصفرار هائل

ولم تقع عين روانا على وجه الفارس المحروم حتى صاحت صيحة خفيفة ولكنها تغلبت على عواطفها بسرعة ورفعت التاج الى راس الفارس كانها مكرهة على ذلك بينما كان جسدها يرتجف بعنف ووضعته عليه وهي تقول بصوت لا اثر للارتجاف فيه « البسك هذا التاج يا سيدي الفارس كجائزة وكاشارة الى الشجاعة والفروسية اللتين اظهرتهما في هذا النهار » وتوقفت هنيهة كأنها تستجمع قواها ثم قالت « وايُّ جبين غير هذا الجبين يستحق ان يزينه تاج الاقدام والفروسية »

فانحنت الفروسية امام الجمال واكبّ الفارس على تلك اليد البيضاء التي اجازت شجاعته وقبلها باحترام وبدلاً من ان ينهض استمرّ في انحنائه الى ان استلقى على الارض عند اقدام روانا لا حراك به

عندئذٍ ارتفع لغط القوم وازداد هرجهم واما سادرك فلما رأى وجه ابنه المنفي فارقته قوة النطق واسرع الى روانا كانه يروم ابعادها عن الشاب الفاقد الشعور ولكن مديرَي الميدان كانا قد سبقا سادرك لانهما عرفا سبب اغماء الشاب وحلاّ رباط درعه فوجدا ان سنان رمح احد مهاجميه قد اخترق الدرع ونفذ في جنبه وبقي فيه قطعة منه

﴿ ١٣ ﴾

ولم يكد يذكر اسم ايفنهو حتى تناقله الجميع بكل ما في الالسن من السرعة والآذان المتشوّقة من السماع ولم يمضِ الاَّ ثوانٍ معدودة حتى بلغ الى آذان البرنس يوحنا فقطّب جبينه ولكنه التفت الى من حوله وقال :

« ايها السادة واخصك منهم ايها الرئيس أيمر ما هو رأيك في الالهام الداخلي والتشاؤم الذي ذكرته العلماء ؟ فلقد شعرت وانا في هذا الميدان باحدى خصائص اخي فذكرته واذا انا الان بايفنهو صديقه — ذلك الشخص الذي تضمه تلك الدرع وتستره



تلك الخودة »

فقال دي براسي : « يجب على فرنت — دي — بوف ان يهمَّ بارجاع اقطاعات ايفنهو »

وقال فتزور : « لا يبعد على هذا الباسل ان يطالب بحقوقه ويسترجع الارض التي اقطعه اياها اخوكم ريكارد والتي وهبتموها سموكم بعد ذلك لفرنت — دي — بوف

فرنت — دي — بوف واحد من اولئك الذين يستسهلون ابتلاع ثلاث اقطاعات مثل اقطاعة ايفنهو اكثر من التخلي عن واحدة قال البرنس · واما مسألة هبتي فلا ارى احداً يعارضني في اهداء ما كان من حقوقي مثل هبة اتباعي الامناء اقطاعات التاج ومكافأة الذين لا يبخلون عليَّ بمساعدتهم العسكرية بينما ارى اولئك الخونة قد تبعوا اخي الى بلاد غريبة ولم يعد للبلاد نفع منهم

ولما كان عدد المتملقين الذين يأملون بهبات كهذه كثيراً حول البرنس لم يعارضه احد في كلامه ولم يعترض احد منهم على حقوقه الموهومة بل سمع الاكثرين يقولون : ما اكرم البرنس وما اشرف تلك النفس التي تأخذ على نفسها مكافأة الاتباع الامناء

وزاد الرئيس أيمر بقوله : مع ان اورشليم هي ام المسيحيين عموماً ووطنهم لا ارى بدّاً من الموافقة على قول البرنس من ان الملك ريكارد قاد اولئك الفرسان الى ارض غريبة لانه لم يتجاوز عسقلان وارى ايضاً انه لا حق لايفنهو بشيء من الامتيازات الممنوحة لجند الصليب

فقال البرنس مهما تكن حقوقه ومهما جرى له يجب الاَّ ننسى انه الظافر وبطل هذا النهار ولنفرض ان عداوته لنا تزيد عما هي عشرة اضعاف او انه صديق اخينا الحميم (وهذا ما لا شك فيه) يجب الاَّ نهمل امر جراحه فطبيبنا الخاص سيعوده

ولما نطق البرنس بهذا الكلام ظهرت على شفتيه ابتسامة قاسية فبادر فتزور الى

الكلام وقال : لقد اثَّرت بي ظواهر الحزن التي بدت على وجه ملكة الحب والجمال التي تحوّل فرحها بالمركز الذي شغلته الى حزن · انا لست من اولئك الذين يتأثرون لبكاء العاشقة عاشقها ولكن الرصانة والثبات والحزن العميق التي سترته العزة والعين الناشفة واليد المرتجفة التي بقيت هنيهة على رأس الرجل الجاثي امامها — هذه وحدها اثرت بي

فسأل البرنس · من هي هذه السيدة روانا التي كثر ذكر اسمها ؟

اجابه الرئيس أيمر هي وارثة سكسونية واسعة الاملاك · هي وردة في جمالها وجوهر في غناها · هي الحسناء بين الالوف · قارورة طيب واسطوانة من الكافور

سوف ننفي احزانها ونحتفظ بها بتزويجها من احد النورمانديين · و يبين لي انها لم تبلغ اشدها بعد ولذلك يجب ان يكون امر زواجها متعلقاً بارادتنا الملوكية · ما تقول يادي برامي وهل لك من مطمع في الاقتران بفتاة سكسونية غنية ذات املاك واسعة وتحذو في ذلك حذو اتباع وليم الظافر ؟

اذا كانت تلك الاملاك على ما ذكر تكون الفتاة في المنزلة الثنوية و بذلك تكون قد وفيت لي بوعدك ووفّيت الكيل · وكيف كانت الحال فانا عبدك الرقيق والمخلص لن تغفل هذا الامر · ولكي يتمّ في الآتي السريع نأمر مقدّم خدمنا ان يدعو السيدة روانا وحاشيتها — ذلك العِتْلُّ قيّمها والبطيء الذي طرحه ضربة واحدة من يد الفارس الاسود — وتكون عبارة الدعوة لطيفة بحيث لا يرون بدًّا من القبول على رغم ان من يتلطف مع هولاء القوم كمن يطرح الدرر امام الخنازير

قال البرنس هذا ورفع يده ليشير بالانصراف واذا باحد اتباعه قد ناوله رسالة مطوية ممن هذه ؟

لا اعلم ولكنها من بلاد اجنبية لا اعرف من اي منها فقد وصل الساعة رجل

افرنسي وقال انه وصل سرى الليل بسير النهار وذلك ليلقي هذه الرسالة في كف سموكم

فتناول البرنس الرسالة وتفحص العنوان ثم الختم فوجد مرسوماً عليه ثلاث زهرات من الزنبق ففض الرسالة والاضطراب بادٍ على محياه وكان وجهه يزداد اضطراباً كلما قرأ اكثر

ولم تكن الرسالة طويلة ولم يزد ما فيها عما يأتي :

« احذر لنفسك فالعفريت قد تملّص من قيوده »

ولم يأتِ البرنس على آخر كلمة في الرسالة حتى اكفهرّ وجهه واضحى اشبه بوجوه الاموات وحدّق في الارض اولاً ثم شخص في السماء شأن الرجل الذي يسمع منطوق الحكم القاضي باعدامه . ولما ملك شعوره تحوّل بفتزور ودي براسي الى جانب واراهما الرسالة فقرأا ما فيها والبرنس يقول : يعني ان اخي قد نال الحرية ونجا من سجنه

اجابه دي براسي : قد يكون الخبر كاذباً والرسالة مزوّرة

لا ريب في ان هذا خط ملك فرنسا نفسه وهذا ختمه

اذن يجب ان نجمع احزابنا الى نقطة واحدة اما في يورك او نقطة اخرى في متوسط البلاد لانه قد تفوت الفرصة اذا نحن تأخرنا يوماً او يومين ولذلك ارى ان ننهي امر هذه الالعاب باقرب ما يمكن من الوقت

فقال دي براسي : يجب ان لا ينصرف الرماة والعامة وفي نفوسهم حاجة او عدم رضى لعدم اشتراكهم في الالعاب وانت تعلم بحاجتنا الى رضى العامة الان

فقال ولدماير بقي قسم ليس باليسير من النهار فاذا كان لا بدّ من ارضاء هؤلاء العامة واتمام وعد سموكم للعبيد السكسونيين ارى ان يصرف ما بقي من النهار في الرماية ثم تمنح الجائزة للمستحق والسلام

شكراً لك يا ولدماير على تذكيرك اياي بهذا الوعد وعلى الاخص لاني مديون

لاحد هولاء العامة الذي اهان شخصنا البارحة ويجب عليَّ وفاء الدين · وكذلك الوليمة في هذا المساء يجب ان لا نهمل امرها فلو كانت هذه آخر ساعات سلطتي لوجب ان تكرَّس للانتقام والمسرة فاليوم خمر وغداً امر

وكان المتفرجون قد اخذوا في الانصراف كلٌّ في سبيله ولكن اصوات الابواق ارجعتهم الى الساحة حيث سمعوا المنادين يعلنون رغبة البرنس في امتحان مهارة الرماة في ما بقي من ذلك النهار لان اموراً عظيمة الاهمية تدعوه الى مغادرة ذلك المكان في الغد واما الجائزة التي ينالها الفائز فستكون بوقاً مزيناً بالفضة ومدرَّعة من الحرير المزركش عليها شارة مار هوبرت شفيع الالعاب الحرجية (١)

ولما انتهى المنادون من مناداتهم برز الى الساحة نحوٌ من ثلاثين من الرماة بينهم عدد كبير من المساعدين في حراسة الغابات الملكية ولكنهم لما رأَوا مناظريهم تأَخر منهم نحو من عشرين (لان خبر الممتازين في الرماية في تلك الايام كان الناس يتناقلونه كأَهم الاخبار) ولم يبقَ في الساحة سوى ثمانية فقط

فانذهل البرنس لهذا الانسحاب واقترب منهم فرأَى اكثرهم مرتدياً الثياب المختصة بخدم العرش وفي ناحية من الساحة صاحبنا الرامي وهو على حاله من رباطة الجاش وعدم الاهتمام · فصاح به البرنس

كنت اظن ان ما حملك البارحة على اساءة الادب هو مهارتك وحبك للقوس الطويلة فمالي اراك بعيداً الان · افتخشى مناظرة مثل هولاء الشجعان ؟

انا على ما تروم يامولاي ولكن لديَّ سبب آخر يمنعني عن مناظرة مثل هولاء

وما هو ذلك السبب ؟

---

(١) نسبة الى الاحراج اعني استعمال السلاح الذي يستعمله حراس وساكنو الاحراج مثل القوس والمراوة (انظر مبارزة كارث للطحان فيما سبق) والخنجر الخ (المعرّب)



هو عدم تثبتي من اعتياد هولاء الرماة الرماية الى غرض كالذي اعتدته او بالعكس ٠ فلو كنت ثالث المتناظرين لا اعلم ما هو الجزاء الذي يلحق بي لتقصيري وقد اغضبت سموكم جهلاً فيما سبق

فكسا الاحمرار وجه البرنس وسأله ما اسمك ايها الرجل ؟

لوكـلي

اذن يا لوكـلي سوف ترمي سهمك بدورك بعد ما يظهر هولاء مهارتهم فاذا نلت الجائزة اضفت اليها عشرين درهماً واذا قصّرت امرت بك فتجرّد من اثوابك الخضراء وتساق من الساحة مجلوداً باوتار الاقواس

واذا انا رفضت المناظرة تحت هذه الشروط ؟ لا انكر انكم بما لكم من السلطة وكثرة الاتباع لا يصعب عليكم تجريدي من اثوابي وطردي مهاناً من هذه الساحة ولكن تلك كلها تقصر عن الزامي بحني قوسي واطلاق سهمي

اذا انت رفضت هذه الشروط العادلة امرنا مراقب الالعاب ان يقطع وتر قوسك ويكسرها ويحطم سهامك ويطردك من هذه الحضرة كجبان ضعيف القلب

هذه الشروط ليست من العدل في شيء ايها البرنس المتكبر اذ ليس من العدل ان اناظر امهر رماة ليسستر وستافورد شاير ثم اذا قصرت عنهم اهان واطرد ٠ ولكن لا بأس فسامتثل لاوامركم

راقبوا الرجل ايها الجنود وكأني بقلبه قد هبط في صدره وجلاً وتهيباً من مناظريه وانني والله اضن على مثله ان يناله الخزي واما انتم ايها الرماة فاظهروا احسن ما لديكم ولكم برميل من الخمر المعتقة في تلك الخيمة بعد اعطاء الجائزة للفائز منكم

فوضعوا غرضاً في طرف المسلك الموصل الى مدخل الساحة الجنوبي اما الرماة فوقفوا عند هذا المدخل ٠ وكان المتناظرون قد اتفقوا بالقاء القرعة على من يكون الاول

في اطلاق سهامه وعلى من يكون الثاني وهلمّ جرّا . وكان على كل من المتناظرين ان يرمي ثلاثة اسهم ثم يتنحى الى جانب ليأخذ غيره موقفه وذلك بمراقبة رجل ملقَّب بمراقب الالعاب لان مدبرَي الميدان لا تسمح لهما منزلتهما من الشرف بالتنازل الى مشاركة العامة والطبقة الحقيرة من الشعب في العابهما

وهكذا تقدم الرماة واحداً واحداً واطلق كل سهامه المصرَّح له باطلاقها بمهارة تذكر غير ان من الاربعة والعشرين سهماً التي اطلقها المتناظرون لم يصب الغرض منها سوى عشرة فقط والباقي بالقرب منه ولكن لبعد المرمى لم يعدّ هذا الخطأ الزهيد سوى مهارة تقلّ عن الاولى قليلاً . واما العشرة التي اصابت الغرض فلم يصب الحلقة المتوسطة فيه سوى اثنين منها . وكان رامي هذين السهمين هوبرت احد حراس احراج ملفوازين وعليه عدّ فائزاً

فصاح البرنس « والان يالوكسلي ! » مخاطباً الرامي الذي اتينا على ذكر حديثه مع البرنس . وكان البرنس يتكلم وابتسامة مرّة بادية على شفتيه « هل تسلم القوس والمدرَّعة والجعبة لمراقب الالعاب او هل تناظر هذا الرامي ؟ »

اذا لم يكن غير هذين الشرطين فليس عليّ الا القبول باحدهما ولكنني اشترط انني اذا اصبت الحلقة التي اصابها هوبرت وجب عليه ان يصيب الغرض الذي انصبه انا

شرطك عدل قال البرنس . ولسنا نعترضك وسيكون لك ما تمنيت . واذا انت ياهوبرت قهرت هذا المهذار ملأت لك البوق الذي تناله بالنقود الفضية

فقال هوبرت ليس على الانسان الا اظهار ما لديه لجدّي شدّ قوسه بشجاعة ومهارة في معركة هايستنكز ورجائي من الله ان لا اقصر انا بدوري فاجلب له العار ولاسمه وسمعته الخزي

وكانوا قد نزعوا الغرض الاول من مكانه واستبدلوه بغرض آخر بحجمه ولما كان

هوبرت هو الممتاز في المناظرة الاولى كان من حقه ان يبدأ بالرمي · فشدّ قوسه الطويلة بكل تمهل وروية وخطا خطوة الى الامام ورفع القوس على مدى يده اليسرى حتى اصبح وسطها على مساواة وجهه ثم شدّ الوتر الى ان لامس اذنه واطلق السهم فذهب وله صفير وارتكز في الحلقة المتوسطة في الغرض ولكنه لم يصب وسط الحلقة تماماً

فقال لوكسلي لو حسبت للهواء يا هوبرت واعتبرت مقاومته لأتى سهمك بنتيجة احسن · هذا ومن غير ان يبدي اقل اهتمام وقف موقف هوبرت واطلق سهمه بعدم اعتناء ظاهر حتى خيّل للناظرين انه لم ينظر الى الغرض لانه اطلق السهم وهو يحدّث هوبرت · ولكن على الرغم من هذا الاهمال اصاب سهمه الحلقة المتوسطة وفي نقطة يزيد اقترابها من البقعة البيضاء (وهي مركز الحلقة) بقيراطين عن النقطة التي اصابها هوبرت بسهمه

فذهل البرنس وقال مخاطباً هوبرت اقسم بنور السماء اذا قهرك هذا الرجل جعلت نصيبك الشنق

ولو امرتَ بشنقي يا مولاي فانني لا اقوى الاّ على الاتيان باحسن ما لديّ لجدّي لوى قوسه · · · · ·

ليذهب الشيطان الخناس بروح جدّك وجميع ابائك · اطلق سهمك وهات احسن ما عندك والاّ · · · ·

فتقدم هوبرت من الموقف · وعمل بالنصيحة التي القاها عليه مناظره هذه المرّة واطلق سهمه فارتكز في وسط الغرض تماماً

هوبرت ! هوبرت ! هتف الجمع الذي اهتم بالرجل المعروف اكثر من الغريب · هوبرت ! هوبرت ! اصاب المركز ! ليحيَ هوبرت الى الابد !

فصاح البرنس بدوره مخاطباً لوكسلي ما قولك في هذا ؟ وهل تأتي باعظم من

ذلك ؟

فصاح لوكسلي سانتزع سهمه ! ولوى قوسه باهتمام في هذه الدفعة واطلق سهمه فاصاب به سهم هوبرت وحطمه تحطيماً · فذهل الجمع لعمله واستغربوا هذه المهارة العجيبة حتى همس بعضهم في اذان البعض قائلين : لا ريب في ان يكون هذا هو الشيطان بعينه وما هو رجل من دم ولحم لاننا لم نسمع بمهارة كهذه المهارة منذ كانت السهام واستعملها اهل هذه البلاد

ثم قال لوكسلي والان ليأذن لي سموكم فاضع غرضاً شبيهاً باغراض اهل الشمال ومن ثم ارحب بكل من يروم اطلاق سهمه عليه ليصيبه وينال ابتسامة رضى من الحسناء التي يهواها

ولما قال هذا اتجه الى مدخل الساحة وهو يقول ليتبعني عدد من حرّاس سموّكم الى ذلك الحرج لاقطع قضيباً من الصفصاف ثم اعود

فامر البرنس احد رجاله ليتبعه فصاح الجمع يا للعار ! يا للعار ! فخجل البرنس وامر تابعه بالتربص

واما لوكسلي فانه ما عتم ان رجع وفي يده قضيب من الصفصاف يبلغ طوله ست اقدام ولا يكاد يزيد في الثخن عن ابهام اليد ولما بلغ الساحة اخذ في تقشير القضيب وهو يقول : اذا طلب اليّ رامٍ اطلاق سهمه على غرض كالذي تخذناه بعد هذا الظهر عدّ ذلك الطلب عاراً على فن الرماية والرماة اجمعين واما انا ورجال البلاد التي ربيت فيها فالأولى بنا ان نجعل غرضنا مائدة الملك ارثر المستديرة التي كان يجلس اليها ستون فارساً من ان نتخذ هذا الذي كنا نرمي اليه · لقد يصيب هذا الغرض صبيٌّ في السابعة من عمره بسهم طائش · قال هذا ومشى الى آخر الساحة وغرز القضيب في الارض ورجع وهو يقول : واما من اصاب هذا القضيب من مسافة مئة يرد عُدّ رامياً يليق به

حمل القوس والجعبة في خدمة ملك ولو كان ذلك الملك ريكارد نفسه

فقال هوبرت لقد لوى جدّي قوسه بشجاعة ومهارة في معركة هايستنكز ولكنه لم يطلق بحياته سهماً على غرضٍ كهذا ولن افعل انا ذلك ايضاً فاذا اصاب هذا الرجل ذلك الغرض تنازلت له او بالحري للشيطان الذي يسكن هذا الجسد عن البوق والمدرعة · لا يقوى الانسان على الاتيان باكثر ما يحسنه ولن اطلق سهمي على غرض لا قدرة لي على اصابته والاولى بي ان اطلق سهمي على حبل من حبال الشمس من ان اطلقه على هذا العود الابيض البرّاق الذي لا تكاد تراه العين

فصاح البرنس اخسأ ايها الثعلب الجبان ثم تحوّل الى لوكسلي وقال واذا انت اصبت ذلك القضيب شهدتُ امام القوم انك امهر من حمل قوساً وشدّ وتراً ولكن حذار يالوكسلي من الادعاء الفارغ

ساجهد نفسي لآتي باحسن ما لديَّ على رأي هوبرت ولا كلف الله نفساً فوق طاقتها

واذ قال هذا لوى قوسه باعتناء زائد بعد ان استبدل وتره بوتر جديد وفوّق السهم · وكان الجمهور ينظر اليه وافواههم مفتوحة تكاد عيونهم تثب من حُفَرها والسكوت سائد والجمع قد قطع انفاسه تشوّقاً لمعرفة النتيجة · ورمى الرامي سهمه فلم يخيّب آمال الجمهور لانه اصاب الغرض الذي نصبه وفلق القضيب الذي غرزه · فعلا الضجيج بين الجمع ولاقوا عمله بهتاف الاعجاب حتى ان البرنس يوحنا نفسه الذي انسته مهارة لوكسلي غضبه منه قال : لك العشرون درهماً والبوق يا لوكسلي واني لازيدها الى الخمسين اذا رضيت بان تحمل قوسك وتنضم الى حرسي الخصوصي وتحافظ على شخصي فانني والله لم أرَ ولن ارى عملاً اعظم من هذا ولا والله ما لوى ساعد قوساً اشد من ساعدك ولا فوّقت عين سهماً احدّ من عينك

فاجاب لوكسلي عفوك ايها الامير اقسمت لا اخدم سيداً سوى اخيك الملك ريكارد هذا اذا صممت على الخدمة. واما العشرون درهماً فساتركها لهوبرت الذي لوى قوسه اليوم بشجاعة ومهارة تشابهان شجاعة ومهارة جدّه في معركة هايستنكز ولولا رهبته لاصاب الغرض كما اصبته انا

فهز هوبرت راسه كالمرتاب وهو يتناول الدراهم من مناظره الكريم . اما لوكسلي فبعد ان دفع الدراهم لهوبرت اختلط بالجمع وغاب عن الابصار ولم يعد يرى بعد ذلك

ولم يكن لوكسلي ليتمكن من الاختفاء عن انظار البرنس بسهولة كهذه لولا اشتغال قلب البرنس وانصراف همه الى امر اهمّ لانه حالما اجيز لوكسلي اشار اشارة الانصراف ودعا خازنه اليه وامره بالذهاب الى اشبي والبحث عن اسحق اليهودي ثم قال : وقل للكلب يبعث اليّ بالفي دينار وهو يعرف الضمانة ولكن هذا الخاتم علامة على صدق بعثتك واما باقي القيمة فيجب ان تدفع في يورك بعد مضي ستة ايام . واذا ابى امرتُ براس الكافر فيقطع واياك ان تمرّ به ولا تعرفه لان العبد المجنون كان يباهي باثوابه المسروقة امامنا منذ هنيهة وقد يلتبس عليك منظره

قال البرنس هذا وامتطى جواده قاصداً اشبي وكذا فعل الجمهور ورجع كلٌّ الى مبيته او بيته

≺ ١٤ ≻

أولم البرنس يوحنا وليمة في معقل اشبي . وهو ليس المعقل الذي يشاهد طلوله ابناء اليوم فان هذا قد ابتناه اللورد هايستنكز خازن الدولة الذي قتله الملك ريكارد الثالث المشهور امره ليس لشغله مركزاً مهماً في تاريخ انكلترا بل لكونه عبرة من عبر شكسبير في روايته المعروفة « بالملك ريكارد الثالث »

واما رب المعقل في الزمن الذي نحن بصدده فقد كان متغيباً في الارض المقدسة

ولم يكن من يعترض الامير فيه · ولما كان قصد البرنس ان يدهش الناس بكرمه ولكن ليس من ماله وبفاخر ولينته ولكن من غير مطاعمه امر بان تعطى المؤن بلا حساب وان تسقى الخمر جزافاً

ولم يقف البرنس عند حد المعقل وذخائره بل تجاوز خدمه المعقل الى البلاد المجاورة واستاقوا واحتملوا كل ما حسبوه حسناً ولائقاً بمائدة سيدهم

وكان عدد المدعوين كثيراً لان البرنس يوحنا لم يقصد في ذلك الحين الا استمالة الشعب اليه ولهذا لم يكتفِ بدعوة الاشراف النورمانديين بل دعا ايضاً عدداً من الأُسَر السكسونية والدنياركية التي كانت على جانب من النفوذ والوجاهة والتي بميلها اليه يميل معها السواد الاعظم من الشعب السكسوني

وكان قصد البرنس ايضاً اكرام هولاء السكسونيين وملاطفتهم بما لم يتعودوه من قبل · الا ان تقلُّب هذا البرنس وتغير اطواره حال دون وصوله الى مبتغاه اذ بينا هو يسعى ويجهد النفس في بلوغ مطلب ما حتى اذا صار منه على قيد باع اتى بما يهدم ما كان بناه في لحظة واحدة · واليك مثلاً يظهر لك اطوار هذا الامير وهو لا يخلو من امثولة او حكمة ضرورية لكل من نشر شراعاً واجرى سفينة في بحر هذا العالم ويظهر لك ان المثل القائل « اليد التي لاتقوى على عضها قبّلها وادعُ عليها بالكسر » هو حكمة املتها الاجيال وولدتها الاختبارات والتجارب العديدة

بعث الملك يوحنا الثاني والد هذا البرنس ابنه هذا يصحبه عدد من الاشراف الى ارلندا ليخطب ودّ امراء تلك الجزيرة واخلاصهم الى العرش الانكليزي · فبعد السعي نجح البرنس في بعثته واستمال الامراء حتى اوشك ان يقع التنازع بينهم لرغبة كل منهم في سبق رفيقه لتقبيل البرنس قبلة السلام والولاء · ولما اقترب اولئك الامراء وكانوا طوال شعر اللحى لم يتمالك البرنس ان مد يديه الى تلك الشعور وشدّها

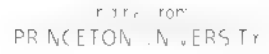
استهزاء واستصغاراً واحتقاراً . فكانت النتيجة ان انقلب اولئك الامراء على العرش الانكليزي وألحقوا بصالحه في ارلندا من الاذية ما كان الملك يوحنا الثاني ليصرفه بجميع شعور بلاده لو استطاع

قلنا انه كان في عزم البرنس يوحنا ان يكرم المدعوين من السكسونيين ويتلطف بهم وعليه فقد استقبل سادرك واثلستاين بكل اكرام وصرّح لهما باسفه وكدره من امتناع السيدة روانا عن حضور الوليمة بسبب انحراف ألمّ بصحتها

وكان لباس سادرك واثلستاين على الزي السكسوني القديم الذي لم يكن بحد ذاته قبيحاً وعلى الاخص لانه كان مصنوعاً من الاقمشة الغالية ولكنه كان مخالفاً للزي النورمندي تمام المخالفة بحيث افتخر البرنس وولدماير فتزوربعدئذٍ لانهما تماسكا عن الضحك عند استقبالهما الرجلين . ولكن اللباس السكسوني الذي لم يكن سوى قميص قصير تعلوه جبة طويلة كان اجمل للعين النقادة واوفى بالمراد لدى الحكم الصائب من اللباس النورمندي ذلك القميص الطويل الواسع الاطراف تعلوه سترة قصيرة الاطراف بحيث لم تكد تقي لابسها من وطأة البرد والمطر وقت الشتاء . وكأن مخترع هذا الزي لم يضع نصب عينيه المنفعة بل رام اختراع طريقة يتمكن معها من اظهار الزركشة والحلي . واليك ما قاله شارلمان العظيم وقد انتشر هذا الزي في ايامه . قال :

« قولوا لي بحق السماء ما ترى منفعة هذه الثياب المختصرة التي اذا نمنا لا تقينا من الهواء والمطر واذا ركبنا لا تردّ عنا الرطوبة واذا قعدنا لا تدفع عنا الصقيع » .

ولكن على رغم ملاحظة هذا الامبراطور العظيم بقي هذا الزي شائعاً الى الايام التي نحن بصددها وعلى الاخص بين امراء بيت انجو ولذلك كثر استعماله بين اتباع احدهم البرنس هنري واستهجنوا الجبة الطويلة الواسعة غير ملتفتين الى الفائدة الناتجة عنها

وجلس الضيوف الى مائدة تصرّ تحت حمل ثقيل من الالوان الفاخرة والحلويات المصنوعة في تلك البلاد والمجلوبة من الخارج والخمور المتعددة الاجناس من اهلية واجنبية · ولم يكن النورمنديون من الشعوب النهمة ولكنهم كانوا يحبون الفاخر من كل شيء وكانوا يعيبون على السكسون نهمهم وينسبون ذلك الى بواعث رتبهم المنحطة · غير ان البرنس يوحنا كان يخالف النورمنديين بكونه نهماً شهوانياً وكذلك كانت حاشيته ويتضح لك صدق ذلك مما يروى عن هذا الامير انه مات لكثرة شراهته بأكل الدراقن واكثاره من شرب الخمر الجديدة

وكان الاشراف النورمنديون يتغامزون ويتسارّون مشيرين الى حركات السكسونيين التي لم تكن مطابقة حق المطابقة لما كان يسمى عند النورمنديين آداب المائدة · ولذلك عدُّوا ما كانوا يرونه منها نقصاً في الآداب وفساداً في التربية واخذوا يهزأُون بالرجلين

لا يخفى انه قد يصدر عن المرء ما هو في الحقيقة نقص في الآداب واهمال في التربية وفقر في اللطف والذوق فلا يلحظ الناس منه ذلك ولا يؤاخذون الفاعل بما فعل ولكنك قد تهمل مرة عادة قد اصطلح عليها الجمهور وعدّها اولية من اوليات التمدن وهي في الحقيقة ليست في شيء من الاهمية فيؤخذ عليك اهمالك اياها ويعد عملك هذا من سوء الادب

وهذا ما جرى للسكسونيين في تلك المأْدبة · فان سادرك نشّف يديه من الماء بعد غسلها بمنشفة فضحك منه الحضور لذلك ولانه لم يصبر الى ان يتبخر عنهما الماء وهو يهزهما في الهواء · واكل اثلستاين فطيرة من اللحم بتمامها ظاناً انها محشوّة بلحم القبّر واليمام فضحك منه الحضور لانه لم يعرف ان اللحم كان لحم البلابل

واخيراً انتهى الاكلون من اكلهم وتحوّلوا الى الشراب فشربوا منه كثيراً وهم

يتفكهون بذكر اعمال المتبارزين في اليومين الماضيين وقد اتوا على ذكر الرامي مستغربين من مهارته . ومما زاد في اعجابهم ما رأوه من فروسية الفارس الاسود ونكرانه ذاته وعدم تشاوفه اذ تخلى عن شرف هو الأولى به ثم ذكروا ايفنهو والثمن الغالي الذي ابتاع به الجائزة وكل ذلك بحرية افكار المحاربة وخفة ارواحهم وكان يتخلل الحديث بعض النكات المضحكة . ولم يكن بين الجمهور من كان منقبض النفس مشرَّد الحس سوى البرنس يوحنا فانه لم يشارك الحضور في ضحكهم على خلاف عادته كأن هنالك امراً من الاهمية على جانب كان يثقل افكاره ويشغلها . ولم يكن ينتبه لما يدور حوله الا اذا نبهه احد اتباعه فكان عند ذلك ينهض بغتة كمن قد افاق من نوم عميق ويبتلع كاساً من الخمر ويشارك الجمهور في حديثهم هنيهة ثم يعود الى حاله من الذهول . وعقيب احدى تلك الغيبوبات نهض البرنس على قدميه وقال :

« لنشرب هذه الكاس على ذكر الفارس ولفرد اف ايفنهو فارس هذا اليوم واننا نأسف لان جراحه تعوقه عن مشاركتنا في هذه الوليمة ولكنه وان يكن غائباً وجب علينا اكرام فروسيته كما تستحق . فلنشرب كلنا وعلى الاخص سادرك اف روذرود اصل ذلك الفرع الكريم »

فنهض سادرك على قدميه ووضع كاسه على المائدة دون ان يمسها بشفتيه وقال « كلاَّ يامولاي ! ان ذاك الفتى الذي عصى اوامري واحتقرها وخلع عوائد آبائه لا ادعوه ابني »

« مستحيل ! » صاح البرنس وهو يتظاهر بالدهشة « يستحيل عليَّ فلا اصدق ان ولداً شجاعاً كريماً كايفنهو يخالف ارادة ابيه »

« ولكن هذا ما فعله ولفرد هذا يا مولاي فقد هجر بيتي الابوي ليختلط باشراف قصر اخيك حيثما تعلَّم هذه الحيل التي اراك تمتدحها . نعم ترك بيتي رغم ارادتي

ومشيئتي وان عملاً كهذا كان يعدّ في ايام أ لفرد جريمة يجازى فاعلها »

« اواه ! » صاح البرنس متظاهراً بالاسف الشديد ومشاركة الوالد بحزنه « اما وقد كان ولدك في رفقة اخي التعس فلم يعد من لزوم الى السوءال عن القدوة التي اقتدى بها » . قال البرنس يوحنا هذا وكأنه قد نسي انه هو الوحيد بين اولاد يوحنا الثاني الذي عقّ والده ونكر فضله وخالف ارادته اضعاف اضعاف ما فعل اخوته

وبعد سكوت قصير قال : « في عزم اخي ان يهب اقطاعات ايفنهو الغنية الى تابعه المحبوب منه فيما اظن »

فقال سادرك قد وهبه اياها ولكنني قد اعترضت على قبوله بوظيفة خادم يسترها بلقب املاك كان اباؤه يملكونها وهم احرار في ملكهم

اذا كان الامر كما صرَّحت به فهوذا انا استأذنك في هبة تلك الاقطاعات الى رجل لا يرى في هبة العرش حطة وهو فرنت — دي — بوف ثم تحوَّل الى فرنت — دي — بوف وقال : « ارى انك سوف تبقي تلك الاملاك لنفسك لانني اعتقد ان الفارس ايفنهو لا يدَّعيها وقد رفضها ابوه ولا هو يفضلها على رضى والده »

فصاح فرنت دي بوف قائلاً اقسم بمار انطون انني ارضى ان ادعى سكسونياً صاغراً اذا تمكن سادرك او ابنه او اي كان ممن يجري في عروقه دم انكليزي من استخلاص تلك الاقطاعات التي وهبتموها سموكم لي واصبحت ملكي من يدي

فامتقع لون سادرك لدى سماعه هذه الاهانة التي اعتاد اشراف النورمنديين اظهار احتقارهم للسكسون بها وصاح بالفارس « ان من يدعوك سكسونياً يخلع عليك شرفاً عظيماً لا تستحقه »

فهمَّ فرنت — دي — بوف بالجواب فسبقه البرنس وقال « يحق للسكسونيين الافتخار ايها السادة لانهم يزيدوننا بطول سلسلة سلالتهم كما انهم يزيدون علينا

بطول جبهم

فقال ملفوازين « نعم هم يتقدموننا كما تتقدم الغزلان الكلاب في الصيد »

فقال الرئيس ايمر « ولهم الحق في ذلك لاسبقيتهم في الآداب وحسن المعاشرة »

فاجاب دي براسي « وبقلة اكلهم وامتناعهم عن المسكرات » ناسياً العروس والاملاك الموعود بهما

وقال براين الهيكلي « بالشجاعة والاقدام اللذين اظهروهما في معركة هايستنكز وغيرها »

وكان اتباع البرنس يلقون هزءهم باسمين وسادرك واقف يجيل نظره من الواحد الى الآخر وعيناه تقدحان شرراً وهو صامت كانه قد خنقه الغضب . وبعد سكوت طويل رجعت اليه قوة النطق فتحوّل الى البرنس الذي كان البادىء وقال :

« مهما تكن نقائص السكسون ومهما تكن الدرجة التي وصلوا اليها من الضعف والاحتقار فانهم والله لم يبلغوا بعد تلك الدرجة التي يأذنون معها باهانة ضيفهم المسالم وهو يأكل زادهم ويشرب خمرهم وجالس تحت سقفهم كما يفعل سموّكم اليوم . ومهما يكن نصيب ابائنا في معركة هايستنكز » والتفت الى فرنت — دي — بوف والهيكلي « يجب ان لا يذكره من سقط مرتين وثلاثاً امام رمح سكسوني وذلك منذ ساعات معدودة »

فقال البرنس « وايماني هذا التأنيب جارح كيف ترون ايها السادة وما قولكم في الرعايا السكسونيين الذين قد تقدموا في الشجاعة والذكاء ؟ انا ارى ان الاحرى بنا ان نرجع الى مراكبنا ونعود الى نورمانديا »

فصاح دي براسي ضاحكاً « انعود خوفاً من السكسونيين انا والله لا نحتاج الا حراب الصيد لقهر هولاء الخنازير البرّية »

وقال فتزور « مكانكم ايها السادة كفى ما اتيتم به من الهزل والاولى بك يامولاي البرنس ان تفهم سادرك الفاضل انكم بهزئكم هذا الشيء يثقل على مسامع الغرباء لم تقصدوا اهانة »

فصاح البرنس « اهانة !! من يزعم انني اسمح باهانة شخص ما في حضرتي ؟ هوذا انا اشرب هذه الكاس بمحبة سادرك نفسه اذ قد ابى سادرك ان يشرب على ذكر ابنه »

فشرب الجميع وهم يهتفون ولكنهم لم يفلحوا فيما قصدوه من نفي ظنون سادرك . واما سادرك فبقي صامتاً

وشرب البرنس نخب الثلستاين ايضاً فانحنى هذا وقد اثرت الخمرة في دماغه : اما وقد قمنا بالواجب نحو ضيفينا فهل يتنازل احدهما ويذكر اسم احد النورمنديين ممن لا يؤذي ذكر اسمه اذان ضيفينا ويدنس شفاههما فنشرب على ذكره

فلما سمع فتزور كلام البرنس نهض من مجلسه ونقدم من السكسونيين وامرّ اليهما بان يضعا حدًّا للعداوة بين الجنسين ويذكرا اسم البرنس يوحنا . فلم يجب سادرك على كلام فتزور بل وقف وملأ كاسه وخاطب البرنس قائلاً : طلبت اليّ سموكم ان اذكر اسم احد النورمنديين واشترطت ان يكون ذلك الاسم حرياً بالذكر في هذه المأدبة وهو طلب لا يخلو من الصعوبة لانك تطلب من العبد ان يتمدح مالك رقبته ومن المغلوب وهو شاعر بالظلم ان يجاهر بمدح غالبه ولكن مع ذلك كله سوف اذكر ذلك الاسم — الاول في الحرب والاول في السلم اعظم قومه شرفاً وكل من يأبى شرب كاسه على ذكر ذلك الاسم اعده خائناً نذلاً وانا مستعد ان اثبت له ذلك في ساحة الميدان . انا اشرب هذه الكاس على ذكر الملك ريكارد الاسدي القلب

فاجفل البرنس لدى ذكر اسم اخيه المعتدى عليه لانه كان ينتظر ان يسمع اسمه في ختام كلام سادرك ولكنه رفع كاسه عفواً الى شفتيه ثم ارجعه ليرى ما يفعله اتباعه

الذين وقعوا في حيص بيص لا يدرون ماذا يفعلون والخطر في الحالين واحد. فرأى البعض وهم ارباب الخبرة والتجربة يفعلون فعله . وسمع غيرهم وقد تحمسوا عند ذكر اسم قلب الاسد يصيحون «ليحيَ ريكارد وليعده الله الينا معافىً في القريب العاجل» . اما فرنت — دي — بوف والميكلي وغيرهما قليلون فلم يرفعوا كؤوسهم ولكنهم لم يفوهوا بحرف

اما سادرك فوقف باسماً وهو مسرور مما اتاه اذ كشف للجميع حقيقة حالهم ورسم لهم خيانتهم باحرف واضحة ثم تحوّل الى رفيقه وقال :

هلمَّ ايها الشريف فلقد رأينا وعرفنا ما يكفينا من رقة البرنس فمن احب ان يزداد معرفة بخشونة السكسونيين زارنا في بيوتنا فها نحن قد رأينا الشهامة الملكية واللطف النورمندي

قال هذا وخرج من القاعة يتبعه اثلستاين وعدد من الفرسان الذين ينتمون الى السكسون والذين عدُّوا عمل البرنس اهانة لحقت بهم ايضاً

فصاح البرنس بعد ما خرج الخارجون اقسم بعظام مار توما ان هولاء السكسونيين كانوا الرابحين في كلتا الحالين وخرجوا منصورين

فقال الرئيس أيمر لقد شربنا ما يكفينا وصحنا كثيراً ولقد آن لنا ان نترك الكاس وشأنها

فقال دي براسي ربما ينتظر الرئيس المحترم تائباً يروم حله من خطاياه ولهذا يسرع في الخروج

اجاب الرئيس ليس هذا بالسبب ايها الفارس ولكن شقة سفري في هذا الليل طويلة وبيني وبين ديري مسافة يجب ان اقطعها في هذا الليل

فقال البرنس هامساً في اذن فتزوور ارى ان الخوف قد اخذ منهم مأخذاً وهذا

الرئيس الجبان يروم تركي وشأني

لا تخف يا مولاي فسأقنع الرئيس بوجوب الانضمام الينا وموافاتنا الى الجلسة التي سوف نعقدها في يورك وانني اروم محادثة الرئيس على خلوة قبل ذهابه

قال البرنس لفتزور أهذه هي نتيجة مشورتك ؟ ان اهان في بيتي وان يتركني اتباعي لدى ذكر اسم اخي

صبراً ايها الكريم فربما رددتُ شكواك اليك وقلت ان سخريتك وعدم تروّيك احبط مسعاي. ولكن ليس هذا وقت العتاب فسوف اذهب انا ويذهب دي براسي الى هولاء الجبناء ونفهمهم انهم قد تقدموا كثيراً ولم يعد في امكانهم الاحجام

قال البرنس وهو يخطر في عرض القاعة بقدم غير ثابتة « سيذهب تعبكم ضياعاً لانهم قد رأوا الخط على الحائط ونظروا اثر كف الاسد في الرمل — قد سمعوا زئيره يدوي في جنبات الغابة وهيهات ان تعود اليهم شجاعتهم

قال فتزور لدي براسي فكاني باسم اخيه طلسم يسحره. تعس من كان مشير امير تعوزه العزيمة والثبات في السرّاء والضرّاء

﴿ ١٥ ﴾

لم يكن اهتمام العنكبوت باصلاح الخلل الطارئ على خيوط احبولته اكثر من اهتمام فتزور بجمع كلمة اتباع البرنس يوحنا المتفرقين. وكان يزيد موقف هذا المشير حرجاً عدم ميل اولئك الاتباع الى البرنس لخلوّه من الصفات المحمودة او المحببة وعليه اضطر فتزور فالتجأ الى المواعيد وتذكير القوم بالامتيازات الممنوحة لهم. فكان يعد الشبان باطلاق يدهم والتغاضي عما يأتونه من المفاسد والمحرمات. ويعد المتطالين الى الرتب بالسلطة والقوة ويمني اصحاب المطامع بالمال الكثير والاملاك الواسعة. واما القواد المتطوعون فقد وهب لهم كمية عظيمة من الذهب لانه زعم وكان زعمه مصيباً ان

هذه انجع الادوية لمولاه · والخلاصة ان هذا الرجل النشيط كان ينتقل من جماعة الى اخرى ومن فرد الى آخر ينثر المواعيد ويقنع القوم بوجوب معاضدة البرنس يوحنا وكان اذا ذكر الملك يذكره بطريق العرَض ثم يستدرك ويفهم سامعيه ان امر رجوع ذلك الملك اقرب الى المستحيلات منه الى الممكنات · وكان كثيراً ما يقول:

وان رجع ريكارد فلا يوافق مصالحكم سوى نكرانه والتعامي عنه فبرجوعه الى القوة تفقدون ما نالكم وما سوف ينالكم من النعمة · يجب ان لا يؤخركم الخفاء عن طلوع الجبل وراكب البحر يجب ان لا يخشى الغرق

واذا رجع ريكارد كافأ اصحابه الذين تبعوه الى فلسطين من مال الذين تخلَّفوا سوف يرجع ليناقش اهل البلاد حساباً شديداً عما اتوه — وهم لم يأتوا شيئاً يخالف الشريعة او العوائد · سوف يرجع لينتقم من فرقتي الهيكليين ومار يوحنا المرضين لانهم انحازوا الى ملك فرنسا في الاراضي المقدسة · سوف يرجع ليقتص من الذين انضموا الى اخيه البرنس يوحنا · فهل تخافونه ؟ لا انكر ان ريكارد شديد العزم عظيم البطش ولكننا لسنا في ايام الملك ارثر حينما كان الفارس يلقى جيشاً كاملاً · فاذا رجع ريكارد سوف يرجع منفرداً وحيداً

كان فتزور يستعمل هذه المقدمات والاستنتاجات وما شابهها في اقناع المرتدين واستنهاض المتقاعدين وقد نجح بعض النجاح وتوفق الى اقناع بعض الاشراف بحضور الجلسة في يورك لوضع التاج على راس البرنس يوحنا

ورجع فتزور من بعثته التي ذكرنا الغرض منها في اواخر ليل المأدبة فالتقى بدي براسي في ساحة دار القصر وقد خلع عنه لباس المأدبة وتردَّى بما يشبه لبوس الرماة السكسونيين · فدهش فتزور وخاطب ذلك الفارس بصوت لا يخلو من بعض الغيظ قائلاً :

« ماذا ارى ايها الفارس ! هل نحن في مساخر العيد ؟ أَلَم يكن الاحرى بك ان تسعى معي الى تشديد عزائم هولاء القوم الذين تصطك ركبهم لمجرد ذكر اسم الملك ريكارد ؟ »

كنت ساعياً وراء مصلحتك وها انذا ساعٍ وراء مصالحي

صاح فتزور « ساعٍ وراء مصالحي ! أوَلم اجهد النفس في خدمة البرنس سيدنا ؟ »

يظن من يسمعك ان لا همّ لك سوى مصالح الامير · كلمنا يعرف الآخر يافتزور فالسلطة غرضك والملذات غرضي ولا غرو فكل يسعى وراء الغرض الذي يتطلبه منه سنه · وارى ان رأيك في البرنس لا يختلف عن رأيي فهو اضعف من ان يحمل صولجاناً وفيه من الظلم ما يجرّد قلبه من الرفق والتساهل فهو عتيّ ومن قصر النظر والادعاء ما ينفر منه قلوب امته فهو مكروه · وتقلبه وجبنه يحولان دون ان يكون ملكاً واذا كان فالى حين · ولكنه يستخدمه فتزور ودي براسي لاعلاء شأنهما · ألستَ تساعده بدهائك وانا اساعده برماح اتباعي ؟

فقال فتزور وقد فرغ صبره « وانا ارى انه من الحق ان تتخلق بالخرق والطيش ونحن في اشد الحاجة الى اصالة الراي » وما هو الغرض من هذا التخفي ؟

فاجاب دي براسي ببرودة « الغرض هو الحصول على عرس وذلك على زي سبط بنيامين »

على زي سبط بنيامين ! وماذا تعني بذلك ؟

أَلم تكن مساء امس وقد قصّ علينا الرئيس ايمر تلك القصة ردًّا على الاغنية التي تغنى بها احد المنشدين ؟ قال الرئيس انه منذ زمن مديد نشبت عداوة بين سبط بنيامين وباقي اسباط بني اسرائيل — عداوة تغلَّب فيها هولاء لكثرة عددهم واوشكوا ان يستأصلوا شأفة رجال ذلك السبط واقسموا بالعذراء الطاهرة انهم لن يزوجوهم

من بناتهم واحدة مهما اقتضى الامر . وبعد زمن ثاب هولاء الى رشدهم وندموا على تسرعهم في القسم وبحثوا عن طريقة يتخلصون بها من ثقل اليمين دون ان يحنثوا بها ولما لم يهتدوا ارسلوا من قبلهم مندوباً يستشير قداسة البابا في ذلك فاشار عليهم بان يهجم شبان سبط بنيامين بينما يكون فرسان باقي الاسباط منهمكين في نزال تربني ويخطفوا العذارى ويتخذوا لهم منهن زوجات بدون استئذانهن او استئذان اولياء امرهن

سمعت القصة وما هي عليه من الخبط والخلط بين التواريخ والظروف . وبعد ؟

قلتُ ان غرضي الحصول على عرس في مثل هذه الطريقة وذلك بان الحق وانا بهذا الزي بجماعة السكسون العلوج الذين غادروا القصر في هذا المساء واختطف السيدة روانا

هل أُصبتَ بعقلك يادي براسي ؟ ألا تعلم ما لهولاء السكسون من الاعتبار بين قومهم فضلاً عن انهم من الاغنياء والمال والرفعة نصيب القليلين بين السكسون

بلى ولكن يجب ان لا يكون لاحدهم نصيب مما ذكرتَ لتتم بذلك مقتضيات الغلبة

ليس هذا وقت القيام بهذه المهام يا دي براسي وذلك اعتباراً للظروف الحاضرة فلا يمكن للبرنس يوحنا في هذا الوقت الا ان يمنح كل ذي حق حقه ولا بد له على الاخص من النظر في مطالب الشعب مَن اذا لحقت اذية باحد المحوبين منه انتقم له

ليفعل ما شاء ولينتقم ان شاء واذا فعل لا يطول الزمان حتى ينظر بعينه الاعانة التي تقوم بها حراب لحراب رجالي وحراب القوم السكسونيين . على انني لا اروم اعلان نفسي وساجري ما اجريه سراً وهوذا زيي هذا لا يختلف بشيء عن زي ساكني الاحراج او عصاة غابات يوركشاير الذين ستقع عليهم اللائمة ولدي من عيوني المتيقظين معلومات صحيحة عن حركات السكسونيين وما ينوون عمله . فسيقضون

ليلتهم في بيعة القديس وذُولد وغداً يقربون منا فانقض عليهم كالبازي ونأسرهم ثم ارتد فامثل دور المنقذ المخلّص وانجي السيدة روانا من اسر قاطعي الطرق واحملها الى معقل فرنت — دي — بوف واذا اقتضى الامر فالى نورمانديا ولا اظهر امرها لاهلها حتى تدعى شرعاً السيدة موريس دي براسي

والله ان خطتك هذه لغاية في الحكمة والاصابة · ويخال لي انها ليست من ابتداعك بتمامها — اي دي براسي قل لي من ضمَّ رأيه الى رأيك فكان منهما هذه الطريقة وفضلاً عن هذا كنت ازعم انك وحيد هنا وان رجالك في يورك

اذا لم يكن لي بدٌّ من اطلاعك على حقيقة الحال فاعلم ان الراي راي الهيكلي وهو سوف يهجم معي برجاله ثم من ايديه سوف انقذ روانا بعد ان استبدل اثوابي

اما والحق يقال ان هذه الدسيسة حرية ان تكون عن فكرين ثاقبين كفكريكما وعن اصالة رايي وتحرّز كرأيك وتحرُّزك الاَّ انه ربما هان عليك يا دي براسي اختطاف الفتاة من بين يدي اهلها ولكن يصعب وربما كان مستحيلاً استخلاصها من يدَي الهيكلي ألا تعلم انه كالبازي المعتاد صيد الحجال فاذا صاد احدها حافظ عليه بكل قواه ؟

لا خوف عليَّ من هذه الجهة لان الرجل كاهن هيكلي ولن يتمكن من مناظرتي في هوى الفتاة والاقتران بها · وفضلاً عن هذا لو ان فيه قوة ومقدرة طغمة كاملة من امثاله لما اقدم على التطاول الى عروس دي براسي والاساءة اليها

بما اني لا اقدر ان امنعك عن الاتيان بمثل هذا العمل لما اعلمه من عنادك ارجو منك ان يكون رجوعك الينا في القريب السريع ولا تضف الى غباوتك اضاعة الوقت الثمين

قلتُ ان المسألة لا تستغرق اكثر من بضع ساعات ومن ثمَّ اتوجه الى يورك

واكون في طليعة رجالي الاشداء للقيام بمهام سياستك · الوداع فانني اسمع حركة الجياد وفرسانها في الدار الخارجيـــة وساسير سير الفرسان الصادقين لينالوا ابتسامات الجمال الحقيقي

قال فتزور مخاطباً نفسه وهو يتبع دي راسي بنظره كفارس صادق ! قل كجاهل غبي او كصبي يترك المهم من الامور ليلحق بعصافة تذريها الرياح · هولاء هم الرجال الذين اضطررت لان استخدمهم في مهمتي — مهمة برنس جاهل ومتقلب وما يدريني بعد كل هذا انه لا ينقلب عليّ ولا ينكرني كما عقّ والده وغدر باخيه ؟ ولكنه هو احدى وسائلي التي بها لا بغيرها يتسنى لي الوصول الى غايتي · واذا اوعزت اليه كبرياؤه بالانقلاب رأى مني ما يروعه مما اخفيه الان لانه سرّي الا انه سيعرفه في حينه اذا اقتضى الامر

واذا بصوت البرنس من غرفته الداخلية يقطع تأملات السياسي ويدعوه اليه · فنزع المشير قبعته ودخل ليتقبل اوامر مولاه الملك المزمع

≪ ١٦ ≫

لم ينسَ القارئ ان مرجع الفضل في تغلب الفارس المحروم كان للفارس الاسود وما ابداه من ضروب الفروسية والبطش وذكرنا ان الفارس الاسود اختفى عن العيان حينما عرف ما ستؤول اليه النتيجة وعلى رغم مناداة المادحين وتبويق المبوّقين ادار راسّ جواده الى جهة الشمال وتوغل في الغابات سالكاً الطرُق المهجورة الى ان ادركه الظلام بالقرب من فندق حقير منفرد قضى فيه ليلته وهناك اجتمع بشاعر سائح قصّ عليه آخر حوادث الميدان

وبكّر الفارس صباح اليوم التالي في تركه الفندق استعداداً لسفر طويل وكان جواده لا يزال قوياً لادخار قواه في الميدان كما رأيناه في اليوم السابق ·



غير ان تشعب الطرق حيّر الفارس في مسيره فادركه الظلام وهو على حدود يوركشاير الغربية ولم يبعد كثيراً عن مكان مبيته ليل امس · الا ان التعب كان قد اخذ من الفرس والفارس في ذلك الوقت فاضحيا في حاجة ماسة الى الراحة واصبح لا بد للفارس من البحث عن مبيت ياوي اليه غير ان المكان الذى وصل اليه مفازة ليس فيها ما يشير الى اقترابه من مسكن مأهول فاضطرته الحال الى ما يلتجئ اليه عادة الفرسان من تحويل جيادهم الى المرعى واستلقائهم على الارض مستندين رؤوسهم الى جذع سنديانة و يلتحفون اغصانها و يتصوّرون محاسن معشوقاتهم · غير ان هذا الفارس ادار عينيه بنظر غير المكتفي على المسالك العديدة امامه ذلك اما لعدم وجود صورة فتاة في فؤاده يغنيه تصوُّر محاسنها عن الفراش والعشاء او لاهتمامه بامرها اهتمامه بامر النزال وهو في الميدان

وكانت الشمس التي كان جل اهتمام الفارس في مسيره عليها قد غربت واضحت كل خطوة يخطوها الفارس اقرب الى تضليله منها الى الاقتراب به من غايته · فتفحص المسالك ليرى ايها المطروق فلم ينجح واخيراً عمد الى جواده وامتطاه وارخى عنانه معتمداً على غريزته في انتخاب الطريق الموافق لعلمه بالاختبار ان كثيراً ما نجّى الفرس فارسه في ظروف مثل هذه

وهذا الجواد الذي انهكه طول السير وثقل الفارس المدرّع والذي لم يكن يجيب على وخز المهماز بغير النحيط لم يكد يشعر بارتخاء العنان حتى ابدى همة لم يأمل الفارس ان يجدها في ما بقي من قواه بعد ذلك السير الطويل وكأني به قد اراد ان يظهر لفارسه انه اهلٌ لثقته فسار في غير الطريق الذي لاح للفارس السير فيه

ولم يطل بهما السير حتى سُمِع صوت ناقوس في ذلك الظلام فاستدل الفارس انه اقترب من صومعة

وتطلع فاذا هو في منبسط من الارض تزينه الاعشاب و يقابله في الجهة الاخرى

صخر رفيع عرّشت عليه الحشائش ووجد المشيم غذاء بين شقوقه وامام الصخر مهواة تعلوها شجرة كانها ريشة يوّجها الهواء مركوزة في خوذة بطل يدعو للحرب فتلطّف تموّجاتها قسوة المشهد وهول المنظر

ورأى القارس عند اسفل الصخر كوخاً حقيرًا مصنوعاً من جذوع الاشجار يتخللها الطحلب ممزوجاً بالطين ليمنع تطرّق الهواء الى الداخل · والى جانب الكوخ عين ماء صافٍ تصب مياهها في جرن يحيط به الكلأ ثم تنساب بين اعشاب المرجة بخرير مطرب الى ان تختفي بين اشجار الغابات · وعلى مقربة من العين بقايا صومعة قد تداعت الى الخراب يعلو الباقي من سطحها قبة صغيرة تدعمها اربعة اعمدة قصيرة يتدلى من وسطها جرس قديم العهد

وظهر هذا المشهد امام عيني الفارس الاسود في البقية الباقية من النور فسكن خاطره وأمّل وجود محل للمبيت لان ضيافة الغرباء وايواء المسافرين من اهم واجبات ساكني الصوامع وعليه وثب الفارس من سرجه واقترب من باب الكوخ وقرعه بكعب سنانه

وبعد قليل سمع القارس الاسود صوتاً اجش من داخل الكوخ يقول : « سر في سبيلك كائناً من تكون · لا تزعج خادم الرب والقديس دنستان في تأدية فروضه المسائية »

فقال الفارس بلطف « ايها الاب المحترم! في الباب مسافر ضلَّ الطريق وادركه الليل فبايوائه فرصة لاظهار كرم الضيافة والاعتناء بالغرباء المأمور بهما في الكتب المنزلة »

ايها الاخ المبارك لقد شاءت ارادة العذراء المقدسة والقديس دنستان ان يعيّناني لهذه المهمة · ولكنهما لم يساعداني على تأديتها والقيام بها · ليس لديَّ من الطعام ما يقنع

الكلب وفراشي لا يرضاه فرس مروّض . فعليه سر في سبيلك واتركني وليرعك الله بعنايته

ولكن لا سبيل الى ذلك ! هوذا الليل ارخى سدوله وانا غريب في هذه الناحية فهلاّ فتحت بابك كمسيحي حقيقي يساعد اخاه وارشدتني على الاقل الى الطريق الذي يجب ان اسلكه

وبناءً على دعواك انك رجل مسيحي اطلب اليك ايها الاخ المبارك ان تكف عن ازعاجي لانك قد اخرتني في محادثتك عن اتمام « السلام » مرة و « ابانا » مرة وخالفت بذلك الحلف الذي حلفته بانني اسردها قبل طلوع القمر فواشقائي انا الخاطئ

فصاح الفارس ارشدني الى الطريق على الاقل

الطريق الذي تراه امامك يقودك الى مستنقع فمخاضة يصعب عليك عبورها نظرًا لكثرة المطر المتساقط في هذه الايام . واذا عبرتها فحاذر في مسيرك على الضفة الشمالية لان الطريق هناك وعر وربما افضى بك الى السقوط في الهاوية . . .

فقاطعه الفارس قائلاً : مستنقع — مخاضة — هاوية — طريق وعر — فياسيدي الناسك لو كنت اقدس من اطلق لحية وعدَّ حبوب سبحة عجزت عن استمالتي الى سير هذا السبيل في هذا الليل . ان الامة تعولك فيجب عليك ايواء احد افرادها . ومن فضلها تعيش وباحسانها تضيفك فهلاّ اضفتَ احد ابنائها التائهين ! واذا انت لم تفتح هذا الباب بسرعة فتحته قهرًا ودخلت اليك عنوةً

سرْ في سبيلك ايها الصديق ولا تلجئني الى اتخاذ ما اكرهه من الوسائل لابعادك

ولم يفه الناسك بهذه الكلمات حتى سمع الفارس نباح كلاب داخل الكوخ فظن ان الراهب قد دعا اليه كلابه ليطلقها عليه . فرفس الباب رفسة اهتزت لها زوايا الكوخ وكادت قوائم الباب تتحطم . واذ رأى الناسك ذلك خشي على باب كوخه

فصاح : « صبراً صبراً ايها الغريب فسافتح الباب على الرغم مما سوف تلاقي وراءه مما لا يسرّك مرآه »

وفُتح الباب . واذا الناسك في ثيابه السوداء الخشنة يتدلى من طوقه من الوراء قبعة من جنس الثوب وهو متنطق بحبل وبيده عصاً اشبه بالهراوة منها بالعكاز . وكان الناسك كبير الجثة مفتول الساعدين للقوة عليه علامات ودلائل ووراءه كلبان اشبه بالوحوش المفترسة يتحفزان للوثوب . فلما امعن الناسك في طلعة زائره ورأى الدرع ومهمازَيه الذهبيين شارة الفرسان عمد الى الملاطفة واعتذر عن تردده في فتح الباب ناسباً ذلك الى الخوف من اللصوص الذين لا احترام ولا قيمة في عيونهم للسيدة العذراء والقديس دنستان

فاجال الفارس عينيه في اطراف الكوخ فوجد فيه فراشاً من اوراق الشجر وطاولة ليست من الاتقان في شيء وعدداً من الكراسي على نحو الطاولة ثم تحوّل من النظر الى محتويات الكوخ الى مخاطبة الناسك وقال :

ليس في محتويات كوخك ما يستدعي طمع اللصوص سوى هذين الكلبين اللذين ان لم يقويا على قتل وعلى شرس فهما اهل لان يكفياك شر الطامعين

قد اذن لي مراقب الاحراج في اقتناء هذين الكلبين لحراستي الى ان تحسن الاحوال ويستتب الامن في هذه الناحية

قال هذا وركز المشعل الذي كان بيده في ثقب في الصخر وادنى الوقود من النار وقرّب كرسياً من الطاولة واشار الى الفارس بان يفعل فعله . فجلس الاثنان واخذ كلٌّ منهما يتأمل في بنية جسد رفيقه معجباً بها كانه لم يرَ في حياته ما يقاربها في الضخامة ولا القوة . وبعد سكوت قصير قضاه الفارس فيما ذكرنا قال للناسك :

ارجو منك ايها الاب المحترم الاجابة على اسئلة ثلاثة اطرحها عليك ولو قطعت



بذلك مجرى تأملاتك الروحية وهي : اولاً في اية زاوية يجب ان اقيّد جوادي ؟ ثانياً ما هو نوع عشائي ؟ ثالثاً كيف اقضي ليلتي وبماذا الهو ؟

ساجيب على اسئلتك باشارات اصبعي لان من قواعدي ان استغني عن الكلام اذا كانت الاشارات تقوم مقامه · قال هذا واشار باصبعه الى احدى زوايا الكوخ قائلاً « مربط جوادك » والى زاوية اخرى « فراشك » ثم تناول من على رف مرتفع صفحة ملأى باللوبياء اليابسة ووضعه على الطاولة قائلاً « عشاؤك »

فهزّ الفارس منكبيه وخرج الى خارج الكوخ واقتاد جواده الى الزاوية التي اشار اليها الناسك ونزع سرجه باعتناء كلي والقى الرداء على ظهره · وكأن فعل الفارس قد اثّر في قلب الناسك فنهض من مقعده واقترب من نقرة في الصخر واستخرج منها حزمة من العشب وطرحها امام الجواد ثم عاد فطرح شيئاً من الاعشاب اليابسة ليتخذها ضيفه فراشاً له · فشكر له الفارس اهتمامه ورجع كلٌ الى كرسيه

وبعد ان تمم الناسك بصلاة طويلة فغرَ فماً كالمغارة فيه صفان من الاسنان القوية والحادّة اشبه شيء بانياب خنزير برّي منها باسنان بشر وطرح فيه شيئاً من حبوب اللوبياء فكانت كانها ذخيرة حقيرة لمطحنة كهذه

فاراد الفارس ان يتمثل بمضيفه فنزع خوذته وقفّازيه الحديديين وجانباً من درعه فابان رأساً جميلاً تعلوه غدائر كثيفة من الشعر الاشقر البصّاص وجبين مرتفع وعينين زرقاوين شديدتي اللمعان وفماً منضد الاسنان · تعلو شفته العليا شاربان اشقران الا انهما لا يلمعان · وكانت تلك الطلعة بما فيها من دلائل الاقدام والثبات طبق ما في جثته من مظاهر القوة والعزم

واراد الناسك ان يظهر للفارس انه اهل لثقته فكشف وجهه امامه وطرح جبته وقبعته الى جانب فرأى الفارس راساً كالكرة في استدارتها يحيط بقمتها المحلوقة دائرة

من الشعر الاسود القاسي . ولم يكن في وجه هذا الناسك شيءٌ مما يدل على تواضع الكهنوت بل كان بعكس ذلك كثيف الحاجبين مستدير العينين منتفخ الوجنتين احمرها كانهما وجنتا مبوّق يتدلى منهما لحية سوداء كثيفة مما اخطر ببال الفارس قطع اللحم السمين وغيره من المغذيات بدلاً من حبوب اللوبياء اليابسة غير انه فعل فعل الناسك والتقم شيئاً من الحبوب . وبعد ان لاقى اشد الصعوبات في سحقها تحت اضراسه سأل الناسك جرعة من الشراب فقرّب منه الناسك ابريقاً من الماء الزلال قائلاً : اتيت بهذا الماء من بئر القديس دنستان تبارك اسمه الذي عمد بمياهه بين شروق شمس وشروق اخرى خمس مئة من وثنيي البريطان

قال هذا وادنى الابريق من فمه وجرع جرعة صغيرة على من كان مثله

فقال الفارس يخيل لي ايها الاب الصالح ان لاقتياتك من هذه الحبوب وشربك من هذا الماء المقدس فضلاً عظيماً واثرًا جليلاً في انماء جسدك وكأني بك اصلح لكسب كبش في صراع عنيف او غنيمة خاتم في نزال بالعصي او بضرب السيف — انك اصلح لهذه الامور منك للسكن في هذا المكان القفر تتلو الصلاة وحيداً وتقتات بالحبوب اليابسة وتشرب الماء البارد

يا سيدي الفارس ان افكاري هذه التي تشبه افكار العامة هي من الجسد . لقد شاءت العذراء المقدسة وشاء شفيعي القديس دنستان المبارك ان يباركا قوّتي كما باركا الحمص بين يدي شدرخ وميشخ وعبد ناغو الذين فضلوا شرب الماء الزلال وأكل الحمص على شرب الخمر واكل اللحم النجس الذي قدمه ملك السلجوقيين

أَلا تأذن لي يا قداسة الاب ان اسأل عن الشخص الذي شاءت السماء اظهار عجائبها فيه ؟

ادعني بناسك كوبمانهرست لانني أُعرف بهذا الاسم في هذه النواحي ويضيفون

الى ذلك كلمة « بار » ولكنني لا استحق هذا النعت فلا تستعمله · والان هل يجوز لي ان استطلع اسم ضيفي الكريم ؟

لك ما تطلب فانا معروف في هذه النواحي بلقب الفارس الاسود ويضيف بعضهم الى ذلك « الكسلان » وهو نعت لا اطمح الى اقتنائه

يخال لي يا سيدي الفارس الكسلان انك رجل شديد الحذر وصائب الرأي وفضلاً عن هذا يظهر لي ان زادي الاكليريكي لم ينل منك القبول وربما كان ذلك لاعتيادك فخفخة القصور والمعسكرات ورفاهية المدن · والذي اذكره ان مراقب الاحراج الكريم قد ترك شيئاً من اللحم لهذين الكلبين يوم عهد اليّ حراستها وقد ذهب امر اللحم من خاطري لعدم اعتمادي عليه في امور معيشتي وانهماكي بالتأملات الروحية

انني اقسم بصدق ما تقول · ولا عجب ايها الناسك البار فانني لا ارى المراقب الكريم ينظر الى اضراسك القوية وعضلاتك المتينة ثم يرضى بان تقتات من اللوبياء وتشرب ماء زلالاً لا خمراً فعليّ بما اودعه المراقب من فيض جوده

فنظر الناسك الى ضيفه نظرة الحذر حائراً في امره وفي الحدّ الذي يجب الوقوف عنده في معاملته مع ضيفه ولكن شرف خلال هذا البادية في وجهه وابتساماته الشافة عن نية سليمة شجعاه فنهض من مقعده وقصد طرف الكوخ الآخر وفتح باباً صغيراً واخرج من الخزانة صحفة كبيرة وضعها امام الفارس الذي بدأ بتقطيع ما فيها بحربته وهو يقول :

قل لي متى كان آخر عهدك بالمراقب الكريم ؟

من نحو شهرين

قسماً بالاله الحيّ ايها الناسك البار ان كل ما يوجد في كوخك لعجيب غريب

فلولا كلامك لاقسمتُ ان الغزال الذي ارى اعضاءه ولحومه في هذه الصحفة كان واقفاً على قوائمه الاربع في غضون الاسبوع الماضي

فسقط في يدَي الناسك وزاد منظره ندماً وارتباكاً عدم تمكنه من مشاركة الفارس الذي كان يقطع القطعة بعد القطعة ويأكلها متلذذاً لانه كان قد ذكر لضيفه ان تنسكه يحرمه اكل اللحوم

فاستأنف الفارس كلامه عند ما شاهد سكوت الناسك قائلاً :

كنتُ في فلسطين يا سيدي الناسك وعلى ما اذكر ان عوائد تلك البلاد تقضي على المضيف بمشاركة ضيفه في طعامه مظهراً له بذلك ان الطعام المقدَّم خالٍ من كل ما يؤذي ولكن حاشا لي ان اظن السوء برجل مثلك غير انني اود من كل قلبي ان تتخذ هذه العادة الشرقية وتستعملها معي

ساخالف قوانيني لاوَّل مرة يا سيدي الفارس اراحة لافكارك . قال الناسك هذا وانقض على اللحم باصابعه العشر

ولما لم يعد في امكان الناسك التوقف او المداهنة والرياء اخذ في مسابقة الفارس في الاكل وعلى الرغم من صيام هذا مدة طويلة عجز عن اللحاق بالناسك وعن مجاراته في اظهار قوة القابلية

ولما اكتفى الضيف قال : يا سيدي الناسك انني اراهن على جوادي هذا مقابل درهم واحد على ان المراقب الكريم ترك مع هذا اللحم زقاً من الخمر ولما كان الخمر خارجاً عن موضوع دعوتك لا اشك في انك تناسيت امره فهلاً بحثت في اعماق تلك الخزانة لعلك تجد الزق

فتبسم الناسك وذهب الى الخزانة واخرج منها قربة واتى بها الى الطاولة واحضر كاسين مصنوعتين من قرني وعل ولما كان قد طرح كل محاذرة للرياح ملأ الكأسين

وافرغ احداها في فمه وهو يقول :

« هذه كاسك يا سيدي الفارس الكسلان »

« لتهنأ بشربها ياسيدي ناسك كوبمانهرست البار »

وبعد ما افرغ كاسه قال : تذهلني ايها البار باقامتك فريداً في هذه الغابة على الرغم من قوة جسدك وخفة حركاتك وعندي انك اصلح لحراسة معقل تاكل المسمنات وتشرب المعتقات منك للانفراد تأكل اللوبياء وتشرب الماء متكلاً على كرم مراقب الاحراج ولكنت على الاقل اقتنصت وعلاً من وعول الملك وليس من يلحظ دخوله بطن خادم القديس دنستان

ان فيما تقوله ياسيدي الفارس لخطراً جسيماً . انا كما ترى ناسك اسير مع الشريعة يداً بيد مخلص للملك فلو اقترفت الذنب الذي ذكرته كان نصيبي الحبس وربما الشنق اذا لم يشفع بي سواد جبتي

غير انني لو كنت مكانك لفعلت ذلك في الليل عند ما يكون الحرّاس والمراقبون في فراشهم . كنت بينما اتمم صلواتي اطلق سهماً على قطيع من الغزلان والجراء محقق اصدقني يا سيدي الناسك ألم تأت بمثل هذا في غضون اقامتك في هذا المكان

لقد رأيت ياسيدي الكسلان كلما يهمك رؤيته من محتويات بيتي فالاوفق ان تقبل بما يرسله الرب بالشكر وتعرض عن معرفة الوسائط فاملأ كاسك واشرب والا ارغمتني بسبب سؤالاتك هذه ان امنعك من المبيت واعتقدت انك غير اهل لضيافتي

وايماني انك قد اذهلتني وانت اغرب من لقيت اطواراً ألا تعلم انني رجل ابحث عن المخاطر لالتقيها بصدر رحيب وداً بي مبارزة الاقران ونزال الابطال ؟

ياسيدي الفارس الكسلان اني اشرب هذه الكاس على بسالتك التي اقدرها قدرها ولكنني لا اخفي عنك انذهالي من تطوحك وحبك لاستطلاع امور سواك فلو رضيت

بما اعرضه عليك لكنت بكل محبة اخوية وانصاف التي عليك درساً يحلك في مدة الاثني عشر شهراً المقبلة من خطية حب الاستطلاع

فشرب الفارس كاسه وسأل الناسك ذكر نوع السلاح الذي يرغب في استعماله

اتني كفوءٌ لك في اي سلاح شئت من مقراض دليلة الى سيف جليات اما وقد فوّضت اليّ امر انتقاء السلاح فما قولك في هذه . قال هذا واستخرج من خزانة اخرى سيفين عريضين وترسين

وكانت انظار الفارس تتبع الناسك في جميع حركاته فعندما فتح باب الخزانة رأى الفارس فيها قوسين طويلتين وقوساً ثالثة قصيرة وعدداً من السهام وقيثارة وادوات اخرى تبعد عن الغرض من المناسك لبعد النساك عن استعمالها . فقال . اعدك يا اخي الناسك ان امتنع عن سؤالك فيما بعد لانني قد رأيت في تلك الخزانة جواباً لكل سؤال كنت مزمعاً على القائه ولكنني افضل مناظرتك في هذه الآلة على منازلتك بالسيف والترس . قال هذا وتناول القيثارة

ارجو يا سيدي الفارس ان لا تكون قد اظهرت فيما سلف اسباباً اوجبت تلقيبك بالكسلان على انني لا اخفي عنك شكوكي فيك . ولكن انت ضيفي على كل الاحوال وتأبى عليّ حقوق الضيافة ان اختبر رجولتك على الرغم من ارادتك فاجلس اذن واملأ كاسك . ولنشرب ولنتغنَّ ولنطرب فاذا اسمعتني اغنية ما يلذ لي سمعه كان باب كوخي مفتوحاً لك اي وقت اردت زيارتي فيه ما دمت ادعى ناسك كوبمانهرت البار وهي وظيفة ان شاء الرب لن اتركها الاّ لارتدي رداء ابناء الغابات . فاشرب لان شد الاوتار يأخذ وقتاً ولا يوجد في العالم ما يلطّف الصوت اكثر من عصير العنب . انا رجل لا اود لمس الاوتار الاّ متى احسست بالخمرة قد بلغت اطراف اصابعي فارتخت

—٭٭٭٭—

≺ ١٧ ≻

ولكن على اشارة الناسك وجد الفارس صعوبة في ضبط رنات القيثارة · وبعد اجهاد النفس قال :

ارى ايها المحترم ان قيثارتك ينقصها وتر وان الاوتار الاخرى قد اسيء استعمالها

صدقت وانني لأراك من ارباب هذا الفن · ولكن ليس الذنب في اساءة استعمال الاوتار ذنبي بل ذنب ألا — أ — دايل المنشد الاسكتلاندي الذي مع نصيحتي الاَّ يمس القيثارة بعد شربه الكاس السابعة بقي متمادياً في توقيعه عليها فكانت النتيجة ما ترى

قال هذا وتناول كأساً وشربها وهو يهز رأسه اشارة الى عدم رضاه عن عدم مقدرة المنشد المذكور على معاقرة الخمرة

وكان الفارس قد اصلح القيثارة وضبط اوتارها ثم نقرها نقراً خفيفاً بطريق المقدمة وقال :

هل لك في اغنية بلغة الافرنسيس وانغامهم او بلغة من جاورهم من الاقوام ؟

انشدني بلغة الانكليز فانا انكليزي الى حد اطراف اصابعي وعندي يا سيدي الفارس ان اغنية واحدة انكليزية تسوى الافرنسيس ومن جاورهم جميعاً · انا انكليزي وكذلك كان شفيعي القديس دنستان وبغضي لكل ما هو غير انكليزي بغض شفيعي لحافر الشيطان ووالله لا يتغنى في هذا الكوخ بسوى الانكليزية

اليك اذن اغنية من نظم احد السكسون وهو في الارض المقدسة · ثم تغنى بما يأتي

≺ عودة الصليبي ≻

نغمةُ السيفِ ومعسول اللمى　　　والوغى ذات الشرَرْ

هاجت الواجد حتى استملها　　　لاهتزازات الوتَرْ

دور

ظبيـــة القناص والحي المنيع بطلُ الهيجا وَقَدْ
وحواليه باحداقِ الدروع أُسدٌ إثر اسدْ
غادر الاعداء ميتاً وصريع ولوا النصر عَقَدْ
مغرم يشدو باكناف الحى باناشيد الظفرْ
وعلى لأمتهِ قد رَسَما مَلَكُ الحرب أثرْ

دور

ولقد غادر ارض الذهبِ والصليب الاقدسِ
تاركاً ذكر الغنى والنشبِ لجموع الحرسِ
قانعاً ان نال فخر الغلبِ كاباةِ الانفسِ
لا يرى في غير نقلا مغنما وجزا من قد ظفرْ
واتى يصلت صلاً ارقما فوق سرحان أغرْ

دور

ثغرها ما افترَّ الاَّ صقلا سيفه العضبَ اليمان
ولكم مبسمها قد ذلَّلا أُسدَ الحرب العوان
وفلسطين به قد زلزلا وروابي عسقلان
ولكم من اجل عينيها رمى نفسه تحت الخطرْ
لم يمت من في رحى الحرب انثنى لولبَّات الحوَرْ

كان الفارس يتغنى والناسك مصغياً أتم الاصغاء شان المنتقد في المنا هذه عند استماعه اوبرا جديدة. وكان يلوّح بيديه ويحركها بمقتضى نبرات الانغام، واخيراً اخذ بالغناء مع الفارس الى ان انتهى هذا فابدى الناسك طربه ورضاه عن الاغنية ثم قال:

« غير انني ارى كأَن مواطني السكسوني قد طالت مدة اختلاطه بالنورمنديين فاقتبس نبراتهم . لماذا ترك الفارس وطنه ؟ وكيف يرجوان يهجر معشوقته زمناً طويلاً ثم يرجع فلا يرى له مناظراً في حبها . ولكن كيف كانت الحال فقد احسنت وهاءنذا اشرب على حبك وحب كل العشاق طالباً لهم اتمام الرغائب وبلوغ المطلوب . ويغلب في ظني انك لست منهم ياسيدي الفارس . قال هذا لان مفاعيل الخمرة قد ظهرت على الفارس فاخذ يمزج الشراب بالماء . فلما سمع الفارس كلام الناسك قال :

— ألم نقل ان هذا الماء من نبع القديس دنستان المبارك ؟

— بلى وقد عمد القديس دنستان تبارك اسمه عدداً غفيراً من الوثنيين في هذه المياه ولكنني لم اسمع انه شرب منها . وما كان اتبع القديس المذكور للحكمة فقد كان يضع الاشياء بمواضعها اللائقة بها ولست اشك ابداً انه عرف مطالب راهب طروب

واذ قال هذا تناول القيثار ونقر اوتاره وتغنى بما معناه :

الراهب الحافي

سِرْ حيثما تستطيع في الارضِ   واقلب نواحيها على بعضِ
واستقصِ وافنِ العمر في الركضِ   فلا ترى في الرغد والخفضِ
الا ابانا الراهب الحافي

فكم ترى الفرسان في الاسرِ   للاعين النفاثة السحر
حتى الملوك وصاحبو الامرِ   في ربقة الاثقال والقهرِ
والبسط حلف الراهب الحافي

لم تطرقن اقدامة سبُلا   الاَّ تملَّكها ولا جدَلا
وليس الامن بهِ اهلا   وكل غالٍ دونه بذلا
سداً لنفس الراهب الحافي

معتق البيرا واعذبها والطير أقتاها واطيبها
لقدسه والماء تسكبها من العذارى الحور العبها
لغسل ايدي الراهب الحافي

فقال الفارس اقسم بشرفي انك احسنت في الغناء كما احسنت في مدح طغمتك لقد ذكرت الشيطان ألا تخشى ايها المحترم ان يزورك هذا الفاضل وانت في بعض ساعات الطرب كاحد العامة بعيد عن السبحة والكتاب والفروض الكنسية ؟

— بعيداً عن الفروض الكنسية ! اني لا انكر هذه التهمة وارفسها برجلي احتقاراً ألا تدري انني اقوم كل بكرة بخدمة قداسين ولا اتغاضى عن فروض الظهر ولا انسى صلاة المساء والفراش

— ولكنك تهمل الصلاة في الليالي المقمرة في مواسم الصيد

— ابعد عنا الشيطان وهذا ما اشار عليَّ رئيسي بالنطق به اذا تداخل العامي بامور الكنيسة وعمل على تحويل افكار خادم الله عن فروضه

— احسنت . ولكن ألا تعلم ان الشيطان يخرج من مخباءه في مثل هذه الليالي ويتجول في البلاد مثل اسد مفترس

اجابه الناسك ليزأر ما شاء واذا التقيته فبضربة واحدة بهذا الحبل (واشار الى حزامه) . ألا تعلم انني لم اخف احداً بعد ولست ابالي بالشيطان ولو جاء في طليعة اجناده فبقوة القديس دنستان ودو برك وونكد وونفرد وسو يبرت وولك وفضائلي الشخصية لا اخشى لقاءهم اجمعين . وسواء عليَّ جاؤا باذناب وبغير اذناب ولكن اعلم ايها الصديق ان سنتي الا اذكر الشيطان الا بعد صلاة الصباح

ثم تحوّل بالحديث الى مجرى آخر وتناوب الرجلان الغناء وارتفعت اصواتهما شأن الشارب الطروب وبينما هما في هذه الحال اذا بالباب يُقرع

لكي نعرف الطارق وسبب حضوره. في تلك الساعة ننتقل بالقارىء ونسير به في اثر جماعة اخرى من اشخاص الرواية

﴿ ١٨ ﴾

لما رأى سادرك السكسوني ابنه ملقىً على الارض في ميدان اشبي لا حراك به كان اول ما جال في خاطره ان يأمر اتباعه باحتمال ابنه · ولكن الكلمات اختفت في حلقه ولم تتجاوز شفتيه لانه أبى ان يظهر ضعفه امام الجماعة فيستعيد الى بيته ذلك الولد الذي طرده وحرمه · فتجلد وامر ساقيه اسولد بمراقبة ايفنهو حتى اذا تفرق الجمع اصطحب رجلين يحملانه الى اشبي

فامتثل اسولد لامر سيده وعندما رأى الجمع قد تناقص عدده قصد المكان الذي كان فيه ايفنهو فلم يقف له على اثر كانما الارض فتحت فاها وابتلعته او انحدرت جماعة الجن فاحتملته وطارت به · ولا تعجب ! ان هذه الافكار ربما كانت طرقت خاطر اسولد لو لم يلتفت فيرى رجلاً غيره في تلك البقعة لان السكسون كانوا من السذاجة على جانب عظيم يعتقدون بالغرائب وينسبونها الى ما ذكرنا اذا هم عجزوا عن فهم ما يعدونه غريباً

ولم يكن الذي نظره اسولد غير كارث الهارب الذي كان يبحث عن سيده وقد دهش لاختفائه دهش اسولد ولاهتمامه بالبحث اهمل امر تخفّيه فعرفه اسولد وقبض عليه ليرجعه الى سيده سادرك فيجازيه على ذنبه

وبينما هو في هذه الحال من الحيرة التقى بجماعة فسألهم عن ابن سيده فقالوا انهم رأوا بعض الخدم ينقلون الجريح الى هودج سيدة كانت بين المتفرجين وذهبوا به الى حيث لا يدرون · فلم يبقَ لاسولد سوى ان يرجع الى سيده بالخبر و برفقته كارث وكان سادرك في حالة سيئة من القلق على ابنه لان الحنو الوالدي كان قد

استرجع مركزه في قلبه على رغم تظاهره بعدم الاهتمام والتخلق بالقساوة ولكنه اذ عرف ان يداً مجهولة تعتني بابنه رجعت اليه كبرياؤه وأنَّب نفسه على تنازله الى الاهتمام بامر ولد عقوق عصى اوامره قائلاً «ليضمد جراحه من كان سببها . أيفضل ابني القيام بهذه الالعاب التي ادخلها النورمنديون على امتشاق السيف - سلاح اجداده فليذهب في طريقه!»

وكانت السيدة روانا قريبة من سادرك فسمعت ما قاله فقالت:

«اذا كان الفرض المحافظة على شرف الاجداد واظهار فضائلهم فعندي ان اصالة الراي في المجالس والشجاعة والاقدام في مواقف الطعان واللطف والرقة في اوقاتهما اهل لان تظهر الفضائل أتم الظهور . ولست ادري ان كان ابنهم قد قصر في واحدة منها فانني لا اسمع لائمة غير صوت ابيه ...»

فقطع سادرك كلامها قائلاً: اعيرك اسماعي مهما تقولين الاَّ بهذا البحث فاياك وذكره وكان الأَولى بك ان تستعدي لحضور وليمة البرنس التي دعانا اليها وهو امر لم يسبقه غيره فيه اذ لم يدعَ من قبل سكسوني الى وليمة نورمندي مهما يكن بين هذا وذاك من المقاربة في المنزلة . فساذهب الى الوليمة ولو لم يكن قصدي سوى الاظهار لهولاء المتعجرفين قليل التأثر الذي يلحق السكسوني لما لحق بابنه الذي قهر شجعانهم

— لست بذاهبة الى الوليمة . ورجائي منك الاَّ تخطىء فتزعم ان قسوة القلب هي الشهامة والشجاعة عينها

— ابقي في بيتك اذاً فليس قاسياً سوى قلبك الذي يضحي راحة وآمال شعب على مذبح ميل وشعور شخصي . سابحث عن النبيل اثلستاين واذهب برفقته الى وليمة يوحنا اف انجو

فكان ذلك وقد ذكرنا فيما تقدم ما جرى لسادرك ورفيقه في حضرة البرنس وكيف خرج الاول مغضباً يبحث عن شيء يفرغ جامات غضبه عليه

ولم يبلغا حاشيتها حتى امراها بالمسير. وبينما كانت الخدم تذهب بالمطايا وتجيء بسرعة واهتمام حانت من سادرك التفاتة فرأى كارث وكانت هذه اول مرة رآه فيها بعد هربه. فاحمرّت عيناه ووجد ذلك الشيء ليفرغ غضبه فصاح :

« اسولد ! هتدبرت ! يا ايها الانذال ! يا ايها الكلاب أيترك هذا اللئيم بدون قيد »

فاسرع الخادمان الى كارث وقيّداه وهو لا يبدي اقل ممانعة الى ان فرغوا فحوّل نظره الى سيده وقال :

« هذا جزاء من احبك اكثر من نفسه وفضّل قطعة من لحمك ودمك على لحمه ودمه »

فصاح سادرك الى الخيل . الى الخيل

وسارت الجماعة

وجدّ اصحابنا في السير الى ان بلغوا دير القديس وذولد فاستقبلهم رئيسه بالتأهيل والترحاب واكرم وفودهم ايما اكرام بسخاء السكسوني واولم لهم وليمة عند دنو الصباح

وفي صباح اليوم الثاني ركب جماعة السكسون خيولهم ولكن قبل ان يتركوا فسحة الدير خلف ظهورهم حدث امر لا بدّ من ذكره وذلك اظهاراً لما كان عليه السكسون من الاعتقاد بالتفاؤل والشؤم وعظيم مراقبتهم للطوالع والاشارات التي يمكن تأويلها على احد الوجهين المذكورين ولا ضرر من القول — لزيادة الفائدة — ان النورمنديين كانوا على خلاف ذلك لاختلاطهم وامتزاجهم بشعوب اوربا وبهذا فقدوا جانباً عظيماً من ذلك الاعتقاد واضحوا من الادراك والمعرفة ارفع قياساً من السكسونيين وان تكن درجتهم هذه حقيرة في نفسها

واما الحادث الذي المعنا اليه فما هو الاّ كلب اسود اللون وقف امام باب الدير عند ما تهيأت الجماعة للذهاب . فلما اقترب السائرون منه اخذ بنباح مزعج ولما خرج

آخرهم اخذ الكلب بالعواء والذهاب والمجيء في الدار كأنه يروم اللحاق بهم

فقال اثلستاين — وكان ينادي سادرك بيا أبتِ احتراماً — لم يلذ لي سماع هذه النغمة يا ابتِ سادرك

فصاح ومبا · ولم اطرب لسماعها انا ايضاً ايها العم وتراني اخشى ان تكون شؤماً اقلّ ما يقال فيه اننا سوف نضطر الى افتداء نفوسنا من اللصوص

فقال اثلستاين وكانت خمرة الدير قد اثرت بدماغه : ارى ان نرجع الى الدير ونقيم مع الرئيس الى ما بعد الظهيرة لان التقاء المسافر براهب او ارنبة او كلب نابح طالع ويل وشؤم لا يزول الا اذا لبث وانتظر ميعاد الطعام فاكل وسار على بركات الله

فصاح سادرك هبوا بنا فقد مضى من النهار بعضه ولا يكاد الباقي منه يكفي لاتمام سفرنا في نوره واما الكلب فقد عرفته وهو كلب كارث لا فائدة لنا به لانه كسيده هارب مذنب

واذ قال هذا وقف في سرجه وكان قد اغضبه التأخير ورشق الكلب بحربته فاصاب كتفه · فركض الكلب ينبح نباح المتألم · وكانت عينا كارث تراقبان سيده فلما رأى ما عمله اغرورقت عيناه لانه عدّ ما اتاه سيده قسوة عظيمة وعلى الاخص لانه جاد بها على ذلك الرفيق الامين الذي تتبع آثار سيده كل تلك المسافة

وكان ومبا قد تأخر قليلاً حذراً من نتائج غضب سيده واقترب من كارث · فقال هذا « ايها الصديق هلاّ مسحت عيني بطرف ثوبك فالغبار قد اعماني »

فقام ومبا بما طلب اليه ولم يدرِ انه لم يمسح سوى الدمع · و بعد مسير قليل كان كارث في غضونه مفكراً حزيناً تحوّل الى ومبا وقال :

« ومبا — ايها الصديق — انت الوحيد بين المجانين الذين يخدمون سادرك الذي قوي بجنونه على الاقتراب منه والتحبب اليه · فاذهب اليه وقل له ان كارث العبد قد

رفض خدمتك بالكلية · قد يقطع رأسي · قد يجلدني · قد يثقل جسمي بالحديد ولكنه لن يقوى على الزامي بخدمته بعد · اذهب وقل له انني لا اعرفه سيداً لي فيما بعد

— وعلى جنوني وغباوتي ايها الصديق لست بفاعل ما اشرت به ألا تدري انه توجد حربة اخرى في حزام سادرك وانه قليلاً ما يخطىء غرضه

— لا يهمني صوَّب اليَّ تلك الحربة ام لم يصوّبها — الان او في وقت آخر — ها هو قد ترك ابنه وسيدي الشاب في الامس مضرجاً بدمه ولم يمدد اليه يداً واليوم همَّ بقتل المخلوق الوحيد الذي كان يميل اليَّ ويحبني · أُقسم بكل قديس سكسوني حوت اسمه جريدة القديسين انني لا غفرت له هذا الذنب ولا اخلصت له الود فيما بعد

— فقال ومبا متخذاً هيئة المصلح بين افراد العائلة المتخاصمين · « مهلاً ايها الصديق فسيدنا لم يكن بقصده اذية كلبك · ألم ترَ كيف وقف في سرجه عندما رشق الحربة وكان غرضه ان تقع بعيدة عن الكلب ولكن ماذا تصنع بذلك الحيوان الغبي الذي وثب حالما اقتربت الحربة منه فجرح · وعلى كلٍّ فانا اضمن لك ان جرحه طفيف ويمكن شفاؤُه بقيمة بارة واحدة من القطران »

— حبذا لو امكنني الاعتقاد بصحة كلامك ولكنت اوافقك لو لم ارَ بعيني اعتناء السيد بتصويب الحربة ولو لم اسمع رنينها باذني ولو لم اشاهد اهتزازها عندما ارتكزت في الارض كانها تأسف على عدم اصابتها الغرض · لا · لا · واني لاقسم بأَحب خنزير الى القديس انتوني اني لن اخلص له الود فيما بعد

وصمت كارث ولم يعد الى الكلام على رغم محاولة ومبا لجرّه اليه

وبينما كارث وومبا يتحادثان كما ذكرنا كان سادرك واثلستاين في طليعة الجماعة يبحثان في حالة البلاد وخلافات الاسرة المالكة والعداوات بين اشراف النورمنديين وفيما اذا كان من امل للشعب المستعبد المظلوم بخلع نير النورمنديين او على الاقل لم

شعبه وجمع كلمته ليكون ذا كلمة نافذة وصوت مسموع ورتبة معتبرة في غضون الناهضات القريبة الوقوع · ولكي يحصل السكسون على ما ذكر كان يجب ان ينضموا تحت لواء رجل واحد ويجب ان يكون هذا الرجل من سلالة ملوكهم الاقدمين · هذا ما كان يرجوه سادرك وكل الذين اطلعوا على آماله وافكاره واستعداداته · ولم يكن بين السكسون من تجتمع فيه هذه الصفات غير اثلستاين الذي على جوده وخموده كان يعد جواداً صافي النية ساذج القلب · الا انه كان بين السكسون قوم يفضلون السيدة روانا عليه لتسلسلها من الفرد العظيم ولكونها ابنة رجل اشتهر بينهم بالحكمة والشجاعة والجود · ولذلك كانوا يحفظون له في قلوبهم اثراً جميلاً

ومن الجهة الاخرى لم يكن يصعب على سادرك وضع نفسه في طليعة حزب ثالث من السكسون لا يقلّ عن الاولين اهمية وقوّة اذ يستعيض عن التسلسل من الاسرة الملكية بكونه شجاعاً مقداماً شديد الغيرة والنخوة والحمية · وزد على هذا اهتمامه الشديد بمصلحة شعبه حتى لُقّب «بالسكسوني» بينا كان نسبه اشرف الانساب بينهم عدا اثلستاين وروانا

غير ان سادرك كان اشرف نفساً واصدق عزيمة من ان يعمل على تفريق كلمة شعبه ويضعف جامعتهم بكثرة الاحزاب · فنسي نفسه في جانب مصلحة الشعب وعمل على ازالة اسباب تنافرهم وتباعدهم وزاد على ذلك بان بحث عن طريقة يجمع بها الحزبين العظيمين فلم يرَ اوفق من تزويج روانا من اثلستاين وبذلك ينضم الحزبان كما انضم العميدان · ولما كانت هذه آماله وكان قد كرَّس نفسه لتنفيذ هذه الآمال يسهل علينا معرفة السبب وفهم الحاسة التي اضطرت سادرك ان يمنع ابنه من حب روانا فابعده عنها · وكان غرضه من ابعاده ان تنسى روانا ميلها اليه وترضى باثلستاين زوجاً وبذلك تتم رغائب سادرك

ولكن خابت آمال سادرك بفضل تربية روانا . كان اسم الفرد لدى سادرك كاسم اله عظيم وهنا يسهل تصوُّر معاملته للخلف الوحيد الباقي من سلالة ذلك الملك . فارادة روانا كانت شريعة راسخة في بيت سادرك ولا شريعة مادي وفارس وهو نفسه كان اول خاضع لها مفتخر باعطائه تلك السيدة حقوقها على الاقل في بيته ومتباهٍ لكونه اشد رعاياها طاعة لها . وهكذا شبَّت روانا على الطاعة والخضوع ممن احاط بها والائتمار باْمرها واتباع ارائها ولم تعتد الضغط والخضوع لاحد شأن البنات في بيوت ابائهنَّ . وعليه كبر على روانا هبة يدها وقلبها لرجل لم تجد في نفسها ميلاً اليه عملاً بارادة شخص قد عوَّدها الامتثال لارادتها . وهكذا سُقط في يد سادرك وعجز عن ايجاد طريقة يتمكن بواسطتها من استخدام سلطة وحقوق القيّم . وفضلاً عن هذا كله كانت روانا تعتقد بعدم امكان ما كان يسعى سادرك لاجله من ارجاع الملك الى اصحابه . واما اقترانها باثلستاين فلم تكن تحلم به لانها بقطع النظر عن املها بايفنهو كانت تكره اثلستاين قلبياً لغير سبب فكيف به الان وقد كان سبب اتعاب لها ومرارة نفس ؟

غير ان سادرك كان شديد الاعتقاد بعدم ثبات النساء على عهد ورجا من الزمان ان يزيل صورة ابنه من قلب روانا ولكن عودة ايفنهو بغتة بدَّلت اماله من جهة واستنهضته من جهة اخرى الى السعي وراء اقناع روانا بالزواج اولاً ثم الاهتمام بامر الشعب ولذلك رأى يتاه مهتماً بمحادثة اثلستاين اثناء المسير وعرض هذا الامر عليه مشيراً الى ان هذا الموضوع لا يليق ان يعرض على مسمع رجل مثله ولكن للضرورة احكاماً

وكان اثلستاين يحب الاطناب ويهوى سماع ذكر حقوقه وشرف محتده على أَلسنة اتباعه . وكان فيه من الشجاعة ما يساعده على رد خطر احاق به ولكنه كان يعدم تلك التي تتطلب الاخطار . وبالاختصار كان يسلم بآراء سادرك ولكنه كان يقف متردداً

عند ما يبلغ الحديث ايجاد الوسائل ويتأخر عن الاقدام وكانت عبارات سادرك في اذنيه وقلبه كُكرات حامية طرحت في بركة ماء فارتفع عند سقوطها ضبابة من البخار ثم عاد كل شيء الى السكون وبقي الماء بارداً كما كان

فلما رأى سادرك من اثلستاين ما رأى تحوَّل الى روانا قاطعاً حديثها مع جاريتها الذي كان موضوعه شجاعة ايفنهو واقدامه . فلكي تتخلص الجارية منه اتت على ذكر غلبة اثلستاين فتحوَّل عنها

وهكذا كان سفر سادرك كثير الاكدار النفسانية وكثيراً ما لعن الميدان والذي اقامه ولعن حماقته في الذهاب اليه

ولما ادركهم الظهر امر اثلستاين بالوقوف فنزلوا على نبع ماء في الغابة لاراحة ركائبهم وتناولوا شيئاً من طعام كان قد سيَّره رئيس الدير معهم على احد بغاله . وطالت مدة جلوسهم الى الطعام ورأوا انهم يجب ان يسيروا الليل بطوله اذا راموا بلوغ منزل سادرك فركبوا وجدُّوا في المسير ما استطاعوا

١٩

وبلغ المسافرون غاباً كثيفاً

كانت تلك الناحية شديدة الخطر لكثرة ما ينتابها من اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا من عامة السكسون فاضطرتهم شرائع الصيد والغابات المشددة الى الاخلاد الى هذه المعيشة وهجر المنازل هرباً من الظلم والى اللصوصية طلباً للرزق والانتقام من الظافرين الظالمين

اما سادرك فلم يكن يخشى بطش هولاء اولاً لاعتماده على حيثيته وثقته باعتبار السكسون عموماً له وثانياً لاتكاله على حاشيته وهي عشرة من الخدم عدا ومبا وكارث اللذين لم يكن يرجى منهما نفع لان الاول كان مهذاراً والثاني اسيراً مقيداً

وبينما المسافرون في بعض الغاب سمعوا صراخ استغاثة فاسرعوا الى جهة الصوت فرأوا هودجاً موضوعاً على الارض وبجانبه فتاة حسنة البزة يهودية الزيّ وبجانبها رجل تدل قبعته الصفراء على كونه يهودياً ايضاً يتخطر ويشير بيديه اشارات اليأس والقنوط ويضرب كفاً بكف كمن قد اصيب برزية عظيمة

فسأل سادرك واثلستاين الرجل عن مصابه (ولم يكن هذا سوى اسحق اليهودي اليوركي) فبعد ما استنزل لعنات بطاركة العهد القديم اجمعين على رؤوس عبدة الاوثان الذين زحفوا بخيلهم ورجلهم ليضربوا ابن المختارين بحد السيف ابتدأ بقصته فقال انه عند ما ترك اشبي استعان بستة رجال باجور معلومة ليحرسوه وابنته وصديقاً لها مريضاً في طريقهم . فاوصلهم الحرّاس الى تلك البقعة حيث التقوا باحد الحطابين فاخبرهم بوجود عصابة قوية من اللصوص في تلك الناحية فتركوا اليهودي وجماعته ورجعوا . ولم يكن هذا كل ما فعلوه بل اخذوا الخيل وتركوا اليهودي وليس لديه ما يستعين به على التقدم في المسير او التقهقر فظل وحيداً ضعيفاً يروعه هجوم اللصوص في كل دقيقة . وختم اسحق قصته بقوله : فاذا حسن لدى سيادتكم واذنتم لليهودي ان يسير تحت حمايتكم كان ما تعملونه افضل عمل قام به شعب نحو اليهود منذ ايام السبي واعظم منة يذكرها يهودي بالثناء والشكر

فصاح اثلستاين وكان هذا من الناس الذين يذكرون صغائر الذنوب وينسون اعظمها ايها اليهودي الكلب هل تذكر تهجمك على مقعدنا في الميدان ؟ حارب او اهرب او انضم الى اللصوص ولكن اياك والمسير برفقتنا فاذا نهبك اللصوص واخذوا ما فوقك وما تحتك لكان عملهم صالحاً يستحقون عليه الشكر

فلم يوافق سادرك على كلام رفيقه بل قال : سوف نظهر كرماً اعظم مما ذكرتَ وسأتخلى لهم عن رجلين من رجالي وفرسين يرجعان بهما الى اقرب قرية ولا انكر ان

عملي هذا يضعف قوّتنا ولكن لي بسيفك ايها الشريف اثلستاين وبمن بقي من رجالنا ضامن يكفل لي حسن مقاومتنا لعشرين من اولئك اللصوص

فلما سمعت روانا بذكر اللصوص وافقت على كلام وصيّها واذا برفقة قد نهضت بغتة من مقعدها بجانب الهودج وتقدمت من فرس روانا وخرّت راكعة وقبلت ذيل ثوبها وكشفت قناعها وطلبت الى روانا باسم الاله العظيم الذي يعبده النصراني واليهودي وبالشريعة التي أُنزلت على جبل سينا التي يؤمن بها ابناء الملتين ان تبدي لهم الشفقة وتأذن لهم في المسير تحت حمايتها . ثم قالت : « ولست اطلب هذا لاجل نفسي ولا لاجل ابي العجوز لانني اعلم ان اذية اليهودي واضطهاده تعدُّ اليوم حسنة في عين المسيحي فوالحالة هذه لا فرق عندنا ان لحقت بنا تلك الاذية في المدينة او الصحراء او الغابة او ساحة الحرب ولكنني اطلب ما اطلبه لاجل المريض في هذا الهودج الذي ان رفضت طلبي واصابه من جرّاء رفضك اذية مهما كانت طفيفة كان لك من هذه الساعة مرّ ذكر الى ان تموتي »

وكانت رفقة تنطق بهذه الكلمات بصوت رخيم ونبرات رهيبة فزادت هيئتها تأثير الكلمات تأثيراً وهيبة في قلب السيدة السكسونية فتحوّلت الى وصيها وقالت :

ارى الرجل ضعيفاً عاجزاً والفتاة بارعة في الجمال والمريض في خطر الموت وسواء كانوا يهوداً او غير يهود وجبت علينا كمسيحيين مساعدتهم . ليصدر امرك بنقل احمال بغلين من بغالنا الى بغال الخدم ويحمل الهودج عليها ويركب الرجل وابنته على فرسين من خيلنا التي يقودها الخدم

فامتثل سادرك لاشارة روانا وامر خدمه بالقيام بما طلبت واما اثلستاين فاشترط بان يكون مسيرهم في المؤخرة بالقرب من ومبا بحيث يقدر على خدمتهم بترسه المصنوع من لحم الخنزير . فلما سمع ومبا كلام اثلستاين قال :

تركت ترمي في الميدان كما فعل غيري من الفرسان

فاحمرّ وجه اثلستاين تخجلاً لاشارة ومبا الى سقوطه وعجزه · وكان روانا استاءت من ملاحظة عاشقها الثقيل الخشنة وامرت رفقه بان تسير بجانبها فقالت رفقه « وهل يجوز لي ذلك وقد تجلب رفقتي عاراً على السيدة التي حمتني بغيرتها؟ »

وكانت الاحمال قد نُقلت لان كلمة « لصوص » كانت كافية لان تؤجج في عروق الخدم ناراً من الحمية وتضطرهم الى سرعة الحركة · وفي غضون اهتمام الخدم اشار كارث الى ومبا بان حلّ وثاقي وانزلني عن هذا الفرس ففعل ومبا ولكنه بدلاً من ان يشد وثاقه كالاول لم يحسن ربطه — وربما كان ذلك منه عمداً — فتمكن كارث من حله واختفى بين الادغال بينما كانت الجماعة تتأهب للسير

وسار المسافرون الى ان بلغوا مضيقاً ينتهي بمجرى ماء فلم يتمكنوا من المسير جماعة لضيق الطريق · فتقدم سادرك واثلستاين وتبعهما الباقون · وعرف الشريفان اذا كان ثمة من خطر فهذا مكانه ووقته لموافقة المكان لمقاصد قطاع الطرق فاسرعا اسراع الخائف وجرى اتباعهما خلفهما

ولم يمض على دخولهما ذلك المضيق سوى دقائق قليلة حتى اطبق عليهم اللصوص من كل ناحية · وكانما الارض انبتت والسماء امطرت والاشجار والصخور تحوّلت الى رجال تهز في ايديها الرماح وتشهر السيوف وهم ينادون نداء حرب سكسوني · ولم يكن الا القليل حتى وقع المقدمان في الاسر ولكن بعد عراك عنيف لان سادرك كان قد رأى اول الاعداء الى جنب شجرة فرشقه بحربته نخرقت صدره وارتكزت في جذع الشجرة خلفه كانها مسمار ثم امتشق حسامه واقتحم بجواده القوم وهوى بسيفه على عنق احدهم فاصاب غصن شجرة وسقط السيف من يد سادرك فدنا منه رجلان وانزلاه عن جواده وشدّا وثاقه · واما اثلستاين فانه أُسر قبل ان تمكن من امتشاق

حسامه · فلما رأى الخدم سيديهم في الاسر تقهقروا ولم يكن الا اقليل حتى كان الجميع في قبضة اللصوص ولم ينجُ منهم غير ومبا الذي اظهر شجاعة لم يظهرها غيره من الخدم اذ خطف سيفاً من يد احدهم وهو يتردَّد في استلاله وهجم على الاعداء قاصداً خلاص سيده فحالت دونه كثرة الاعداء واذ رأى نفسه في خطر الاسر رمى بنفسه من على الجواد واختفى بين الادغال بينما كان الغالب والمغلوب في شاغل من انفسهم

ولما رأى ومبا نفسه في مأمنٍ من الاعداء وقف واخذ يفكر فيما اذا كان الاحرى به الرجوع ومقاسمة سيده ذل الاسر · وبعد ان فكر طويلاً خاطب نفسه قائلاً :

«سمعت اناساً يذكرون الحرية والبركات والسعادة الناتجة عنها فمن لي الان باحكم من اولئك القائلين يرشدني الى بركة واحدة اتناولها من هذه الحرية او يريني طريقاً واحداً استخدم به هذه الحرية »

وكان ومبا يتكلم بصوت مسموع فلم يأتِ على آخر كلمة حتى سمع صوتاً يقول : ومبا ؟ ومبا ! واذا بكلب قد وثب من بين الادغال واخذ يبصبص بذنبه · فصاح ومبا: كارث ! فاشار هذا بالصمت واقترب من رفيقه وسأله بصوت منخفض

— ما هو معنى هذه الاصوات وهذا الصراخ ؟

— تلك احدى حِيَل الدهر فكلهم اسرى

فصاح كارث: ومن هم اولئك الاسرى ؟

— سيدي وسيدتي والثلستاين والجميع

— اكراماً لله تعالى قل لي كيف كان ذلك ومن اسرهم ؟

— سيدي باداهم بالقتال اما اثلستاين فلم يكن على استعداد (عادته القديمة) وكذلك كان باقي الخدم والجميع الان اسرى · حلل خضراء واوجه مستعارة سوداء · مطروحين على الارض كانهم التفاح الذي كنت تطرحه لخنازيرك ولولا بواعث هذه

الدموع لضحكت من منظرهم . واستخرط ومبا في البكاء حزناً واسفاً على حالة مواليه

فظهرت الحية في معاطف كارث وبرقت عيناه وصاح :

« ومبا ارى لديك سلاحاً وعهدي بك ان قلبك اكبر من دماغك وشجاعتك اعظم من فهمك فاتبعني فمها كان عدد الجماعة عظيماً لا بدّ ان يتضعضعوا من حملة صادقة ولو قام بها رجلان لا غير . اتبعني ! »

— الى اين ولماذا ؟

— لننقذ سادرك

— ولكنني اذكر انك تركت خدمته وانكرت سيادته منذ هنيهة

— كان ذلك عندما رأيته ذا حظ وقوّة واما الان . . . فاتبعني

— فهمّ ومبا باتباع رفيقه واذا برجل قد انتصب امامهما يستره ثوب اخضر اللون ولولا وجهه المكشوف لاقسم ومبا ان الرجل احد الذين هاجموا سيده واسروه . انتصب الرجل امامهما وامرهما بالتوقف . وكان ذا هيبة تملأ قلب سامعيه خشيةً وطاعة يتدلى من منكبه سير في طرف بوق دقيق الصنعة . فتأمل ومبا في الرجل وعرف على ضعف النور ان الواقف امامه لوكسلي الذي اظهر براعة غريبة في فنّ الرماية في ميدان اشبي ونال الجائزة على رغم الظروف التي عاكسته

فسأل لوكسلي : ما هو الغرض من هذه الجلبة او بالحري من هو ذاك الذي يأسر ويطلب الفدية وينهب المسافرين في هذا الغاب ؟

— فاجاب ومبا تتمكن من معرفة ذلك اذا تفحصتهم عن قرب واذ ذاك تعرف اذا كان الرجال من شركائك في المهنة او لا فاني ارى اثوابهم تشبه اثوابك تماماً

ساعرف ذلك بنفسي ولكنني آمركما بالاّ تنقلا قدماً من هذا المكان الى ان ارجع اليكما والاّ ذهبت بروحيكما . فاطيعاني وبطاعتي خير لكما ولمواليكما

واذ قال هذا انتزع البوق من منكبه ونزع ريشة من قبعته وناولها لومبا وانتشل وجهاً استعارياً من جعبته واعاد عليهما تنبيهه السابق وتركهما

— كيف ترى يا كارث هل نمتثل لامر الرجل ام نوليه ظهرينا ? فاني ولئن كنت احق اقدر على تمييز عدة اللصوصية على شخص هذا الرجل

— ليكن الشيطان بعينه فوقفنا هذا افضل من غيره لانه ان كان الرجل منهم فلا شك بانه ابلغهم امرنا قبل الان ولم يعد لنا امل بالنجاة واذا كان من غيرهم فخبرة سابقة باللصوص الحقيقيين قد ارتني انهم ليسوا شرّ الناس

ولم يعتم لوكسلي ان رجع بعد دقائق قليلة واقترب منهما وقال : ياصديقي كارث قد اختلطت بالقوم وعرفت من هم ومحل قصدهم وعرفت ان لا خوف على الاسرى من معاملة قاسية . واما هجوم ثلاثة رجال على ذلك الجمع فمغامرة ظاهرة لانهم جمع غفير وكلهم رجل حرب فضلاً عن تيقظهم وايقافهم حرساً يحيط بهم من كل الجهات ليعلمهم بقدوم اي قادم قبل وصوله ولكنني ساجمع قوة تكون اهلاً لان تنازلهم . يلوح لي انكما من خدم سادرك السكسوني الرجل الانكليزي الذي لا غشّ فيه صديق الانكليز ورجلهم وانكما ترغبان في خلاصه فاعلما اذن انه لن يعوزه رجال من الانكليز يضربون الضربات الصادقة في سبيل خلاصه . هيا معي في طلب المعونة

واذ قال هذا تقدم ومبا وكارث بين تلك الاشجار بخطى واسعة

وسار الثلاثة زمناً وهم سكوت غير ان ومبا لم يجد صبراً عن الكلام فقال مشيراً الى السير والبوق الباقيين معه : اراني اعرف هذين ايها الصديق وقد شاهدت رمي السهم الذي نالهما وذلك منذ ايام قلائل

فقال كارث وانا اقسم بنصيبي من الخلاص انني قد سمعت صوت هذا الرجل في الليل وفي النهار وذلك منذ ثلاث ليال فقط



فقال لوكسلي يا صاحبيّ لا يهمكما من انا او ما انا اذ لا علاقة لذلك بما نحن فيه الان فاذا نجحت وانتشلت سيدكما من ربقة الاسر كنت لكما صديقاً صدوقاً وذاك برهاني واما اسمي فان يكن زيداً او عمراً او كنت احسن تصويب السهام وافضل في ذلك غيري او ان يكن مسيري في النهار او في نور القمر فهي امور لا ارى لكما ان تشغلا نفسيكما بها

فهمس ومبا في اذن صاحبه قائلاً : رأسانا في فم الاسد فالمسألة هي كيف نتمكن من استخراجها منه

صه ايها الاحمق فانني ارى انه اذا لم تزعجه بحماقتك فكل شيء سوف يتم حسب رغائبنا

٣٠

وبعد مسير ثلاث ساعات بلغ لوكسلي بخادمي سادرك منفسحاً بين اشجار الغابة قد نمت في وسطه سنديانة عظيمة تتفرّع اغصانها الى كل الجهات وراوا تحت السنديانة خمسة رجال مفترشين التراب وبالقرب منهم رجل يذهب ويجيء لحراستهم مخافة طارق مفاجيء . فلما سمع هذا وقع اقدام القادمين نبه رفاقه فوثبوا وقوفاً باسرع من ارتداد النفس ولوى كل قوسه وصوّبوا سهامهم نحو الجهة التي سُمع وقع الاقدام منها ولكنهم لما عرفوا القادم نزعوا سهامهم وابدوا اشارات الاحترام والخضوع

فسأل لوكسلي حالما اقترب منهم « اين الطحان ؟ »

— على طريق روذرهام

— بكم من رجالنا ؟

— بستة وهم يأملون الحصول على غنيمة تذكر اذا شاءت ارادة مار نقولا

— احسنتَ اذ تخشعت ! واين ألن — أ — دايل ؟

— تتبع آثار رئيس دير جورفولكس

- وهذا قد اصاب في اختيار الوجهة · واين الراهب ؟

— في صومعته

ساقصد الراهب في صومعته بنفسي واما انتم فسيروا في طلب رفاقكم ولكن اجتماعكم في هذا المكان قبيل الفجر لان غرضنا صعب المنال ·

فهمّ الرجال بالمسير امتثالاً لاوامر رئيسهم ولكنه استوقفهم قائلاً : مهلاً لقد سهوت عن اهم الامور · ليذهب اثنان منكم في طريق تركولستون معقل فرنت — دي — بوف و يراقبا جماعة من الشجعان رأوا ان يتخذوا زيّنا ويتجولوا في اطراف هذه الغابة وهم يحملون الى ذلك المعقل عدداً من الاسرى الذين ان لم نخلصهم لحق شرفنا عار شائن فعليه شدّدوا المراقبة وارسلوا اليّ باخبارهم مع اسرعكم سيراً · سيروا على بركات الله

فاختفى الرجال وسار كلٌّ وراء غايته وقصد الرئيس بكارث وومبا كوخ ناسك كوبمنهرست المحترم

قاد لوكسلي رفيقيه في مسالك وعرة وجاز بهم ادغالاً يعجز الغريب عن ايجاد طريق له بينها في نور النهار فكيف به والليل مرخٍ سدوله ولكن لوكسلي كان ابن تلك الغابات

فلما سار بهما الى ان اقترب من البيعة المتهدمة والكوخ الحقير فلما وقع نظر ومبا عليها همس في اذن رفيقه قائلاً : « اذا كان هذا مسكن لص فقد صدق المثل القائل انك كلما اقتربت من الكنيسة بعدت عن الله · فاصغِ لانغام الناسك وسلّم بصدق قولي »

فاصغيا بينما كان لوكسلي يطرق الباب بشدة لينبه الناسك فسمعا منشداً ينشد بصوت ليس من العجب ان تضيع معه طرقات لوكسلي وتختلط بالهواء وكان المنشد يقول

واسقني الخمرة صرفاً فانا   راهب الدن ومطران الكؤوس
واسقنيها انها في مذهبي   خير ما يرجى لانقاذ النفوس

فقال ومبا « صدق والله »

— لا عجب فناسك كوبمنهرست المحترم رجل يميل الى الطرب والصيد وقد بلغني ان مراقبي وحرّاس الغابات قد شددوا عليه المراقبة وعزموا على نزع جبته عن ظهره اذا لم يكف عن اقتناص الغزلان وانقاص عددها في هذه الغاب

وبعد التيا والتي نجح لوكسلي في تنبيه الناسك فقطع غناءه وقال: « هوذا زائر اخر فلا حول ولا واتني كنت افضل خسارة جبتي على اكتشافهم اياي قائماً بفرضي. هذا يا سيدي الفارس لكل رجل اعداء فهولاء قد علموا بدخولك كوخي فأوّلوا قبولي اياك واشباعي جوعك الى ذنب عظيم وحضروا يعترضون سرورنا وينسبون اليّ البطر والسكر. أرأيت شرّ بني البشر؟ »

— صدقت ايها المحترم وحبذا لو كان لي ان اقاصّهم على تطفلهم هذا. صدقت فلكل رجل اعداء واني اصدقك القول ان في هذه البلاد رجالاً افضل مكالمتهم من خلف صفائح خوذتي على مقابلتهم مكشوف الوجه مع كرهي الاذية لأيّ من الناس

— فارجع قدرك الحديدية اذاً الى رأسك يا صديقي الكسلان باسرع ماتساعدك عليه طبيعتك بينما انقل هذه الكؤوس الى مخبإها ولكي لا يسمع منازلي صوت اضرب نغماً يوافق ما سوف اغنيه بقطع النظر عن الكلام فانه لا يحضرني كلام الان

واذ قال هذا رفع صوته وغنى اغنية لا يعرف لها رأس من ذنب واخذ في نقل الاواني بينما كان الفارس يفرغ سلاحه عليه وهو مغرب في الضحك من حركات الناسك وكلماته وصوته

واذا بقائل في الخارج « ما هي هذه الصلاة الشيطانية التي انت قائم بها في هذه

الساعة من الليل »

— فاجاب الناسك ولم يعرف المتكلم « ليغفر لك الرب هذا الكفر يا سيدي المسافر. سرْ في سبيلك اكراماً لوجه الله تعالى والقديس دنستان ولا تزعجني في اتمام فروضي بمساعدة الاخ المحترم »

— افتح ايها الكاهن المجنون ! افتح للوكسلي

— فقال الناسك لرفيقه البرّ أمان !

— ولكن من هو هذا لوكسلي لانه يهمني ان اعرف من هو ؟

— من هو ! قلت لك انه صديق

— ولكن من هو هذا الصديق ؟ قد يكون صديقاً لك وعدواً لي

— من هو هذا الصديق ! هذا سؤال تصعب الاجابة عليه . هو نفس مراقب الاحراج الكريم الامين الذي اختصني بما سددت به جوعك وارويت عطشك

— اری ان امانته في المراقبة تشبه ورعك في العبادة فوفتح له لانه قد همَّ بالباب ليقلعه

فاسرع الناسك الى الباب وفتحه وادخل لوكسلي ورفيقيه . فقال الاول حالما وقع نظره على الفارس : « من الضيف ايها المحترم ؟ »

— فاجاب الناسك بخشوع « هو احد اعضاء رهبانيتي وقد كان في عزما احياء الليل في الصلاة وتلاوة الفروض

— قال لوكسلي « راهب جدي ! ولكن لا عجب فالبلاد قد امتلأت من امثال هولاء الرهبان — رهبان وجنود — الحق اقول لك ايها المحترم ان الظروف الحاضرة تقضي عليك بان تترك سبحتك الان وتهمل فروضك وتحمل هراوتك وتتبعني لانني في حاجة الى كل فرد من رجالنا . ثم اخذه الى ناحية وقال همساً : هل

اصابك مسٌّ في عقلك فادخلت الى كوخك فارساً لست تعرفه واطلعته على اسرار معيشتك وهل نسيت شروط عصابتنا وقوانينها ؟

— لست اعرفه ! اعرفه وابيك اعرفه معرفة المتسوّل طعامه

— ما اسمه ؟

— اسمه السر انتوني اف سكرابلستون . أتراني اعاقر الخمرة بصحبة رجل لا اعرف اسمه

— اخشى ان تكون قد زدت في الشرب عن حاجتك وهاءنذا اراك تخلط في الكلام ايضاً

فتقدم الفارس من لوكسلي وقال : لا تؤنب المحترم يا سيدي لانه اكرم ضيافتي وقام بما كنت اغتصبته منه لو تأخر عن ادائه

— انت تغتصبها مني ؟ صبراً الى ان استبدل هذه الجبة السوداء بكساء اخضر واذ ذاك اذا لم أنل رأسك بهراوتي عشرات المرّات قبل ان تحرّك يداً كنت مهاناً لا استحق لقب ناسك

قال هذا ونزع جبته فظهر تحتها مدرعة وسراويل من الجلد فخلع فوق هذه سترة خضراء وتقدم من ومبا وقال : أعني على تزرير هذه السترة ولك مني كاس من الخمر

— لا بارك الله في خمرك ولكن هل يجوز لي ان اساعدك على نزع لباسك الديني واسهل لك الابتعاد عن شفيعك ؟

— لا بأس من ذلك فسوف اعترف بخطايا جبتي الخضراء امام جبتي السوداء فتحل هذه تلك والسلام

« آمين ! » قال ومبا واخذ في مساعدته . وبينا كان الاثنان منهمكين بامر اللباس تحوّل لوكسلي الى الفارس وانتبذ به ناحية وقال : « اصدقني ايها الرجل أما انت ذلك

الفارس الذي أمال النصر بسيفه الى جانب الانكليز يوم اشبي »

— لنفرض انك صادق في زعمك فماذا تستنتج من ذلك ؟

— استنتج انك من حزب الضعفاء المظلومين

— هذه واجبات كل فارس صادق العزيمة ايها الصديق ورجائي ألا تشك بمحافظتي على هذه الخلة

— ان الشيء الذي ساطلب اليك القيام به يقتضي ان تكون انكليزياً صادقاً لتقدم عليه . هو في الحقيقة عمل تطلبه المروءة من كل صاحب مروءة ولكنه يتعلق خصوصاً بالانكليز

— فوالحالة هذه لن تجد من تكشف له عن غرضك وتطلعه على حاجتك اشد اخلاصاً وحباً لانكلترا مني

— احسنت وكرجل صادق لا اشك في كلامك فاسمع اذاً . تردّى جماعة من الانذال اردية قوم يفضلونهم في كل شيء واسروا رجلاً شريفاً انكليزياً يدعى سادرك وصديقه اثلستابن ونقلوهما مع حاشيتيهما الى معقل في هذه الغاب يدعى تركولستون . فكانكليزي صادق اطلب اليك ان تنضم الينا وتساعدنا على خلاصهم

— الك ما تريد لانني حسب القسم الذي اقسمته مضطر الى مساعدة المظلومين ولكن قل لي مَن انت اتطلب نجاة هولاء ؟

— انا رجل لا اسم لي ولكنني خادم لبلادي ولاصدقاء بلادي . فاكتف بما سمعت ولا تسأل عني وخصوصاً انك قد رفضت اظهار هويتك لي ولكن اعلم انني رجل كلمته تعادل في شرفها وصدقها كلمة فارس تزين قدميه المهاميز الذهبية

— لا اشك في كلامك فقد اعتدت قراءة اخلاق الرجال في وجوههم وقد رأيت في وجهك الصدق والثبات والاقدام فلست براجع بعد الان الى القاء الاسئلة

بل اسير معك لنجاة الاسرى ومتى تمَّ ذلك افترقنا وكل لرفيقه صديق عرف خلاله
وكان ومبا قد انتهى من عمله واقترب من الفارس وسمع آخر عباراته فقال لرفيقه :
« اذا كانت فروسية هذا الفارس كتدين هذا الراهب لم نظفر بشيء »
— اصمت ! مالي ومال صفات البشر واني والله لو عرض عليَّ الشيطان مساعدته
الان لما وجد في قلبي من التدين ما يحملني على رفض طلبه
وكان الناسك قد اشتمل سيفه وتناول قوسه وجعبته وتقدَّم الجماعة فخرجوا من
الكوخ واقفل الناسك الباب باعتناء عظيم واخفى المفتاح تحت العتبة
— فسأل لوكسلي كيف انت ايها الناسك وهل انت صالح للعمل ؟
— انني اشعر بدوار في راسي وخدر في اقدامي ولكنها اعراض تزول عما قليل
بإذن الله بجرعة من هذه المياه المباركة
وتقدَّم من العين وشرب حتى اكتفى ثم وضع يديه ورأسه في الماء البارد وكأن
ما فعله ازال من جسده كل اثر للخمرة فتناول هراوته واخذ يديرها في الهواء فوق
ثلاث اصابع من اصابعه الغليظة وهو يقول : « أرني هولاء الانذال الذين يجسرون
على اسر العذارى وتقييد الرجال فليطر الشيطان بروحي ان لم أفنِ عشرة منهم »
— فقال الفارس اتذكر اسم الشيطان ايها الناسك المحترم ؟
— مكانك ايها الرفيق فلستُ الان بناسك ولا بمحترم وقد خلعت هذه عني في
صعي جبتي السوداء وانا بلباسي هذا رجل اشرب الخمر واحلف واقسم واشتم واتحبب
الى النساء
— اصمت ايها الاحمق فصوتك في ارتفاعه يعادل صوت رهبان دير بكامله مساء
عيد كبير وهبوا بنا لانه يقتضي ان نجمع قوانا (وهي على كل قليلة) للهجوم على معقل
فرنت — دي — بوف واخذه عنوة

— فقال الفارس فرنت — دي — بوف؟ وصمت هنيهة ثم عقَّب قائلاً : وهل بلغ بالرجل ان اصبح لصاً يقطع الطريق الملكية وينهب المسافرين ويظلم الناس ؟

— فقال لوكسلي هذه صفاته منذ القديم

وتقدم الراهب يقود الجماعة الى محل الاجتماع وكلهم ساكت وله من افكاره ما يشغله عن الكلام

٢١

بينما كانت هذه الامور تجري كان الاسرى يساقون من مكان الى آخر في اعماق الغابة ونظرًا لتكاثف الظلام وعدم خبرة اللصوص بالمسالك طال عليهم المسير وكثيرًا ما كانوا يضلون السبيل فيضطرون الى الرجوع مسافات طويلة · وبقوا على مثل ما ذكرنا الى طلوع الفجر فتبينوا طريقهم · وكان الاسرى يساقون صامتين بينما كان كبار اللصوص مهتمين بالحديث التالي :

— قال الهيكلي مخاطباً دي برامي حان لك ان تتركنا يا سيدي موريس ولا تنسَ انه يجب عليك ان تمثّل المشهد الثاني من هذه الرواية وهو دور الفارس المنقذ

— صدقت ولكنني قد غيَّرت افكاري من هذه الجهة فلست افارقكم حتى نصل بالسيدة روانا الى معقل فرنت — دي — بوف · فاذا بلغناه ظهرت امامها بمظهري الحقيقي وتوسلت اليها ان تصفح عن عملي هذا متخذاً زيادة حبي لها والجنون الذي اصابني منه عذراً ووسيلةً

— وما هو سبب عدولك عن خطتك الاولى يا دي برامي ؟

— ذلك مما لا علاقة لك به

— أعلم ذلك ولكنني آمل ان لا يكون عزمك هذا مبنيّاً على ما غرسه فتزور في افكارك بشان تصرفي والاَّ تكون قد شككت في اخلاصي وصدقي

— فقال دي براسي ليس لسواي علاقة بافكاري الخصوصية ألا تعلم ما قيل ان الشيطان يضحك عند ما يسرق احد اللصوص لصاً آخر ؟ وكلانا يعلم انه لو استبدل الشيطان ضحكه بطوفان من الزفت والكبريت الملتهب لما ردّ هيكلياً عن عزمه واتمام رغائبه

— لا ولا حال دون قائد فرقة محاربة شأنها ارتكاب المحرّمات فلا يظن برفيق له ويتهمه بذنب يقترفه هو نفسه نحو باقي الناس

— اجاب دي براسي ارى البحث في هذا الموضوع دقيقاً وعراً ويكفيني ما اعرفه عن آداب وخلال الهيكليين وعليه لا يوافقني ان اتخلى لك عن غنيمتي الحسناء

— اتقول هذا وانت ادرى الناس بقوانين جماعتنا ؟

— نعم واعرف ايضاً طريقة اتمامكم تلك القوانين · مهلاً يا صديقي الهيكلي فللفرسان في فلسطين قوانين لاتلتئم مع قوانين هذه البلاد في الشدة ولذلك تراني لا اعلق كبير اهمية على صدق ذمتك

— اسمع اذن لاصدقك خبري · لم تقع سيدتك موقع الاستحسان في عينيّ فلي في جمال اسيرة غيرها ما يكفيني و يوافقني

— اتتنازل الى حب خادمة ؟

— لستُ ياسيدي ممن يتنازل ويحب خادمة فجمال التي اهواها يضاهي جمال من تهوى اذا لم يفقهُ

— علّك تريد اليهودية ؟

— واذا كانت من عنيتُ فمن يجسر على لومي ؟

— لا اعرف لك لائماً اللهمّ اذا لم يؤنبك ضميرك ولم تحظر قوانين طغمتك ذلك عليك ولم تمنعك نذورك من الانضمام الى يهودية

— اما نذري فقد اعفاني منه الرئيس الاعظم واما ضميري فالرجل الرجل الذي قتل ثلاثة من الوثنيين ونيفاً لا يؤنبه ضميره على عمل كهذا زهيد كأنما هو فتاة قروية ساذجة لدى اعترافها لاول مرة مساء جمعة الحزينة

— انت ادرى بمكنونات ضميرك ولكنني اخشى ان يكون ميلك الحقيقي للذهب الاسرائيلي وليس للعينين السوداوين

— كلاهما عندي سواء غير ان اليهودي ليس لي باجمعه فساقتسم فديته مع فرنت دي بوف واما نصيبي الحقيقي من الغنيمة فهو الفتاة · واذ عرفتَ غايتي فهل تعود الان الى عزمك الاول ؟

— كلاً فلسوف ابقى بجانب غنيمتي

وبينما كان القائدان غارقين فيما يختص بهما كان سادرك مهتماً باستنطاق من احاط به من اللصوص ليعرف من هم اذ قال :

— لباسكم يدلّ على انكم انكليز الا ان اعمالكم واسركم اخوانكم الانكليز اعمال نورمنديين · ثم ارى وجهتكم فاقول انكم من جيراني فحو مَن من هولاء او منكم قد اذنبت وانا الذي قد جعلت منزلي حمًى لغير واحد منكم هرباً من وجه الاشراف الظالمين فماذا ترومون مني ؟ انكم والله باعمالكم هذه لاشبه بالحيوانات وقد اشبهتموها في صمتكم ايضاً

وعبثاً حاول سادرك استنطاق حراسه لانهم لازموا الصمت لاسباب يدركها الى ان بلغوا معقل فرنت دي — بوف

ولم يكن هذا المعقل ضخماً بل كان قديم العهد في تلك الانحاء قد تركت السنون عليه اثراً ناطقاً · وكان مؤلفاً من برج مربع مرتفع تحيط به ابنية تدانيه في الارتفاع وبين هذه وذاك عرصة دار المعقل الداخلية · ولما كان فرنت دي بوف شديد الحذر

من اعدائه الكثيرين كان يضيف الحين بعد الاخر ابراجاً الى معقله تزيد في تحصينه ومناعته · وكان مدخل المعقل كداخل غيره — قنطرة منخفضة يقوم على جانبيها برجان لحراستها

ولما وقع نظر سادرك على ابراج وتحصينات ذلك المعقل يكسوها الطحلب عرفه وعرف آسريه فقال :

— «ظلمتُ لصوص الغاب اذ نسبتكم اليهم ! اخبروني ايها الكلاب أحياتي ام مني ما يتطلبه سيدكم ؟ ايثقل عليكم ان يملك رجلان قسماً من البلاد التي كانت بأجمعها لابائهما ؟ فاقتلونا اذن وانهوا حياتنا كما قضيتم على حرّيتنا ! اخبروا مولاكم ان له قطع رؤوسنا اذ شاء ولكني ارجو منه ان يعتني بالسيدة روانا لانها امرأة ضعيفة · فاذا قتلنا لا يبقى ما يخشى جانبه من جهتها لان بموتنا يموت كل من يهمه امرها ويحمي شرفها · اقتلوني فوالله ان لم يقوَ سادرك السكسوني على تحرير بلاده فلا اقلّ من ان يموت في سبيل ذلك »

فلم يجبه احد على كلامه كانهم بكم صمّ · وكانوا قد بلغوا مدخل المعقل فنفخ دي برامي في بوقه ثلاثاً فسرع الحراس من الحصون وادلوا الجسر المتحرّك على الخندق المحيط بالمعقل

فانزل الحراس الاسرى عن ركائبهم وساقوهم الى قاعة قدموا لهم فيها شيئاً من الطعام لم يذقه منهم سوى اثلستاين ولكنه لم يكد يبدأ بالاكل حتى اخبرهم حارسٌ انه سوف يسجن مع سادرك في غرفة بعيدين عن السيدة روانا · ولما كانت المقاومة لا تجدي نفعاً تبع سادرك ورفيقه الحراس الى قاعة بعيدة الاطراف سقفها مرفوع على اعمدة سكسونية ضخمة على نحو ما تشاهده اليوم في غرف موائد بعض الاديرة القديمة في البلاد الانكليزية · ثم سير بالسيدة روانا بكل اكرام وحفاوة الى قاعة اخرى ونالت

رفقه ما ناله وانا من الاكرام ايضاً الا ان اسحق اعترض على اخذ ابنته وهمَّ بنقد الحراس بعض المال ليتركوها برفقته وفي سجنه · فلم يعيروا كلامه اذناً صاغية بل قال احدهم ? « لو عرفت محل اقامتك ايها النجس لما نطقت بهذا الكلام ولما وددت ان تكون ابنتك برفقتك » ثم جرُّوه في جهة مقابلة ورجعوا الى الخدم وبعد ان تفحصوا اثوابهم نقلوهم الى قسم آخر من المعقل

ولما أُقفل الباب على الشريفين السكسونيين ووجدا نفسيهما في القاعة التي ذكرناها اخذ سادرك يتخطر ذهاباً واياباً وهو غارق في لجة من الافكار ينظر الى الماضي فيقيس الحاضر عليه ورفيقه ساكن ساكت كانما برودته وخموله قد فعلا في نفسه فعل الفلسفة فارياه عدم فائدة التذمر في مثل هذه الحال وقليلاً ما كان يجيب على عبارات سادرك الثارية

فلما رأى سادرك رفيقه على ما ذكرنا تحوَّل عنه يتفحص جوانب القاعة ثم صاح مخاطباً نفسه ورفيقه في وقت واحد : « أَجَلْ في هذه القاعة عينها اجتمع والدي بتركول عندما اولم وليمة للسيء البخت هرولد لما زحف بقواته ليقاصّ اخاه الذي انضم الى النرويجيين · وفي هذه القاعة اجاب هرولد سفير النرويجيين ذلك الجواب الشهير عندما ادخلوه الى حضرته وكانت القاعة غاصة باشراف السكسون ومقدميهم يحدقون بملكهم ويشربون خمرة اشد حمرة من الدم · وكثيراً ما سمعت ابي يذكر ذلك المشهد وهو يلتهب كجذوة تتقد حماسة

فتنبَّه اثلستاين من ذهوله وقال :

« املي الاَّ يتركونا بدون خمر عندما يكرمون علينا بالغداء لانني لم التذَّ بالطعام الذي قدموه لنا آنفاً فانا رجل لا يوافقني الاكل عقيب الركوب بخلاف ما يدعيه الاطباء من انها عادة مفيدة جداً »



فاستمرّ سادرك في كلامه كانه لم يسمع كلام رفيقه قائلاً « فتقدم السفير بقدم ثابتة غير متهيب من نظرات الغضب التي رماه بها كل من حضر وتقدم من عرش الملك وقال . ما ترى تكون معاملة جلالتكم لاخيكم اذا القى سلاحه وطلب السلام ؟ »

فاجاب الملك قائلاً : محبة اخوية واقطاعات نورثمبرلند

— فاذا سلّم اخوك وقبل ما تقدمه ماذا يكون نصيب ملك النرويجيين واي اقطاعات تعطى له ؟

— مساحة سبع اقدام من الارض الانكليزية

وارتفعت اصوات الاشراف استحساناً وكرعوا في كؤوسهم اعجاباً بملكهم . .

فقاطعه اثلستاين قائلاً . لو كنت موجوداً لشربت كاسين بدل الكاس لان لساني كاد يلصق بفمي

فقال سادرك . وقد اخذ منه التحمس كل مأخذ على رغم عدم اهتمام رفيقه بقصته : فلما سمع السفير جواب الملك رجع الى مرسليه . ولم يمضِ على رجوعه وقت طويل حتى دوت انحاء يورك باصوات المحاربين وفي ذلك اليوم سقط شقيق الملك وحليفه قتيلين بعد ما قتل حولهما نحوٌ من عشرة الاف من اعظم رجالها شجاعة . وفي ذلك اليوم ايضاً كان الريح الذي خفق فيه علم السكسون المنتصر يملأ اشرعة مراكب النورمنديين فتسير نحو شطوط بلاد السكسون . من كان يحلم في ذلك اليوم ان النصيب الذي اختص به الملك هرولد عدوه النروجي كان نصيبه هو بعد ايام معدودة ؟ ومن كان يظن ان اثلستاين المتسلسل من ذلك البطل ورفيقه سادرك الذي لم يقصّر والده في الذب عن حقوق ذلك الملك يدخلان نفس تلك القاعة بصفة الاسرى ؟

فقال اثلستاين : امر يوجب الاسف غير انني آمل انهم لا يطمعون ويطلبون فدية باهظة . ولكن كيف كانت الحال ارجو الاّ يكون غرضهم اماتتنا جوعاً فقد فات

الظهر ولم يظهر احدهم بالطعام · الق نظرك يا سيدي سادرك من تلك النافذة وقدّر الوقت ان امكنك ذلك من انحناء ظلال الشمس ألا ترى انه قد حلَّ الظهر ؟

— قد يكون ذلك كما تقول ولكنني لا انظر الى تلك النافذة الا هاج فيَّ النظر ذكرى المجد السالف والعز المنهوب · بني هذا المعقل عندما كان آباؤك وآبائي ايها الشريف يجهلون فن نقش الزجاج ولما كان بانيه غنياً عظيماً اتى بصناع من نورمنديا ليصنعوا له هذا الزجاج الذي يتحوَّل نور شمس الله الحقيقي بمروره فيه الى الوان مختلفة · اتى هولاء الصناع فقراء ضعفاء مستعدين لان يرفعوا قبعاتهم لاحقر السكسون قدراً ثم رجعوا اغنياء متكبرين ليقصوا على ابناء بلادهم خبر غنى السكسون وسلامة نياتهم وسذاجتهم ادخلناهم بيوتنا واشبعنا جوعهم وقرَّبناهم من قلوبنا فما كان منهم الا ان عادوا الينا بالخيل والرجل · وماذا كانت النتيجة ؟ هي كما ترى !

— مهما كان الطعام المقدَّم اليَّ الان رديئاً حسبته فاخراً لانني جائع واعجب منك يا سيدي سادرك كيف تنسيك ذكرى الايام السالفة ساعة الظهر

— فقال سادرك في نفسه عبثاً تخاطبه في امر لا علاقة له بالطعام والهضم · ثم نظر الى اثلستاين والحسرة ظاهرة في وجهه وقال « اسفي على وجود روح باردة كروحك في جسم لجسمك نادر المثال في حسن تركيبه · آسف لان مصلحة انكلترا تتوقف على آلة خربة كهذه ولعل روانا تتمكن بروحها السموية ان تبث فيه الحية والتعقل اذا انضمت اليه وتقوى على تحريك هذا الصنم وتنفخ الروح الحية في انفه ولكن أنَّى يتم لنا ذلك وانا واثلستاين وروونا في ربقة اسر هولاء الظالمين وما ادراني ان ما حملهم على اسرنا هو خوفهم من قيامنا للطالبة بحقوقنا الشرعية »

وبينا كان سادرك غارقاً في هذه الافكار فتح في ارض القاعة باب وظهر منه زعيم الخدام بيده قضيب منصبه الابيض يتبعه اربعة ممن هم تحت امرته يحملون مائدة عليها

من الوان الطعام ما نبه رائحته اثلستاين من غيبوبته . وكانت اوجه الخدم مختفية وراء اوجه استعارية

— فصاح سادرك ماذا تقصدون بهذه المساخر ؟ اتظنون وقد دخلنا هذا المعقل اننا نجهل حقيقة من اسرنا ؟ اخبروا مولاكم اننا لا نعرف سبباً لايقاعه بنا سوى رغبته في الحصول على نصيب من مالنا يغني به فقره . اخبروه اننا ندفع الفدية اعتقاداً منا انه لص يطلب ما تطلبه اللصوص . فليقل عن قيمة الفداء فندفعها اذا قدرنا على ذلك

فحنى الزعيم رأسه ولم يجب

ثم قال اثلستاين قولوا لفرنت — دي — بوف انني حافظ له عداوة لن تزول وانني طالبه الى البراز راكباً او راجلاً بعد تخلصنا من هذا السجن بثمانية ايام وهو طلب عدل لا اراه يهرب منه ما لم يكن نذلاً محتقراً

فاجاب الخادم ساعيد على ذلك الفارس ما قلته واما الان فساتركما فاجلسا الى هذا الطعام

ولم يكن في عبارة اثلستاين التحمس اللازم لموافقة منطوقه لان فمه كان محشواً بالطعام ولكن هذا الامر لم يمنع سادرك من مصافحته والثناء عليه ثم الجلوس ومشاركته في طعامه

ولم يكد يجلس الرجلان الى الطعام حتى سمعا صوت بوق من جهة مدخل المعقل ثم سمعا نفخة اخرى وكانت تلك النفخات شديدة عالية كانها نفخات بوق فارس معيّن امام معقل مطلسم قدّر ان تتهدم تحصيناته وتسقط معاقله امام ذلك الصوت كانها الضباب امام ريح شرقية

فاسرع الرجلان الى النافذة ونظرا الى الخارج فلم يشاهدا غير عرصة الدار ولكنهما عرفا ان اصحاب المكان قد اهتموا اهتماماً عظيماً بتلك النفخات من حركاتهم السريعة

‹ ٢٢ ›

لنترك السكسونيين الان ونتحوَّل الى اسحق اليهودي

قلنا ان الخدم ساقوا اليهودي الى حبسه وكان ذلك الحبس احد الاقبية القائمة عليها ابراج وحصون المعقل وكان القبو منخفضاً عن مساواة سطح الارض وعن الخندق المحيط بالمعقل ولذلك كان شديد الرطوبة مظلماً لا ينفذ اليه النور الاَّ من ثقبين في الحائط على مقربة من السقف اشبه بالمرامي منها بالكوى ولما كان الثقبان على مساواة الارض خارجاً كان النور لا يدخل منها الاَّ حوالي الظهيرة فينير القبو ببصيص ضئيل هنيهة ثم يعود فيتركه مظلماً بارداً · ومما زاد في رعب اليهودي مرأى السلاسل والقيود معلَّقة على جدران القبو وقد كستها العفونة منظراً يقذي العين ويحزن النفس وعظمتي ساقٍ متدليتين من احد القيود كانتا الاسير الذي احاط ذلك القيد بقدميه منذ زمن لم يترك مقيداً فيه حتى قضى فقط بل حتى لم يبقَ من جثمانه غير العظام وفي طرف القبو موقد يعلوه عدد من القضبان الحديدية متقاطعة

وكان منظر القبو اجمالاً مما يجلب الرعب الى قلبِ اعظم شجاعة من قلب اسحق غير ان اسحق لم يكن يبدو عليه ذلك الخوف الذي رأيناه فيه عند ما كان يخشى وقوع مصيبة وربما كان السبب اعتياد اليهود الاضطهاد ومعيشتهم في خوف دائم فهم ينتظرون وقوع المصائب في كل دقيقة فيخشونها قبل وقوعها فاذا وقعت لجأوا الى الصبر شأن الفلاسفة وقد قال الصيادون ان آلام الارنب البرّية عند وقوعها بين مخالب وانياب كلاب الصيد لا يعادل جزءًا من خوفها وهي لم تسقط بعدُ والكلاب تجدُّ في اللحاق بها

أُدخل اسحق القبو وأُقفل الباب · فاجال طرفه في اطراف المكان ثم قصد احدى زواياه وخلع جبته وطرحها على الارض وجلس عليها القرفصاء وضم ذراعيه الى صدره

وحتى رأسه واقام على هذه الصفة نحواً من ثلاث ساعات في نهايتها سمع قلقلة مفتاح وشعر بباب يفتح · فرفع عينيه فاذا به يرى فرنت — دي — بوف وخادمي الهيكلي التركيين منتصبين امامه

وكان فرنت — دي — بوف طويل القامة مفتول العضل قضى ما مضى من عمره في المعامع وفي اثبات حقوقه المغتصبة بحد السيف وكانت ملامح وجهه وما يتخللها من اثار الجراح تدل بوضوح كافٍ على امياله الداخلية الحيوانية واطماعه المتجاوزة الحدود المعروفة · ويستر صدره درّاعة من الجلد عليها آثار الدرع التي تلبس فوقها ولم يتقلد من السلاح سوى حربة تتدلى من حزامه على جنبه الشمال وعلى اليمين حزمة من المفاتيح

وكان التركيان خلوًا من اثوابهما المعْلَمة ومناطقهما المذهبة لا يسترهما سوى لباس بسيط من الكتان الخشن يحملان سلة

واقفل فرنت — دي — بوف باب القبو وحوّل نظره الى اسحق في مقعده وتقدم منه يتبعه الخادمان كانما غرضه تنويم حواس اليهودي وتشليل اعصابه بمجرد النظر كما تفعل بعض الحيوانات بفريستها

وكانت اطراف اليهودي ترتجف واعضاؤه تهتز بعنف تحت تلك النظرات ولو تسنى لراءٍ اختراق تلك الجدران وظلام ذلك القبو بعينيه لرأى في ناحية منه اعضاء اليهودي تتكمش وجسده يتقلص وفي ناحية اخرى جسد النورمندي يتمدّد كأنه نسر يتهيأ للانقضاض على فريسته

ووقف فرنت — دي — بوف على مسافة ثلاث اقدام من اليهودي الذي انحلّت عزائمه وعجز عن الوقوف · وحالما وقف فرنت — دي — بوف تقدم احد الخادمين بالسلة واخرج منها ميزانًا وعددًا من العيارات وطرحها عند اقدام البارون ورجع الى جانب

رفيقه · وكانت هيئة التركيين ساكنة تشف عن خشوع ورهبة في داخلهم · ولم يكن احدهم قد فاه بحرف بعد· فقطع فرنت – دي – بوف ذلك السكوت مرجعاً مخاطباً فريسته : « هل ترى ايها الكلب الملعون هذا الميزان ؟ »

فاجاب اليهودي بصوت خافت بالايجاب

— يجب ان تزن لي بهذا الميزان الف اوقية فضة كاملة على عيار برج لندن

— فصاح اليهودي « يا ابي ابرهيم ! ! » كانما ازدياد الخوف ارجع اليه قوة النطق هل سمع احد بطلب كهذا ؟ مَن سمع حتى في اقاصيص القصاصين بكمية قدرها الف اوقية من الفضة ؟ اي عين بشرية نالت حظ التمتع بمثل هذه القيمة ؟ اذا بحثت في بيتي في يورك وفي بيوت بني امتي وقلبتها بطناً لظهر لما وجدت عشر هذه القيمة

— انا عادل فيما طلبته منك فاذا لم يكن لديك هذا القدر من الفضة فلا بأس بالذهب واني اجعل كل اوقية من الذهب مقابل ست اواق من الفضة فاذا فعلت نجيت نفسك من عذاب اعدّه لك وميتة لم تحلم بها

— ارحمني ايها الفارس الشريف فانا رجل تقدّم في الايام وفقير معوز لا معين لي ولا مساعد وتغلبك عليه وتعذيبك اياه لا يعدّان اثراً عظيماً واي أثر ورجولة لمن يسحق دودة من دود الارض !

— ارى العار لاحقاً بمن تخلّى عنك لتعيش كل هذه السنين وتقضيها بامتصاص مال البشر وتخريب بيوتهم بمقاضاة رباك الفاحش · وان تكن ضعيفاً فتى كان اليهودي قوي الساعد والقلب ؟ غير انك غني وهذا ما لا اشك فيه

— اقسم لك ايها الفارس الشريف بكل مقدّس لديّ وبكل ما اعتقد ونعتقد به معاً · · ·

— لا تجهد نفسك بالكلام فلا بد من الدراهم ولا يكوننّ كلامك الا عاملاً على عذابك · او تخالني امزح لتخويفك ؟ اقسم بما لا تعتقد به – بالانجيل الذي تعلمه كنيستنا

انني لم اقل الاَّ ما انا عازم على اجرائه ولقد زهقت ارواح كثيرين في هذا المكان ممن لا تساوي قطبة في نعالهم وماتوا ولم يدرِ بخبرهم احد من البشر ولكنني قد اختصصتك بعذاب غير متناهٍ وموت أَليم ليس عذابهم في جانبه الاَّ رفاهية

قال هذا واشار الى الخادمين فاقتربا منه فكلمها بلغتها بعض الكلمات (وقد كان يعرفها لانه زار فلسطين) فاخرج الرجلان من السلة شيئاً من الفحم ومنفخاً وزجاجة من الزيت وبينما كان احدهما يقدح زناده ليوري ناراً كان الاخر يضع الفحم في الموقد الذي ذكرناه · ولم يمضِ غير القليل حتى تأَججت النار فقال البارون : « يا اسحق هل ترى تلك القضبان الحديدية ؟ سوف تلقى عليها عاري الجسد كانك تتأَهب للاضطجاع على فراش مصنوع من ريش النعام · كيف ترى ؟ وبينما يدأَب احد الخادمين في اصلاح النار ليزداد سعيرها يسكب الاخر على جسدك زيتاً لئلا يحترق فاختر الان احد الامرين اما الاضطجاع على ذلك الفراش او دفع الالف اوقية

— يستحيل عليَّ تصديق كلامك لانني لا اعتقد ان الاله الحي اوجد في صدر الانسان قسوة كهذه او قلباً كله صلابة وقساوة

— اذا اتكلت على هذا الاعتقاد كنت مخطئاً خطأً عظيماً يا اسحق · او تعتقد ان رجلاً رأى بعينه مدينة فيها الوف المسيحيين يفنيهم حد السيف والنار تتهدَّم جدرانها على رؤُوسهم ولم يتأَثر له قلب يتأَثر لصراخ وتوجُّع يهودي واحد ؟ وهل تعتقد ان هذين الخادمين العديمي الشعور والاحساس والذمة اللذين لا همَّ لها غير طاعة سيدها يستخدمان السم ويستلان السيف ويرشقان الحراب لأَقل اشارة منه يشفقان عليك وهما لا يفهمان كلمة واحدة مما تقول ؟ فاختر لنفسك احد الامرين ايها الرجل واذا قبلت نصحي فادفع ما سأَلتك دفعه لانك ان لم تفعل لن تخرج من هذا القبو حياً

— اذن فليساعدني ابرهيم واسحق ويعقوب لان لا سبيل لي للاختيار اذ لا مال عندي يعادل طلبك الباهظ

فصاح البارون بالخادمين « اقبضا عليه اذن واخلعا اثوابه »

فتقدم هذان وقد فهما ما كانت تشير اليه نظرات البارون ولو لم ينهما كانه وانتشلا اليهودي من مجلسه واوقفاه بينهما واقاما ينتظران اشارة سيدهما

فتفرَّس اليهودي في وجه البارون والخادمين لعله يجد اثرًا للتردُّد فلم يجد فحوَّل نظره الى النار فرآها تبسط لاقتباله ذراعيها المفتوحين فصاح :

« سادفع الالف اوقيــة وذلك بمساعدة اخواني · ساضطر الى الوقوف على باب الهيكل اتسوَّل من الداخلين واطلب معونة الخارجين · فاين ومتى يجب الدفع ؟ »

— « هنا في هذا المكان يجب ان توزن · هل تظن انني آذن لك في الخروج قبل الدفع ؟ »

— وما ادراني انني اخرج حرًّا اذا انا دفعت الفدية ؟

— اتجسر على الشك بكلمة شريف نورمندي ايها النجس · اعلم انها انقى من ذهبك وفضتك جميعًا

— عفوك ايها الشريف فأنَّى لي ان اثق بكلام من لا ثقة له بما اقوله ؟

— ايها اليهودي هذا موضوع لا يمكنك البحث فيه فلو كنتُ في مستودع اموالك في يورك اطلب اليك قرضًا لكان لك ان تملي عليَّ شروطك اما وانت هنا — في مستودع اموالي — وجب عليك الاذعان لشروطي صاغرًا

فتنهد اليهودي وقال : لكن ما سوف ادفعه فدية عني وعن رفاقي الاسرى الذين اذنوا لي في مرافقتهم ولولا تأخيري لهم ربما لم يصبهم ما اصابهم فضلاً عن كونهم يساعدونني في جمع الفدية المطلوبة

— اذا كنت تعني السكسونيين اللئام فلخلاصهم شروط غير هذه فلا تتداخل بما لا يتعلق بك

— ليصحبني اذن رفيق الجريح

— هل يقتضي ان انبهك مرتين الى عدم التداخل بامر سواك ? ادفع ما عليك وذلك بالسريع العاجل

— لتذهب ابنتي رفقه معي وارسل معنا من رجالك نفراً لحراستنا فاذا بلغنا يورك وجع رجالك بالمال

— وهل تلك الفتاة ابنتك ? كنت حسبتها زوجتك يا اسحق ولذلك وهبتها للهيكلي لتكون أمته

ولم تقع هذه الكلمات في اذني اسحق حتى صاح صوتاً دوت له جوانب القبو واجفل له التركيان وتركا اسحق فطرح نفسه على قدمي فرنت - دي - بوف وصاح « رحماك يا سيدي ! خذ ما تريده مني . خذ قدره عشر مرات . خذ كل ما لديَّ من مال وعقار واتركني فقيراً استعطي . اخرق جسدي بالحراب ! اشوِ لحمي على هذه النار وابقِ على شرف ابنتي . حافظ على شرف عذراء اكراماً للمرأة التي ولدتك . هي مثل امها راحيل . هي الباقية لتعزية شيخوختي بعد اخوتها الستة . او تحرم رجلاً ماتت زوجته واولاده عزاءه الوحيد ? اتلجىء والداً يودّ لو توسدت ابنته بطن الارض بجانب اخوتها ولا تبقى حية تُسبى ?

— حبذا لو عرفت انها ابنتك قبل الان وقد كنت احسب لا قيمة لشيء عند اليهودي سوى امواله وكيسه

— اخطأت . الثعلب . المرأة تحب اولادها فكيف بنا ونحن بشر ?

— ساذكر كلامك في المستقبل واما الان فقد سبق السيف العذل ولم يبقَ في

اليد حيلة اذ سبقت ووهبت الفتاة احد اقراني ولا يليق بي كرجل شريف نقض ما ابرمته . وما ضرّك اذا كانت ابنتك نصيب الميكلي من الغنيمة ؟

— ما ضرّني ؟! ومتى جلب الميكليون غير الدل على الرجال والعار على النساء ؟

— فصاح البارون وقد ظهر الغضب في عينيه . ايها الكافر اللئيم كيف تجروٌ على اهانة طغمة هيكل صهيون ادفع ما عليك لي والاً حلّ بك ويلٌ عظيم

ولم يعد يقوى اسحق على كظم غيظه فاطلق لنفسه العنان وصاح : ايها اللئيم لن تنال من نقودي بارة واحدة ما لم تردّ اليَّ ابنتي سليمة معافاة

— هل فقدت صوابك ايها الاسرائيلي ؟ ام هل في لحمك تعويذة تقيه النار ؟

— لست ابالي بتهديدك فافعل بي ما شئت . فلحمي ودمي هما ابنتي وهي اعز لديَّ من هذه الاعضاء التي تتهددها بالفناء . لن تنال مني فضة اللهمّ الا ان اسكبها مصهورة في حلقك . لن تظفر بدرهم واحد ولو توقف على ذلك الدرهم خلاص نفسك الهالكة . اقض على نفسي الاخير وقل وانت خائب الاماني لقد قوي اليهودي ان يخيّب آمال المسيحي و يرد كيده في نحره

— سنرى ! انزعا ثيابه وقيداه على القضبان الحديدية

فاقترب منه الخادمان وعلى رغم مقاومته العنيفة مزّقا اثوابه الخارجية واذا بصوت بوق يسمع من جهة مدخل المعقل تتبعه حركة غير اعتيادية في انحاء البناء واصوات تسأل عن وجود فرنت — دي — بوف . فخشي البارون ان يُرى في عمله هذا الوحشي فامر الخادمين باعادة ثياب اليهودي اليه وباتباعه

وهكذا خلا القبو لاسحق ولافكاره ومخاوفه المختلفة يندب سوء بخته وشؤم طالع ابنته بحسب ما تمليه عليه افكاره القلقة

—**●**—

٢٣

ن القاعة التي سيقت اليها السيدة روانا على جانب من الترتيب وفيها شيء من الزينة البربرية . ويعتبر مجرَّد ادخالها الى تلك القاعة دليلاً على ما قام لدى آسريها من الاعتبار لمركزها غير انه لما كانت زوجة فرنت — دي — بوف قد ماتت منذ زمن بعيد كانت ستائر وتذهيب القاعة قد تهرَّأت وزالت وبدا الخراب والاهمال تعاونا معاً على ازالة ذلك القليل من الزينة التي حوتها الغرفة فيما سبق

فاقامت السيدة روانا وحيدة تفكر في الحالة التي آل اليها امرها الى ان آذن الظهر ففتح الباب وظهر منه دي برامي وقد استبدل لباسه الاخضر بالفراء والاقمشة المذهبة وارسل شعره على كتفيه وتمنطق بمنطقة مزركشة بخيوط الذهب يتدلى منها سيف مرصع الغمد وفي قدميه حذاء على نحو ما ذكرناه سابقاً . أضف الى كل هذا الزخرف طلعة الرجل البهية وتقاطيعه المتناسقة

ولما دخل القاعة رفع قبعته عن رأسه وانحنى الى الارض باحترام زائد واشار الى السيدة روانا بالجلوس فلم تفعل فنزع قفاز يده اليمنى وهمَّ بها ليقودها الى كرسي فاوقفته باشارة من يدها وقالت : « اذا كنتُ في حضرة سجاني يا سيدي الفارس (والظروف تدلني انك سجاني) فلا يليق بي ان اجلس بل انتصب لاسمع من فمه حكمه عليَّ »

وا أسفاه ايتها الحسناء انتِ في حضرة اسيركِ الذي ينتظر ان يرى في عينيكِ الجميلتين ذلك الحكم الذي تذكرينه

فقالت روانا رافعة رأسها بعظمة تليق بمنصبها الرفيع وجمالها الفتان . لستُ اعرفك فكيف تخاطبني بهذه الجرأة وهل تزعم ان خطاباً كهذا يكفّر عن اذية لص ؟

— ان كان ثمت خطأ او اذية اتيتها فمن سببها جمالكِ الفتان فهو الذي دفعني

وهو الذي قادني فانيت ما اتيته للحصول على ملكة فؤادي ونجم سعودي

— اعيد على مسامعك ايها السيد انني لست اعرفك فعسار على فارس قد تقلد السلسلة الذهبية وتزين بالمهاز الذهبي ان يخاطب سيدة بما تخاطبني به وهي ضعيفة لا يوجد حولها من يحميها ويذب عن شرفها

— اذا لم يكن لكِ بي معرفة فذلك من سوء طالعي ولكن ألم تسمعي باسم دي براسي تتناقله ألسنة الشعراء والمغنين معجبين باعماله في حالتي السلم والحرب ؟

— دع المديح لالسنة الشعراء والمغنين فهم اولى به اذ لا يليق بشريف مدح نفسه ولكن قل لي هل ترجو ان يخلّد عملك هذا — هجومك على شيخ ليس حوله سوى عدد قليل من الخدم الجبناء واسره وسوقك فتاة ضعيفة الى معقل لصوص — هل ترجو بعد ذلك ان يخلّد عملك هذا شاعر في ابيات قصيد او مغنٍّ في الحان اغنية ؟

— لقد ظلمتني ايتها السيدة ولا غرو فانتِ خالية من كل عاطفة وحنان ولا اثر لهوى يكاد يأكل القلب في قلبكِ ولذلك لا تعتبرين هذه الظروف عندما تذكرين عملي وتحكمين بقسوته والمسبب جمالك ليس الاّ

— رجائي منك يا سيدي ان تمتنع عن عبارات كهذه هي اولى بشاعر متجوّل منها بفارس شريف ... ثم بعده تأمرني بالجلوس والاصغاء الى كلام في رأس احقر السوقة منه ما يستغرق سرده اشهراً طويلة

فغضب دي براسي لاحتقار روانا مقدماته اللطيفة وعباراته الرقيقة وقال . ايتها السيدة المتكبرة سوف اقابل ترفعكِ بمثله واذا لم يرضكِ تلطفي ورقتي وظهر لي انكِ تفضلين القسوة عليها فسألجأ الى هذه

— اذا سترت العبارات الرقيقة اعمالاً دنيئة سافلة كانت كمنطقة فارس حول حصر نذل ساقط . فلو كنت حرّاً شجاعاً لحافظت على لباس اللصوص بدلاً من التردي

برداء الفارس الشريف وقلت وفعلت اقوال وافعال اللص

— احسنتِ النطق ايتها السيدة بقي ان اقول لكِ كلمة واحدة وهي انكِ لن تخرجي من هذا المعقل الا زوجة لموريس دي براسي · فليس من غرضي ان اخرج صفر اليدين ولا يليق بشريف نورمندي ان يؤدي حساباً عما يفعله لفتاة سكسونية كفاها شرفاً ان ذلك الفارس قد تنازل لقبولها زوجة له · هل لديكِ واسطة للتخلص من الاحتقار والاهانة اللاحقين بشعبكِ غير هذه ؟ ام كيف تحلمين بالتربع بين اكابر البلاد واشرافها وان يذكر اسمكِ بالاجلال والاكرام عندما يذكر النبلاء والاشراف ان لم تقبلي بما عرضته عليكِ

— لقد ولدتُ ياسيدي الفارس تحت سقف ذلك الشعب وشبت بين ظهرانيه فانا منه وهو مني واعلم انني اذا قدّر ووهبت يدي لرجل لا يكون ذلك الرجل الذي يحتقر قومي ويعمل على اهانتهم ويستخف بالعوائد والآداب التي ربيت عليها

— لقد فهمت غرضكِ ايتها السيدة ولو ظننت انه ابعد من ان اصل اليه · اعلمي ان رجوع الاموات الى مصاف الاحياء اقرب الى التصديق من رجوع قلب الاسد الى التربع في عرشه وهذا كله اقرب الى التصديق والوقوع من رجوع ولفرد اف ايفنهو معه ومن العبث ان تحلمي انكِ سوف تقادين يوماً الى عرش ذلك الملك بصفة زوجة لتابعه المحبوب · لو كنت على خلاف ما انا عليه من الاخلاق لوجدت الغيرة في قلبي محلاً من كلامكِ هذا ولكنني على غير ما تعتقدين فضلاً عن معرفتي مقرّ ايفنهو ولا يوجد ما يمنعني عن افشاء خبره لفرنت دي بوف الذي يهمه امر ايفنهو اكثر مني

— « وهل ولفرد هنا ؟ » سألت روانا هذا السؤال بنغمة الاحتقار ثم اردفت « نصيب كلامك هذا من الصدق نصيب فرنت دي بوف من مناظرة ولفرد »

فحدق دي براسي في وجه روانا قليلاً ثم قال : هل تجهلين هذا الامر حقيقة ؟ هل غاب عنك ان ولفرد كان ممدداً في ذلك الهودج الذي كان ينقله اليهودي ؟ — رفيق صالح لرجل اقسم ان يسترجع القبر المقدس ! قال هذا باستخفاف واحتقار عظيمين

فقالت روانا وهي تجهد النفس بالتظاهر بعدم الاهتمام ولكنها كانت ترتجف خوفاً مما قد يؤول اليه امر ولفرد : « اذا سلمت بوجود ايفنهو هنا فماذا يجب ان يخشى زيادة عن اسر قصير المدة يتخلص منه بفدية معلومة »

— يا روانا هل انت واحدة من اللواتي لا يعتقدن بوجود شيء يستوجب المناظرة غير محاسنهن ؟ اعلمي اذن انه توجد غيرة في المال كالغيرة في الحب وغيرة فرنت دي بوف من هذا النوع واني موقن ان هذا الرجل لا يتوقف عند حد اذا علم بوجود الرجل الذي يخشى منه على املاكه في معقله · انني موقن انه لا يؤخره عن قتله ذمة او ضمير او عهد ولكن اذا سمحت لي ورضيت عني واذعنت لمشورتي تكفلت لك بنجاة ايفنهو والا فاندبيه كما تندبين رجلاً مفقوداً

فصاحت روانا وقد هالها موقف حبيبها : « خلصه اكراماً لله تعالى »

— انا قادر على خلاصه وهو ما اقصده فاذا اصبحت زوجتي هل اتأخر من حمية مواطنك وهل يوجد في العالم من يجسر على الحاق الاذية بابن وصيك ورفيق صباك وانا بعلك فبحبك يجب ان تبتاعي نجاته لانني لست من الغباوة على جانب اقدم معه على نجاة رجل ربما يقف في سبيلي ويعترض بلوغ ما اتمناه · فاذا اصبحت زوجتي نجا ايفنهو واذا رفضت مات ايفنهو وندبته ولم تتقدمي خطوة واحدة نحو النجاة

— لا ارى وراء قسوتك مزيداً الا انني لا اعتقد انك تقدم على عمل شرير كهذا ولا اصدق بمقدرتك التي ذكرتها

— لك ان تعتقدي ما شئت فاذا جاء الوقت عرفت خطاءك الفاضح · حبيبك جريح في معقل عدوه وهو الحاجز بين فرنت دي بوف والاملاك التي اغتصبها لنفسه فاذا عرف هذا بامره انهى حياته بطعنة واحدة او اذا خشي العاقبة امر الطبيب بوصف دواء خلاف المطلوب او امر خادم الغرفة ان ينزع الوسادة من تحت رأسه فينزف دمه ويموت · واما نصيب سادرك فلا يكون احسن من نصيب ابنه

— سادرك ايضاً ؟ آه يا وصيي الشريف الكريم كدت انسى امرك لدى ذكر ابنك

— ونهاية سادرك ايضاً تتوقف على رضاك فاعملي الفكرة واقضي بما يكون

اظهرت روانا شجاعة وثباتاً غريبين في حديثها مع دي براسي ولم يكد ذلك عن خلال طبيعية موجودة في صدرها لانه ان صح ما يزعمه علماء الفراسة كان الجبن مع اللطف والرقة من خصائص البياض والشقرة ولما كانت روانا من هذا النوع كانت جبانة لطيفة رقيقة ولكنها في نفس الوقت اعتادت ان ترى ارادتها نافذة واوامرها مطاعة فتعجبت الان كيف لا يطاع لها امر وهذا ما دفعها الى اظهار ذلك الثبات وتلك الشجاعة

قلنا ان ما اظهرته كان تخلقاً فلما رأت ان شخصيتها وكلامها لا يؤثران في الرجل الواقف امامها ورأت ضعفها وعرفت مركز حبيبها ووصيها وعلمت ان القوة في جانب مخاطبها سقط في يدها وارتجفت امامه ثم اجالت طرفها في انحاء القاعة كانها تطلب معيناً ومنقذاً ولم تلبث ان رفعت عينيها ويديها الى السماء وعلى وجهها سمات ألم وحزن عظيمين فظهرت كانها تمثال الحزن واليأس معاً · ولم يكن لعين ما ان تقع على مخلوقة فيها من الجمال قسمه الاكبر واقفة وقفتها التي ذكرناها ولا تدمع لحالتها وتتأثر لبأسها

فتأثر دي براسي وحار في امره فاخذ يتخطر في ارض الغرفة ثم يقف امامها ويلقي

على مسامعها بعض العبارات المعزية ولكن لغير فائدة فتحوّل الى نفسه يخاطبها قائلاً :
« اذا تأثرت لحالة هذه الفتاة ووافقتها خسرت ما املّته واصبحت اضحوكة ولا كتني افواه البرنس يوحنا وحاشيته ولكنني لا اجد نفسي اهلاً لتمثيل الدور الذي اخترته · لا اقوى على النظر الى جمال تجملها فاجد فيه اثرا للألم او عينين كعينيها وقد غمرها الدمع · حبذا لو رجعت الى نفسي كبرياؤها وحبذا لو كان في صدري قلب كقلب فرنت دي بوف الذي لا يحركه جمال او يلينه دمع »

وكانت هذه الافكار تزعج دي براسي كثيراً فيحوّل نظره الحين بعد الاخر الى روانا فيزداد تأثره ويخفق قلبه ويخشى من نفسه · ولم يجد ما يفعله سوى تعزيتها والاقتراب منها واذا به يسمع صوت البوق الذي اجفل له رفقاؤه فترك روانا وهو شاكر للبوق الذي نجاه من موقف فيه من الصعوبة ما فيه وخطر الاقدام والاحجام ازاءه سواء

والان وجب ان نبسط امام القارىء كلاماً خارجاً عن موضوع الرواية قد لا ينال القبول لدى السواد الاعظم كبرهان على قساوة واعمال الاشراف البربرية · اليس من المؤلم المحزن ان ننظر الى اولئك الاشراف فنراهم من جهة حاجزاً منيعاً بين العرش والعوام وبهم نالت انكلترا حرّيتها ونرى من جهة اخرى الهمجية متجسمة فيهم يأتون اعمالاً لا يأباها الشرع فقط بل تمجها الانسانية وتجتنبها الطبيعة على ما فيها من الشر خذ مثالاً ما قاله مؤلف « انساب السكسون » في عرض كلامه عن هؤلاء الاشراف قال :

« كان الشريف النورمندي يغتصب ارضاً ويضطر سكانها الى بناء معقل فيها ثم يجمع في هذا المعقل عدداً من الاوباش وان شئت قلت الابالسة اتخذت لها اجسام بشر يراقبون الناس فاذا بلغهم او خيّل لهم ان احداً يملك مالاً اسروه وطرحوه في سجن مظلم وعذبوه عذاباً لم يلقه احد من الشهداء · كانوا يخنقون البعض بدفن

رؤوسهم في الاوحال او يعلقون غيرهم من ارجلهم او رؤوسهم او اصابع ايديهم او ارجلهم ويوقدون تحتهم ناراً . كانوا يضغطون على رؤوس الفريق الآخر بواسطة حبال معقدة حتى تنفذ الحبال الى الدماغ او يطرحون البعض في بئر ملأوها بالثعابين والعقارب والضفادع . ولولا اشفاقنا على شعور القاري من مطالعة امور كهذه لذكرنا له اموراً اشد هولاً واظهر للقسوة التي جرى عليها اولئك الاشراف — كل ذلك لكي يحصلوا على ما كان عند اولئك المساكين من المال والعرض

واليك مثالاً آخر يظهر لك حال تلك الايام : الاميرة متيلدا ابنة ملك سكوتلاندا التي صارت بعدئذٍ ملكة لانكلترا ووالدة للملكة جرمانيا كانت ابنة ملك وزوجة ملك ووالدة ملكة ولكن على الرغم من هذا الشرف وهذه الرفعة وجلال الملك وسلطانه اضطرت الى لبس برقع راهبة في غضون اقامتها في انكلترا بينما كانت تتلقن العلوم هرباً من اولئك الاشراف لانها لم تجد وسيلة غير هذه لحفظ شرفها والنجاة بعفافها من سفالة وشراسة اشراف النورمنديين في ذلك الوقت . وقد صرحت الاميرة بهذا في مجمع اساقفة انكلترا الذي اجتمع ليرى في مسألة خلعها ثوب الراهبة ونقضها العهود المقدسة واستندت عليه لتثبت كونها اتخذت الثوب مضطرة لا مختارة فسلم الاساقفة بصحة دعواها وقوة حجتها وفي ذلك برهان واضح على حالة اشراف النورمنديين في ذلك العهد . وقالوا انه بعد دخول وليم الظافر الى انكلترا اعتز اشرافه واتخذوا اميالهم شريعة ولم يحرموا السكسون املاكهم واموالهم فقط بل توصلوا الى اعراضهم واغتصاب بناتهم وزوجاتهم فاضطر هولاء الى لبس ثوب الراهبات وقاية لشرفهن وليس لدافع ديني » . فاذا اتخذنا تصريح الاساقفة مستنداً لم يستغرب القاري امكان وقوع ما ذكرناه في معقل فرنت دي بوف

《 ٢٦ 》

بينا كانت الحوادث التي ذكرناها تجرى في انحاء المعقل المختلفة كانت رفقة اليهودية تنتظر مصرعها في قاعة منفردة في احد ابراجه

ذكرنا فيما تقدم ان رجلين مضيا برفقه الى السجن ولما بلغا بها اليه اذا هي امام عجوز شمطاء تتغنى بنغم سكسوني وتطرق ارض القاعة بمغزلها كمن يزن نبرات الانغام ويوفق بينها · فرفعت العجوز رأسها لدى دخول رفقه ونظرت اليها نظرة حسد ممزوجة ببغض نراها كثيراً على اوجه العجائز اذا تذكرنَ جمال الصبى وعلى الاخص اذا كنَّ على جانب من الشناعة

فقال احد الرجلين : « يجب ان تتركي هذه الغرفة ايتها العجوز لهذه الحسناء · وهذه اوامر مولانا »

— « أهاً » اجابت العجوز « هذا جزاء المعروف والخدمات · أهاً · لقد مرَّ عليَّ حين من الدهر كانت كلمة واحدة من فمي كافية لان تطرح اشجعكم من سرجه الى الارض اما وقد صرت الى ما انا عليه فيجب ان اخضع لاحقركم »

— فقال الآخر يا سيدتي اورفرد ما لنا وللبحث في هذه الامور يجب ان تنهضي وتتركي هذه الغرفة وانتِ ادرى بمولانا اذا لم تُطع اوامره حالاً · لقد رقصتِ بدورك ايتها العجوز واما الان فشمسكِ قد اخفت واتى دور غيركِ فاتبعيني

— اذهبا من امام وجهي وليكن مقرّكما النار · ليمزّق زرنبوخ اله الشر جسدي تمزيقاً ان انا خرجت من هذه الغرفة قبل الفراغ من غزل ما على عرناسي من الكتان

قال الرجل وقد خرج مع رفيقه تاركاً رفقه مع العجوز التي لم ترحب كثيراً بقدومها

— ساطلع سيدي على امركِ

وحالما اقفل الباب قالت العجوز مخاطبة نفسها وكانت تلقي بنظرها الحين بعد

الآخر على اليهودية : بايّ عمل شيطاني يقومون الان . وسهل عليّ معرفة غرضهم . عيان سوداوان لامعتان وبشرة كانها الورق في البياض قبلما يلطخه الكاهن بصباغه الاسود . ماذا وهل يخفى عني سبب ارسالها الى هذه الغرفة حيث لا يسمع صراخ المستجير كانما سجنه على عمق مئة قامة تحت الارض . بلى ايتها الحسناء سيكون نديمك اليوم في هذه الغرفة ولا يسمع غيره صراخ استغاثتك . من اي البلاد انتِ ؟ أتركية انتِ ام مصرية ؟ اراكِ تبكين فهلاّ تكلمتِ كما بكيتِ ؟

— اصرفي غضبك يا سيدتي المحترمة . . .

— صه ! الصياد يعرف الثعلب من اثاره واليهودي من نطقه

— اخبريني اكراماً لوجه الله تعالى عن المصرع الذي ينتظرني في هذا المكان .
قالت رفقه هذا وقد خنقتها العبرات . ثم عقّبت : هل يودُّون قتلي لانني يهودية ؟ ان كان هذا غرضهم مني فساقدم حياتي بفرح في سبيل ديني

— حياتكِ ايتها الغبية ! وما هي قيمة حياتكِ عندهم ؟ انهم لن يلحقوا بجسدكِ اذية بل يعاملونكِ معاملتهم لفتاة سكسونية كان لها نصيبكِ من الجمال فيما مضى . انظري اليَّ . كان نصيبي من الجمال ضعفَي نصيبكِ عند ما هاجم فرنت — دي — بوف والد البارون الحالي هذا المعقل ودخله عنوة فوقف والدي واخوتي السبعة في وجوه الداخلين وحاربوهم في كل غرفة من غرفه ونازلوهم على كل سلّم من سلالمه ولكنهم سقطوا اخيراً وقبل ان جفَّ دمهم المهرق على ارض معقلهم كنت انا ابنتهم واختهم قد وقعت فريسة للمنتصر

— « وهل من وسيلة للنجاة ؟ ألا يمكنني الخلاص ؟ ساعديني وانا اجزل لكِ العطاء »

— قالت العجوز عبثاً تبحثين فالموت هو الباب الوحيد للنجاة من هذا السجن

واذا فُتح ذلك الباب كان فتحه متأخراً · غير انه اذا متنا فتعزيتنا ان كثيرين غيرنا على هذه البسيطة ينتظرهم الشقاء · استودعكِ الله ايتها اليهودية وسيان كنتِ يهودية او وثنية فانتِ في ايدي اناس لا فرق عندهم بين الاجناس ولا ضمير لهم ولا ذمة · استودعكِ الله ثانية فقد اتيت على آخر كتاني واما عملك فلم يبتدئ بعد

— ابقي هنا ! لا تذهبي اكراماً للسماء ولوجه الخالق · ابقي ولو لم انل من بقائك غير اللعن لعل لي بوجودكِ بعض الحماية

— لم يحمني وجود والدة الاله نفسها انظري الى ذلك (واشارت الى مثال للعذراء مرسوم على الحائط) لعله يقوى على تحويل مصرعكِ

قالت هذا وخرجت من الغرفة واقفلت بابها وانحدرت بصعوبة على سلم البرج

فاقامت اليهودية تنتظر حلول ويل اشد هولاً من ويل روانا لان هذه ان ساعدها دينها ومولدها كان دين تلك ومولدها سببين في زيادة اضطهادها وتعذيبها غير ان رفقه كانت على استعداد أتم من استعداد روانا لمنازلة المصاعب والنوازل لان مجرَّد كونها يهودية ومعيشتها المقرونة باخطار ومخاوف دائمة وقيامها مترقبة تلك الاخطار والمخاوف واستعدادها الطبيعي والمكتسب لمنازلتها مما يساعدها على ملاقاة ما ينتظرها في عالم المستقبل · كانت في قومها محاطة بكل ما يقوى الغنى على تحصيله من البذخ والرفاهية ولكنها مع هذه الظواهر كلها كانت ترى السيف معلقاً بشعرة فوق رؤوس قومها · تعلمت رفقه التواضع والرقة من ظواهر ابيها وحركاته ولكنها كانت بعيدة عن الذل الذي كان يتخذه ويتذرَّع به لان نفسها كانت اعظم شرفاً من نفسه كان تواضعها ممزوجاً بكبر نفس كأنها بالاول تظهر للعالم انها لا تجهل انتسابها الى شعب حقير مهان مضطهد وبالثاني ان في ذلك الجثمان نفساً كان حقها ان تكون في غير جثمان يهودية — كبيرة على الرغم من حلولها في اناء محتقر · هذا كان سلاح رفقه

وعلت في تلك الساعة ان هذا وقت اظهار شجاعتها وادراكها ودهائها · وكان اول ما قامت به تفحص الغرفة فلم تجد فيها سوى الباب الذي دخلت منه وهو يؤدي الى اقسام المعقل ثم نافذة ظنت ان بها فرجاً ولكنها بعد البحث وجدت انها تؤدي الى مرمى منفصل عن بقية التحصينات قد أنشئ هنالك للرماة يقيمون وراءه ويرشقون العدو بسهامهم محامين عن المعقل عموماً في حالة هجوم العدو والبرج خصوصاً اذا اراد به سوءا فرجعت عن النافذة واذا بها تسمع خفق نعل على السلم المؤدية الى سجنها ثم فتح الباب رجل بلباس اللصوص الذين اسروا جماعتها قد انزل قبعته الى ما يقارب عينيه ليخفي القسم الاعلى من وجهه ورفع رداءه ليخفي قسمه الاسفل · وتقدم الرجل ووقف امام رفقه وهو ساكت لا ينطق بكلمة كانه ضاق عن ابتداء الحديث · فانتهزت رفقه فرصة سكوته وتأملته ملياً ثم نزعت سوارين ثمينين من زنديها وعقداً من اللؤلوء من عنقها وقالت : « خذ هذه ايها الصديق وارحمني وارحم ضعف والدي الشيخ · هذه هبة غالية الثمن ولكنها لا تعدُّ شيئاً بجانب ما يدفعه لك والدي اذا تكرمت علينا بالافراج واطلقت سراحنا

— يا زهرة فلسطين الغريبة الجمال هذه اللآلئ شرقية الاصل ولكنها لا تعدُّ شيئاً بجانب لآلىء فمك المنظومة · وهذا ماس شديد اللمعان الا انه لا يذكر امام لمعان عينيك واني رجل قد عاهد نفسه منذ تعاطيه هذه المهنة ان يفضّل الجمال على المال

— لا تتمسك باذيال الخطإ يا سيدي بل خذ المال وهو يمكنك من الملذات التي ترجوها واما الاساءة الينا فلا تعود عليك باكثر من تبكيت الضمير وانا لا اشك في ان ابي يدفع ما يطلب منه دفعه من المال ليفتدي نفسه ويفتديني · فاذا اخذت المال تمكنت من ابتياع الشريعة فتصفح عن ذنوبك القديمة وتستغني عن امتهان هذه المهنة في المستقبل

« احسنت والله ! » قال مخاطبها بالافرنسية كانه عجز عن ايضاح افكاره بالسكسونية التي بدأت رفقه كلامها ببهاء اخلصت النصح ولكن اعلمي ان والدك بين يدي كيماوي ماهر يحوّل قضبان الموقد الحديدية الى ذهب وفضة وانه وضع والدك في بوتقة تحوّل جسمه الى ذهب وذلك بدون مساعدتي او رأيك . واما انت يا زنبقة الوادي الناضرة ففديتك حب وجمال تبذلينهما لي ولن اقبل بغيرهما »

— لست لصاً لانني لم اسمع بلصّ رفض مالاً فيما مضى فضلاً عن تكلمك بلغة لا يعرفها قطاع طرق هذه البلاد . انت نورمندي ولعلك نبيل المولد فهلاّ كنت شريف الاعمال ايضاً ونزعت عن وجهك برقع العسف والقسوة ؟

— وانت يا من بلغ بها التخمين هذا الحد لست سوى صاحبة عين دور ما خلا جمالك وصباك . صدقت فانا لست لصاً يا وردة شارون بل انا رجل يزين زنديك وعنقك بما هو اثمن من هذه وبما يكون زنداك وعنقك له اهلاً بدلاً من ان يقبل هذه من يدك

— فماذا تطلب مني اذن اذا لم يكن المال ؟ انا يهودية وانت مسيحي وانضمام الواحد منا الى الآخر امر لا ترخص به الكنيسة ولا يرضاه الهيكل .

— صدقت ! الاقتران بيهودية ! اعوذ بالله ! محال ولو كنت ملكة سبا فضلاً عن انه لو قدّم لي اشرف ملوك المسيحية ابنته وحملها ذهباً وجواهر لما اقدمت على الاقتران بها لانني قد اقسمت الاّ اتخذ لنفسي زوجة فانا هيكلي ألا ترين صليب رتبتي المقدسة على منكبي ؟ .

— نعم اراه ولكن هل تجسر على الاشارة الى هذا الصليب وانت فيما انت فيه من الاعمال ؟

— هذا ليس من شأنك ما دمت لست تعتقدين بقداسة هذا الرمز

— اعتقد بما اعتقد ويعتقد به ا بائي وليغفر لي ولهم الرب ان كنا مخطئين فماذا تعتقد انت ؟ يا من اراك تشير بكل استخفاف وعدم اعتبار واهتمام الى اقدس الرموز لديك وانت مزمع على نقض اقدس العهود التي اتخذتها على نفسك كفارس وكاهن

— احسنتِ الوعظ ولكنكِ يهودية لضعف بصيرتكِ لا تنظرين الى المسألة من وجهها لآخر · الزواج يعدُّ خطيئة واما ما ارتكبه من الخطايا الاخرى الصغيرة ابرأ منه في اول جلسة تعقدها طغمتنا · يجب ان لا نؤاخذ نحن الهيكليين المساكين الذين اتخذنا على انفسنا حماية هيكل سليمان اذا حذونا حذو سليمان نفسه

— اذا درست التوراة واستوعبت سير القديسين لتبرّر بدرسها اعمالك كنتَ كن يستقطر سماً من الاعشاب النافعة واللازمة للصحة

فقدحت عينا الهيكلي شرراً لهذا التوبيخ وصاح : « يا رفقه ! قد بالغت لكِ باللطف والرقة في كلامي السابق ظناً بانكِ تذعنين للطف والرقة واما الان فساستعمل القسوة ولغة المتغلب والسيد ما انتِ الاّ اسيرة قوسي ورمحي وبالتالي رهينة اشارتي حسب منطوق شرائع البشر جمعاء فعليه لست بتساهل باقل حقوقي وسانال منك بالرغم ما لم انله بالرضى »

— ابتعد عني واسمع ما ساقوله لك قبلما تلقي نفسك في خطيئة مميتة · قد تقوى على ضعفي لان الله قد خلق المرأة ضعيفة ووكل الى الرجل حمايتها بقوّته وشهامته فاذا الحقت بي اذية نشرت خبرك في اقطار اوربا وانال بواسطة وساوسهم الخرافية ما لا اناله اذا استنهضت تدينهم · سأذكر للملا انك نجست نفسك وطغمتك معاً بخطيئة ارتكبتها مع يهودية فتنبذ من بينهم نبذ النواة لما الحقت بهم من العار

— فقال الهيكلي وقد عرف صدق كلامها · « ما اعظم دهاءكِ ولكن من ذا يسمع صوتكِ من وراء هذه الجدران التي لا تخرقها قوات الرعد ؟ ليس لديكِ ما ينجيكِ

من يدي سوى امر واحد وهو تسليمكِ امركِ اليَّ والتدين بديني وهبة جمالكِ لاشد الهيكليين بطشاً واطولهم قناةً »

— اتديّن بدينك ! سمعاً ايتها السماء . اوَ تطلب مني ان اتديّن بدين يضم سافلاً مثلك ؟ انت اشد الهيكليين بطشاً ايها الفارس العديم الشرف . ايها الكاهن المخلف عهوده مع الله . اني لابصق في وجهك واحتقرك احتقاري للئيم ونذل فاله ابرهيم سوف يوجد طريقة لانقاذ ابنته من مخالب العار

واذ قالت هذا فتحت النافذة بغتةً قبل ان تمكَّن الهيكلي الذي لم يكن ينتظر هذه الحركة منها من ايقافها وخرجت الى المرمى ووقفت على حافته وامامها الفضاء فهمَّ الهيكلي باللحاق بها وارجاعها الى الغرفة فصاحت :

« مكانك فاذا قدَّمت قدماً اخرى طرحت بنفسي الى اسفل وخير لديَّ ان افقد حياتي ويتحطم جسدي قبلما تاله قسوتك »

وضمت كفيها ورفعت ذراعيها الى السماء كانها تستنزل الرحمة على نفسها قبل ان تلقي بها من ذلك العلو الشاهق الى موت اكيد فرجع الهيكلي الى الوراء وسقط في يده لدى هذا العزم وصاح :

« ارجعي ايتها الفيــة الجاهلة وانا اقسم لكِ بالسماء والارض والبحر لا الحقت بكِ اذية »

— لا اثق بك فقد علَّمتني امثولة فيما سبق واول جلسة تعقدها طغمتك تحلك من اثم قسم حنثت به كان الغرض منه نزع شرف فتاة يهودية سيئة البخت

— اسأت بي الظن ايتها الفتاة . اقسم لكِ بالاسم الذي اتخذته لنفسي و بهذا الصليب المرسوم على صدري و بهذا السيف المعلق على جنبي — نعم اقسم لكِ بشرف ابائي لا الحقت بكِ اذية فارجعي ان لم يكن اشفاقاً على نفسكِ فاشفاقاً على والدك



المسكين فانني سوف أكون صديقه وهو كما يعلم الله في حاجة الى صديق قادر في هذا المكان

— وا اسفاه! اعلم ذلك حق العلم فهل يمكنني الاتكال عليك ؟

— لكن اسمي مضغة في افواه السوقة وشرفي مهانًا ان الحقت بك ما تكرهينه . لقد خالفت وصايا جمة فيما مضى ولكنني لم انقض كلمة من كلامي بعد

— « فعليه سوف اثق بكلامك ولكن الى هذا الحد » ثم انحدرت الى النافذة وقالت : « ساقف في هذا المكان فاذا اقتربت مني خطوة واحدة طرحت بنفسي الى الهلاك فتعلم اذ ذاك ان اليهودية تفضّل تسليم نفسها الى رحمة الهواء والصخور على تسليم شرفها الى هيكلي »

وكانت رفقه تنطق بهذه العبارات بصوت ثابت وقد ازداد احمرار وجنتيها ولمعان عينيها وبدا جمالها مضاعفًا فظهرت للهيكلي كأنها الاهة مجرّدة عن المادة فقال « ليكن بيننا سلام يا رفقه »

— سلام ان شئت ولكن على هذه المسافة

— وماذا يخيفك مني ؟

— لست اخافك وذلك بفضل الذي رفع هذا البرج الى هذا العلو بحيث لا يسقط منه بشر ويبقى فيه نسمة حياة . لست اخافك بفضله وفضل خالقي

— قسمًا بالسماء يا رفقه انكِ تسيئين اليَّ بهذه الاقوال . انا لست حقيقة على ما يظهر لكِ مني قاسيًا صلبًا ولكن النساء قد علّمنني القساوة . اعلمي انه لم يعتقل فارس رمحًا وفي قلبه ميل اعظم شرفًا من ميلي الى معشوقتي . كانت ابنة شريف فقير لا ذكر له بين الناس فباعمالي وبفروسيتي انتشر اسمه وذاع اسم ابنته في كل مكان استلّ فيه سيف وسدّد فيه رمح

واخذ الهيكلي يتخطر في ارض القاعة محمولاً بتيَّار الذكرى. « اجَلْ ذاع صيتها بين عرش فرنسا وعرش القسطنطينية ثم رجعت الى وطني. فماذا وجدت؟ وجدتها قد اقترنت باحد العوام ونسيت ودّي وخانت عهدي. فانتقمت نفسي ولكن النقمة وقعت على رأسي وعادت عليَّ بالويل. تركت العالم وانقطع املي من كل معيشة يتية هنيئة — من حنان امرأة ومحبة اولاد. من تخليد اسم بواجلبرت القديم فيما ابقيه لنفسي من النسل — اضمحلت جميع هذه الاميال وطرحتُ نفسي على اقدام رئيس الهيكليين و بعته نفسي وجسدي. ثم نهضت ولا حق لي باقتناء شيء واصبحت آلة في يده وليس للهيكلي من الحرية سوى الاسم لانه يحيا ويتنفس ويتحرَّك بحسب اشارة سواه

— وا اسفاه فماذا كنت تطلبه في مقابل كل هذه؟

— الانتقام والشهرة

— بئس البدل في مقابل اشرف حقوق الانسان

— اخطأتِ ايتها الفتاة فالانتقام وليمة الالهة ولم يخصوا انفسهم بها الا لاعتقادهم ان البشر لا يستحقون التلذذ بنيلها. واما الشهرة فهي تجربة ربما تناولت سلام وسعادة السماء وهدمتها

وصمت هنيهة ثم استأنف قائلاً: « رفقه! يا من تفضلين الموت على العار و بذلك تظهرين ماهية نفسكِ يجب ان تكوني لي. لا تجفلي فسوف يكون ذلك برضاكِ التام وبمقتضى الشروط التي تشترطينها. يجب ان تقاسميني آمالاً اعظم من امال ملك متوّج. لا تجيبي قبلما تسمعين كلامي الى آخره. قلتُ ان الرجل اذا انخرط في سلك الهيكليين يفقد ذاتيته ولكنه يصبح عضواً من تلك الهيئة التي ترتجف لذكر اسمها الملوك في عروشها فهو كنقطة الماء تسقط في البحر فتضيع فيه ولكنها تصبح جزءًا من الاوقيانوس العظيم الذي يفتت الصخر ويحلّل التراب. وانا لستُ بالعضو الضائع في

تلك الهيئة ولكنني من المقدمين فيها ولي امل باستلام عصا الرئاسة يوماً ما . ولا اقول انا اقوى من الملوك فهذا كلام يقوله احقر الرهبان و يكون صادقاً بل اقول اننا نقوى على الصعود الى عروشهم وخلعهم عنها . فكرئيس وكدير لتلك القوة الهائلة انيلكِ قوة لن يخوّلكِ اياها مسيحكِ المنتظر وكرجل اريكِ انني قد بحثت عن روح فيها ما في روحي من الخصائص فوجدتها في شخصكِ »

— « اتقول هذا لفتاة يهودية وهل تظن . . . »

فقطع الهيكلي كلامها وقال : « لا تجيبي على كلامي الان ولا تذكري الفرق بين مذهبينا لانها فروق لا نتنازل لذكرها في مجامعنا ولا تظني اننا نعلّق كبير اهمية او نتمسك شديد التمسك بقوانين مؤسسي طغمتنا الذين نبذوا العالم ظهرياً وامتنعوا من كل لذة وسرور ووضعوا نصب عيونهم استرجاع صحراء لا خير فيها ولا فائدة منها لغير المتمسكين بالخرافات والوساوس وماتوا في سبيل استرجاعها . نحن قد استبدلنا هذا الفرض باملاك عديدة في جميع انحاء اوربا و بادخال زهرة الفرسان في سلكنا فاصبحت قوّتنا عجيبة ومقاصدنا على غير ما قصده المؤسسون وعلى غير ما يعتقده السذّج الذين لغرضٍ ما نكسوهم هذا الثوب ونستخدمهم كالادوات . ولكنني ساقف عند هذا الحد من كشف الستار عن مقاصدنا واغراضنا لان صوت ذلك البوق يدعوني وربما كانت تلبيتي ضرورية . فاستودعكِ الله الان ولا اطلب عذراً عن القسوة التي ابديتها لانها كانت ضرورية لاظهار صفاتكِ فالحكّ تظهر حقيقة المعدن . ساتركِكِ الان لتفكري في ما ذكرته وساعود لابحث معكِ في الموضوع »

قال هذا وخرج من الغرفة تاركاً رفقه واقفة على حافة النافذة

و بعد خروجه نزلت من موقفها ورفعت شكرها لاله يعقوب الذي نجاها وطلبت حمايته لها ولابيها وتوقفت ثم طلبت الحماية لاجل آخر وهو الجريح المسيحي الذي رماه

القدر في ايدي اعدائه . وكأنها ندمت على طلبها هذا لرجل لا تجمعها واياه جامعة دين او جنس وهو عدوٌّ لشعبها فتوقفت ايضاً ولكنها كانت قد فاهت بصلاتها ولم يعد في العالم قوّة تمكّن رفقه من استرجاع تلك الصلاة

﴿ ٢٥ ﴾

بلغ الهيكلي قاعة المعقل العمومية فوجد دي براسي قد سبقه اليها فقال هذا : « ارى ان هذا البوق قد ازعجك كما ازعجني وابعدك عما كنت فيه من مطارحة الغرام والمغازلة لانه ان صدقت ظواهر وجهك كان انسلاخك عن معشوقتك شديد الوقع عليك وقد نلتَ منها فيما اظن اكثر مما نلته من معشوقتي »

— ألم ترضَ السكسونية عن مقدماتك ؟

— اقسم بعظام مار توما ان روانا لا بد ان تكون قد سمعت انني لا اقوى على مقاومة دموع الحسان

— اليك عني ايها الرجل ! وهل بعد هذا تدعو نفسك قائد المتطوعة وفارساً شديد المراس وقد دحرتك فتاة بدموعها ؟ ألا تعلم ان هذه الدموع لا تزيد ولا تنقص نقطاً معدودة اذا اصابت مشعال الحب زادته اضطراماً ؟

— تقول نقطاً معدودة . اما والله لو رأيت الدمع ينهمر من عينيها الزرقاوين السماويتين لحكمت بقدرتها على اخماد نار سقر . لم ارَ في حياتي لطم خدّين براحتين كلطمها ولا رأيت ظواهر خوف وألم نفساني كالتي ظهرت على وجهها ولم ارَ سيلاً جرى من عين قبل عينيها فكانما احد العفاريت حل في جسدها

— وكانما جيش من العفاريت بكامله حلَّ في صدر اليهودية لانني لا اعتقد ان عفريتاً واحداً يقوى على اظهار الكبرياء والاقدام والثبات التي اظهرتها . ولكن ما لنا ولهذا الان هل تعرف مقرّ فرنت — دي — بوف ؟

— مع اليهودي فيما اظن يفاوضه في مسألة الفدية ولا عجب اذا اسكتت زفرات اليهودي وصياحه صوت البوق

وبينما هما في الحديث اذا بفرنت دي بوف داخل عليهما وكان قد تأخر في طريقه الى القاعة ليصدر بعض الاوامر لاتباعه

دخل هذا القاعة وبيده رقعة ينظر فيها وقال : « لننظر في سبب هذه الجلبة . وصلت اليَّ هذه الرقعة ويخال لي انها مكتوبة بالسكسونية »

واخذ يقلّب الرقعة ويديرها في كفّيه كانه بعمله هذا يرجو فهم معناها . ولما عجز عن ذلك ناولها لدي براسي . فهزَّ هذا رأسه قائلاً : « قد تحوي سحراً او غيره فانا لست لها . لقد اجهد كاهن اسرتنا نفسه في تعليمي القراءة والكتابة فكانت تأتي حروفي كرؤوس الحراب وكنصال السيوف فسئل الكاهن يده وتركني »

فصاح الهيكلي « هاتها » نحن لدينا من معارف الكهنة ما يزيد بسالتنا ظهوراً

فقال دي براسي « لنستفد من معرفة الفائق الاحترام ما في الرقعة »

— مفاوضة حربية رسمية ولكنها ان لم تكن هزلاً مضحكاً فلا ادري ماذا تكون

فصاح فرنت — دي — بوف هازلاً ! ومن يجسر على مخاطبتي بطريقة كهذه ؟ اسمعنا ما فيها يا سر براين

فقرأ الهيكلي :

« انا ومبا ابن الغبي مهرّج رجل شريف حرّ يدعى سادرك اف روذرود الملقب بالسكسوني وانا كارث راعي خنازير ..... »

فقاطعه فرنت دي بوف قائلاً : هل جننت يا سر براين ؟

— كلا . لم يصبني شيء من ذلك بل انا اقرأ ما هو مخطوط على هذه الرقعة . ثم استأنف الهيكلي فقرأ :

« وانا كارث راعي خناز ير سادرك المذكور نحن وحليفانا وهما الفارس الباسل المعروف موقتاً بالفارس الاسود والرامي الشجاع المعروف بروبرت لوكسلي نعلن لك يا فرنت دي بوف ولحلفائك انكم بناء على مهاجمتكم لغير سبب ولغير عداوة سابقة والقائكم القبض واسركم اولاً سيدنا سادرك وثانياً السيدة روانا وثالثاً اثلستاين وكلهم شريف وحرّ ورابعاً عدداً من اتباعهم الاحرار والعبيد وخامساً يهودياً كان برفقتهم يدعى اسحق اليوركي وابنته رفقه وسادساً عدداً من الخيول والبغال في ملكهم الشخصي — بناء على ما ذكر وعلى كون المذكورين اعلاه كانوا سائرين بسلام على طريق الملك العمومية ولم يكونوا على عداوة او خصام مع احد ولم يشقوا عصا الطاعة على جلالة الملك نطلب اليك ان ترد علينا الشريف سادرك المذكور والسيدة روانا واثلستاين الشريف واتباعهم وخيولهم وبغالهم وترد ايضاً اليهودي المذكور واليهودية وكلما يتعلق بهما قبلما يمرّ على تسليم هذه الرقعة الى يدك ساعة واحدة . فاذا أبيت ولم تفعل ليكن معلوماً لديك اننا نعدّكم جميعاً لصوصاً قاطعي طرق ونعاملكم ان نزالاً او حصاراً معاملة اللصوص ونجهد انفسنا في اخضاعكم ورد كيدكم في نحركم . وقد وقّعنا هذه الرقعة بايدينا مساء يوم القديس وذولد تحت سنديانة مسلك التل الكبيرة المشهورة وكتب هذا رجل الله وخادمه وخادم السيدة العذراء والقديس دنستان ناسك صومعة كوبمهرست »

وكان في اسفل الرقعة مرسوماً راس ديك وتحته اشارة الى ان هذا توقيع ومبا وتحته رسم صليب اشارة الى ان هذا توقيع كارث وتحت هذا باحرف عريضة « الفارس الاسود » وتحته رسم سهم واشارة الى ان هذا توقيع لوكسلي

واصغى الفرسان الى قراءة الرسالة برمتها ولما انتهت سكتوا كانه قد غاب عنهم فهم معناها . وكان دي براسي اوّل من قطع ذلك السكوت اذ ضحك متهقهاً وتبعه

على الاثر الهيكلي واما فرنت — دي — بوف فقطب جبينه كانه لم يرضَ عن عملها ثم قال : « انصح لكما يا سيديَّ ان تهتما بامر هذه الرقعة وبالظروف التي نحن فيها بدلاً من الضحك حيث لا موجب له »

فتحوَّل دي براسي الى الهيكلي وقال : « منذ سقط صاحبنا عن جواده في الميدان فقد شجاعته واصبح شديد الاهتمام باقل الامور وشاهدي هذه الرقعة وما فيها من كلام مهذار وراعي خنازير »

— حبذا يا دي براسي لو اتخذت كل المسؤولية على عاتقك . اعلم ان هذين الغبيين لا يقدمان على ارسال رقعة كهذه وفيها ما فيها ما لم يكن معهما قوة يستندان عليها واعلم ايضاً ان في هذه الغابة من اللصوص ما عجزتُ معه عن حماية الغزلان والوعول من سهامهم . القيت القبض مرة على واحد منهم ويده لا تزال حمراء من دم الوعل الذي قتله وشددته الى قرون وعل واطلقته فنطحه الى ان مات بعد خمس دقائق ولكنني لم اكد انتهي من عملي حتى تساقط عليَّ من السهام ما ينيف عما أُطلق في ميدان اشبي »

ثم اشار الى الرجل الذي اتى بالرقعة فاقترب فسأله قائلاً : « هل ارسلت من يستطلع خبر هولاء القوم ويعلم قوّتهم ؟ »

— في الغابة المحيطة بالمعقل نحو مايتين من الرماة

— فقال فرنت دي بوف مخاطباً رفيقيه كيف تريان ؟ هذا جزاء السماح لكما باستعمال هذا المعقل لاتمام رغائبكما اذ لم تقوما بعملكما خفية بل جلبتما وراءكما خلية من النحل تحيط باذنيَّ

— فقال دي براسي نحل « اجلْ ولكنها لا ابر لها . او باش يلجأُون الى الغابات ليصيدوا الغزلان مخالفين الشرائع المسنونة بدلاً من الاهتمام بعمل معروف يتعاطونه »

فقال فرنت – دي – بوف « لا ابر لها ! اما والله لو رأيت سهاماً بطول الذراع مزدوجة الرؤوس تصيب غرضاً لا يزيد عن الدينار في استدارته لما قلت هذا القول »

فصاح الهيكلي « يا للعار يا سيدي الفارس · لم يدر في خلدي انه سيصدر عنك كلام كهذا لندعُ رجالنا ونخرج اليهم لان فارساً مساحاً ومدرَّعاً يجب ان يتكفل بامر عشرين من هولاء اللصوص »

وصاح دي براسي كنى « انني لاخجل ان اعتقل رمحاً لنزال القوم »

— لو كان خصومنا اتراكاً لصحَّ زعمك يا سيدي الهيكلي ولو كانوا من فلاحي فرنسا لصح قولك يا دي براسي ولكنهم رماة انكلترا ولا ميزة لنا عليهم سوى دروعنا وخيولنا ولكن هذه سوف تكون عادمة الفائدة في مسالك الغاب وليس من الصواب ان نخرج اليهم لان خيرة رجالنا في يورك والذين لدينا الان لا يكادون يقومون بحماية المعقل

— هل تخشى مهاجمتهم المعقل وهل تعتقد ان عددهم كافٍ لذلك

— لهولاء اللصوص قائد باسل مجرَّب ولكنني لا اخاف شرَّهم اذا لم يكن لديهم معدَّات حصار وسلالم وما اشبه وفوق كل ذلك قائد خبير

— فقال الهيكلي اطلب اذاً مساعدة جيرانك

— كلهم في يورك حيث كان من الواجب انا كون لولا عملكم هذا الشيطاني

— فاجاب دي براسي ارسل الى يورك اذاً وادعو رجالي فاذا اتوا ووقف هولاء اللصوص في وجوههم شهدت بانهم اعظم لصوص الارض شجاعة

— فقال فرنت دي بوف ولكن من لنا بمن يذهب الى يورك وهولاء قد اعترضوا كل مسلك وكل طريق · وسكت هنيهة ثم صاح : عندي ! انت تحسن الكتابة يا سيدي الهيكلي فاذا توفقنا الى ايجاد ادوات كتابة كاهن المعقل المتوفى منذ اثني عشر

شهراً . . . » · فقطع الخادم كلام سيده قائلاً · الادوات موجودة يا سيدي لدى العجوز اورفرد حيث لا ادري وذلك لانها كانت تحب الكاهن لانه كان الوحيد في هذا المعقل الذي كان يخاطبها كما يجب ان تخاطب المرأة

احضر تلك الادوات · ومتى حضرت نكتب يا سيدي الميكلي جواباً على هذه الرسالة

— كنت افضل الاجابة عليها بضربات هذا السيف ولكن ليكن ما تريد

واحضر الخادم الادوات فجلس الميكلي وكتب الرسالة التالية بالافرنسية :

« السر فرنت — دي — بوف وحلفاؤه الاشراف لا يتنازلون للاهتمام بمفاوضة عبيد ولصوص · اما الذي تدعونه الفارس الاسود فاذا سلمنا بشرفه اصلاً فهو الان ساقط الشرف لا نصيب له ولا مكان بين عداد الفرسان الاشراف لاختلاطه بقوم دأبهم نهب السابلة وحرفتهم اللصوصية · اما بشأن الاسرى فنطلب اليكم نظراً لاهتمامكم بامرهم ان ترسلوا كاهنكم للاهتمام بامر دينهم ويهيئهم لمقابلة الله تعالى لاننا قد عزمنا على قطع رؤوسهم وتعليقها على ابراج المعقل لنري الذين يهتمون بامر خلاصهم نصيب عملهم ورسالتهم في اعيننا · فارسلوا كاهنكم لان بارساله تخدمونهم الخدمة الاخيرة »

وتناول الخادم الرسالة وقصد المدخل وسلمها الى الرسول فاخذها هذا الى مرسليه تحت السنديانة المذكورة في رسالتهم والتي كانت على بعد ثلاث رميات سهم من المعقل كان ومبا وكارت والفارس الاسود ولوكسلي والناسك ينتظرون رسولهم بفارغ صبر وكان يحيط بهم عدد غفير من الرماة وجماعة من عامة السكسون اجتمعوا من القرى والبلدان المجاورة وجميع خدم سادرك الموجودين في قصره واملاكه وبنظرة الى هولاء وسلاحهم وبنية اجسادهم تعرف حقيقة الجيش المجتمع لخلاص الاسرى

فوصل الرسول وسلم الرسالة الى الرؤساء المذكورين سابقاً وهولاء ناولوها

للناسك ليقرأها. فاخذها ونظر فيها طويلاً ثم قال : قسماً بعصا القديس دنستان التي ساقت الى الحظيرة من الرعية اكثر من كل عصا في الفردوس انني لا اعرف لهذه الكتابة اصلاً ولا معنى ولا ادري أفرنسية هي ام عربية

وناول الرقعة لكارث فهزّ هذا راسه باسف وناولها لومبا . فتناولها هذا ونظر في زواياها الاربع وعلى وجهه امارات اشبه بامارات القردة ثم ناولها للوكسلي فقال . لو كانت الاحرف الطويلة سهاماً والقصيرة خناجر لكنت لها اما والحالة كما ترون فهي غريبة عن فهمي وبعيدة عن ادراكي بعد غزال على مسافة عشرة اميال عن سهمي

« اذاً انا كاتبكم » قال الفارس الاسود وتناول الرقعة وقرأ ما فيها ثم اوضحه لهم بالسكسونية

فصاح ومبا : ايقتلون الشريف سادرك ؟ اقسم بالله انك اخطأت في القراءة يا سيدي الفارس

— لم اخطئ ايها الرفيق وقد تلوت على مسامعكم ما هو مكتوب امامي

فصاح كارث اذاً لا نرجع عن هذا المعقل ولو اضطررنا الى نقض حجارته حجراً حجراً بايدينا

فقال لوكسلي : غرضهم من الكتابة اكتساب وقت لا اكثر ولا اقل وهم لا يجسرون على القيام بما تهددونا به وهم يعلمون انني وراءهم اطالب واجازي جزاءً هائلاً

— حبذا لو تمكنا من ارسال كاهن الى المعقل ليستطلع طلع الاسرى . وما ضرّ لو دخل حضرة الناسك ليقوم بالفروض التي تفرضها عليه رتبته

— لا حبذا انت ولا حبذا اشارتك . ألم اقل لك يا سيدي الفارس الكسلان انني عندما اخلع جبة الكهنوت اخلع معها كل كهنوت وقداسة وفرض وأيسر عليّ قتل عشرات الوعول وسلخها من ان اقوم باستماع اعتراف رجل واحد

فقال الفارس : لا يوجد بيننا فيما اظن من هو اهلٌ للقيام بهذا الامر

فنظر كلٌّ من الموجودين الى جاره وساد السكوت

وبعد سكوت طويل قال ومبا : ارى ان الاحمق يجب ان يبقى احمق ويضع رجله في الشرك الذي يتجنبه العقلاء الحكماء . اعلموا اذن يا ابناء عمي ومواطنيَّ انني قبلما لبست هذا القاووق كنت قد حملت السبحة واخذت في الاستعداد للانتظام في سلك الكهنة فاصابتني حمى دماغية ثم تركتني مخلفة في راسي من العقل ما يكفي لان يجعلني احمق كما ترون الان واخال انني اذا لبست جبة الاب المحترم اقدر بما اذكره وبما علق في ثناياها من القداسة على الدخول الى سيدي ورفاقه وعلى تعزيتهم في مصيبتهم

فسأل الفارس كارت أَو في رأسه من التعقل ما يمكنه من عمل كهذا ؟

— لا ادري ولكنه ان قصَّرفتلك اوَّل مرة يعجز فيها عن استخدام حمقه بما يفيد

— فصاح الفارس « البس الجبة اذًا وقل لسيدك يطلعنا على ما يعرفه من امر القوم داخل المعقل انا اعتقد انهم قليلو العدد ولا شك عندي بسقوط المعقل اذا هاجمناه هجوماً صادقًا »

فقال لوكسلي وفي غضون هذا الوقت نسد جميع الطرق ونحيط بالمعقل احاطة السوار بالمعصم بحيث لا تخرج منه ذبابة الاَّ نراها . ان ارسالهم من يطلب لهم النجدة لا يعود عليهم بادنى الفوائد واعلمهم ان المعقل ساقط لا محالة ويجب ان يؤدوا حسابًا هائلاً عما يأتونه وقتما تقع العين على العين

فقال ومبا « ليتمجد اسم الرب » وكان قد تجلبب بالجبة تاركًا القوم متوجهًا نحو المعقل يقلد في مشيه وحركاته هيبة خدم الرب

—*****—

٢٦

ووقف ومبا بجبته وقلنسوته والحبل المعقد حول جسمه امام مدخل المعقل فسأله الحارس عن غرضه فقال : « ليكن اسم الرب ممجداً الى الابد ! انا راهب ضعيف مسكين من رهبانية القديس فرنسيس اتيت الى هذا المعقل لاقوم باحدى وظائفي الدينية واعدُّ عدداً من الاسرى فيه لملاقاة الموت »

— انك لشجاع ايها الاب في اقدامك على دخول معقل كهذا لم يدخله كاهن منذ عشرين عاماً الاّ معلم اعترافنا السكير

— اطلع سيدك على خبري وهو اذا علم بوجودي اذن لي في الدخول

فذهب الحارس الى سيده في قاعة المداولة واطلعه على امر الراهب فامر بدخوله ولم يمضِ سوى القليل حتى مثل ومبا امام فرنت — دي — بوف وهو يرتجف خوفاً ولكن اهتزازه لم يولّد الظنون في قلب فرنت — دي — بوف لتعوّده رؤية الرجال من جميع الطبقات ترتجف خوفاً امامه . فسأله : من انت وما هي وجهتك ايها الكاهن

— ليتمجد اسم الرب ! انا احقر خدم القديس فرنسيس كنت مسافراً على الاقدام في هذه الغابة فوقعت في ايدي اللصوص وكما قال الكتاب « اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي القوا قرعة » وهولاء ارسلوني الى هذا المكان لاتمم فروض الكنيسة نحو اناس رأيتم من العدل ان يموتوا

— احسنت ايها الكاهن فهل تعرف عدد هولاء اللصوص ؟

— « خرجوا بجيش عظيم . قال الكتاب »

— افصح ايها الكاهن والاّ كانت جبتك بئس الدرع لحمايتك من عصاي

— ويلاه ايها الفارس الباسل . رأيتهم فاستولى عليَّ الرعب . فهم بين رماة وعامة لا يقلون عن الخمسماية

فصاح الهيكلي : تدبَّر ما تقوله ! خمساية ؟ ثم تحوَّل بفرنت — دي — بوف الى ناحية وقال : هل تعرف هذا الكاهن ؟

— كلاَّ فهو غريب الديار

— لا تأْتمن قلبه اذاً على رسالتك بل ارسل معه برسالة الى رجال دي براسي ليسرعوا الى نجدتنا ولكي لا تنتابه الظنون دعه يشاهد خنازير السكسون و يعدّهم للذبح

— ليكن ما تريد ثم نادى خادماً وامره بان يقود الكاهن الى سجن السكسونيين

وكان سادرك يزداد صبراً بمرور الساعات غير انه كان يتخطر ذهاباً وايابا في ارض القاعة بطريقة يخال للرائي منها انه يهاجم عدوًّا في ثغرة بسور حصن وكان يشير بيديه مرة بعد اخرى ويخاطب اثلستاين بما يجول بخاطره . وبينا هو على هذه الحال فتح باب القاعة ودخل وبا عليها وهو يقول :

« المجد لله في الاعالي ! لتحلَّ عليكما بركة جميع القديسين يا ولديَّ »

— فقال سادرك ادخل بسلام ماذا ترجو من هذه الزيارة ؟

— مساعدتكما على ملاقاة الموت

— فصاح سادرك يستحيل عليهم ذلك لانهم مهما كانوا قساة القلوب فهم لا يجرؤُون على الاقدام على عمل كهذا

— وا اسفاه ان كبح جماح جواد بخيط من الحرير لأَسهل من رد قوم كهولاء عن اتمام رغائبهم . فاذكر اذاً ايها الشريف سادرك وانت يا اثلستاين خطاياكما التي ارتكبتماها بالجسد لانكما في هذا النهار ستقفان امام محكمة ارفع من كل محاكم الارض

— هل سمعت كلامه يا اثلستاين ؟ اذاً فلنمت موت الرجال

— ليكن ما تريد يا سيدي سادرك فسأسير الى حتفي بقدم ثابتة وقلب غير هيَّاب

— قم بواجباتك ايها الاب

— فرفع ومبا صوته قائلاً مهلاً ياحضرة العم الأولى ان تنظر امامك قبل الوثوب في الظلام

— يخال لي انني اعرف هذا الصوت

— هو صوت عبدك الامين . قال ومبا هذا وخلع الجبة ثم استأنف قائلاً : لو قبلت نصح الاحمق لما دخلت هذا المكان فاقبل نصيحتي الان واخرج منه

— ماذا تعني ايها العبد ؟

— هذا ما اعنيه : البس جبتي وتنطق بحبلي واخرج من المعقل بهيأَتي واترك لي رداءك لاقوم مقامك

— فدهش سادرك من كلام ومبا وقال : اخلفك في هذا المكان ! اذا بقيت هنا يا عبدي المسكين شنقت لا محالة

— وماذا يهمني ان شنقتُ اللهمَّ الا اذا كان في شنقي اهانة لشرفك

— اقبل نصيحتك يا ومبا تحت شرط واحد وهو ان تعطي جبتك للسيد اثلستاين فينجو

— كلاَّ واقسم بالقديس دنستان ان ذلك من الظلم ليس من الغريب ان يموت عبد عن سيده ولكنه من الظلم ان اموت عن رجل لا اعرفه ولا عرفتُ اباني اباءه

— كانت اباء اثلستاين ايها النذل ملوكاً على انكلترا

— مهما يكونوا فذلك لا يضطرني الى تقديم عنقي فداء عن ابنهم . ياسيدي اما ان تأخذ جبتي وتنجو بنفسك واما ان تدعني ارجع بسلام من حيث دخلت

— الأولى بك يا ومبا الامين ان تقطع الشجرة اليابسة وتبقي على الشجرة الغضة الفتية لان عليها يتوقف جمال وجلال الغاب . نجِّ الشريف اثلستاين لان هذا واجب على كل من يجري في عروقه دم سكسوني . واقم معي ننتظر حتفنا وسترى اثلستاين لان

بجيش جيشاً قوياً لنجدتنا

فتقدم اثلستاين عند سماعه كلام سادرك منه وقبض على يده وقال : « اسأت الظن بي يا ابتي سادرك . انا افضّل البقاء في هذا المكان لا انال من الطعام سوى رغيف السجين ومن الشراب سوى كأس ماء على انتهاز فرصة دبّرها حنان عبد لنجاة سيده »

انا غبي احمق وانتما حكيمان ولكن الاحمق سوف يفصل الخطاب اعلما انني دخلت هذا المكان مستهزئاً بالخطر لاخلّص سيدي . انا كفرس يوحنا ديوك التي لم تكن تأذن لغير يوحنا ديوك في ركوبها . فان شاء سيدي نجا وان لم يشأ فانا لا اهوى الموت بدلاً من سواه

اذهب اذاً يا سيدي سادرك

فسأل سادرك « وهل من امل بالنجاة في الخارج ؟

— اتسأل عن الامل؟ اعلم انك اذا لبست جبتي وخرجت من المعقل اصبحت قائداً لانه يوجد في الخارج خمسماية رجل ينتظرون قدومي وقد كنت في هذا الصباح احد قوّادهم . فاخرج لترى بماذا يفضل العاقل الاحمق . اخرج وكن شفيقاً على كارث وكلبه واحفظ عرف الديك معلقاً في قاعة روذرود تذكاراً للشخص الذي فداك بنفسه كاحق امين

وخرجت الكلمات الاخيرة من فم ومبا بصفة هزل ممزوج بالجد . فاغرورقت عينا سادرك بالدموع وقال : سيحفظ ذكرك الى ان يزول اكرام الامانة والاعجاب بالشهامة من العالم ولكنني آمل ان ارجع واخلصكم جميعاً

ونزع سادرك رداءه ولبس الجبة وتمنطق بالحبل ولم ينته حتى تبادرت الشكوك الى ذهنه فقال : ولكنني لا اعرف غير السكسونية

« تعلم هذه الكلمات باللاتينية وهي ليتمجد اسم الرب » واعادها عليه « فانها لدى الكاهن كالقضيب المسحور للساحر فاذا رحت او جئت او اكلت او شربت فاذكرها وهي تنجيك »

الوداع اذاً ايها الشريف اثلستاين · الوداع يا ولدي المسكين الذي عوَّض كبر قلبه من صغر دماغه — ليتمجد اسم الرب — فسوف ارجع لانجيكما او اموت معكما لانه لن يهرق دم ملك سكسوني ولا تسقط شعرة من راس العبد الذي فدى سيده قبل انينحدر سادرك الى قبره قتيلاً في سبيل خلاصهما · · · الوداع !

« الوداع يا ابتي سادرك » ويجب ان لا تنسى ان من واجبات الكاهن ان يأكل اذا قُدّم له طعام

— الوداع ايها العم العزيز ويجب ان لا تنسى ليتمجد اسم الرب

وخرج سادرك من القاعة وسار في احد الاروقة واذا بامرأة قد اعترضت سبيله فقال : ليتمجد اسم الرب !

فقالت المرأة باللاتينية : المجد لله ايها الصالح وليرحمنا الرب حسب كثرة رحمته

فقال سادرك بالسكسونية « انا ضعيف السمع » فتعجبت المرأة لانها رأت كاهناً ضعيف السمع في اذنه اللاتينية وهو امر غريب في تلك الايام فقالت بالسكسونية : اطلب اليك ايها الاب الصالح اكراماً لتلك المحبة الالهيــة ان تزور فراش جريح على ابواب القبر وتلقي في اذنيه كلمات التعزية والخلاص فيكون لك عند الله اجر عظيم

اليك عني يا ابنتي فاقامتي هنا قصيرة المدة تمنعني عن القيام بواجباتي الكهنوتية لان على سرعتي وابطائي تتوقف حياة اشخاص عديدين

— اذكر ايها الجليل عهودك مع الله وساعد احد عبيده

فعيل صبر سادرك وصاح : ليذهب الشيطان بروحي الى مقرّ الابالسة و · · · ·



فقطع كلامه صوت العجوز الابح من آخر الرواق مخاطبة المرأة التي كانت تخاطب سادرك « اهذا جزاء الاحسان ايتها الحمقاء كيف تجرؤين على ترك سجنك واعتراض رجل الله حتى التجأ الى التجديف ليتخلص من يهودية كافرة »

فصاح سادرك يهودية ! وقد وجد باباً للخلاص · اليكِ عني ايتها النجسة فعهدي بالاسرار المقدسة قريب

فقالت العجوز اتبعني ايها الاب الجليل لاني اراك غريباً في هذا المكان وفي حاجة الى من يقودك وانتِ يا ابنة الشعب الملعون ارجعي الى غرفة الجريح والويل لك ان خرجتِ منها قبل عودتي

فتراجعت رفقه التي كانت قد اقنعت العجوز بالقيام مقامها بجانب الجريح · فقبلت العجوز بفرح واخبرت رفقه بحضور كاهن للمعقل فترقبت هذه مروره لتفاتحه بامر الاسرى وتطلب مساعدته فكان من امرها معه ما عرفه القارىء

٢٧

وبعد ما قفلت رفقه راجعة من حيث جاءت قادت العجوز سادرك على الرغم من ارادته الى غرفة صغيرة واوصدت الباب خلفه بكل اعتناء ثم فتحت خزانة واخرجت منها زجاجة خمر وقدحين ووضعتها على طاولة في وسط الغرفة وقالت : « انت سكسوني يا حضرة الاب — لا تنكر ذلك — صوت ابناء وطني لذيذ الوقع في اذنيَّ وعلى الاخص لانني قليلاً ما اسمعه في هذا المعقل الذي ان دخله احد من السكسون كان حقيراً اتيَ به لتنفذ فيه ارادة سيد المكان الظالم · انت سكسوني ايها الاب وحرٌّ ايضاً الاَّ اذا حسبت خدمة الله عبودية · · · آه ما احلى كلماتك في اذنيَّ »

— ألا يدخل الكهنة السكسونيون هذا المكان ؟

— كلاَّ ولكن ان قادت الصدفة احدهم فلكي يملأ جوفه و يطرب مع القاهرين.

الظالمين بدلاً من ان يختلط بقومه ويلقي في اذانهم كلمات الله ويشاطرهم احزانهم . هذا ما اسمعه عنهم واما عن نفسي فليس سوى القليل . لم يدخل هذا المعقل في غضون عشرين عاماً مضت غير كاهن المعقل النورماندي وهو كاهن اقرب الى العلمانيين منه الى الكهنة . فهذا كان يقاسم فرنت — دي — بوف افراحه ويشاطره اثامه ويسكر سكره . انت سكسوني ايها الاب المحترم ولديَّ سؤال اروم طرحه على مسامعك

— صدقتِ فانا سكسوني ولكنني لست اهلاً لان اكون كاهناً فاتركيني وشأني وانا اقسم لكِ انني متى خرجت من المعقل ارسلت كاهناً تكون فيه الاهلية لاستماع اعترافكِ

— مهلاً ايها الاب ! سيقطع الموت هذا الصوت الذي تسمعه وعما قليل تضم الارض هذا الجثمان الى صدرها فلا تتركني انزل الى قبري كالحيوان الذي اشبهته في المعيشة يجب ان اشرب شيئاً من الخمر لتتشدَّد عزائمي » وملأت كاساً وشربتها ثم قالت : « يضيّع الصواب ولا يأْتي بالفرح ! اشرب ايها الاب والاَّ خانتك قواك من سماع القصة التي سوف اسردها على مسامعك »

فشرب سادرك وكان بوده الاَّ يشرب ولكن اشارات العجوز دلته على فروغ صبرها . ولما شرب الكاس اشرق جبين العجوز نوعاً لانها عدَّت فعل الكاهن مجاملة فقالت : « لم اولد ايها الاب في الشقاء والتعس اللذين تراني بهما الان . كنت حرَّة مكرَّمة وسعيدة محُبة ومحبوبة واما الان فانا عبدة مهانة وشقية محتقرة آلة لاتمام شهوات سادتي الحيوانية ايام صباي وجمالي ومحط لعناتهم واهانتهم واحتقارهم عندما زال ذلك الجمال . فهل تعجب ايها الاب اذا قلت لك انني اكره البشر عموماً والشعب الذي انزلني الى هذه الدركة خصوصاً ؟ وهل تصدّق ان العجوز الشوهاء التي لا تجد لصرف مرارة نفسها غير اللعنات كانت مرة ابنة رب هذا المعقل الذي كانت

تنحني الكمة واحدة تخرج من فمه الوف الجباه

فصاح سادرك عند سماع كلامها : « هل انتِ ابنة تركول الشريف صديق ابي ورفيقه في الحروب ؟ »

— صديق والدك ؟ اذاً انت سادرك الملقب بالسكسوني لانه لم يكن لهرورد اف روذرود غير ولد واحد وهو سادرك المشهور بين ابناء وطنه · ولكن بربك ماهذه الجبة يا سادرك هل قطعت الامل من انقاذ بلادك فلجأت الى الكنيسة لتنجو من ظلم الاجانب ؟

— لا يهمكِ امري ايتها المرأة او مَن انا اسردي قصتكِ لانني ارى فيها ذنوباً فظيعة

— نعم هي بكاملها ذنب فظيع رائع يستوجب الهلاك — ذنب اشعر به كانه حجر يكاد يحطم ضلوعي · ذنب لا تقوى جميع انهار الآخرة على تطهيره · نعم بقائي في هذا المعقل الذي تلطخت جدرانه بدم والدي واخوتي الذكي والشريف ومعيشتي فيه خليلة للرجل الذي سفك ذلك الدم اقاسمه افراحه وملذاته كافٍ لان يدنس هذا الهواء الذي انتشقه

— تباً لكِ اذاً ايتها الشقية ! بينما كان اصدقاء والدكِ يصعدون من قلوبهم السكسونية المخلصة التنهدات ويستمطرون البركة والرضوان على والدكِ واخوتكِ ويذكرون فيها ابنة ذلك البيت الشريف وبينما كان الشعب عموماً يبكي القتلى ويندب حظهم وبسالتهم كنتِ لا تزالين حية تأتين ما يستوجب اللعنة ؟ كنتِ تمزجين انفاسكِ بانفاس قاتل اهلكِ الظالم السافك دماء الاطفال لئلا يبقى ذكر لذلك البيت العظيم · كنتِ تشاركينه في حبه السافل وترضين جمالكِ بين يديه وتشدّين جسمك اليه برباط الذل

— صدقتِ رباط الذل وليس الحب. الحب اقرب من مساكن الهالكين منه من هذا المكان. وهذا هو عزائي الوحيد فانني لم احب الرجل بل كنت اعمل على هلاكه وهلاك نسله حتى في اعظم ساعات حبه جبوراً

— كنتِ تبغضينه وهوذا اراكِ حية ترزقين. ألم تجدي حربة اوخنجراً او ازميلاً ؟ كان والله من بختكِ ان تكون اسرار معاقل النورمنديين اشبه باسرار القبور لا تعلم مطوياتها لانني لو حلمت بكِ يا ابنة انكِ تزالين حية مرتبطة بعلائق سافلة مع قاتل ابيكِ لنالكِ سيفي ولو كنتِ بين ذراعي عاشقكِ

— وهل كنت تفعل ذلك اكراماً لذكر والدي ومحافظةً على بقايا اسمه الشريف. انت والله اذاً ذلك السكسوني الحر الذي شاع ذكره في اقطار البلاد ودخل هذا المعقل الذي وصفته عدلاً بان دخائله كدخائل القبر. كنت عندما اسمع اسمك اتهلل وابني القصور اذ كنت آمل ان ارى فيك مخلص البلاد والمنتقم للمظلومين سواء في قبورهم او دورهم. اه يا سيدي سادرك وانا ايضاً قد استفرصت الفرص. كنت القي الشقاق بين القوم وهم يخمرون. كنت اشحذ سيف الواحد ليقطع عنق الآخر. رأيت دماءهم تسيل في هذه القاعات ورأيت امواتهم تدفن في هذه الاقباء. بالله يا سادرك انظر في وجهي ألا تجد هنالك ملامح تركولد ؟

فاجاب سادرك بنغمة الحزين المتأسف والمشمئز معاً : «لا تذكري لي تلك الملامح يا الريكا (وكان هذا اسم العجوز الحقيقي) نعم هنالك ملامح هي اشبه بما يتخذه الشيطان ليمثل شخص انسان قد سكن القبر

— لا بأس فيما تقول ولكن هذه الملامح كانت تكتنف روحاً نورانية عندما كانت تلقي الشقاق بين فرنت دي بوف الوالد وابنه. كان من حق ظلمة الهاوية ان تبقي الامور التي تبعت ذلك الشقاق مكتومة ولكن من واجبات الانتقام ان يكشف

المخبأ ويذيع على البشر ما تقوم الموتى من قبورها لسماعه ثم تصيح باعلى اصواتها لفظاعته اسمع يا سادرك ! تفاقم الشقاق بين الوالد الظالم والولد الشرس الاخلاق وكنت التي بالزيت على تلك النيران الحين بعد الحين الى ان جلس الاب وابنه مرة يعاقران الخمرة . وعندما اصبحت تنتقل من الكؤوس فتظهر في العيون قام الولد وقتل اباه . هذا هو السر المدفون في هذا المعقل . فتشققي ايتها القباب وتساقطي ايتها الابراج وادفني تحت خراباتك شاهد ذلك الاثم الوحيد . وهكذا انتقمت من قاتل ابي الظالم بيد ابنه

— وماذا كان نصيبك يا ابنة الشقاء والاثم بعد موت عاشقك ؟

— خمّن ولا تسأل . بقيت في هذا المكان الى ان طبع الدهر على وجهي صورة الرعب فاضحيت اضحوكة ومحط اهانة القوم اخضع لمن كان يخضع لي واسمع اهانة خدمي صاغرة صامتة واقمت في احدى غرف الابراج اصغي الى اصوات الفرح والبطر مرة والى صوت استغاثة فريسة جديدة مرة اخرى

— يا الريكا كيف اقدمت على مخاطبة رجل عليه لباس الكهنوت وانت تعلمين انه لو عرف قصتك احد القديسين لغسل يديه منك . الكاهن يقوى على غسل ادران الجسد اما برص الروح فهو عاجز عن شفائه

— لا تتحوّل عني ايها المتنبي بالغضب والجزاء الظالم . لا تتحوّل عني بل اخبرني ان علمت لماذا يعيد الماضي الى افكاري في هذه الايام صوراً كان من حقها ان تكون نسياً منسياً ؟ قل لي ما هو النصيب الذي اعده الله وراء القبر لمخلوقة خصها في دنياها بنصيب وافر من الشقاء ؟ اواه ! الاولى بي ان الجأ الى آلهة اجدادنا الوثنية بدلاً من ان ابقى عرضة لخيالات مصيري الماثلة ولتصورات مصرعي المؤلمة التي لم تفارقني مؤخراً وكأن النهار والليل لديها سواء

— فقال سادرك وتحوّل باشمئزاز عن تلك المخلوقة التي كان يراها مثالاً للخطيئة والشقاء والقنوط « لست كاهناً ولا اهمية للجبة التي البسها »

— ان كنت كاهناً او علمانياً فانت اول شخص رأيته منذ عشرين سنة يعرف الله ويخافه . انت يا ابن صديق ورفيق والدي هل تبخل بكلمة عزاء وهلاً تشير بغير القنوط ؟

— توبي واطلبي لخطاياكِ المغفرة بالصوم والصلاة لعلكِ تنالين حظوة في عيني الله ولكن يجب ان اذهب الان

— ابقَ دقيقة اخرى لئلا يرجع اليَّ الشيطان القديم فانتقم منك لاحتقارك اياي . هل ترجو نجاة من هذا المعقل اذا عرف فرنت — دي — بوف ان سادرك في المعقل تستره هذه الاثواب وهو الذي يرقبك دائماً كانه احد كواسر الطير ينتهز فرصة للانقضاض عليك ؟

— اهون عليَّ ان امزَّق ارباً من ان انطق بما لا يملي عليَّ به قلبي وضميري فاذا متُّ اموت سكسونياً حرَّ القول والفعل . اليكِ عني ايتها المرأة واياكِ ان تلمسيني او تعوقيني مرأى فرنت — دي — بوف نفسه خير لديَّ من مرآكِ لما انتِ فيه من الشر وبما انتِ عليه من المسخ

— « لا بأس فيما تقول » وابتعدت من وجه سادرك قائلة « سر في سبيلك وتناسَ في رفيع مقامك ان المخلوقة الموجودة امامك هي ابنة صديق والدك . سر في سبيلك ولئن ابعدتني آلامي عن بني البشر وعن الأُلى ارجو منهم المساعدة والعون فلسوف يزيدني انتقامي منهم في هذا البعد . سوف لا يعينني رجلٌ ما ولكن سيسمع بخبري كل رجل . الوداع فاحتقارك لي قطع آخر انشوطة كنت مرتبطة بها مع هذا العالم . كنت آمل شفقة ورحمة من ذوي قرباي يا سادرك »

فتحرّك قلب سادرك لكلامها وقال :

« يا الريكا من الخرق ان يتمسك الانسان بحبل الحياة و يطلب البقاء وهو اليف الفسق وحليف العار · فاذا بلغ الزمن الذي تجب عليه فيه التوبة والاستغفار والتكفير فعل وطلب الموت »

— آه يا سادرك انت تجهل حقيقة القلب البشري · اما ما كان يغالبني وما كان يمرّ بخاطري من الافكار التي اذا اعترضت أيّاً كان اقتضى ان يكون له ميلٌ جنونيٌّ للملذات ممزوج برغبة غريبة للانتقام ومحبة فائقة للسلطة والقوّة وهذه جرعات اقوى من ان يتجرّعها قلب الانسان وتبقى فيه القوة على ابعادها عنه · ولكن سلطة تلك الاميال قد زالت عني بزوال سببها فالكبر لا نصيب له من الافراح والتجعدات تزيل السلطة واللعنات الرهيبة تخنق الانتقام نفسه · فاذا زالت هذه جميعها عقبها التأنيب بسمومه القتالة ممزوجة بالندم العقيم على الماضي والقنوط من المستقبل · وعندما نبلغ هذا الحد نصبح كابالسة جهنم يشعرون بالتأنيب ولكنهم لا يفطنون للتوبة · كلماتك ياسادرك قد اوجدت فيَّ روحاً جديداً ولا مشاحة فالممات لا يستصعب امراً · لقد اريتني طريقة جديدة للانتقام وسوف اتخذها · كان صدري خزانة للانتقام وغيره من الاميال واما الان فلم يبقَ فيه غير الانتقام ولسوف يأتي زمن تقول فيه ياسادرك لقد ماتت الريكا كما يجب ان تموت ابنة تركول الشريف · يوجد جيش خارج المعقل اخرج اليهم وهاجم بهم المعقل وشدّد الحصار حتى اذا رأيت راية حمراء تخفق فوق زاوية البرج العظيم الشرقية فاهجم بكل قوّتك فربما دخلت عنوة · ولا تبالِ بالسهام والسيوف اذ يكون للنورمنديين في الداخل ما يشغلهم عن الخارج · سر في سبيلك واتركني لاسير نحو مصرعي

وكان بود سادرك ان يستطلع العجوز نياتها لو لم يسمع صوت فرنت — دي — بوف

في الخارج يقول :

« اين ذلك الكاهن المنافق ولماذا كل هذا التأخر انني والله لاسلخنّ جلده واجعلنه عبرة لغيره اذا كان غرضه بذر الفتنة بين خدمي »

— فقالت الريكا « ما اصدق ما يتنبأ به الضمير الشرير · لا تحفل به يا سادرك وسر الى قومك ونادِ نداءك الحربي وليتغنّ رجالك باغاني ابائهم الحربية لان النقمة ستحلّ لدى ارتفاع الاصوات بتلك الاغاني »

قالت هذا وخرجت من باب سرّي · ولم تكد تختفي حتى دخل فرنت — دي — بوف من الباب الذي دخلا منه اولاً · ولما رآه سادرك انحنى امامه بصعوبة فحنى البارون راسه وقال : « لقد اطلت الاقامة مع الاسرى يا حضرة الاب فهل اعددتهم للموت ؟

— « رأيتهم على اتم الاستعداد منذ عرفوا بين يدي من وقعوا » وفاه بهذه الكلمات بالافرنسية ولم يكن يحسنها

— اراني انتشق في لغتك ايها الاب رائحة السكسون

— صدقت يا سيدي فقد ربيت في دير القديس وذولد في هذه البلاد

— حبذا لو كنت نورمانديًا ولكن ان لم يكن ما تريد فأرد ما يكون · يقال ايها الاب ان دير ذلك القديس قد امتلأ بالسكسون الجبناء فهلاّ علموا انه سوف يأتي وقت لا تحمي السكسون فيه جبة لما لم تنجهم لأمة (درع)

— قال سادرك بصوت يرتجف غضباً « فلتكن مشيئة الرب » · فتبسم البارون زاعماً ان ارتجاف الصوت سببه الخوف فقال : « اراك تبصر في مخيلتك رجالنا في قاعات ديرك ايها الاب فترتجف لرؤيتهم ولكن قم بخدمة لي فتنجو من كل عذاب عنيد

— مرني بما تشاء ايها السيد

— اتبعني لاخرجك من المعقل

وبينا كان سادرك يتبع فرنت — دي — بوف في اروقة ودهاليز المعقل كان هذا يقول :

« اذا التقيت ايها الكاهن بالسكسون المحدقين بهذا المعقل فاذكر لهم ما شئت عن مناعته وما تحسن اختراعه من القصص ما يؤخرهم عن مهاجمتنا اربعاً وعشرين ساعة ثم خذ هذه الرسالة .... هل تحسن القراءة ؟ »

— لا اعرف منها شيئاً خارج كتاب صلاتي ولا يمكنني قراءة هذا ايضاً فالذي اتلوه منه اتلوه مستظهراً اياه

— هذا ما كنت ارجوه . احمل هذه الرسالة الى معقل ملفوازين وقل له يرسل بها الى يورك باسرع ما يمكن ثم اذكر له اننا بخير وراء متاريسنا وانه والله عار ان نختبئ وراءها من وجه جماعة من اللصوص كان من حقهم ان يلجأوا الى الفرار من مجرّد النظر الى راياتنا . واصغ ايها الكاهن . يجب ان تؤخر هؤلاء الانذال عن مهاجمتنا بما تقصه عليهم الى ان يحضر رفاقنا

— فقال سادرك بحمية غريبة « اقسم لك يا سيدي بجميع القديسين الذين ولدوا في انكلترا انني ساستعمل كل ما لديّ من الحيل الاكليريكية لكي لا ينقل هؤلاء السكسون قدماً من اماكنهم »

— اراك يا سيدي الكاهن قد استبدلت نبراتك بما هو اشد واقوى كانك ترجو هلاك هؤلاء السكسون وانت واحد منهم فكيف ذلك ؟

ولم يكن سادرك سريع الخاطر باختلاق القصص وموقفه هذا كان يخلق بوما ولكنه قال شيئاً مؤداه ان هؤلاء لصوص حرمتهم الكنيسة وغضب عليهم الملك

— صدقتَ ! وكان قد بلغ بالكاهن باباً في المعقل ففتحه وخرج به على قطعة من الخشب ممدّدة كجسر فوق الخندق يصل بواسطتها الخارج الى متراس خارجي .

ولما بلغ المتراس صرف سادرك وهو يقول : «سر برسالتي واذا مررت بهذا المكان بعد تسليمها الى صاحبها رأيت اشلاء السكسون تزيد رخصاً عن اشلاء الخنازير في ديركم»

— لا بدَّ من اللقاء !

— فقال فرنت — دي — بوف «خذ» ووضع في يد سادرك بعد تمنعه ذهباً وهو يقول : خذ هذا الآن ولا تنسَ انني اسلخ جلدك واعلقك من رجليك حياً اذا اهملت واجباتك

فاجاب سادرك وقد خرج من المتراس : لك ان تفعل ذلك اذا التقينا ثانية ولم استحق منك غير ذلك الجزاء · وكان قد ابعد عن المعقل قليلاً وعرف انه في مأمنٍ فادار وجهه الى المعقل ورمى بالذهب في وجه فرنت — دي — بوف وصاح : سحقاً لك ولمالك ايها النورماندي السافل

فلم يسمع فرنت — دي — بوف كلام سادرك جيداً ولكنه اساء الظن باشارته فصاح بالرماة على البرج : اخرقوا جبة ذلك الكاهن بسهم من سهامكم ولكن لا · قفوا ! اذ لا اراه يقدم على خيانتي والاحرى ان نأتمنه اذ لا رسول لنا غيره · اذهبوا واحضروا الاسيرين السكسونيين وكاساً كبيرة من الخمر الى القاعة العمومية

فقام الخدم بما أُمروا وسبقوا سيدهم بالاسيرين والخمر الى القاعة · وكان ومبا قد انزل قبعته الى ما يقارب عينيه ووقف في مكان مظلم فلم يشك فرنت — دي — بوف في امره ولا سيما انه لم يكن يعرف سادرك حق المعرفة لان هذا لم يختلط بجيرانه النورمنديين مطلقاً وقليلاً ما كان يتجاوز حدود املاكه اذا خرج من بيته وبذلك غاب عن فرنت دي بوف ان اهم رجل بين اسراه قد اصبح في مأمنٍ من شره · وبعد ما شرب البارون جرعة كبيرة من الكاس تحوَّل الى الاسيرَين وقال : كيف تريان

اقامتكما في هذا المعقل يا شجاعي انكلترا وهل انتما راضيان عنها ؟ هل تعلمان ان هذا جزاء سوء التصرُّف وقلة الادب في حضرة البرنس يوحنا الذي اكرمكما فقابلتما اكرامه بالتمرُّد ؟ اما والله ان لم تجزلا الفدية عن نفسيكما لاعلقنكما احياء على ابراج هذا المعقل واجعلكما مأكلاً للنسور والغربان حتى لا يبقى من جثمانيكما غير الهيكل . ماذا تقول انت يا سادرك ؟

— فاجاب والله انك لن تنال مني درهماً بل اذا انت علَّقتني من رجليَّ خدمتني خدمة اذكرها لك بالشكر لانه قيل لي ان دماغي انقلب فاصبح اسفله اعلاه واعلاه اسفله بينما كنت رضيعاً في السرير فربما عاد الى حالته الطبيعية اذا انت علقتني

— فصاح فرنت دي بوف « من هذا » وتقدم من ومبا ونزع قبعة سادرك عن رأسه بقفا كفه فظهر تحتها راس المهذار وعنقه مطوَّقاً بطوقه الفضي علامة العبودية فلما شاهد الطوق صاح بالخدم فمثلوا بين يديه فقال : « انظروا من احضرتم . من هو هذا ؟

فقال دي براسي . عندي خبره فهذا مهذار سادرك الذي نازل اسحق اليهودي في الميدان ليظهر لمن حق الاسبقية

سوف اكون حكماً بين الاثنين واعلق الاثنين معاً ان لم يفتدِ سادرك عبده بثمن باهظ لان ماله ومال هذا الخنزير (واشار الى اتلستاين) كثير وهو ايسر ما يقدمه السكسوني ثم اذا خرجا يجب ان يرفعا هذا الحصار ويشكرا الله على هذا الخلاص وهم الاولى بهم شكرنا اذا اذنا لهم في استنشاق الهواء والاستشفاء بنور الشمس . يا ايها الخدم عليَّ بسادرك الحقيقي فقد عفوت عن خطإكم هذه المرة اذ لم تميزوا بين احمق وشريف سكسوني

فقال ومبا : اجَلْ ولكن يا سيدي الفائق الشرف والاكرام والاحترام سوف تجد

ان عدد الاغبياء في هذا المكان يربو على العقلاء

— فسأل فرنت دي بوف ماذا يعني العبد مخاطباً خدمه الذين وقفوا بقرب الباب حيارى. فقال احدهم : « ان لم يكن هذا سادرك فلا ندري ماذا تم بامر ذاك »

— فصاح دي براسي يا لله ! نجا والله نجا بلباس الكاهن

— وصاح فرنت دي بوف يا للشيطان وقد قدته بنفسي الى خارج المعقل . استعد ايها الاحمق الذي فاق بحكمته جميع اقرانه فلسوف اسميك كاهناً . اسلخوا جلد رأسه ايها الخدم والقوا به من اعالي البرج الى اسفل . ها ايها المهرّج لِمَ لا تضحك ومهنتك الضحك ؟

— ان اعمالك تفضل اقوالك يا سيدي . اردت سيامتي كاهناً ولكنني اراك سوف تهبني قلنسوة حمراء وبذلك اصبح كردينالاً (اشارة الى الدم بعد سلخ جلد راسه)

فقال دي براسي : لقد عقد المسكين النية على الموت . اعفُ عنه يا فرنت دي بوف وهبه لي ليكون مهرّجي بين رجالي . ماذا تقول ايها الاحمق هل ترضاني سيداً وترافقني الى الحروب ؟

— افعل اذا رضي سيدي لانني كما لا يخفى عليك لا اقوى على نزع هذا الطوق الا باذنه

— لا يصعب على المبرد النورماندي قطع الطوق السكسوني

— صدقت يا سيدي ولذلك قيل : منشار نورماندي على اصل السنديانة الانكليزية كنير عبودية النورمانديين على عنق الانكليز . وملعقة النورماندي في صحفة الانكليزي والانكليزي مسيّر بحسب مشيئة النورماندي

— احسنت والله يا دي براسي باصغائك الى مهذار احمق غير مهتم بالهاوية التي تستعد لابتلاعنا . ألا تدري ان الكتاب الذي علّقنا عليه تلك الاهمية العظمى

في يد عدوّنا وقد انقطع كل امل لنا بمفاوضة اصدقائنا ولم يعد امامنا سوى صدمات العدوّ ؟

— فصاح دي براسي « سر بنا الى المتاريس . متى رأيتني عبوساً وغير مترحب بالحرب ؟ ادعُ الهيكلي واطلب منه ان يظهر في المحاماة عن نفسه نصف الحمية التي ابداها في المحاماة عن الهيكل واذهب انت بجثتك العظيمة الى الابراج واتركني لاسعى كما ارى في سبيل خلاصنا فاذا تركتني وشأني عهدت لك بان تسلّق اللصوص جدران السماء اسهل عليهم من تسلق جدران هذا المعقل . هاي ! ماذا تقول ايها الرجل (مخاطباً اثلستاين) اراك تراقب الخمرة المترقرقة في تلك الكاس باهتمام عظيم . اشرب ما فيها وأزل الاوساخ من حلقك وانطق . ماذا تفعل اذا اطلقناك ؟ »

— افعل ما يفعله رجل من دم ولحم بشرط الاَّ يكون في ذلك غضاضة على رجولته ادفع لكم الفي فرنك اذا اطلقتم سراحي وسراح رفاقي

فقال فرنت دي بوف : وهل تعهد لنا بجلاء هولاء الانذال عن المعقل وتوقفهم عن عملهم الذي يغضب السماء وجلالة الملك ؟

— ساجهد النفس في ابعادهم ولا اشك في ان ابي سادرك يساعدني في ذلك

— قبلنا فسوف يطلق سراحك وسراح اتباعك ويكون سلام بين الطرفين مقابل الفي فرنك تدفع لنا وهي فدية حقيرة ايها السكسوني ولكن هذه الشروط لا تتناول اليهودي اسحق

فقال الهيكلي ولا اليهودية رفقه

وقال فرنت دي بوف ولا اتباع سادرك

— انا يا سادتي مسيحي ولا شأن لي باليهود الكفرة

فصاح دي براسي ولا السيدة روانا

واجاب فرنت دي بوف ولا هذا المهذار المنافق الذي قد صممت النية على تأديب غيره بما سافعله به

فاجاب اثلستاين بصوت ثابت : « السيدة روانا خطيبتي واني افضل ان تجرّني الخيول باذنابها في الصحراء الى ان اموت على تركها هنا . وهذا العبد قد فدى في هذا النهار ابي سادرك بنفسه واني لارضى الموت لنفسي دون سقوط شعرة واحدة من راسه

فصاح دي براسي : « روانا خطيبة عبد حقير مثلك ؟ ألا تعلم ايها الرجل ان امراء بيت انجو لا يطرحون بوصايتهم الى من لا نسب له نظيرك (١) ؟ »

— نسبي ايها النورماندي المتكبر يرجع الى اشرف الاصول واكرم النبعتين ولست ساقط النسب كرجل افرنسي يعيش ببيع دماء عدد من لصوص الافرنسيس . كان ابائي ملوكاً اشداء في الحروب وحكماء في المجالس يأكل على موائدهم من الاتباع ما يزيد عدده على جميع النورمانديين . وهم الذين تغنّى بفضائلهم الشعراء والمغنون الذين خلّدت شرائعهم وصلّى على بقاياهم القديسون وبنيت على قبورهم القبب تزار كبقايا الانبياء

قال فرنت دي بوف — وقد سرّ لاغلاظ السكسوني — نلتها بحق يا دي براسي

فاجاب دي براسي : من كان اسيراً ؟ من كان موثق اليدين لا يبقى له غير لسانه يحارب به . غير ان هذرك ايها الرفيق لا يحرّر السيدة روانا

فلم يجب اثلستاين لانه كان قد اطال الكلام بخلاف عادته واذا بخادم قد دخل القاعة واعلن لسيده ان في الباب كاهناً يروم الدخول

— اكاهن حقيقي هو ام كالذي سبقه ؟ فتشوه وان خفيت حقيقته عن اعينكم

(١) يذكر القاري كلام البرنس يوحنا عن روانا وانه كان من الواجب عليه كملك البلاد ان يهتم بامر القاصرات من بنات الرعية وكيف ذكر لدي براسي انه سيهبه روانا (المعرّب)

اقتلعتها ووضعت في محاجرها جمراً

— فاجاب احد الخدم « احدنا يعرفه جيداً يا سيدي وهو قد أكّد لنا انه احد الكهنة التابعين لرئيس دير جورفولكس »

— ادخلوه فربما حمل لنا رسالة من سيده · يخال لي ان الشيطان متغيّب هذا النهار فاغتنم الكهنة الفرصة للتجوُّل في انحاء البلاد · اخرجوا الاسيرَين وانت ايها السكسوني اذكر ما عرضناه عليك

فقال اثلستاين : فوالحالة هذه لي حق بمعاملة شريفة تليق بمركزي وباسير شريف قد جرى الاتفاق على مقدار فديته واطلب الاعتناء بطعامي وفراشي ثم اطلب ارفعكم مقاماً الى نزالي بعد اطلاقي تكفيراً عن الذنب الذي ارتكبتموه في اسري وقد طلبتك الى النزال بواسطة خادمك فلم تجب هوذا قفازي اطرحه

— سوف لا اجيب طلبك لانك اسيري الان ولست بفاعل انت يا دي براسي ولكن علّق ايها الخادم هذا القفاز على ذلك القرن (واشار الى قرن وعل معلق على جدار القاعة) فاذا خرج هذا واصبح حراً وبقي على زعمه انه أُسر ظلماً لقي امامه فارساً لا يرد طالباً ان فارساً او راجلاً فريداً او في طليعة رجاله

ولم يخرج الخدم بالاسيرَين حتى دخل الراهب وهو يقول : « الحمد لله وللعذراء الطاهرة فقد اصبحت في مأمنٍ وبين قوم مسيحيين »

فقال دي براسي : أَجَلْ ايها الراهب فهذا فرنت دي بوف عدو اليهود وهذا الهيكلي ذابح السلجوقيين فكيف تطلب علامة لصدق مسيحيتهم اعظم من هذه ؟

— انتم اصدقاء وحلفاء كاهن الرب الرئيس أيمر وله عليكم حق المساعدة كفرسان اشراف وحق الشفقة كمسيحيين لانه كما قال القديس اوغسطين في كتابه . . .

فصاح فرنت — دي — بوف : ماذا قال الشيطان او ماذا تقول انت يا سيدي

الكاهن اوجز فوقتنا اقصر من ان نصرفه في استماع هذيانك

— يا قديسة مريم ! ما اسرع ما يغضب هولاء العلمانيون . ليكن معلوماً لديكم اذاً ان جماعة من الاوباش الذين لم يخافوا الله واطرحوا مهابة الكنيسة ظهرياً ولم يرهبوا لعنة الدير المقدس ...

فصاح الهيكلي : ايها الاخ هذه امور نعرفها فلا تسترسل في وصفها بل اخبرنا باختصار وبعبارة واضحة هل وقع رئيسك اسيراً ومن اسره ؟

— قال الكاهن اسره رجال البعل الذين ينتابون هذه الغابة غير مبالين بقول الكتاب « لا تلمسوا مسيحي ولا تلحقوا بانبيائي شراً »

فقال فرنت دي بوف : هذه عقدة اخرى ينتظر من سيوفنا حلها فبدلاً من ان تأتينا النجدة يستنجد الرئيس ايمر بنا . ليس من وراء هولاء الكهنة سوى التعب والخسارة . ماذا يطلب رئيسك ايها الكاهن ؟

— اعلم يا سيدي ان رجال البعل القوا الايدي على رئيسي المحترم غير هيابين كلام الكتاب المقدس الذي ذكرته سابقاً واخذوا منه مايتي قطعة من الذهب الخالص وطلبوا منه فدية عظيمة وعليه يطلب اليكم الاب المحترم النجدة اما بدفع فديته او بتخليصه بسيوفكم حسبما ترون

— ليذهب الشيطان بروح رئيسك ايها المحترم . لو لم يكثر من شرب المسكرات لما وصل الى ما هو فيه الان هل سمع رئيسك بارون نورماندي يحل رباط كيس نقوده ليفتدي كاهناً لديه من المال اضعاف اضعاف ما عند ذلك البارون ؟ ثم كيف نقوى على نجدته بسيوفنا ونحن محصورون في هذا المكان ننتظر هجوم العدو في كل لحظة

— هذا ما كنت اريد شرحه لك يا سيدي لولا اسراعك في الاسئلة . اعلم اذاً ان العدو منهمك ببناء متاريس تجاه المعقل

فصاح دي برامي الى الابراج لتنظر ماذا يفعله هولاء اللئام

واذ قال هذا فتح نافذة وخرج الى احد المرامي ولم يلبث ان صاح : « صدق الكاهن فالانذال يقتربون من المعقل وراء متاريس متحركة تحميهم الرماة من اطراف الغاب »

فخرج فرنت دي بوف الى جانب رفيقه ولما رأى الاستعدادات خارجاً نفخ في بوقه وامر رجاله بالوقوف في مراكزهم وصاح : اذهب يا دي برامي الى الجانب الشرقي من المعقل وانت يا سيدي الهيكلي قد اعتدت الهجوم والدفاع في ظروف كهذه فاذهب الى الجانب الغربي وسابقى انا في هذا المكان احمي مقدّم المعقل ولكن يا رفيقيّ يجب ان لا تحصرا اعمالكما في نقطة واحدة لانه ينبغي ان نكون في هذا النهار في كل جهة وان نقسم انفسنا ان امكنت القسمة لكي يكون من كلٍّ منا قسم في كل جانب من جوانب المعقل وليكن وجودنا نجدة حيثما يحمى وطيس الحرب· نحن قليلو العدد ولكن قد تقوم الشجاعة مقام الكثرة

فقال الكاهن اسمح لي يا سيدي الشريف ان اذكر لك جميع ما امرني به رئيسي قياماً بوظيفتي المقدسة

— خذوا الهذار واسجنوه في مصلّى المعقل ليتلو صلاته الى ان ننتهي من عملنا· والله سوف يتعجب شفعاء هذا المكان من سماع صلاة لم تطرق اذانهم منذ نحتت حجارته

فقال دي برامي لا تجدّف على اسماء القديسين ايها البارون فاننا في حاجة قصوى الى مساعدتهم في يومنا هذا

— لا ارجو مساعدة عن يدهم اللهمّ الاّ ان نرمي بتماثيلهم رؤوس المهاجمين· يوجد هنالك تمثال للقديس خريستفورس وهو اهل لان اطرح به كوكبة من الفرسان بكاملها·

الى الارض

وكان الهيكلي يراقب حركات المحاصرين باهتمام اشد من اهتمام رفيقه · فقال : يتقدم هولاء القوم بانتظام لم اكن انتظره من امثالهم فانى لهم هذا الترتيب · انظروا كيف يستترون بالاشجار والانجم وكل ما يمنع اسهمنا عنهم · لا ارى فوقهم راية ولكنني لا اشك في انهم تحت قيادة شريف او فارس شجاع له اتم خبرة بفن الحرب

فصاح دي براسي « ها هو فاني اراه · انظر الى ذلك الفارس الطويل القامة التي تموّج في خوذته ريشة طويلة وينعكس النور عن درعه بلمعان شديد وان صدق ظني كان هذا نفس الفارس الاسود الذي لقبه القوم بالكسلان يوم اشبي والذي طرحك الى الارض يا فرنت — دي — بوف »

— حسناً فعل اذ اتى هذا المكان ليسهل عليّ الاخذ بثأري ولكنني اراه فتىً خامل الذكر والاّ لما ترك الميدان وخشي من اظهار حقيقة حاله · انني والله مسرور من رؤيته لانني كنت قد قطعت الامل من لقياه بين الفرسان الاشراف ولا عجب فقد رأينا اصحابه

وقطع تقدم القوم حديث الفرسان وقصد كل منهم المكان المعين له واقام امام رجاله القلائل ينتظر بعزمه الثابت ماذا يكون

٢٨

تقضي علينا واجبات القصصي الان بالتحوُّل عن سياق الحديث المتقدم لنطلع على بواعثه لما في ذلك من اتمام الفائدة

لا بد ان يكون القاري قد استنتج بما لديه من الذكاء ان رفقه الفتاة اليهودية كانت اول من اهتم بامر ايفنهو عندما سقط الى الارض مغمياً عليه في ميدان اشبي وتركه ذووه اذ حملت اباها بما لها من النفوذ لديه على احتمال الفتى الشجاع ونقله الى

منزلها في اشبي · ولم يكن عمل رفقه بالسهل لانه كان دون ما توصلت اليه عقبة يصعب تجاوزها وهي البغض الملي بين الجريح ووالدها · غير ان اسحق كان شفيقاً طبعاً وهذا ساعد ابنته على اقناعه بعد محاجةٍ واعتراضات ابداها على مساعدة الجريح · وكان اول اعتراضاته قوله : « يا ابنتِ ابرهيم ! لا انكر ان الفتى حسن الطوية وانني ليقطر قلبي دماً لرؤية دمه يسيل على لباسه الفاخر ودرعه الغالية الثمن ولكن حمله الى منزلنا مسألة غير الدم واللباس · هل امعنتِ الفكرة في الامر يا بنية ؟ هلاّ تذكرتِ انه مسيحي وان طقوسنا تقضي علينا بعدم الاقتراب من المسيحي الاّ لغاية تجارية ؟

— مهلاً يا ابتِ ولا تنطق بهذا الكلام · نعم يجب ان لا نختلط بهم ابّان افراحهم وبطرهم ولكن ينبغي ان نرفق بهم ابان الجراح والمصائب لان هذه تجعل الوثني اخاً لليهودي · ووقت الشدة غير وقت الرخاء أليس كذلك يا ابتِ ؟

— حبذا لو عرفتِ ما يقول الحاخام يعقوب بن توديلا في هذا ولكن كيف كانت الحال ومهما يكن قيله وقاله يجب ان لا ينزف دم الشاب المسيحي · فليحتمله راؤوبين ولنست الى اشبي

— مرهم بنقله الى هودجي وانا اركب فرساً

— « تركبين فرساً وتعرضين وجهكِ لانظار بني اسمعيل واولاد آدوم ؟ » قال اسحق وعينه تسترق النظرات الى جهة الفرسان والغلمان · فلم تجبه رفقه لاهتمامها بامر الجريح · فسكت اسحق هنيهة ثم اسرع اليها والخوف بادٍ على وجهه وصاح « رفقه ! رفقه ! ما يحل بنا اذا اصيب الشاب بمكروه ؟ لنفرض انه مات في بيتنا ألا نقع تحت تهمة سفك الدم وتمزقنا الجماهير ؟ »

— سوف يحيا يا ابتِ ولن يموت الاّ اذا غادرناه ملقىً حيث هو واذا فعلنا ذلك كنا المطالبين بدمه امام الله ولدى الهيئة البشرية عموماً

— اي وابرهيم يسوءني ان ارى الدم يسيل من جرح هذا الشاب كما تسوءني رؤية دنانيري تسقط من كيسي الى الارض · وانا اعلم ان ما تعلّمتِهِ من مريم امرأة الحاخام منسى القسطنطيني التي انتقلت روحها الى الفردوس قد جعلكِ بارعة في معالجة الجراح وحاذقة في معرفة منافع واسرار الحشائش فافعلي اذًا ما يملي عليكِ قلبك فانتِ ابنة صالحة — انتِ تاج فخر ونشيد ابتهاج في بيتي وبركة بين ابناء قومكِ

ولم تكن ظنون ومخاوف اسحق في غير محلها لان ركوب رفقه الفرس واظهارها وجهها للمارة لفت انظارهم الى جمالها البارع وكان الهيكلي بين الجميع فلما وقع نظره على وجه رفقه وتأمل في انتساق اعضائها واستدارة معاطفها ولين قوامها تغيرت احواله واعترض طريقها مرّتين واخذ يحدّق في وجهها وقد عرفنا نتيجة ذلك التحديق

ولم تكد تبلغ رفقه منزلها الموقّت بالجريح حتى اخذت تفحص جراحه وتضمدها بيديها الناعمتين · يذكر احدث القراء عهدًا بالاقاصيص ان السيدات كنّ في القرون المظلمة ذوات المام باسرار الجراحة وان الفارس كثيرًا ما كان ينطرح بين يدي سيدة في قلبه من نبال لحاظها جراح ابلغ من جراح جسده فكانت تغسل تلك الجراح باشفاق وحب وتضمدها بيديها وعيناها تخطّان تعويذة الشفاء

في تلك الايام كان لليهود رجالاً ونساء المام بفن الطب يتعاطونه وكثيرًا ما كانت ملوك ذلك العصر (يذكر القارىء اطباء وعلماء الدولة العباسية) واعظم الشرفاء منزلة يسلمون امورهم في الجراح والامراض الى خبرة اليهود — ذلك الشعب المهان — ولم يكن اعتقادهم ان لما يفعله اليهود علاقة بالسحر وان ما يدعونه الفن الاسود كان اول ظهوره بين اليهود — ليمنعهم عن طلب مساعدة اليهود · ولم يكن اسرائيليو ذلك العصر ينكرون علاقتهم السرّية بما هو وراء المنظور غير ان اقرارهم هذا لم يكن ليزيد في كاس احتقار الناس اياهم قطرة واحدة — وهل كانت تلك الكاس تحتمل الزيادة؟

كان ينظر الناس الى الساحر اليهودي والمرابي اليهودي باحتقار متساوٍ غير ان الاهانة التي كانت تلحق هذا لم تكن تلحق ذاك

وكانت رفقه قد تلقنت جميع المعارف المختصة ببنات جنسها وزادت عليها ما كان يساعدها على احرازه عقلها الثاقب وادراكها النادر . وقد اخذت فن مداواة الجراح عن يهودية عجوز اشتهرت بهذا الفن وكانت تحب رفقه كابنة لها فاطلعتها على جميع اسرارها ولما ماتت ضحية ظلم تلك الايام لم تمت اسرارها الطبية معها بل انتقلت الى رفقه . ولما كانت رفقه على ما ذكرناه من الجمال والتعقل والمعرفة كان ينظر اليها الشعب اليهودي نظره الى مخلوقة ارفع من البشر خصتها الآلهة ببعض صفاتها العلوية وعلى الاخص والدها الذي كان يفتخر بها ويهبها حرية مطلقة لم تكن تنالها بنات اليهود في ذلك العصر وكثيراً ما كان ينقاد لارائها كما رأينا فيما تقدم

ولما أدخل ايفنهو الى مسكن اسحق كان لا يزال مغمياً عليه بالنظر الى الدم الذي فقده ففحصت رفقه الجرح وغسلته وضمدته ببعض المراهم المعروفة عندها وتحولت الى ابيها واخبرته انه ان لم تهاجم الحمى الجريح تمكن من مرافقتهم في صباح الغد الى يورك . فظهر الارتباك على وجه اسحق لانه كان قد زعم ان اشبي تكون آخر حدود شفقته واحسانه فقال لابنته ان الاولى بهما ترك الجريح حيث هو يعتني به قومهم هنالك وهو يدفع النفقات اللازمة . فأبت رفقه واعترضت على رأي والدها لاسباب منها انها تأبى ترك حقة المرهم المبارك في يد شخص ما ولو كان ذلك الشخص من بني جنسها لئلا يكتشف سره الغريب . ومنها ايضاً ان الفارس ايفنهو من اقرب المقربين الى الملك ريكارد فاذا رجع ذلك الملك الى بلاده لا بدّ ان يبحث عن الذين كانوا يعدّون اخاه بالمال ويقتص منهم . « وحينئذٍ قالت رفقه » تكون في حاجة قصوى الى من يتوسط امرك لدى الملك وهل تجد من هو اقرب اليه من هذا الجريح ؟

— صدقتِ وابي ابرهيم ! لانكِ اذا افشيتِ سرّ تركيب هذا المرهم ارتكبتِ ذنباً لا يغتفر لان هبات السماء ذهباً كانت او فضة او اسراراً طبية يجب ان لا تلقى في سبيل كل انسان بل ينبغي حفظها لمن حبته السموات بها · واما ما ذكرتِهِ عن الرجل الذي يدعوه النصارى قلب الاسد فقد اصبتِ فيه كبد الحقيقة لانني افضل الوقوع بين براثن اسد آدوم وانيابه على السقوط بين يديه — اصبتِ يابنية لنأخذ الشاب الى بيتنا ونعتنِ به الى ان يشفى فان رجع قلب الاسد كان لي من الشاب حصن اتقي به غضبه وان لم يرجع فسيرد عليَّ هذا الشاب ما اسلفته اياه اضعافاً عندما ينال كنوزاً كثيرة بقوة ذراعه كما فعل في الامس واليوم لانه شاب حسن الطوية شريف النفس لايخلف وعداً بل يردّ ما استلفه ويساعد اليهودي عندما يتألب عليه الذئاب الخاطفة ورجال البعل

ولم يفق ايفنهو من غيبوبته حتى المساء · ولما افاق كان مشرّد الحس شان المستفيق من حالة كالحالة التي كان فيها لا يذكر ما مرَّ بوضوح تام تمرّ امام عينيه اشباح فرسان تهجم وتسقط وغيرهم ينهض وميدان تلمع فيه النصال والاسنة كثر فيه اللغط والنداء والصياح · ثم مدَّ يده بصعوبة وازاح ستائر السرير ونظر في جوانب المكان فدهش دهشاً عظيماً اذ رأى بدل الكراسي مساند للجلوس ونظر الجدران مغطاة بستائر شرقية وكل ما يحيط به في الغرفة اقرب الى ترتيب وذوق المشرق منه الى المغرب · فظن انه في غضون اغمائه اتى من نقله الى فلسطين وتركه في احد بيوت تلك البلاد · وبينا هو على ما ذكرنا فُتح باب في الحائط وظهرت منه فتاة بثياب شرقية يتبعها خادم · فازداد تمسكاً باعتقاده وهم بالفتاة ليكلمها فوضعت اصبعها على شفتيها اشارة الى وجوب الصمت ثم تقدَّم الخادم وكشف جنب الفارس ففحصت اليهودية الحسناء الجرح وعدَّلت لفائفه برشاقة ولباقة تعجز عن مثلها ممرضات هذه الايام وببساطة واحتشام

زائدين · ما اجمل ان يرى الانسان فتاة فيها من الجمال والصبا ما في رفقه تداوي جراح فتىً فيه من الشباب والقوة ما في ايفنهو وقد اضاعت حيثيتها في عملها ولم تعد في نفسها غير بشرية تساعد اخاً لها في البشرية وتحوّل يد الموت عن الفتك به بما خصتها به العناية من الحكمة والعلم

والقت رفقه على الخادم بعض التعليمات بالعبرانية فقام بها بكل اعتناء وسرعة — كلمات خشنة اللفظ في حد ذاتها في اذن الجريح ولكنها خرجت من فم رفقه حلوة رقيقة لذيذة الوقع وزادتها التصوُّرات لذة · فلم يعترض على حركاتها الى ان انتهى الخادم من عمله وهمّت الفتاة بالخروج فلم يقوَ ايفنهو على الصمت فقال بالعربية وكان قد اتقنها مدة اقامته في فلسطين: « ما هذه الرقة واللطف ايتها الحسناء؟»

فقطعت رفقه كلامه باشارة وظهرت ابتسامة على شفتيها فزادت وجهها اشراقاً وقالت: « انا انكليزية يا سيدي الفارس على الرغم من زيي واصلي الشرقيين »

— ايتها الفتاة الشريفة · · · ·

— لا تنعتني بهذا النعت ايها الفارس فانا لست منه في شيء والاولى بك ان تعرف الان ما ستعرفه غداً ان خادمتك يهودية وابنة اسحق اليهودي اليوركي الذي اظهرت نحوه غيرة وكرماً لن ينساها هو ولا اهل بيته وقد انتهزوا جميعاً هذه الفرصة ليظهروا بالاعتناء بك بعض ما يخالج قلوبهم من الشكر

لا ادري اذا كانت السيدة روانا ترضى عن الشعائر التي خامرت قلب ايفنهو في تلك الدقيقة بعد ما امتلأَت عيناه من جمال وجه رفقه وارتدَّ نظره كليلاً عن عينيها اللامعتين كانما لم يخلق الله لها اهداباً حريرية طويلة الا لتساعد على رد سهامها الصائبة — عينان لو رآهما شاعر لشبهها بالزهرة تحترق باشعتها خيمة من الياسمين · ولكن ايفنهو كان كاثوليكياً متمسكاً بمعتقده ولا خوف عليه من يهودية · ولم تكن رفقه

تجهل هذا ولذلك اسرعت وذكرت له انها يهودية غير انها على الرغم من كبر قلبها ورجاحة عقلها لم تكن تخلو من عواطف النساء الخصوصية فلم تتمالك ان تنهدت عميقاً عند ما رأت ظواهر الاعجاب والاعتبار الممزوجة بالرقة تزول عن وجه ايفنهو ويظهر مكانها دلائل تجمل وتجنب وشكر بارد تبدو عادة على وجه رفيع المنزلة عند ما يخدمه صدفة من هو احقر منه قدراً. تأثرت رفقه لظواهر ايفنهو ولكنها لم تله عليها لانها عرفت انها ثمار الاحتقار النسبي ولد وشب في قلوب الشعوب عموماً نحو اليهود ولم تقلل من اهتمامها وتلطفها مع علمها ان الجريح ينظر اليها نظره الى مخلوقة احقر منه واخبرته ان الضرورة تقضي عليهم بالرحيل الى يورك واطلعته على عزم والدها من نقله الى تلك المدينة والاعتناء به في بيته الى ان يبرأ

فبدا على وجه ايفنهو اشمئزاز عظيم ولكنه اعتذر عن ذلك بعدم رضاه عن تكليفهم فوق طاقتهم من التعب ثم قال: أوَ ليس بالقرب من اشبي سيد سكسوني او فلاح يقبل في بيته احد ابناء وطنه ويعتني بامره الى ان تبرأ جراحه ويقوى على لبس درعه أليس من دير سكسوني يقبله داخل جدرانه؟ أم هل يتعذر نقلي الى دير القديس وذولد حيث الاقي عوناً برئيس الدير السكسوني وهو احد اقربائي؟

— الاقامة في احد هذه الاماكن كيف كانت الحال خير من الاقامة تحت سقف يهودي ولكن لا يمكنك الانتقال ما لم تأمر بابعاد طبيبك. انت تعلم ان الله قد خصّ قومي بمعارف طبية منعها عن غيرهم وفي بيتنا سرٌّ قد انحدر فيه من ايام سليمان وانت ادرى الناس بفائدته. لا يا سيدي الفارس لا ترى في انكلترا قاطبةً طبيباً مسيحياً يقوى على انهاضك من مضجعك قبل انقضاء شهر بتمامه

— وكم يقتضي ذلك من الوقت؟

— ثمانية ايام اذا انت صبرت واذعنت فيها لمشورتي

— والسيدة العذراء — ان لم يكن ذكر اسمها في كل مكان خطيئة — ان هذا ليس وقت النوم والاخلاد الى الفراش · ايتها الفتاة ان قمت بما عهدت لي به اعطيتك ملء خوذتي فضة ولا يهمك مصدرها

— ساقوم بما عهدت به وسوف تلبس درعك بعد ثمانية ايام اذا وهبتني بدلاً من النقود شيئاً آخر

— لك ما تطلبين مع الشكر والمنة اذا كان ذلك بامكاني ولم يكن في هبته لاحد افراد قومك حيف على فارس مسيحي

— ذلك ان تعتقد ان اليهودي اهل لخدمة المسيحي والاشفاق عليه لغير بدل بل حباً بوجه الله الذي خلق اليهودي والمسيحي كليهما

— اخطئ ان شككت في كلامك فسأسلم نفسي لعنايتك متكلاً على حذقك · هل تعرفين ما حلَّ بالشريف سادرك السكسوني والسيدة . . . وقطع كلامه كانه يأبى ان يذكر ذلك الاسم في بيت يهودي ثم قال : اعني السيدة التي نودي بها ملكة الحب والجمال

— التي انتخبتها انت يا سيدي الفارس لتلك الوظيفة · والتي اكبر الناس اختيارك لها كما كبارهم بسالتك ؟

فاحمرَّ وجه ايفنهو استحياء اذ رأى انه اظهر حبه لروانا من حيث رام ان يخفيه · ثم قال يهمني امرها اكثر من امر البرنس يوحنا · وهل تعرفين شيئاً عن خادم امين كان يتبعني ؟

— ائذن لي يا سيدي ان استعمل سلطتي كطبيب واطلب اليك ان تنقطع عن الكلام لانه يهيجك ويؤذيك وانا اذكر لك ما تريد معرفته » فقل البرنس يوحنا من الميدان وقصد يورك بسرعة في طليعة عدد عظيم من الاشراف والاتباع والكهنة وبعد

ما استنزف من المال ما وجد الى استنزافه سبيلاً ويقال انه قد عزم على التربع في عرش اخيه »

— وهو يرجو نيل ذلك قبلما يُمتشَق امضي حسام ويُسدَّد اقوم رمح في سبيل اخيه ؟ قال هذا ايفنهو ناهضاً من فراشه · ثم عقَّب قائلاً : اما والله ان لم يكن سواي في العالم مَن يهتم بامر الملك ريكارد لا ادع يوحنا يختلس العرش قبل ان انازل اشرفهم واشجعهم واضرب في سبيل الملك ولو ضربة

— لكي يتم لك ذلك يجب ان تذعن لما اشير به عليك

— صدقتِ ايتها الفتاة فماذا جرى على سادرك ؟

— حضر خادم سادرك منذ هنيهة ليفاتح والدي في امر صوف قد ابتاعه منه وقد عرفت منه ان سادرك واثلستاين تركا مائدة البرنس يوحنا والغضب يستحثهما بسرعة للعودة الى منزليهما

— هل صحبهما احدى السيدات الى تلك الوليمة ؟

— لم تصحبهما السيدة روانا الى الوليمة وهي الان في طريقها الى بيتها · واما خادمك كارث · · ·

— ومن اين لكِ اسمه ؟ ولكن لا عجب فقد عرفت الان ان من يدكِ استلم في الامس المائة درهم

— « لا تذكر هذا يا سيدي » وصبغ الحياء وجهها ثم قالت « ما اسهل ما ينم اللسان بما في القلب ! »

— ولكنني مضطر بمقتضى الشرف ان اعيد هذه القيمة الى ابيكِ

— انت وشأنك ولكن بعد مضي الثمانية الايام ان لم تؤخر شفاءك بهياجك هذا

— ليكن ما تريدين ايتها الفتاة لانه من العار ان يُخالف لكِ امر · ولكن

اخبرني شيئًا عن امر كارث وسيكون هذا آخر اسئلتي

— يسوءني ان اخبرك انه موثق بامر سادرك · قالت هذا ونظرت في وجه ايفنهو فرأت ظواهر ألم بدت عند سماعه خبر اسر خادمه فعقبت قائلة : ولكنني عرفت من الخادم اسولد ان سادرك سوف يعفو عنه ان لم يقترف ما يجدّد غضب مولاه عليه لان كارث خادم امين ليس له في سابق خدمته الاّ ما يُشكر عليه ولم يات ذنبه هذا الا في سبيل اخلاصه لابن مولاه · وقال الخادم ايضًا انه عقد العزم هو والخدم رفقاؤه وعلى الاخص ومبا على اطلاق سراح كارث ان لم يروا في غضب سادرك نهاية

— ارجو الله ألاّ يتحولوا عن هذا العزم · ولكن عجبًا فالخراب والشؤم يلحقان بكل من ادانيه · انظري الى الملك الذي قرّبني اليه واحبني كيف يتطال اخوه الى حقوقه و يروم اختلاسها · وميلي وحبي جلبا الحزن والجزع الى قلب ارقّ المخلوقات قلبًا والطفهم شعورًا واطهرهم ذيلاً والان ربما قتل والدي الخادم لامانته لي ولقيامه بخدمتي · أرأيت ايتها الفتاة شؤم طالع هذا المخلوق الذي تعتنين بامره ؟ اتركيني وشأني قبلما تلحقك اذية لملازمتك اياي

— اخطأت يا سيدي فاحزانك ومخاوفك منعتك عن ادراك مقاصد السماء بصورتها الحقيقية · هوذا انت قد رجعت الى بلادك في زمن هي في حاجة قصوى الى رأي صائب وقلب شجاع وساعد قوي · وهوذا قد قهرت اعداءك وذللت اعداء ملكك في وقت كادت تناطح كبرياؤهم السماء · والمصيبة التي نزلت بك بسبب ذلك اوجدت لها السماء طبيبًا بين احقر قوم في الارض ؟ تشجع يا سيدي وتيقن ان السماء ارجعتك الى بلادك واعتنت بك لتقوم بعمل عظيم · استودعك الله الان وسيعود اليك خادمي بدواء فاشرب منه ونم ما قدرت استعدادًا للسفر

فاقتنع ايفنهو ببراهين رفقه واذعن لما اشارت به وتجرَّع الدواء الذي ارسلته ثم نام لا يزعجه امر الى الصباح حيث دخلت عليه رفقه فلم تجد فيه اثرًا للحمى ورأت ان حالته تسمح بالسفر · وعليه وُضع ايفنهو في الهودج الذي نقل فيه من الميدان بكل اعتناء واخذت رفقه جميع الاحتياطات ليكون سفره هادئًا على الرغم من سرعة مسير اسحق الذي كان يعرف ان النورمانديين وقطاع الطرق على السواء يجدون في اسره كبير منفعة

ولم يعد اسراع اسحق عليه بعظيم فائدة بل بالعكس جلب عليه سخط الحرس الذي استخدمه لحمايته في طريقه وكانوا من السكسون الطامعين في مال اليهودي وطعامه وشرابه فلما راوا اسراعه وقصر وقت الطعام وقلّته ابتدأُوا بالتذمر والشكوى ولم يقفوا ريثما يفتكرون عندما سمعوا من احد المحتطبين بوجود اللصوص في الغاب بل وجدوا في الخبر عذرًا وتركوا اسحق يندب حظه على الصفة التي وجده عليها سادرك وقومه وقد ذكرناها فيما تقدم ثم وقعوا جميعًا في ايدي دي براسي ورفاقه وكان القوم على وشك ترك الهودج لو لم يقترب دي براسي وينظر فرأى ايفنهو فظن ايفنهو ان اللصوص من السكسون وان بذكر اسمه فائدة لشيوع اسمه بينهم · ولما علم دي براسي حقيقة الجريح لم يطاوعه شرف نفسه والشهامة التي لاحظنا وجودها فيه على الحاق الاذية بالفارس وهو في تلك الحالة من الضعف او افشاء خبره لفرنت — دي — بوف الذي لم يكن يعرف من الشرف والشهامة غير الاسم · ولكن اطلاق سراح مناظر في حب الفتاة التي اتى ما اتاه طمعًا في الحصول عليها هو فوق قدرة دي براسي وكرمه وعليه اتخذ طريقًا متوسطًا بين الخير والشر وامر اثنين من اتباعه بالبقاء على حراسة الهودج وابعاد كل من يروم الدنو منه ثم امرهما ان يجيبا على سؤال السائل بقولهما انهما قد قد استخدما هودج السيدة روانا الفارغ لنقل احد رفقائهما الذي جرح في اثناء المناوشة

ولما بلغا المعقل امرهما بنقل الجريح الى جانب منفرد من البناء والقيام على حراسته ولم ينتبه اليهما احد لان فرنت — دي — بوف والهيكلي كانا منهمكين ذاك باليهودية وهذا بابنته

وبينما كان الحارسان على نحو ما ذكرنا مرّ بهما فرنت — دي — بوف وسألهما عن شأنهما فاخبراه فامتعض وصاح : رفيق جريح ! لا عجب اذا هاجمت الاوباش المعاقل وتطالت اللصوص الى اغتصاب الحصون بينما تكون المحاربة والرماة ممرّضين للجرحى وحرّاساً حول اسرّة الاموات . الى الابراج ايها الجبانان والاّ فلقت رأسيكما بعصاي هذه »

— ولا احب لدينا من النزال وحماية الابراج جلّ رغبتنا بشرط ان تتوسط لنا لدى سيدنا اذ لا قِبل لنا بمخالفة اوامره وهو امرنا بحراسة رفيقنا القريب من الموت

— قريب من الموت ! اننا كلنا قريبون من الموت ان لم نهتم بحماية المعقل فاذهبا وانا اجد من يقوم مقامكما في مراقبة الجريح . هاي اورفريد ! انتِ ايتها العجوز الشوهاء ! انتِ ايتها الساحرة السكسونية اقيمي بجانب فراش هذا الجريح . واما انتما فهوذا قوسان فاذهبا بهما الى المرامي وارسلا سهامكما الى ادمغة السكسون والاّ . . . .

فانصرف الرجلان جذلين لاصوات الحرب طروبين — شان رجال ذلك العصر — بشبوب نيرانها وبذلك تحوّلت حراسة ايفنهو الى العجوز . ولما كان قلب هذه ودماغها يغليان بالبغضاء والاهتمام بامر الانتقام تنحت عن مركزها لليهودية برضى تام

﴿ ٢٩ ﴾

كثيراً ما تكون ساعة الخطر والضيق ساعة يتبادل فيها الشعور الرقيق وتكشف الاميال القلبية لان التهييج العمومي الناتج عن توقع نزول امر ذي بال يحوّل افكار الانسان عن قمع العواطف التي كان يخفيها فتظهر على الرغم منه . فلما وجدت رفقه نفسها

بالقرب من ايفنهو عجبت للسرور الداخلي الذي خامر قلبها من مجرَّد الاقتراب منه بينما كان الجميع يتوقعون حلول مصيبة . ولما جست نبضه وسألت عن حاله كان في يدها لين وفي صوتها رقة مظهرة بهما شعوراً كانت تروم اخفاءه . ثم اضطرب صوتها وارتجفت يدها واوشكت ان تنثني نفسها لو لم ينبهها ايفنهو بقوله: «هل هي انتِ ايتها الفتاة اللطيفة ؟» فاذكرها صوته البارد ان ما تشعر به لم يكن متبادلاً بينها وبين الشاب فافلت من صدرها تنهد عميق لا يكاد يسمع ثم استجمعت قواها وسألته عن حاله بصوت الصديق المهتم فقال : «نلت من العافية ما لم اكن لارجوه في وقت قصير كهذا فشكراً لكِ يا عزيزتي رفقه على البراعة التي اظهرتها في مداواتي»

فناجت رفقه نفسها بقولها : «يدعوني بيا عزيزتي رفقه ولكن صوته بارد ونبرانه لا توافق روح تلك الكلمة . جواده او كلبه احب اليه ولا شك من اليهودية المحتقرة»

واستأنف ايفنهو الكلام وقال . «ولكن اضطراب افكاري يزيد عن ضعف جسدي لانني قد فهمت من كلام الرجلين الواقفين على الباب انني اسير واذا صح زعمي وما تبينته من صاحب الصوت الاجش الذي ارسل الحارسين بهمة كنت في معقل فرنت — دي — بوف فما ادراني بما يصير اليه امرنا ؟ وكيف اتمكن من حماية والدي وروانا ؟»

فقالت رفقه في نفسها : «لم يذكر اليهودية ولا اليهودي فنحن لسنا منه في شيء هذا جزائي لانني ملت بافكاري اليه» ثم اطلعت ايفنهو على ما تعرفه من امر اسرهم ولم يكن ذلك يزيد عن قولها ان الميكلي بواجلبرت وفرنت — دي — بوف هما الامران في المعقل وانه قد احاطت بالمعقل فرقة محاربة لا تعرف من امرها شيئاً وانه يوجد في المعقل كاهن مسيحي ربما عرف اكثر مما تعرف هي . فصاح ايفنهو : كاهن مسيحي ! اسرعي يا رفقه وادخلي هذا الكاهن عليَّ لانني اود القيام بامرٍ ولا ادري بماذا اقوم .

عليَّ به يا رفقه كيف كانت الحال

نخرجت رفقه قياماً برغبة ايفنهو واعترضت سادرك وكان من امرها معه ما ذكرناه آنفاً . فرجعت الى ايفنهو مكرهة

ولم يمضِ على رجوعها وقت طويل حتى ازداد الهياج في المعقل وسمع في الدهاليز وقع اقدام المحاربة الثقيلة منتقلة بسرعة من مكان الى آخر واوامر القوّاد الى رجالهم وقرقعة الدروع وصليل السيوف . فاصفرّ وجه رفقه وزادت عيناها لمعاناً وامتزج خوفها بالاتكال على قدرة العلي فظهر الخوف في الصفرة والرجاء في اللمعان وقالت بصوت منخفض مقتبسة قول الكتاب المقدس : « هوذا شعب قادم من الشمال وامة عظيمة تقوم من اقاصي الارض تمسك القوس والرمح . هي قاسية لا ترحم . صوتها كالبحر يعج وعلى خيل تركب مصطفة كانسان لمحاربتكِ يا ابنة صهيون »

وكان ايفنهو كجواد الحرب طال به زمن الراحة وأُنف من الثواء وسئم فراشه فاهتزّ اهتزاز القناة شوقاً لان يكون احدى جمرات تلك الحرب ولما شاهد ضعفه صاح : « اواه هلا اتمكن على الاقل من سحب نفسي الى تلك النافذة لارى ما يؤول اليه امر هذا الحصار ؟ ألا سهم لي فارمي به بطلاً او فأس حرب اشج بها راساً واضرب ولو ضربة واحدة في سبيل خلاصنا ؟ عبثاً ارجو ! وهل تنفع الاواه ؟ اعزل انا وضعيف »

— لا تتأوّه ايها الفارس الشريف فربما عدلوا عن الحرب لان الجلبة قد انقطعت

— انتِ تجهلين احوال الحرب ايتها الفتاة . هذا السكوت يدل على ان كل محارب قد وقف في المكان المعين لوقوفه . والجميع على اتم الاستعداد يتوقعون المهاجمة وليس الذي سمعتِهِ الاّ صوت الصاعقة قبل انقضاضها . اواه من لي بمن يحملني الى تلك النافذة

— قد يعود ذلك عليك بالاذية ايها الفارس الشريف . ساقف في تلك النافذة

واصوّر لك ما اراه خارجاً بقدر امكاني

فصاح ايفنهو : « لا والله لا يكون ذلك لان كل نافذة وكل ثلة في المعقل سوف تصبح محطاً لسهام المحاصرين فاذا اصابكِ سهم ٠٠٠ »

وسكت ايفنهو فقالت رفقه : « حبذا ذلك السهم ! » واقتربت من النافذة بقدم ثابتة فصاح ايفنهو : « رفقه ! يا عزيزتي رفقه ! ذلك الموقف ليس موقف فتاة ٠ اياكِ وتعريض نفسكِ للجراح والموت لانه ان قُدّر وكان ذلك صرفت ما بقي من العمر حزيناً اسيفاً لانني كنت سبب موتكِ ٠ ولكن ان كان لا بدّ من وقوفكِ فاستري جسدكِ بذلك الترس القديم »

فاذعنت رفقه لمشورة ايفنهو ووقفت في النافذة تنظر الى الخارج ٠ وكانت تلك النافذة تطل على الباب الذي خرج منه سادرك وقد وصفناه عند ذكرنا خبر خروج السكسوني من المعقل وقلنا انه أخرج من باب يعبر منه الخارج على جسر مصنوع من قطعة خشب فوق الخندق المحيط بالمعقل فيبلغ المتاريس الخارجية ٠ وكانت هذه كناية عن جدار ليس بالمتين القوي فاذا امتلكه العدو تمكن المحاصَرون من التقهقر الى المعقل بواسطة الجسر ورفعه وراءهم فيصبحون في المعقل بينهم وبين العدو الخندق وتحصينات المعقل ٠ وعرفت رفقه من عدد المحاربة في تلك الجهة ان اصحاب المعقل يعلقون اهمية عظيمة على تلك النقطة

ولم يكن هذا كل ما كانت تتمكن رفقه من رؤيته فالنافذة كانت تطل ايضاً على ما وراء المتاريس من الارض والغاب ٠ وبعد ان استوعبت جميع هذه التفاصيل اعادتها على ايفنهو ثم قالت : « واني ارى اطراف الغاب مبطنة بالرجال مع ان الظاهر منهم جلياً عدد قليل »

— ما هي الراية التي يسيرون تحتها ؟

— لا ارى راية

— ان هذا من اغرب ما سمعته · طائفة تهاجم معقلاً كهذا ولا تنشر راية تعرف بها ! هل بينهم من تدل هيئتهم وحركاتهم على رتبة القواد ؟

— بينهم فارس بدرع سوداء اللون وهو الوحيد بينهم الذي يستره الحديد من قمة الراس الى اخمص القدم وارى اوامره تصدر الى جميع الجهات

— صفي لي الرمز المنقوش على ترسه

— ارى منقوشاً على الترس الاسود قضيباً من الحديد وبجانبه قُفل قيد والكل بلون ازرق

— قفل قيد وقضيب باب سجن بلون ازرق ! لا اعرف فارساً يحمل هذا الرمز وانا والله احق به من غيري الان · ما هو الشعار المنقوش بجانب ذلك الرمز ؟

— لا أكاد ارى الرمز لبعد المسافة ولكن عندما تقع الشمس على الترس اخال انني ارى ما ذكرته لك

— وهل هو القائد الوحيد بينهم ؟

— لا يوجد بينهم غيره يلفت الانظار ولكنني لا اشك بوجود غيره لانه لا بدَّ من جماعة ثانية تحاصر المعقل من الجهة الاخرى · هوذا اراهم يتقدمون · احرسنا يا اله صهيون ! ما اشد هول هذا المنظر ! الصف المتقدّم يحمل تروساً طويلة ومظلات من الخشب والصف الذي يتبعه اقواساً · لووا اقواسهم · يا اله موسى ارحم عبيدك واغفر للانسان الذي صنعته يداك

وقطع كلام رفقه النفخ في ابواق المهاجين اشارة للهجوم ومجاوبة المحاصَرين على تلك الابواق بمثلها وعقب ذلك هتاف الهاجين بقولهم : « مار جرجس لحماية انكلترا السعيدة ! » وهتاف المحاصرين بقولهم: « هيا يادي براسي ! الى الامام يافرنت — دي

— بوف ! » وكانت كل جماعة تهتف متكنية باسم قائدها · ولكنه لم يكن من غرض المتحاربين ابتياع الغلبة بالصياح والهتاف بل بالطعن والضرب وباظهار كلٍّ غاية ما لديه من القوة والحذق والشجاعة

وكانت سهام الماجبين كسحابة كثيفة ولما كانوا يحسنون الرماية لممارستهم اياها الطويلة لم يفتهم ثقب او ثلمة او نافذة في المعقل زعموا ان وراءها رجالاً الاّ صوّبوا نحوها سهامهم فقتلوا بذلك ثلاثة او اربعة رجال من رجال المعقل وجرح نحو من عشرين على الرغم من قيامهم وراء الجدران · واما خسارة المهاجبين فكانت اعظم لانهم كانوا معرّضين لسهام حامية المعقل ومقاليعهم وما اشبه من ادوات الدفاع · واشتد الهجوم ولم يعد يسمع سوى صفير السهام في اختراقها الهواء وصيحات الحرب الحين بعد الحين من احد الجانبين

وبينما كانت الحال على ما ذكرنا صاح ايفنهو : « أمن العدل ان الصق بالفراش كراهب كسلان والحرب التي يتوقف عليها موتي وحياتي تستمر في الخارج ؟ الّتي بنظرك الى الخارج ايتها الفتاة ولكن اياكِ ان يصيبكِ سهم وانظري هل واظب المهاجمون على الهجوم »

فاقتربت رفقه من النافذة وكانت قد تشددت عزائمها بصلاة تلتها واستترت بالترس ونظرت الى الخارج

— ماذا ترين يا رفقه ؟

— لا ارى شيئاً سوى سحابة من السهام تخطف البصر وتحجب الرجال التي ترميها عن العين

— لا خير في سهام اغراضها حجارة صماء فان لم يقتربوا من المعقل ويأخذوه عنوةً بقوة الساعد والذراع ساء ما يعملون · ابحثي بنظركِ يا رفقه عن الفارس الاسود

واذكري لي حركاته لانه كالقائد كذلك الجنود

— ها هو ! ها هو !

— تباً للجبان ! ايترك الربان الدفة عند ما يشتد هياج الريح ؟

— لم يتركها ! لم يتركها ! اني اراه الان فهو في طليعة جماعة وراء التحصينات الخارجية · قد انتزعوا حجارة تلك الجدران بايديهم · قد حطموها بفؤوسهم · ارى الريشة السوداء تتموّج فوق رؤوس القوم كانها غراب يحوم فوق ساحة الموت · فتحوا ثلمة في الجدار · دخلوا منها · ردّهم فرنت — دي — بوف لانه في طليعة الحامية وقد عرفته من كبر جثته · رجعوا · يا اله يعقوب ! هما بحران متلاطمان

وحوّلت رفقه نظرها عن النافذة كانها لا تقوى على رؤية ذلك المشهد بعد · فصاح ايفنهو : « عودي الى النافذة ولا تخافي من السهام الان لانهم قد اقتربوا بحيث اضحى القول للسيف »

فعادت رفقه الى النافذة ولم تكد تبلغها حتى صاحت : « يا ايها الاله العظيم ! فرنت — دي — بوف والفارس يتحاربان يداً ليد بجانب الثلمة بين صياح رجالهما الذين ينتظرون النتيجة · اضربي ايتها الالهة على يد الظالم وساعدي المظلوم وافتحي للاسرى باباً للنجاة ! »

وتوقفت بغتة ثم صاحت صيحة عظيمة : « سقط ! سقط ! »

— سقط !! من ؟ من ؟ افصحي اكراماً لوالدة الاله

— « الفارس الاسود ! الفارس الاسود ! » وتوقفت ثم صاحت بغتةً : « لا · لا · يتمجد اسم رب الجنود · هوذا قد نهض وهو يضرب كانما بيمينه قوّة عشرات من الاشداء · تحطم سيفه · تناول فأساً من احد رجاله · هوذا ضرباته تتساقط على فرنت — دي — بوف دراكاً · هوذا ذلك الجبّار يهتز كسنديانة قوية تقطع جذعها فأس

محنطب · سقط ! سقط ! »

— فرنت — دي — بوف ؟

— فرنت — دي — بوف · وقد هجم رجاله لنجدته يتقدمهم الميكلي فاضطر الفارس الاسود الى التوقف وقد سحبوا فرنت — دي — بوف الى ما وراء الاسوار

— ألم يأخذ المهاجمون المتاريس الخارجية ؟

— بلى اخذوها وها هم يهاجمون الاسوار التي وراءها · قد رفعوا عليها السلالم · تسلقها قوم كانهم النحل · بعضهم يقف على اكتاف بعض لينالوا طرف الجدار والحجارة وجذوع الاشجار تسقط عليهم من المعقل كانها البرد فاذا سقط احدهم حمل الى المؤخرة واخذ مركزه غيره · يا الله السموات هل خلقت الانسان على صورتك ومثالك لكي يشوّه تلك الصورة وذلك المثال انسان آخر !

— ما لكِ ولهذه الافكار الان يا رفقه · مَن تقدّم ؟ مَن تأخر

— لقد طرحوا السلالم والمهاجمون يتنفشون تحتها كانهم النمل واصحاب المعقل موفقون

— اضرب يا مار جرجس معهم ! هل تأخر الرماة ؟

— كلاّ · كلاّ · فهم شجعان · لقد عاودوا الهجوم قد اقترب الفارس الاسود بفاسه العظيمة من المدخل · يا لتلك الضربات ! فانك تسمع وقعها يتعالى فوق تلك الجلبة والصياح · الحجارة تسقط حواليه كالبرد وهو لا يبالي بها

فرفع ايفنهو نفسه على ذراعه وقد تملكه التحمس واشرق جبينه وصاح : « لا اعرف في انكلترا كلها سوى رجل واحد يقوى على ضرب هذه الضربات »

فاستأنفت رفقه الكلام وقالت : « ارى المدخل يهتز · انفلق · تحطّم · دخل المهاجمون · تناولوا حامية الجدران وداسوهم · رموا بهم الى الخندق · اواه يا ايها الانسان

ان كنت انساناً فارحم من لا قدرة له على حماية نفسه !

— الجسر ! الجسر ! هل اخذوا الجسر الذي يوصل الى المعقل ؟

— كلاً . فالميكلي تمكن من رفع الاخشاب التي تقهقر عليها مع عدد قليل من رجاله وهذا الصراخ الذي تسمعه ينبئك بصرع الذين تخلّفوا خارجاً . ويلاه ارى منظر النصر اشد هولاً من منظر الغلبة

— ماذا يفعلون الان ايتها الفتاة ؟ تشجعي وانظري فهذا ليس وقت الاغماء من مشاهدة الدماء

— سكتوا الان قليلاً واصحابنا يحصنون انفسهم في المتاريس التي ربحوها واخال ان هذه تقيهم سهام المعقل

— لا اخال اصحابنا الا متممين هذا العمل المجيد فقد احسنوا البداية . لا والله فرجائي بالفارس الاسود الذي قدّت فأسه الواح السنديان وقطعت قضبان الحديد »
ثم خفض صوته كانه يخاطب نفسه وقال : « امر غريب وهل يوجد رجلان بهذه الشجاعة الغريبة والقوة الفائقة ؟ قفل وقضيب مرسومان بلون ازرق على الترس الاسود ! ما هو معنى هذا الرمز ؟ يا رفقه هل ترين شعاراً على ترس الفارس الاسود »

— كلا فكل ما يحيط به سواد في سواد ولا يوجد عليه ما يستحق النظر غير شجاعته وقوّته ولا اشك في انني اتمكن من معرفته بين الوف من الفرسان . كان يهجم الى اشد المواقف خطراً كانه سائر الى وليمة ففي هذا الفارس شيء اعظم من القوة الحيوية المجرّدة وكأني بروحه وقلبه وحواسه جميعها كانت تنضم الى قوّته عندما يضرب منازليه . ليغفر له الله خطيئة سفك الدماء ! في النظر الى الدماء مسفوكة رعب وهول عظيمان ولكن مشاهدة رجل يلتقي المئة بصدر رحيب تشرح الصدر وتبهج النفس

— لقد مثلت لي يا رفقه بوصفك احد الابطال العظام . ولا اخالهم الان الا توقفوا قليلاً ليستعيدوا انفاسهم و يهيئوا واسطة لعبور الخندق ففارس كالذي وصفته لا يؤخره خوف ولا صعوبة فبازدياد المصاعب ازدياد المجد وانني وشرف قومي وحب مليكة فؤادي لابتاع ساعة واحدة احارب فيها بجانب ذلك الفارس بعشر سنين في ذل الاسر

فاقتربت رفقه من فراش الفارس وقالت : « وا اسفاه هذا التهيج يؤخر شفاءك فكيف ترجو ان تصيب غيرك بجراح قبلما تبرأ جراحك ؟ »

— يا رفقه يصعب عليك فهم احساسات الرجل الذي اعتاد خوض المعارك عندما يرى غيره يحارب حوله وهو عاجز عن رفع يده فهو لا تمكن من الاخلاد الى السكينة وعدم التأثر كالكاهن والمرأة . نحن رجال الحرب غذاء اجسادنا حب الحرب والهواء اللازم لحياتنا هو ذاك المزوج بعثير المعامع . نحن لا طمع لنا بالحياة ما لم يكن النصر حليفاً والشهرة من بعض الخدم . هذه هي ايتها الفتاة شرائع الفروسية التي نقسم على حفظها والتي نضحي كل شيء في سبيلها

— وا اسفاه وهل في اعمالكم هذه سوى ضحية على مذبح المجد الباطل ومرور في النار الى ذراعي مولوك ؟ ماذا يبقى لكم من الدماء التي تسفكونها — من المشقات التي تحتملونها . من الدموع التي تكون اعمالكم سبباً في ذرفها — ماذا يبقى لكم عندما يحطم الموت رمح الجبار ويكسر قوائم جواده ؟

— ماذا يبقى ؟ المجد ايتها الفتاة المجد الذي يذهب قبورنا ويخلد اسماءنا

— ليس ذلك المجد سوى مسمار اكله الصدأ معلق فوق قبر الفارس المتداعي الى الخراب . ليس سوى عدد من الكلمات منقوشة على نصب ضريحه ولا يكاد الكاهن يتمكن من قراءتها للمارة . فهل تقوم هذه بحق الجزاء على حياة نقضت بالتعس ويجلب

الشقاء للبشرية ؟ وهل تقوم مقام عواطف الانسانيــة المبذولة ؟ وهل زالت المحبة العائلية واضمحلت العواطف الرقيقة وقضى السلام والسعادة فاضحى هم الانسان ان يكون بطل قصيدة ينشدها احد سوقة المغنين على مسمع جماعة من السكارى

— اراكِ تصدرين حكماً جائراً على امر لست منه في شيء. اراكِ تطفئين نور الفروسية اللامع الذي لولاه لما عرف الفرق بين الجبان الساقط والشجاع الشريف— ذلك النور الذي يرفع بالشرف الى اعلى المراتب ويجعلنا نفضله على الحياة نفسها وينزهنا عن الاهتمام بالمصائب والاتعاب وينزع من قلوبنا رهبة كل شيء عدا العار. انتِ لستِ بمسيحية يا رفقه ولذلك تجهلين الشعور الذي يستمر في قلب الفتاة المسيحية عندما ترى حبيبها قد نال امراً صعب المنال بقوة ذراعه ورباطة جأشه وشرف خصاله وبرهن بذلك عن خلوص حبه ومقدار ذلك الحب. الفروسية ايتها الفتاة مرضع الانسان الحنون وملجأ للمظلوم وشكيمة للظالم ولولاها لكان الشرف اسماً لغير مسمّى الفروسية حصن الحرية وسيفها ورمحها

— صدقت ايها الفارس الشريف فانا ابنة قوم اشتهروا قديماً بالشجاعة ولكنهم ما كانوا ليقوموا الحرب ما لم يأمرهم بها الههم او يكون في سبيل الذب عن بلادهم وابعاد نير العبودية عن ابنائهم. واما الان فرجال يهوذا لا يهبون لصوت بوق يهوذا وابناء اولئك الابطال اصبحوا منفذاً يظهر فيه الظلم العسكري. احسنت يا سيدي الفارس فان لم يقم الرب من بين بني اسرائيل جدعوناً آخر او مكابيين اخرين فلا يحق لابنة اسرائيل ان تذكر المعارك او الحروب او الفروسية

وانت تلك الفتاة العاقلة على آخر كلامها بصوت منخفض كانها تشعر بالاحتقار اللاحق بقومها وربما كان سبب انخفاض صوتها وانحناء رأسها مرارة شعرت بها في نفسها لان ايفنهو عدّها ليست اهلاً للنظر في مسألة تتعلق بالشرف وان لا اثر

للشرف والكرم في قلبها · ثم تحوّلت عن ايفنهو وناجت نفسها قائلة : « ما اشد جهله بما يحويه هذا الصدر ! أمن العدل ان يزعم انه خِلْوٌ من كل عاطفة شرف وشجاعة لانني انتقدت اعمال المسيحيين ؟ حبذا لو تمكنت من رد سبي يهوذا بسفك دم قلبي نقطة نقطة · لا بل حبذا لو استطعت بذلك خلاص والدي وهذا الشاب الذي احسن اليه من ظلم صاحب هذا المعقل فيعلم اذ ذاك هذا المسيحي المتكبر انه يوجد في صدر اليهودية شرف يضاهي شرف احدى تلك المسيحيات اللواتي يفتخرنَ بانتسابهنَّ الى رئيس حقير في الشمال المتجمّد »

ثم التفتت الى فراش ايفنهو وقالت : « لقد نام ولا عجب اذ جهد النفس بما لا فائدة منه فالطبيعة تنتهز اوّل فرصة لتنال حقوقها ولترجع القوة المفقودة · وا اسفاه هل يعدُّ نظري اليه خطيئة وهي ربما كانت آخر مرة اراه فيها ؟ مَن يضمن لي تلك الروح التي تنير هذه الظلمة وتشرق في هاتين العينين فلا تزول بزوال النهار ؟ حينئذٍ يتمدّد المنخران ويرتخي الفم وتجمد العينان ويدوس احقر خدم هذا المعقل الملعون على الفارس الشريف وهو لا يبدي حركة · يا ابي ؟ آه يا والدي ! الويل لابنته ان انساها شعور الشباب الشقراء ذلك الراس المشتعل شيباً · ما ادراني ان هذه المصائب قد ارسلتها السماء قصاصاً للابنة الكافرة التي اهتمت بالغريب قبل الاهتمام بوالدها · مَن يعرض عن وحدة يهوذا وينظر الى المسيحي ؟ سوف استأصل هذا الجنون من قلبي ولو انتزعت معه عروق الحياة واحداً واحداً »

قالت هذا ولفّت رأسها ببرقعها وقعدت على الارض على مسافة من فراش الجريح وادارت له ظهرها راجية بذلك حماية نفسها من ويل في الخارج ومن ويل في الداخل اشدّ هولاً وفتكاً يفترس القلب ويلتهم الاحشاء

—*****—

﴿ ٣٠ ﴾

بينما كانت الفرقة الواحدة تستعد لمتابعة الهجوم والفرقة الاخرى تزيد موادّ الدفاع اجتمع الهيكلي ودي براسي في قاعة المعقل العمومية . ولما التقيا سأل دي براسي قائلاً : اين فرنت — دي — بوف ؟ سمعت انه قتل

— « بل هو حي » اجاب الهيكلي ببرودة . « لم يمت بعد ووالله لو كان لفرنت — دي — بوف رأس ثور وعليه من الدروع عشر مثل التي كان يلبسها لسقط تحت ضربات ذلك الفارس الماحقة ولكنه سيلحق بآبائه عن قريب ويخسر به البرنس يوحنا عضداً اقوياً »

— ويزداد جيش الابالسة زيادة تذكر . هذا جزاء من يهزأ بالقديسين والامور المقدسة ويأمر بتماثيل هؤلاء فيرمى بها رؤوس المهاجمين

— انت احمق يا دي براسي فوساوسك الدينية تشبه كفر فرنت دي بوف اذ لا يقوى احدكما على اثبات ايمانه ولا الاخر على اثبات كفره

— مجّد الله يا سيدي الهيكلي ! ورجائي منك ان لا ترخي للسانك العنان عندما اكون انا موضوع الحديث لان ايماني وحق والدة الاله اعظم من ايمانك فقد شاع ان طغمة الهيكل تعدّ بين رجالها عدداً ليس بالقليل من الكفرة والهيكلي بواجلبرت احدهم

— لا تهتم بهذه الاشاعات ولكن ما لنا ولهذا البحث الان فالمهم حماية المعقل . كيف كان حرب هؤلاء اللصوص في جهتك ؟

— حاربوا كالابالسة يتقدمهم الرامي الذي ربح الجائزة في ميدان اشبي وقد عرفته بواسطة البوق الذي ربحه . هذه نتيجة سياسة فتزور الخرقاء التي كان منها ان تقوّى العبيد واقدموا على حرب الموالي . والله لو لم تكن درعي امتن مما نسجلما كنت تراني امامك الان فالنذل لم تفته من احداق الدرع واحدة الا جعلها هدفاً لسهامه الصائبة

— ولكنك تخسر خسارتنا فنحن قد خسرنا المتاريس والتحصينات الخارجية

— هذه مصيبة فالتحصينات تقيهم شر سهامنا وربما تمكنوا من تسلق البرج من نافذة مهملة ونالوا منا مأرباً فرجالنا اقل من ان نقوى على حماية المعقل بكامله كما يجب كيف ترى يا سيدي الهيكلي ألا ترى ان من الصواب ان نرد الاسرى الى هولاء اللصوص ؟

— انظر كيف تقول يا دي براسي هل نرد الاسرى ونصبح اضحوكة في افواه العالم قاطبةً انني والله اسمعهم باذني يقولون عندما يشيع الخبر ان جماعة من الفرسان الاشداء تمكنوا من اسر جماعة ضعيفة في الليل ولكنهم لم يقووا على رد جماعة من اللصوص والعبيد وهم داخل ابراج معقل حصين ولااستطاعوا حماية غنائمهم

— هيا بنا الى الاسوار اذن فوالله لم يُخلق بعد رجل لا قيمة عنده للحياة فيحتقرها احتقاري لها وما قلته لم يكن عن جبن او خوف او عن تمسك بالحياة ولكن هل في ابداء الرغائب عار ؟ حبذا لو كان لديّ شرذمة من رجالي الاشداء وحبذا لو عرفوا حاجة قائدهم اليهم اذن لرأيت رايتي تخفق فوق غابة من الرماح تنخلع لمرآها قلوب هولاء الانذال فكيف بهم وقد ذاقوا لسعها ؟

— لك ان ترجو ما شئت شرط ان لا نضيع الوقت ونقوّي المعقل جهدنا فمعظم الحامية من رجال فرنت — دي — بوف الذين يبغضهم الانكليز بغضاً عظيماً لتعديهم وظلمهم

— هذا يوافق غرضنا لانني اوكد ان رجال فرنت — دي — بوف يحاربون لآخر نقطة من دمهم ويفضلون الموت على الوقوع بين ايدي مبغضيهم فهيا بنا وسترى دي براسي يحارب حرب من يسري في عروقه دم شريف

— الى الاسوار اذن

واخذا يتنقلان من مكان الى آخر على ابراج المعقل يشددان عزائم الرجال وقد عزما ان لا يفوتهما باب من ابواب الشجاعة والبسالة والحذق الاّ طرقاه · وعلم الرجلان انّ النقطة الشديدة الخطر هي النقطة التي ربحها العدو وانهم ان اظهر قائدهم حذقاً في الهجوم نظير الحذق الذي اظهره اولاً كان من همه ان يشدّد الحصار على تلك النقطة ويضطر رجال المعقل الى سحب رجالهم اليها ليمنعوه من الدخول وبذلك تخلو نواحي المعقل فيغتنم الفرصة ويبعث بعض رجاله تتسلق الاقسام الخالية · ولكي يتقيا هذا الشر جمعا ما امكنهما من الرجال في تلك النقطة وفرّقا عدداً قليلاً منهم على الاسوار على مسافات قصيرة بحيث يسمع واحدهم الآخر اذا ناداه وامراهم بان يشدّدوا المراقبة فاذا ظهر لهم العدو تناقلوا الخبر من الواحد الى الآخر فيبلغ القائدين بسرعة · واتفق القائدان ايضاً على ان تسلّم حماية مدخل المعقل الى دي براسي يعاونه الهيكلي بطليعة عشرين رجلاً ولكن عليه (الهيكلي) ان يظلّ متأهباً للاسراع الى ايّ جهة من المعقل تقتضي النجدة

وبما كان يزيد موقف الحامية حرجاً اقتراب المهاجمين من الاسوار بحيث لم تعد تتمكن من رؤيتهم لارتفاع الاسوار والابراج · هذا من جهة واحدة ومن الجهة الاخرى كانت الانجم والادغال كثيفة جداً والتحصينات الخارجية رفيعة بحيث يقوى المهاجمون على ارسال رجالهم الى اي جهة ارادوها دون ان يراهم اصحاب المعقل ويتهيأوا لملاقاتهم

وبينما كانت هذه الاستعدادات تجري في جهات المعقل كان صاحب المعقل مطروحاً على فراش من الاوجاع الجسدية والآلام الداخلية · تلك لانه جريح متألم وهذه لانه لم يكن في قلبه درهم من الايمان او الوساوس والاوهام الدينية شأن ابناء ذلك العصر الذين كانوا يسكتون توبيخ ضمائرهم بتقدمات مالية الى الكنيسة معتقدين

انها تقوى على غفر خطاياهم وتحرير ضمائرهم من عذابها . ولا يخفى ان عملاً كهذا لم يكن يأتيهم الاَّ براحة موهومة نسبتها الى الراحة الناتجة عن توبة حقيقية نسبة الراحة الناتجة عن نوم مصدره تخدُّر الاعصاب بمفعول الافيون الى نوم الصحة والعافية الطبيعي . ولكن هذه كانت اوهام اهل ذلك العصر ولكل امرىء من دهره ما تعوَّد

اما فرنت — دي — بوف فكان رجلاً احب خصاله اليه الاحسان فكان يفضّل مناصحة اهل الكنيسة ونهيهم على طرح امواله على اقدامهم وقد اخطأ الهيكلي وهو كافر بمعنى آخر بقوله ان رنت دي بوف لا يستطيع اظهار برهان واضح لكفره وبغضه الطقوس المعروفة لانه لو استنطق فرنت — دي — بوف برهانه لاجابه ان الكنيسة تطلب مقابل الخلاص والراحة النفسانيــة ثمنًا باهظًا وانه يفضّل الهلاك على ابتياع الخلاص بثمن كهذا

غير ان فرنت دي بوف كان قد بلغ تلك الساعة التي يرى فيها الانسان هذا العالم وكنوزه تزول من امام عينيه وتضمحل وتظهر امامه ظلمة الابدية . نخفق قلبه الذي لم يكن اقل صلابة من حجر الرحى . وزادت حمى الجسد آلام النفس والضمير وقللت من اصطباره واضحى فراش موته معتركًا بين الرعب من الآتي وصلابة العنق الموجودة فيه طبعاً . وهذه احدى الساعات التي يساوي ألم النفس آلام القائمين بتلك المساكن الجهنمية حيث ترتفع الشكوى ولا رجاء وحيث يشتد تبكيت الضمير ولا توبة

وهال فرنت — دي — بوف انفراده بنفسه فصاح :

« اين ذلك الكاهن الكلب الذي يعلّق على هذه الروحاني اهمية عظمى ؟ اين اولئك الكرمليون الحفاة الذين بنى لهم جدّي ديراً ووهبهم املاكًا كثيرة مخلفًا حفيده فقيراً معوزًا ؟ اين تلك الكلاب النهمة ؟

هم يأْكلون المسمنات ويشربون المعتقات او يحتالون على مال بخيل على فراش

للموت واما انا ابن الذي اسس طغمتهم وملأ اجوافهم فيتركوني اموت ككلب في الازقة عليّ بالهيكلي فهو كاهن . ولكن لا خير لي ان اعترف للشيطان لانه لا هيبة في قلبه للسماء ولا وجل من جهنم . سمعت العجائز تذكر الصلاة — صلاة تغني عن رشوة الكاهن ولكنني لا اجسر على الصلاة

وقطع كلامه صوت متقطع بجانب فراشه يقول : « هل بلغ من فرنت دي بوف ان قال انه يوجد في العالم ما لا يجسر على اتيانه ؟ »

تخيّل لفرنت — دي — بوف نظراً لتهيج اعصابه ان الشيطان الذي تدعي الكهنة انه يأتي اسرّة المحتضرين ليحوّل افكارهم عن مصالحهم النفسانية قد اقترب منه فارتعدت فرائصه وتململ في فراشه . ولكنه بعد قليل قال : « مَن انت يا من تجسر على قطع كلامي بصوت كانه صوت غراب البين ؟ اقترب من فراشي لاراك

— انا ملاكك الشرّير يا فرنت — دي — بوف

— دعني اراك بالجسد لاعلم ان كنت شيطاناً حقيقياً . اقترب مني فوالله لا اخافك ولولا عذابي وضعفي لنازلتك يداً اليد كما نازلت غيرك من البشر ممن لا يقلون عنك شراً واذ ذاك تشهد جهنم والسماء انني لا اخشى نزالك

— اذكر خطاياك يا فرنت — دي — بوف . اذكر عصيانك . اذكر ظلمك . اذكر القتل الذي ارتكبته . اذكر الرجل الذي حرّض البرنس يوحنا على محاربة ابيه وعلى اغتصاب حقوق اخيه

—ان كنت عفريتاً او كاهناً او شيطاناً فقد كذبت . لم اكن الوحيد الذي حرّض البرنس على العصيان بل كنت واحداً من خمسين من زهرة فرسان البلاد فهل من العدل ان احمل خطيئة الخمسين ؟ اليك عني واتركني اموت بسلام ان كنت بشراً او شيطاناً فوقتك لم يأت بعد

— لن تموت بسلام · اذكر وانت على فراش موتك القتل الذي ارتكبته · اذكر الزفرات التي تصعدت في اقبية هذا المعقل ورددت جوانبه صداها · اذكر الدم الذي امتزج بأتربته

— لن تقوى على اخضاعي بهذه الشكوى الطفيفة وهذه التذكارات التافهة · اذا لم يجز قتل اليهودي فكيف يجوز تلطيخ اليدين بدم السلجوقي والتركي؟ واما السكسون الذين قتلتهم فقد كانوا اعداء بلادي واعدائي واعداء ملكي

— اذكر اباك ! اذكر دمه الذي جرى في قاعته والذي سفكه ابنه

فصمت فرنت دي بوف هنيهةً ثم قال: « ها ! وهل تروي تلك الحادثة ايضاً ؟ انك والله ابو الشر واخوه · كنت اظن ان ذلك العمل قد اخفاه صدري وصدر تلك المجرّبة الاثيمة الى الابد · اغرب عني ايها الشيطان واقصد السكسونية وهي تخبرك لانها كانت شريكتي في الاثم اذهب الى تلك التي غسلت الجراح ومدّدت الجثة كأن الروح قد فارقتها فراقاً طبيعياً · اذهب فهي التي اغرتني ويجب ان تنال اعظم نصيب من هذا العذاب

— « لقد نالت نصيبها » وتقدمت العجوز من الفراش فوقع نظر الرجل عليها · ومضت في كلامها فقالت: نعم لقد نالت نصيبها وقد طالما كرعت في تلك الكاس المرّة حتى اضحى طعمها الان حلواً وقد زادها حلاوة رؤيتي اياك تكرع فيها · لا تصرّ اسنانك يا فرنت — دي — بوف ولا تضم يدك بالتهديد وتهزها في وجهي فيمينك التي اشبهت بقوّتها يمين جدّك الذي كان يقتل بضربة واحدة منها ثوراً اصبحت ضعيفة لا قوة فيها ولا حياة .

— هل انتِ هي ايتها العجوز ؟ وهل اتيتِ لترني ابتهاجكِ لدى الخرابة الذي جرّبتِهِ على هذا البيت ؟ ·

— أجل انا هي يا فرنت — دي — بوف · انا أُلريكا ابنة تركول المقتول واخت ابنائه الذين ذُبحوا ذبح النعاج · انا تلك الفتاة التي طالبتك وتطالب بيتك بعز مفقود ومال منهوب وشرف مسلوب · اذكر ما لحق بي بسببك من العذاب والآلام · كنت ملاكي الشرير فاصبحت ملاكك وساتبعك الى ان يضمحل هذا الجسد

— لن تري والله ذلك اليوم · يا اوستس كايل اسطفان امسكوا هذه العجوز والقوا بها من البرج الى الارض فقد خانتنا · اين انتم ايها القديسون ! اليّ ايها الجناء !

فتبسمت العجوز ابتسامة الاستهزاء وقالت : « أعد النداء ايها البارون السافل ! أعد النداء لعلهم لم يسمعوا صوتك · القهم في اقبيتك لعدم تلبيتهم دعوتك » ثم غيرت نغمتها بغتةً وقالت « اعلم انهم لن يسمعوا نداءك ولن يقبلوا على صياحك · اصغِ الى هذه الاصوات » · وكانت جلبة الحرب قد ارتفعت ثانيةً « ففي تلك الاصوات سقوط بيتك والمنزل الذي مزج فرنت — دي — بوف طينه بالدم سوف يسقط تحت اقدام الشعب الذي كان يحتقره اشد الاحتقار — تحت اقدام السكسون · يا فرنت دي بوف هوذا السكسون يتسلقون جدران معقلك فلماذا لا تنهض وتصدهم ؟

— رحماكِ ايتها الملائكة وايتها الشياطين هبيني قليلاً من القوة لارمي بنفسي بين القوم واموت كما يجب ان يموت الرجل الذي يتسمى باسم ابي

— لا تطمع في ذلك ايها الفارس الشجاع فلسوف تموت موت الثعلب في وجاره عندما يحرق الفلاح الزرع

— خسئتِ ايتها العجوز الملعونة فاسواري رفيعة ورجالي اشداء ورفاقي اعزّ من ان يخضعوا لعصابة من اللصوص · احمي هتاف الهيكلي ودي براسي وشرفي انهما سوف ينتصران وسوف ابقى لاراكِ تنتقلين من نار الارض الى نار الجحيم

— حافظ على المعتقد الى ان ترى ما يكون · ولكن لا ! يجب ان تعرف مصرعك

ليزداد عذابك · انظر الى هذا الدخان الداخل الى هذه الغرفة انه دخان حقيقي وليس غشاوة الموت التي تغشى عينيك · هل تذكر يا فرنت دي بوف مستودع الوقود الموجود تحت هذه الغرفة ؟

— وهل اشعلت فيه ناراً ايتها المرأة ؟ اي والله فعلت وهوذا المعقل تلتهمه السنة النار المندلعة .

— ان لم تكن قد التهمته بعد فلسوف تفعل وسارفع للمهاجمين علامة ليشددوا الهجوم لكي لا يتمكن قومك من اخمادها · الوداع يا فرنت دي بوف وليحط بالفراش الذي سوف تبتعد عنه هذه العجوز آلهة الشر · ولكن اعلم لعل المعرفة تسرّي عنك بعض همك ان العجوز ستهلك معك لانها تقصد الشاطيء الذي تقصده وستشاركك في موتك كما شاركتك في شرّك · الوداع ايها الظالم ومن لي بألسنة توضع في فم كل حجر من حجارة هذا المعقل لتناديك بهذا الوصف

واذ قالت هذا خرجت من الغرفة وسمع فرنت دي بوف قلقلة المفتاح في القفل فعلم ان لا رجاء له بالخلاص وكان هول الموقف قد ذهب بعقله فاخذ يصيح باعلى صوته قائلاً : اليّ ايها الخدم ! اليّ ايها الهيكلي يا دي براسي · انني اموت اختناقاً ! اتتركون سيدكم تاكله النار ايها الخدم الكافرو النعمة ؟ اتتركون حليفكم يموت اختناقاً ايها الفرسان الجبناء ؟ وزاد رعبه فاخذ يصيح تارة صياح الحرب وطوراً يهتف هتاف الاستبشار وآونة يستغيث واخرى يلعن نفسه والعالم اجمع الى ان ظهرت النار في الغرفة فصاح : هوذا ارى اللهيب من خلال الدخان — الشيطان يسير تحت رايات من عنصره — ابتعد عني ايها الشرّير · اتزعم ان فرنت — دي — بوف هو الوحيد في هذا المعقل ؟ لا اتبعك وحدي ألا ترى الهيكلي الكافر ودي براسي الغادر والعجوز القاتلة والسكسون الانذال واليهودي ؟ هم والله جماعة تليق بمثلهم تلك الطريق

الجهنمية · وقهقه فرنت — دي — بوف وسمع صدى القهقهة فصاح : « هل انتِ هي ايتها الساحرة ؟ اجيبي فاغفر لكِ · انه والله لا يوجد غيركِ من يقدم على الضحك في ساعة كهذه »

وانه لتجديف ما بعده تجديف ان نعيد عبارات هذا الرجل التي كان ينطق بها في ساعة موته

« ٣١ »

مع عدم وثوق سادرك بكلام العجوز ووعودها ذكر امرها للفارس الاسود وللوكسلي ففرحا لتوفر صديق لهما داخل المعقل قد ينفعهم واتفقوا جميعاً على وجوب تشديد الحصار ومهاجمة المعقل بقطع النظر عن الخسائر لانهم لم يجدوا غير اخذ المعقل سبيلاً الى تحرير رفقائهم

فصاح سادرك « يجب اخذ المعقل فسليل الملوك اسير فيه

فقال الفارس الاسود « يجب اخذه لحماية شرف سيدة شريفة »

فقال لوكسلي « ان لم يكن في ذلك المعقل غير ذلك المهذار المسكين ومبا لوجب ان ان نضحي كل عزيز في جانب خلاصه وانني والله اتخلى راضياً عن اعضائي جميعها فداء لشعرة واحدة من شعر رأسه »

فقال الناسك « صدقت وشرف القديس دنستان ايها الرئيس ففتىً ينادمك ويزيد حديثه ونكاته شرابك لذة هو اهل بناسك يضرب الضربات الصادقات في سبيل خلاصه واذا قُدّر ومات يصلي عن نفسه ويستمطر عليه الرضوان »

قال هذا وهو يدوّر هراوته الثقيلة فوق رأسه كانها عصا راعٍ

فقال الفارس : « صدقت ايها الناسك البار فكلامك هو الحق ينطق به القديس دنستان نفسه ولكن يا لوكسلي ألا ترتإي ان يتولى قيادتنا الشريف سادرك »

فصاح سادرك « لا وابيك ما انا لها لعدم ممارستي طريقة الهجوم او الدفاع عن معاقل الظلم هذه التي رفعها النورمانديون على ظهر هذه البلاد المثقلة بالمظالم ولكنني سانتظم في سلك المحاربين واقدم في طليعة الهاجمين »

فقال لوكسلي : « انا اتولى قيادة الرماة بنفسي وانني اشترط على نفسي ان لا ادع من الاعداء مَن يظهر على تلك الابراج الاّ رميته من السهام بما يحوّل هيئته البشرية الى هيئة قنفذ »

فصاح الفارس : « احسنت والله ايها الرامي الشجاع وانكم اذا رأيتم فيَّ الجدارة لقيادة هذا الجيش فقدته لرأيتم فيَّ قلب فارس انكليزي صادق الخدمة بما حازه من الخبرة والحذق في فن الحصار »

وهكذا قسم الجيش الى قسمين وهاجموا المعقل واخذوا التحصينات الخارجية كما ذكرنا فيما سبق

وحالما أُخذت تلك التحصينات ارسل الفارس الاسود بالخبر الى لوكسلي لانه كان يهاجم المعقل من الجهة المقابلة وطلب اليه ان يشدّد المراقبة فلا تفترص الحامية فرصة يجمعون فيها قواتهم ويخرجون عليهم بغتة ليسترجعوا ما خسروه · وكان الفارس الاسود يخشى هذا الخروج لعلمه ان لا خبرة لرجاله بالامور الحربية وليسوا على استعداد تام للقيام بما عهد اليهم وليس لديهم من الاسلحة ما يكفيهم فاذا خرجت اليهم الحامية وهي على ما علمه القارىء من الاستعداد والتنظيم والتدريب يخشى من الاضطرار الى الجلاء عن الجانب الذي استولوا عليه وذهب تعبهم ضياعاً · وعليه كان جل اهتمام الفارس متابعة الهجوم وشغل الحامية به عن المراقبة · فامر رجاله باحضار الخشب وجذوع الاشجار واصطنعوا منها زورقاً واستغرق عملهم هذا وقتاً ليس بالقليل اسفوا له لولا حسبانهم اياه نهزة تنتهزها العجوز للقيام بما وعدت به وهو تحويل اهتمام الحامية

الى جهة اخرى. ولما انتهوا من الزورق وقف الفارس قبالة رجاله وصاح : ايها الرفاق ارى الشمس تنحدر مسرعة في الافق الغربي فيجب ان نبلغ ما اخذنا على عاتقنا القيام به قبل زوال النهار لان اموراً خصوصية وذات اهمية عظيمة تضطرني الى مفارقتكم في صباح الغد وفضلاً عن هذا لا يستبعد ان تفد على الاعداء نجدة من يورك تضرب في افقيتنا قبل تنفس الصباح فليذهب احدكم الى لوكسلي ويطلب اليه من قِبلي ان يزحف على المعقل ويتسلق جدرانه تحت غمامة من سهام رجاله الاشداء واما انتم يا شجعان انكلترا فاتبعوني وتأهبوا لدفع الزورق الى الخندق اذا فُتح هذا الباب واعبروا عليه ورائي لنغتصب مدخل المعقل والذي يرى نفسه غير اهل لعمل كهذا او مَن كان لباسه لا يدفع عنه الاذية فليقم في تلك المتاريس و يرشق بنباله كل من تراءى له على الابراج. فهل تقود هولاء ايها الشريف سادرك ؟

— لا وابيك وارواح اجدادي الاخيار فانا لست اهلاً للقيادة ولكنني ساتبعك حيث سرت فالحرب كانت بسببي ولانقاذي فهل يليق بي الا ان اكون في طليعة المهاجمين حيث يشتد البلاء

— ولكن ليس على جسدك من الحديد ايها الشريف غير تلك الخوذة وذلك الترس

— ذلك ما يساعدني على التسلق اذ ليس على جسدي ما يثقله او يعوقني عن التسلق فسترى اليوم يا سيدي الفارس — وتجاوز عن افتخاري — كيف يلاقي السكسوني شفار السيوف واسنة الرماح بصدره العاري

فصاح الفارس باعلى صوته : « اذكروا الله اذن وافتحوا الباب وادفعوا الزورق »

ففُتح الباب ودُفع الزورق فطفا على مياه الخندق ونال طرفه الواحد جدار المعقل وبقي طرفه الاخر في التحصينات التي استولوا عليها ولكنه كان ضيقاً لا يسع اكثر من

رجلين جنباً لجنب ومضطرباً بحيث لا تكاد تثبت عليه القدم

ولم يستقرّ الزورق على سطح الماء حتى نالته قدما الفارس الاسود يتبعه سادرك ومشيا عليه الى ان بلغا مدخل المعقل فمطر عليه الفارس الاسود ضربات فأسه فارتفع لها صوت كانه الرعد القاصف . وكان قد تبع الرجلين عدد من المهاجين ولكنهم لم يكادوا يخرجون من الباب حتى سقط منهم اثنان فتقهقروا الى المتاريس واقاموا يرشقون السهام منها . وكان موقف الفارس الاسود وسادرك حرجاً جداً لتعرضهما لسهام الحامية في البرجين اللذين ذكرنا وجودهما على جناحي الباب ولانكشافهما لتلك السهام تماماً لولا بقية من قوائم الجسر المتحرّك الذي حطمه الهيكلي في تقهقره . غير ان هذه لم تكن لتقيهما سهام وحجارة الحامية التي لولا سهام المهاجين المانعتهم من الظهور على الابراج او في المرامي لسقطت عليهما كالبرَد

ولما رأى دي براسي عجز رجاله عن رد الرجلين عن المدخل صاح بهم « ياللعار! افتدعون بعد انكم زهرة الرماة في هذه الناحية وقد عجزتم عن قتل هذين الرجلين؟ هاي! هاتوا مخلاً وارفعوا هذا الحجر » واشار الى حجر كبير في البرج « واطرحوه عليهما »

وللوقت شاهد المهاجون الراية الحمراء تخفق فوق البرج الذي ذكرته العجوز لسادرك وكان لوكسلي اول من رآها اذ كان قادماً ليرى ما فعله اصحابه . ولم تقع عينه عليها وعلى مركز الفارس الاسود حتى صاح

« مار جرجس لحماية انكلترا السعيدة! اهجموا ايها الرماة الشجعان . ويلكم ماذا ارى . التركون الفارس والشريف سادرك وحدهما في ذلك المركز يدخلان المعقل فريدين؟ اهجموا! ألا ترون تلك الراية؟ رفعها لنا اصحابنا في الداخل اشارة الهجوم اذكروا الشرف! اذكروا الغنيمة واهجموا هجمة واحدة صادقة وادخلوا المعقل!»

واذ قال هذا لوى قوسه وارسل بسهم الى قلب رجل كان يضع المخل تحت الحجر

ليلقيه على الفارس الاسود وسادرك فقتله · فتناول غيره المخل وما عتم هذا ايضاً ان سقط الى الخندق من سهم في صدغه · فلما رأى ذلك دي براسي صاح « عليّ بالمخل » ونقدم من الحجر وكان كبيراً اذا سقط حطم ما بقي من الجسر والزورق ومن عليه

ورأى المهاجمون حرج الموقف فتراجعوا عن الزورق حتى الناسك نفسه لم يجسر على الدنو منه · واما لوكسلي فرمى دي براسي ثلاث دفعات وفي كل دفعة كان يرتد السهم عن درعه كأن ذاك قطعة من الخشب وهذه من الصوان · فكاد يجن وصاح : « لعن الله صانع هذه الدرع الاسبانية فوالله لو كان صانعها انكليزياً لخرقتها هذه السهام كما تخرق قماشاً حريرياً · يا سادرك ! يا ايها الفارس الشجاع ! تنحيا عن المدخل · تنحيا عن المدخل ! »

ولكن انى لذلك الصوت ان يسمع وضربات فأس الفارس الاسود تضيع اصوات عشرين بوقاً من ابواق الحرب

بينما قلوب المهاجمين تخفق والحجر يتزحزح اذا بكارث قد وثب الى الزورق لينبه سيده الى الخطر او يموت معه والميكلي قد ظهر الى جانب دي براسي وهو يقول : « لقد خسرنا كل شيء يا دي براسي ! »

فترك دي براسي المخل والحجر وصاح في رفيقه : ويحك ما تقول ؟

— خسرنا كل شيء فالنار تلتهم الجانب الغربي من المعقل وقد عجزت عن اخمادها

— عليّ منارة ذهبية الى دير القديس · · · ·

فقطع الميكلي كلام رفيقه قائلاً : « ابق نذورك لنفسك واصغ الى ما اقول لك اجمع رجالك وافتح الباب حيث الرجلان واطرحهما في الخندق واسترجع التحصينات وانا اخرج من المدخل الاخر وانال المتاريس من الجهة الثانية فاذا بلغناها قوينا على حمايتها الى ان تأتينا نجدة او نعقد صلحاً مع القوم

— احسنت فساقوم بقسمي كما يجب فلا تخلَّ عني ايها الهيكلي

— معاذ الله فاسرع

فجمع دي براسي رجاله وانحدر الى المدخل وفتحه · ولم يكد يفعل ذلك حتى التقاهم الفارس الاسود بضرباته الماحقة فسقط اثنان تحتها وارتد الباقون على رغم تشجيع دي براسي وصياحه

— « ايها الانذال · ايعترض سبيلنا رجلان ؟ »

فاجاب احدهم : ولكن احدهما الشيطان بعينه

— وهل تهربون من الشيطان لتسقطوا في جهنم فالمعقل قد اكتنفه اللهيب · تخلوا لي عنه · تحوّلوا عن طريقي

وهجم على الفارس الاسود والتقاه بسيفه وترسه وكان لنزالهما ساعة تشيب لها الولدان · والحق يقال ان دي براسي حارب في تلك الساعة حرب الابطال المستبسلين ولكن ضربات فأس الفارس الاسود لم تكن ضربات بشر — اصابت احداها دي براسي فطرحته الى الارض ولولا ترسه الذي تلقى به الضربة لكانت تلك آخر سقطاته فاستل الفارس الاسود حربته وادناها من شبك خوذة خصمه وصاح : سلّم يا دي براسي . سلّم بدون شرط واحد والاَّ ذهبت بروحك

— لن اخضع لشخص لا اعرفه فاما ان تذكر لي اسمك او افعل بي ما شئت فوالله آبي ان يقال ان دي براسي سلَّم نفسه صاغراً لرجل يجهله

فهمس الفارس في اذن دي براسي بعض الكلام · فقال هذا بصوت الخاضع : سلَّمت غير مشترط شرطاً او مقدم وثيقة

— اذهب الى المتاريس وانتظر اوامري

فنهض دي براسي وهمَّ بالذهاب ولكنه توقف بغتة وقال : ايذن لي بكلمة واحدة

قبل الذهاب وهي : الفارس ايفنهو جريح مطروح في المعقل وان لم تسرع لخلاصه هلك في اللهيب

— ايفنهو !!! جريح وعلى شفا الهلاك ? والله لاذهبنَّ بروح كل بشر في هذا المعقل ان لحق بشعرة واحدة من شعور رأسه ادنى اذية . اين هو ?

— تسلَّق هذه السلم اللولبية فهي تؤدي الى غرفته . ألا تأْذن لي بتقدمك اليها

— كلاَّ ! اذهب الى المتاريس فلست آمن جانبك يا دي براسي

بينا كان الفارس الاسود يعالج دي براسي كان سادرك في طليعة جماعة من الرجال بينهم الناسك قد ردَّ رجال دي براسي الى الدار الداخلية حيث قتل بعضهم والبعض القى اسلحته

واما دي براسي فرمق الفارس الاسود بعين كئيبة وقال : « لا يأْتمني ! ولكن هل فعلت ما يجاب لي ثقته بي ? » واذ قال هذا تناول سيفه من التراب وخلع خوذته علامة الخضوع وخرج الى المتاريس حيث اجتمع بلوكسلي فسلمه السيف

ذكرنا فيما تقدَّم نوم ايفنهو ولكن مدة نومه لم تطل لان جلبة الحرب ارتفعت عن الاول فاستيقظ وطلب من رفقه ان تذهب الى النافذة وتعيد عليه ما يجري في الخارج ففعلت ولم تقم على ذلك سوى القليل حتى شهدت الدخان يدخل الغرفة فصاحت : « النار ! النار ! »

— انجي بنفسك يا رفقه فليس من قوة بشرية تقوى على خلاصي

— « سنخلص معاً او نهلك كذلك » . قالت هذا بصوت ثابت ثم صاحت : « ابي ! آه يا والدي المسكين ! »

واذا بالباب قد فُتح وظهر منه الهيكلي ملطخاً بالدم والدخان قد صبغ وجهه بلون الابالسة واكلت النار ريشة خوذته . فلما وقع نظره على رفقه صاح : قد وجدتك ولم

اخلف وعدي من مقاسمتكِ السرّاء والضرّاء · هيّاً اتبعيني »

— لن اذهب وحدي ! نجِّ والدي وهذا الفارس الجريح

— على الفارس ان يلقى حتفه ان بالسيف او بالنار كما يليق بالفارس ان يلقاه اما والدكِ فهو احقر من ان اهتم بامره

— ابتعد عني ايها المتوحش القاسي فخير لي ان اهلك من ان يكون خلاصي بيديك

— ان خياركِ ليس لكِ

ثم هجم على الفتاة واحتملها على ذراعيه كانها عصفور على الرغم من ممانعتها وصراخها وخرج بها من الغرفة · واما ايفنهو فلما شاهد فعل الهيكلي جحظت عيناه وصاح : « اترك الفتاة ايها الهيكلي الساقط ! اتركها ! ايفنهو يأمرك بذلك ! آه ايها النذل فوالله لا بدّ لي من نزع قلبك النجس من صدرك ولو تملقت باطراف السحاب

واذا بالفارس الاسود قد دخل الغرفة وهو يقول : « لولا صياحك يا ايفنهو ما عرفت مقرّك

— ان كنت فارساً صادقاً فاتركني واتبع ذلك النذل · خلّص السيدة روانا · خلّص الشريف سادرك

— « سوف يخلصون بدورهم واما هذا فدورك »

قال الفارس الاسود هذا واقترب من ايفنهو وتناوله بيديه القويتين واحتمله بالسهولة التي احتمل بها الهيكلي رفقه وركض به الى المدخل وسلمه الى رجلين ورجع لانقاذ من بقي

وكانت النار قد اكتنفت احد الابراج واخذت تشرف بالسنتها من جميع نوافذه ومن كل ثقب فيه واما المهاجمون فكانوا لا يزالون يضربون الحامية بحد السيف

ويتبعونهم من قاعة الى اخرى ومن دهليز الى آخر بين زفير النار واستغاثة المائتين
وكان سادرك يركض في اروقة المعقل بطلب روانا ويتبعه كارث يرد عنه ضربات الاعداء الى ان اسعده الحظ وبلغ غرفتها فوجدها قد قطعت كل امل من النجاة وضمت صليباً كان معها الى صدرها واقامت تنتظر الموت. فسلمها الى كارث ليقودها الى المتاريس الخارجية وطلب اثلستاين وومبا ليخلصها او يموت في سبيل ذلك. غير ان ومبا كان قد سبق سيده ووجد طريقاً للخلاص. ذلك انه عندما سمع صياح المحاربين لدى دخولهم المعقل تناول ترساً قديماً كان معلقاً على جدار القاعة واخذ يضرب به الارض بكل قواه ويصيح: «مار جرجس حمَى لانكلترا السعيدة! مار جرجس! مار جرجس!» وكان واقفاً على باب سجنهما حارس تركه الهيكلي حراستهما فظن الحارس ان العدوّ قد دخل المعقل وذهب ليخبر الهيكلي بما تم فاغتنم الاسيران فرصة غيابه وخرجا الى دار المعقل فوجدا الهيكلي على ظهر جواده يحيط به من بقي من الحامية يردّون ضربات المهاجمين بمثلها ويتأهبون للخروج دفعة واحدة من المعقل. وكان الهيكلي قد امر بالجسر المتحرّك على المدخل الكبير فانزل. ولكنه لم يكد يلامس الارض حتى عبر عليه المهاجمون. وكانت رفقه على جواد امام احد خدم الهيكلي وكان هذا رغماً عن الخطر المحدق به يرتد اليها الحين بعد الآخر يحميها من السهام بنفسه. غير ان عمله هذا لم يوقف رفقه عن الاستغاثة. وكان اثلستاين وومبا قد بلغا صحن الدار كما ذكرنا فرأى اثلستاين الفتاة ولم يكن السكسوني جباناً على ابطائه فصاح: «هذه والله روانا ولا بد من خلاصها»

فاوقفه ومبا وقال: «لا خير في العجلة هذه ليست بروانا ألا ترى شعرها الاسود؟ اذا كنت لا تفرق بين الاشقر والاسود فما انت اهل للقيادة ولا انا ممن يتبعك فاذهب ان شئت وحدك واذكر ان ثيابك هذه لا ترد عنك سيدي الهيكلي»

فافلت اثلستاين من يد وميا وتناول حجراً من الارض واخذ يضرب الفرسان فيرميها ذات اليمين وذات اليسار بحجره وقوته الغريبة التي زادها التحمس الى ان اضحى على مقربة من الميكلي فصاح به « تخلَّ عن الفتاة ايها الكاهن المارق ! اترك من لست اهلاً ان تلمس يدها » واغتصب حربة من رجل كان بجانبه وهجم على الميكلي فوقف هذا في سرجه وهوى على اثلستاين بسيفه فتلقى هذا السيف بالحربة فانبرت واصاب السيف راس السكسوني فانطرح لا حراك به · فهتف اتباع الميكلي اعجاباً فصاح : « من اراد النجاة فليتبعني » ووخز جواده فمرق به مروق السهم يتبعه خادماه التركيان وعدد من الحامية كانوا قد توفقوا الى ركوب افراسهم

وخرج الميكلي تحيط به سحابة من سهام اعدائه وتحوَّل الى المتاريس حيث وعد دي براسي بمقابلته · ولما بلغها صاح « يا دي براسي ! دي براسي اين انت ؟ »

فاجاب هذا وهو حاسر الراس « ها انذا ولكنني اسير »

— أَلا اقدر على خلاصك ؟ .

— كلاَّ فقد سلَّمت نفسي صاغراً دون شرط وعهدت ان لا اهرب ولا اقبل مساعدة فانجُ بنفسك واعلم ان النسر يحوم في الجوّ· فاسرع ولا تقف حتى يصبح البحر بينك وبين انكلترا· هذا كل ما اقوله الان ولا اقدر على زيادة الايضاح

— وهل تبقى حيث انت ؟ اذكر اذن انني وفيت بوعدي لك واما النسر فليحُمْ ما شاء فجدران مجمع تمبلستون اقوى من ان يقوى على انتزاعها بمخاليه

واذ قال هذا وخز جواده وتبعه رجاله ولم يمضِ سوى القليل حتى اختفى عن العيان

واما من لم يتمكن من اللحاق بالميكلي من رجال المعقل فسقطوا الواحد بعد الاخر وكانت النار تنتقل بسرعة غريبة من قاعة الى اخرى ومن برج الى اخر · و بينما المهاجمون

ينظرون الى النار بقلوب هالعة اذا بالعجوز على احد الابراج كأنها الاهة النار يموّج الهواء شعرها المشتعل شيباً والطويل كانه راية الفناء وهي تلوّح بعرنأسها كاحدى الاخوات اللواتي يغزلنَ خيوط حياة ابناء الفناء واخذت تتغنى باغنية حرب كان ينشدها اجدادها

وكان اللهيب قد بلغ عنان السماء وانار الافق البعيد واخذت الابراج تتساقط الواحد بعد الاخر فاضطر المهاجمون الى ترك المعقل فخرجوا ووقفوا جماعات ينظرون الى اللهيب برعب ورهبة · وكان شبح العجوز لا يزال ظاهراً على البرج تلوّح بيديها كانها تأمر اجناد النار في مملكتها النارية الى ان هوى البرج فسقطت والتهمتها النار كما التهمت ظالمها من قبلها · وعقب سقوط ذلك البرج سكوت عميق لم يقوَ الناظرون معه على شيء سوى رسم اشارة الصليب

وبينا كان الجمع متهيباً يحاذر حتى من تصعيد انفاسه اذا بصوت لوكسلي يقول : « اهتفوا ايها الشجعان هتاف الفرح والابتهاج فوجار الظالمين قد اضحى طللاً بالياً · وليأخذ كلٌّ ما سلبه الى السنديانة المعهودة حيث نقتسمه مع حلفائنا الذين كانوا معنا يداً واحدة في قهر عدوّنا وتنفيذ النقمة العادلة فيه »

« ٣٢ »

اطلّت الشمس على الغابة وهبَّ نسيم الصباح يحيي اشجارها فتموّجت الاغصان كانها ترد تلك التحية ناثرة على الارض درر الندى وتركت الغزالة كناسها يتبعها خشفها وسرح ملك الوعول في طليعة رعيته آمناً مطمئناً لانه لم يكن هنالك من يعترض طريقه من قنّاص او غيره

طلعت الشمس على قطاع الطريق يحيطون بالسنديانة الكبيرة بعضهم مستلقٍ ليريح اعضاءه من عناء اليوم السالف وبعضهم يستمدّ تلك الراحة من كأس الشراب

وغيرهم يقص على رفاقه ما عاناه وما لقيه في الامس وكان الى جانبهم السلَب الكثير لانه على رغم التهام النار القسم الكبير من محتويات المعقل تمكن المهاجمون من نهب قسم عظيم من الصحاف الفضية والدروع الثمينة والاقمشة الغالية واحتملوها الى السنديانة وطرحوها عند جذعها لتنفذ فيها ارادة قائدهم لان شرائعهم تمنعهم من ان يختص احدهم نفسه بما يريد لكنه يذعن لقسمة القائد ويكتفي بها

وكانت هذه السنديانة غير تلك التي قاد لوكسلي كارث وومبا اليها لان هذه كانت في وسط الغابة لا تبعد اكثر من نصف ميل عن المعقل المتهدم . وتحت هذه السنديانة جلس لوكسلي على مرتفع من الارض واشار الى الفارس الاسود بالجلوس عن يمينه والى سادرك عن يساره وقال : « عذرًا يا سيديَّ الشريفين فانا ملك هذه الجهات فلو تنازلت عن مقامي لاحد من البشر لزال احترامي وهيبتي من قلوب رعيتي هذه » ثم تحوَّل الى رجاله وقال : « ايها السادة . من منكم رأى الناسك ؟ ان الصلاة اولى بالمسيحيين قبل الابتداء باشغال النهار » فلم يسمع جوابًا فقال « سؤلي من الله الاَّ يكون الناسك قد اقام بجانب دنان الخمر في المعقل وهلك تحت جدرانه . من منكم رآه بعد دخول المعقل ؟ »

فصاح الطحان « انا رأيته ! رأيته واقفًا امام باب احد الاقبية يعالجه ويقسم بكل قديس كتب اسمه في جريدة القديسين انه لا بد له ان يذوق خمرة فرنت دي بوف الفسقونية

— ارجو من جميع اولئك القديسين الاَّ يكون الناسك قد شرب من الخمر ما اسكره فانطرح بجانب الدن وبقي هنالك . هيا ايها الطحان خذ برفقتك عددًا من الرجال واطلب ناسكنا حيثما رأيته فانني والله انقض حجارة المعقل حجرًا حجرًا الى ان اجد ناسكنا المحترم

فاسرع عدد غفير من الرجال غير مهتمين بالقسمة مظهرين بذلك عظيم ميلهم الى مرشدهم الروحي

فقال لوكسلي : « والان ايها السادة لنبدأ باشغال الصباح لانه سوف يشيع خبر سقوط المعقل في ايدينا فتسرع رجال دي براسي وحلفاء فرنت دي بوف واولئك قوم لا قبل لنا بنزالهم . يا سيدي سادرك قد قسمت الاسلاب قسمين فاختر لنفسك احدهما وفرّقه على رجالك الذين كانوا معنا يداً واحدة في اخذ المعقل »

فقال سادرك : « قلبي ايها الصديق الكريم تضغط عليه الاحزان لموت اثلستاين — آخر فرع لملوكنا العظام — وبموته اضمحلت آمال عظيمة وقد اطفأ بدمه المسكوب شرارة لا يقوى العالم اجمع على اشعالها ثانية . والباقون من رجالي ينتظرون انصرافي معهم ليحملوا جثة الميت الى قبور اجداده . والسيدة روانا ترغب في العودة الى منزلها وينبغي ان يسير معها رجال لحمايتها ولولا ذلك لما تأخرت هنا الى هذه الساعة فتأخري ليس لاقتسام الاسلاب بل لاقدّم اليك شكري وشعوري بالفضل الذي اوليتني اياه انت ورجالك الشجعان في تخليصكم حياةً وشرفاً هما عزيزان »

— اننا لم نقم ببعض ما يتوجب علينا ايها الشريف فلا تذكر عملنا لانه زهيد فخذ من الغنيمة ما تجيز به جيرانك الذين قدموا لمساعدتك

— انا غني من فضل الله فساجيزهم من مالي . فقال ومبا : لم يذهبوا جميعاً بايدٍ فارغة فنحن لسنا جميعاً لابسي مسوح

— فتحوّل سادرك الى ومبا وضمه الى صدره وصاح . « بماذا اكافئك ياولدي؟ بماذا اكافئ امانتك انت يا من سلم نفسه للقتل عوضاً عني »

وظهرت في عيني سادرك دمعة هي زكاة الشكر وهو الذي لم يذرف دمعة واحدة لموت اثلستاين

فتملص ومبا من ذراعي سيده وقال : « وهل تجزي عملي بالدموع اذن يجب ان اذرف كل ما في رأسي لوحدتي العتيدة · ولكن ايها العم ان كان لا بدَّ من مكافأةٍ في فاعفُ عن كارث المسكين الذي اضاع عليك خدمة اسبوع صرفه بخدمة ابنك »

— اعفو عنه ! ساعفو واكافئ · اجثُ يا كارث · جثا كارث · فرفع سادرك عصاه فوق راس العبد وقال : عبداً رقيقاً لا تكون فيما بعد انت حرٌّ انى سرت وانى توجهت وساهبك قطعة من املاكي هبة شرعية مني ومن نسلي من بعدي لك ولنسلك من بعدك وليحل غضب الله على من ينقض هذا العهد

ولما سمع كارث كلام سيده وفهم معناه طفر فرحاً كمن مسه عارض لجد في ادراكه وصاح : عليَّ بمبرد لانزع من عنقي طوق العبودية آه ما اكرمك يا سيدي الشريف ! لقد ضاعفت قوّتي بكرمك وساستخدم تلك القوة المضاعفة في الذب عن حقوقك ومصالحك · يوجد في هذا الصدر قلب رجل حرّ وهاأنذا قد تغيرت في عيني نفسي واشتبهت حقيقتي على من يعرفني · انا حرٌّ !!

ولما رأى الكلب سيده يثب اخذ يثب هو بدوره مشاركاً سيده بالسرور فصاح كارث · ألا تزال تعرفني ايها الكلب الامين ؟ ألم يتغير وجهي ؟

فقال ومبا · لا يزال يعرفك كلبك وانا يا كارث ولا يبعد ان تنسانا انت وتنسى نفسك

اني لأنسى نفسي قبل ان انساك يا ومبا فلا تجزع · لو كانت الحرية ما يوافقك لجاد بها السيد عليك

لا يخال لك انني احسدك يا كارث على حرّيتك لان العبد يقيم بجانب النار عندما يخرج الحر للحرب ألم تسمع ما قيل انه خير ان تكون احمق في المنزل من ان تكون حكيماً وتضطر الى الحرب ؟

وقطع كلام ومبا وقوع حوافر افراس قادمة واذا بالسيدة روانا على فرس يحيط بها عدد من الخيالة والمشاة يطفرون فرحاً وسروراً بنجاتها · وكان قد رجع الى روانا جانب عظيم من البهاء رغماً عما لحق بها من الاصفرار في السجن والخوف وظهرت على محياها دلائل الامل بصلاح المستقبل والشعور بالفرَج الذي كان خاتمة المصيبة التي حلّت بها · وكانت قد عرفت بنجاة ايفنهو وبموت اثلستاين فامتلأ قلبها غبطة وسرورا للاول ولم تستأ كثيراً للثاني لعلمها انه بموت اثلستاين انقطعت ملاحقة سادرك لها وهو الامر الوحيد الذي كان يزعجها

واقتربت روانا بجوادها من لوكسلي وانتصب هذا وجميع اتباعه فاشرق الاحمرار في وجه روانا وحنت رأسها الى ان اختلط شعرها المرسَل بعرف الجواد وقالت : « ليباركم الله والسيدة العذراء وليكافئكم على شجاعتكم التي اظهرتموها في حماية حقوق المظلوم فمن جاع منكم فليذكر ان عند روانا طعاماً ومن عطش فليذكر ان لدى روانا خمراً وان ضيّق النورمانديون عليكم وطردوكم من الغابات فاذكروا ان لروانا املاكاً وغابات حيث تصيدون ولا حرج ولا تثريب »

فاجاب لوكسلي : « اشكر لكِ تلطفكِ يا سيدتي بالنيابة عن رجالي فنجاتكِ اعظم مكافأة لنا واعظم شرف نلناه · نحن ابناء الغابات كثيراً ما نرتكب اثاماً فلتكن نجاتكِ كفارة عن تلك الاثام »

فحنت روانا رأسها ثانية وحوّلت راس جوادها فتبعها قومها ثم وقفت على مسافة قصيرة تنتظر سادرك وكان يودّع القوم فوجدت نفسها ودي براسي وجهاً لوجه · ولما وقع نظرها عليه احمرّ وجهه خجلاً وظهر انه حائر في امره ثم تقدم منها وامسك بزمام فرسها وثنى ركبته وقال : « لتتنازل السيدة روانا وتلقي نظرة على فارس اسير وجندي مهان »

— ان عملاً كالذي كنتَ فيه يا سيدي يعدّ النصر فيه اهانة وليس الانكسار
— الغلبة يا سيدتي تحرّك الاشفاق فهلاّ اقلتِ عثرتي وعفوتِ عن هفوة كان ميلي الشديد اليكِ سببها ؟ اذ ذاك يعلم دي براسي كيف يجب ان يخدمكِ بطريقة اعظم شرفاً
— اقلت عثرتك يا سيدي الفارس
واذا بسادرك يقول : « خلِّ زمام الفرس يا دي براسي ووالله لولا الفضيحة لخرقت صدرك بهذه الحربة . يا دي براسي هل تعدّ عملك شرفاً وشهامة ؟ »
— سلتَ اذ تهددت اسيراً ولكن كذب والله من قال ان في السكسوني درهماً واحداً من المجاملة
وكان تخلّف سادرك ليبدي شكره للفارس الاسود الذي اجابه بكل لطف وبشاشة فقال سادرك « لا يخفى على احد يا سيدي الفارس ان الجوالة من الفرسان لا طمع لهم في مال او عقار وهم قوم حظوظهم منوطة بشفار سيوفهم ولكن قد يأتي يوم يطلب فيه ذلك الفارس منزلاً . فاعلم انك قد ابتنيت لنفسك بيتاً في منزلي ومال سادرك كافٍ لان يعوّض من عانده الدهر وجميع ذلك المال دين عليه لمن انقذوه . فاذا قدمت يا سيدي الى منزلي فانما تدخل منزلك ويكون قدومك قدوم ابن لا زائر ووصولك وصول اخ لا ضيف »
— لقد اغنيتني يا سيدي سادرك بما علمتنيه من فضائل السكسون ولسوف اذهب الى منزلك عما قليل فامور مهمة تضطرني الى الذهاب الى ناحية اخرى الان ولكن قد اطلب اليك عندما اكون في منزلك امراً فهل تبخل به ؟ »
— « لك ما تطلب » قال سادرك ووضع كفه في كف الفارس « لك ما تطلب ولو كان نصف املاكي »

— لا تتسرّع يا سيدي فربما كان طلبي عظيماً غير ان املي بقبولك عظيم ايضاً فاستودعك الله

— بقي ان اقول ايها السادة انني سوف اقيم في قصر اثلستاين الى ان يدفن وبلسان والدة الفقيد ادعو الذين اظهروا شجاعة تذكر في سبيل نجاته ولو لم تلحقه فائدتها الى مشاركة اهل الميت في الوضيمة فالابواب مفتوحة للجميع

وكان ومبا قريباً من سيده فقال : « أَجَلْ ولسوف يكون الطعام نادراً واني آسف شديد الاسف لعدم تمكن اثلستاين من الاشتراك معنا ولكنه سوف يجلس الى مائدة الفردوس ولا شك في انه سوف لا يبخسها حقها »

فصاح سادرك اصمت ! وتبع روانا التي اشارت بيدها مودّعة الفارس الاسود وسار الجماعة في احدى طرُق الغاب وتبعهم جماعة اخرى من خدم اثلستاين تحمل بقايا سيدهم الى قصره ليدفن في مدفن ابائه وفي مقدمتهم عدد من الكهنة يترنمون بترانيم روحية يطلبون بها الرحمة والرضوان للميت الشريف . فوقف اللصوص عند مرور الجنازة وكشفوا رؤوسهم الى ان خفيت اصوات الكهنة فعادوا الى اقتسام الاسلاب

فقال لوكسلي للفارس الاسود : « اختر ايها الفارس الشجاع الذي لولا خبرته لساء مسيرنا ما شئت مما تراه امامك لتذكر به هذا الاجتماع »

— ساقبل الكرامة شأن الكريم فهل تتخلى لي عن موريس دي برامي افعل به ما اشاء ؟

— هو لك وليشكر حسن حظه لوقوعه بين يديك لانه كان من حق الظالم ان يُرفع على هذه السنديانة عبرة وحوله من رجاله من يسعدنا الحظ بتعليقه معه . ولكن خذه فهو لك ولن يلحق به شرٌّ وهو الذي قتل والدي

فقال الفارس الاسود : « سِرْ فانت حرٌّ يا دي برامي فالذي وقعت بين يديه

يأبى ان يجزي عما فات · فاذهب ولكن حذار من المستقبل · موريس دي براسي انا اقول لك حذار ! »

فحنى دي براسي رأسه بخضوع وهمَّ بالانصراف فصاح اللصوص متذمرين · فالتفت دي براسي ورفع راسه بخيلاء وصاح : « ما بال الانذال؟ تذمركم واستبشاركم عندي سواء ! فليصمت الاوباش اذا ذُكر الشرف والنبل وليخلدوا الى اوجارهم اذا حدث ما يتعلق بالشرف »

ولم يفه دي براسي بهذه الكلمات حتى رأى نحواً من عشرين سهماً قد اصبحت على الاقواس ولكن بفضل تداخل لوكسلي انصرف غضب اللصوص ووثب دي براسي على احد الجياد وهمزه فاختفى به بين اشجار الغابة

ولما سكن لغط اللصوص نزع قائدهم البوق الذي ربحه يوم اشبي وتقدم من الفارس الاسود وقال : « اذا لم ترَ يا سيدي في نقل هذا البوق مساساً بشرفك ورجولتك فارجو منك ان تقبله مني تذكاراً للشجاعة واذا قُدّر وناتك مصيبة وهو ما لا يبعد حدوثه لفارس نظيرك قائم بما انت قائم به فانفخ فيه ثلاثاً هكذا وا · سا · هو فربما اسرع الى نجدتك قوم تعرفهم

ثم نفخ في البوق على نحو ما ذكر حتى تعلمها الفارس فتناول البوق وقال : « اجزلت العطاء ايها الباسل ولست اطمع في غير مساعدتكم لانني لم ارَ افضل منها » · ثم نفخ في البوق على نحو ما وصف لوكسلي وفعل · فقال هذا : « احسنت يا سيدي ولا اخطئ ان قسمت انك في الحرج مثلك في الملحمة · فيا ايها الرفاق احفظوا هذه النفخات فاذا سمعتموها مرة فاعلموا ان الفارس الاسود يدعوكم الى نجدته فمن لم يسرع جلدته بوتر قوسه وطردته من بيننا مهاناً »

فهتف اللصوص · ليحيَ قائدنا ! ليحيَ الفارس الاسود وحبذا لو اسرع الى استخدامنا

لتبرهن له عن نجدتنا

واخذ لوكسلي يقسم الغنائم بين رجاله بعدل وحق وذلك بعد ما وضع على حدة عُشرًا يعطى للكنائس ثم وضع قسماً للصندوق العمومي وقسماً آخر لارامل وايتام الذين ماتوا في الحرب وللصلاة عن انفس الذين لم يكن لهم عائلون منهم · ثم قسم الباقي على رجاله بحسب رتبهم واستحقاقهم مستخدماً حكمه حتى اعجب الفارس الاسود بحذق القائد وعدله وخضوع الرجال ورضاهم

ولما انتهى القائد من القسمة حمل امين الصندوق واربعة من الرجال نصيب الصندوق ليخفوه في بعض انحاء الغابة وبقي نصيب الكنيسة فقال لوكسلي :

من لي بخبر عن ناسكنا الطروب فهو لم يعتد التخلف عن قسمة اللحم او اقتسام الغنيمة وفضلاً عن ذلك فلديّ احد اخوته في الرب اسير وربما وجدت به عوناً لانه يعلم احوال الكنيسة ورجالها اكثر مني · وتراني اخشى ان يكون لحق به مكروه »

فقال الفارس الاسود « اذا كان ذلك كذلك فسيكون اسفي عظيماً جداً فانا مدين له بالضيافة فهيوا الى المعقل لعلنا نقف على بعض اثاره »

ولم ينتهِ الفارس من كلامه حتى صاح اللصوص « هاهو قادم ! هو قادم ! » وكانوا قد سمعوا صوته عن بعد

وما عتم ان ظهر الناسك وهو يصيح ·

« اعدُّوا طريقاً لابيكم المحترم واسيره · اهتفوا ثانية هتاف الاستبشار فهانئذا يا سيدي القائد قادم اليك كالنسر وفريسته في مخالبه » · وخرق صفوف اللصوص واقترب من لوكسلي وهيئة النصر بادية على وجهه وهراوته الثقيلة في اليد الواحدة وفي الاخرى طرف رسن قد شدّ طرفه الاخر حول عنق اسحق اليهودي · واقترب الناسك من لوكسلي وقال : « أين ألن ادايل شاعركم فانني لا اراه فالنذل يتغيّب عند

الحاجة وعند ما تكون هنالك اعمال مجيدة يجب ان تخلَّد في القصائد »

— اين كنت ايها الناسك ومن هو ذاك الذي تقوده؟

— هو اسير سيفي ورمحي ايها القائد الشجاع. هو اسير قوسي وهراوتي (وهذا هو الاصح) ولكنني قد نجيته من اسر اشد هولاً من هذا. تكلَّم ايها اليهودي. ألم انتشلك من يد صطنائيل؟ ألم القِّنك الابانا والسلام؟ ألم اشرب نخبك طول الليل وصرفته في كشفي لك الاسرار المقدسة؟

فصاح اليهودي: « ألا رجلاً ينقذني من هذا الكاهن المجنون — اعني المحترم — اكراماً لوجه الله تعالى؟ »

فصاح الناسك: « ويك يا اسحق انظر ماذا تقول! هل ندمت على ايمانك فوالله ان رجعت عنه لاشوينَّك على رغم جلدك القاسي. قل السلام عليكِ يا مريم! »

فصاح لوكسلي: « والله لا رضيت عن هذا التجديف فاذكر لنا ايها الناسك مجمل امرك »

— وجدت هذا الرجل في مكان طلبت فيه ما هو اثمن منه قيمة والقديس دنستان شاهد على صدق كلامي. عند ما دخلنا المعقل قصدت احد الاقبية لاخلِّص الخمرة المعتقة من افواه النيران فوجدت زقاً ولويت اطلب هولاء الكسالى الذين يتغيبون عند ما تكون في اشد الحاجة اليهم فوجدتني امام باب قوي فقلت لنفسي ها. ها. هنا يخزن فرنت — دي — بوف خموره الفاخرة وقد اذهل دخولنا وكيل ذلك القبو عن واجباته فترك المفتاح في الباب ففتحته وماذا وجدت؟ وجدت كثيراً من السلاسل والقيود وهذا اليهودي الكافر. ولما رآني سلم نفسه اسيراً صاغراً فشربت من النبيذ وقدت اسيري الى الباب فاذا ببرج قد سقط (لعن الله الايدي التي لم تحسن بناءه) وسد المدخل. ثم سقط غيره فقطعت كل امل بالحياة وكرهت ان اموت وانا ناسك

برفقة يهودي كافر فرفعت هراوتي لاحطم راسه فاخذتني الشفقة على شعوره البيضاء وحكمت ان سيف الروح افضل من سيف الجلاد وعمدت الى الكافر اهديه سبل الرشاد والقّنه الصلاة والتعاليم المسيحية وببركة القديس دنستان سقطت تلك البذور في ارض جيدة · فاقمت الليل بطوله اشرب الخمرة لازداد ذكاءً واجهد النفس في شرح الاسرار العجيبة الى ان وجدني هذان وقد انهكني التعب »

— صدق ايها القائد فقد اجهدنا نفسينا برفع الانقاض ولما توفقنا الى مدخل القبو لم نرَ في الزق اكثر من نصفه خمراً ووجدنا اليهودي على باب القبو والناسك قد انهكه السهر

فصاح الناسك « كذبتما فانتما شربتما الزق ولم تصغيا لاعتراضي وقولي ان الخمرة للقائد · ولكن ما لنا ولهذا فاليهودي قد اهتدى وانكشفت له الاسرار بوضوح وان هو لم يبلغ منها ما بلغته »

فقال لوكسلي : بماذا تجيب ايها اليهودي هل نبذت معتقدك ؟

— كلاّ اذا حسن لديك يا سيدي فانني لم افهم كلمة واحدة مما قاله لي حضرة المحترم في الليل المنصرم لان الخوف والجزع ذهبا بعقلي فلو نزل ابونا ابرهيم نفسه وكلمني لوجد في اذني صمماً

فصاح الناسك : كذبت ايها اليهودي وانت تعلم انك كاذب فانا اذكرك بوعد من وعودك لي وهو انك عهدت بدفع كل مالك لطغمتنا المقدسة

فصاح اليهودي وقد ازداد خوفه : « ارحموني ايها السادة فانني لم افه بحرف مما قال · انا فقير معوز وقد فقدت ولدي فهلاً رحمتم ضعفي واطلقتم سراحي ؟ »

فقال الناسك : « ساء — والقديس دنستان — فألك فاذا نقضت عهدك مع الكنيسة وجبت عليك الكفّارة »

ورفع الناسك هراونه وهمّ باليهودي ليضربه بها فاعترضه الفارس الاسود وردّ هراوة الناسك فصاح به : « ساذيقك ايها الكسلان جزاء من يتداخل بما لا يعنيه »

— لا تغضب عليّ ايها المحترم فانا صديقك

— لست اعرفك فانت لست سوى طفيلي

وكأنما الفارس سرّ بمعارضة الناسك وتهيج غضبه فقال : « وهل نسيت انك لاجلي خالفت قواعدك واهملت فروضك ؟ »

فجمع الناسك كفه وصاح : « ان لم تصمت ايها الصديق نالك مني ما تكره »

— لا اطمع في هبتك هذه ما لم اردها لك مع الربا

— سنرى !

واذا بصوت لوكسلي يقول : أخصام ايها الناسك المعتوه تحت هذه الشجرة ؟

فقال الفارس . ليست مخاصمة ولكنها مجاملة ودية . اضرب ايها الناسك شرط ان تسمح بردّ مثلها اليك

— ستحميك خوذتك هذه . ولكن لا بأس . نخذ والله سالقيك ولو كنت جليات الجبار بخوذته النحاسية

وشمر عن ساعد كانه ذراع بكر وهوى بكفه على راس الفارس بضربة تصرع ثوراً ولكن الفارس بقي واقفاً كانه صخرة . فارتفعت اصوات اللصوص اعجاباً لان كف الناسك كان يضرب بها المثل بينهم

اما الفارس فنزع قفازه وقال . والان ايها المحترم قف وقفة رجل مجرّب

— حوّلت خدّي للّطم ! فاضرب وان زحزحتني من موقفي وهبتك فدية اليهودي

فهوى عليه الفارس بكفه بقوّة عجيبة فارتفعت اقدام الناسك في الهواء ونال راسه

الارض قبل قدميه ولكنه نهض ولا اثر للغضب او الخجل عليه وتقدم من الفارس وقال : « كان يجب ايها الرفيق الا تستخدم كل هذه القوة فقد كدت تحطم حنكي وتفسد صلاتي ولكن لا بأس فهذه يدي اعاهدك انني لا عدت الى مناصحتك فقد كانت صفقتي خاسرة فاصفح عما فات وهيا ننظر في امر اليهودي »

فقال احد المتفرجين : « ارى الناسك بعد تلك الضربة قد قطع الامل من ارشاد اليهودي

فصاح الناسك : « اخرس ايها المهذار فاي علاقة لك بالارشاد اعلم انني كنت اترنح عندما نالتني الضربة والا لما انطرحت ولكن ان لم تصمت نالك مني ما يبرهن لك على انني احسن العطاء كما احسن الاخذ »

فصاح لوكسلي : « على رسلكم يا قوم واما انت ايها اليهودي ففكر في امر فديتك ولا تنسَ انك لا تصلح للقيام بين اناس مثلنا فساعود اليك بعد ما انتهي من امر اسير آخر يجب الاهتمام بامره»

فسأل الفارس الاسود . وهل اسرتم عدداً عظيماً من رجال فرنت دي بوف ؟

— لم نأسر من يطمع في فديته وقد اطلقناهم ليبحثوا عن سيد غيره فقد كفانا ما نلنا من المعقل واما الاسير الذي ذكرته فهو كاهن متصب اذا صح حكمي على اثوابه الثمينة وجواده وسرجه ها هو !

واذا برجلين يقودان الرئيس ايمر ولا اخال القارىء قد نسي من هو الرئيس

٣٣

وكانت طلعة الرئيس تريك الكبرياء وقد لحق بها شيء من الهوان وزخرفاً وتأنقاً شوهها الخوف . فلما اقترب من لوكسلي وجماعته قال بصوت ظهرت فيه جميع الامور التي ذكرناها دفعة واحدة : « ما هذا ايها السادة ؟ كيف تلقون الايادي على احد

رجال الكنيسة وهل تحملون تبعة عملكم ? كيف تقدمون على نهب مقتنياتي وتمزيق جبتي وما عليها من الزركشة الثمينة مما لا يملك مثله كردينال ? لو كان غيري لالقاكم تحت عقاب الحرمان الا انني حليم وخادم حقيقي للرب . اقابل الاساءة بالاحسان فان لم تطلقوا سراحي حالاً وتنقدوني مئة درهم عن قداس القربّ به الى الله ليغفر ذنبكم واذا لم تكفوا عن اكل اللحوم الى الفصح المقبل ساء ما جنت ايديكم »

فقال لوكسلي : « يسوءني يا سيدي الكاهن ان اسمع انك قد لقيت من معاملة اتباعي ما هاج غضبك »

فتشجع الرئيس من كلام القائد ونغمته اللطيفة فقال : « معاملة ! هي معاملة لا يطيقها كلب فكيف بي وانا مسيحي واعظم من هذا انني كاهن وزد على ذلك انني رئيس دير جورفولكس المقدس . ومن بعض ما لقيته ان احدكم وهو المدعو ألن—أ— دايل وهو كما قيل شاعركم قد طلب مني ان ادفع له مئة درهم فدية عن نفسي فضلاً عن السلاسل الذهبية والجواهر الثمينة التي سلبني اياها

— ان رجلاً كألن — أ— دايل لا يقابل فاضلاً نظيرك بمثل هذه المقابلة

— ولكن ما قلته هو الصدق بعينه وقد اقسم ايضاً ان يعلقني في احدى هذه الاشجار

— وهل توعدك ألن — أ— دايل بهذا ? ارى اذن يا حضرة الاب ان تصغي لما قاله هذا الرجل فهو احد اولئك الذين لا يخلفون وعداً ولا وعيداً

فتكلف الرئيس ابتسامة وقال : « اراك تمزح يا سيدي وانا رجل اميل الى المزاح ولكن آن ان ينتهي فقد استغرق الليل بطوله والاولى ان نحوّل الى الجد

— كلامي هو الجد بعينه ككلام معلم الاعتراف فاما ان تدفع الفدية او تودّع خدمة الله فانها لن تعرفك فيما بعد وليهتم الرهبان بانتخاب غيرك لشغل وظيفة رئيس

— اتلقون هذه العبارات في اذن كاهن ثم تدعون انكم مسيحيون ؟

— أَجَلْ مسيحيون ولدينا خادم روحي ايضاً . ليتقدم راعينا المحترم وليُعدْ على هذا الكاهن آيات الكتاب التي تقضي عليه بامتثال اوامرنا

وكان الناسك قد خلع على اثوابه جبة قديمة فتقدم من الرئيس أيمر والخمرة قد ذهبت بنصف عقله وقال : « وطئت سهلاً ايها المحترم واتيت اهلاً الى هذه الارض الخضراء »

فقال الرئيس ايمر : « ما هذا المزاح والهذر ! ان تكن ايها الرجل كاهناً حقيقياً فالاولى بك ان ترشدني الى طريق النجاة بدلاً من وقوفك هنالك تضحك وتمزح »

— الحق اقول لك ايها المحترم انه ليس الاّ طريق واحد للنجاة ولتعلم ان هذا النهار يوافق عيد القديس انطون ونحن نتقبل فيه النذور والزكاة

— وهل تتقاضون الكنيسة تلك الزكاة ايها المحترم ؟

— الكنيسة وغيرها وعليه تقرَّب من بعل الخطيئة اذ لا عون لك غيره

فقال الرئيس ايمر وقد لطف صوته : « انا شديد الميل الى سكان الاحراج واني احسن الركوب والصيد والقنص واحسن استعمال البوق فانا والحالة هذه احدكم ولا يحسن ان تعاملوني بالشدة »

فقال لوكسلي : « ليناوله احدكم بوقاً لنرى »

فتناول الرئيس البوق ونفخ فيه فقال لوكسلي : « احسنت ولكن نحن ايها المحترم قوم لا نرضى بالنفخة فدية فضلاً عن اني رأيت نفختك على نبرات افرنسية قد ازعجت سكون هذه الغابة السكسونية البحتة وازعجتُ البوق الانكليزي فليضف الى فديتك خمسون درهماً جزاء تغييرك الانغام القديمة

— ارى انه يصعب ارضاؤك ايها الصديق وحيث لا بدَّ من اشعال شمعة اكراماً

للشيطان فاذكر مقدار الفدية التي تطلبها

عندئذٍ تقدم نائب لوكسلي من رئيسه وهمس في اذنه قائلاً : « ألا يحسن ان يعين اليهودي فدية الكاهن والكاهن فدية اليهودي ؟

فصاح لوكسلي مستبشراً : « اصبت ! تقدّم ايها اليهودي وانظر الى هذا الكاهن وعيّن مقدار الفدية التي يتمكن من دفعها لنا فانت لا تجهل دخل ديره

— اعرفه ! اعرفه ! فقد طالما عاملت الآباء المحترمين وابتعت منهم الحنطة والشعير والثمار والصوف ايضاً . ديرهم غنيٌّ فهم يأكلون المسمنات ويشربون اجود الخمور . لو كان لي بيت مثل ديرهم بدخله السنوي والشهري لافتديت نفسي بمبلغ كبير

فصاح اير : « انت ادرى الناس ايها اليهودي الرجس ان ديرنا قد عقد قرضاً ليتمكن به من اتمام بناء المذبح الكبير »

— اعرف ذلك واعرف ايضاً ان من غرض ذلك القرض ان يساعدكم على ابتياع ما يلزمكم من الخمور الفسقونية ولكن هذه امور لا اهمية لها

فصاح اير مغضباً : « اسمعوا ماذا يقوله هذا الكلب الكافر انه يلومنا على عقدنا قرضاً لشرب خمرة حُللت لنا . ماذا ارى ! أيهودي يجدّف على الكنيسة واذان مسيحية تصغي اليه ولا تؤنّبه ؟

— اقصر واكففْ نفسك مؤونة الكلام ايها الكاهن فهو لا يغني عنك فتيلاً . تكلم ايها اليهودي وعيّن الفدية

— ست مئة درهم يدفعها الرئيس لسعادتكم وانا موقن ان هذه لا تحدث في خزائنه نقصاً يذكر

— احسنت يا اسحق فقد رضيت بحكمك فانه عادل

فصاح قطاع الطرق دفعة واحدة « حكم ! حكم ! يضاهي حكم سليمان »

فقال لوكسلي : « لقد سمعت الحكم الصادر عليك ايها الكاهن »

— انتم معتوهون ايها السادة انى لي هذه القيمة فلو بعت الكؤوس والمنارات الموجودة على مذبح كنيسة ديري لما تمكنت من جمع نصف تلك القيمة فضلاً عن انه يقتضي ذلك ذهابي الى الدير بنفسي فاطلقوا سراحي وابقوا تابعي ضمانة لديكم

— بئس الرأي ايها الرئيس فسوف نطلق تابعيك ونبقيك عندنا الى ان يأتيانا بفديتك فلا تخشَ جوعاً ولا عطشاً فنسقيك خمرة جيدة ونطعمك لحماً ولما كنت ترغب في الصيد ستترافقنا اليه الى ان يعود صاحباك

فقال اسحق وكان غرضه ان يجد نعمة في اعين اللصوص : « اذا حسن لديكم ارسلت الى يورك واتيت بالمال من قيمة في ذمتي للدير هذا اذا اذن لي الرئيس المحترم في ذلك »

— سيأذن وسترسل في طلب فدية الكاهن وفديتك معاً

— فديتي ايها السادة ؟ انا رجل معوز ولو دفعت لكم خمسين درهماً لالجأت الى المكاز والتسوُّل

— امر فديتك متعلق بالكاهن . هل في امكان اليهودي ايها الرئيس افتداء نفسه ؟

— في امكانه !!! أليس هو اسحق اليوركي الذي لا يعجز عن افتداء جميع اسباط بني اسرائيل ؟ لقد بايعته وشاريته واعرف من هو ويقال ان بيته في يورك مملوء فضة وذهباً . عار على امة مسيحية ان ترضى عن مرابٍ يقضم احشاءها ويمتص دمها ثم يتناول كنائسها واديرتها

فصاح اسحق مهلاً مهلاً ايها الاب المحترم . انني رجل لا اعرض نقودي على احد من البشر كائناً من كان ولكنني عندما يطرق الكاهن والامير والنبيل باب

اسحق لا يقترضون ماله بهذا الكلام القاسي. هم يطارقون الباب ويقولون: يا اسحق انت رجل كريم فلا تردّنا خائبين وسوف نعيد عليك نقودك في وقتها. يقولون: يا اسحق انت رجل شفيق فلا تخيب طلبنا واظهر لنا انك رجل يعتمد عليه في اوقات الضيق. فاذا حان وقت الدفع وطالبت مالي ماذا اسمع؟ اغرب ايها النذل! لتنزل على رأسك ضربات مصر! وما اشبه ذلك من العبارات التي من شانها ان تحرّك العامة على اهتضام حقوقي

فقال لوكسلي: «لقد صدق الرجل ولو يهوديًا. فبيّن الفدية ايها الكاهن ولا تضع الوقت سدى»

— تخطئون وحرمة الكنيسة اذا ان رضيتم باقل من الف درهم فاسحق اهلٌ لها

فصاح لوكسلي «حكم! حكم!»

وصاح اللصوص بدورهم: «حكم! حكم! ولقد كان المسيحي أكرم من اليهودي

فصاح اسحق: «اعنّي يا اله آبائي! رحماكم ايها السادة. لقد فقدت ابنتي في هذا النهار فهل تمنعون عني اسباب المعيشة ايضًا؟»

فقال أيمر: «وهذا ما يقلل مصروفك يا اسحق»

— اوّاه يا رفقه يا ابنة احب الناس اليّ لو كانت كل ورقة على هذه الاشجار ذهبًا وكان ذلك الذهب لي لدفعته غير مأسوف عليه لاعرف مقرّكِ وهل انت سليمة من ظلم النصارى

فقال احد اللصوص: «ألم تكن ابنته سوداء الشعر يستر راسها برقع وفي قدميها نعلان مطرّزة سيورهما بالخيوط الفضية؟»

— فصاح اسحق وهو يرتعد شوقًا: «هي بعينها فليباركك الله يعقوب. هل تعرف

من امرها شيئاً ؟

— هي اذن تلك التي حماها الهيكلي عندما اخترق صفوفنا وقد صوَّبت اليه سهماً وكدت ارميه به لولا خوفي ان يلحق بالفتاة اذًى

— حبذا لو فعلت ايها الرجل واخترق السهم قلبها وماتت لانه خير لها ان تموت وتدفن مع آبائها من ان تشارك الهيكلي في اثامه · آه يا الهي قد زالت النعمة من بيتي وحلّت فيه النقمة

فقال لوكسلي : « ايها الرفاق اثّر فيَّ حزن هذا الرجل وارى ان نعامله بالرفق يا اسحق اصدقنا الخبر هل الالف درهم اكثر ما نقدر على دفعه ؟

فعادت الى اسحق مخاوفه على ماله وقال: « لا انكر انني ان دفعت هذه القيمة يبقى لديَّ نزر يسير من المال »

— فعليه يا اسحق سوف نرحمك لانه اذا فقدت كل مالك تعذّر عليك افتداء ابنتك من ذلك الهيكلي المتوحش فاعلم انا نرضى منك بمثل ما سوف يدفعه الكاهن لا بل بخمساية درهم وهذه المئة هي مني لك يا اسحق لانها سوف تكون نصيبي فابقِ مالك للهيكلي فهم قوم يميلون الى لمعان الدرهم ميلهم الى العيون السوداء · فاسرع اليه وفاتحه في امر ابنتك فهو كما اخبرني جواسيسي في مجمع طغمته القريب منا · كيف ترون ايها الرفاق وهل من اعتراض على ما نطقت به ؟

فسرّي عن اسحق بعض ما به لاطلاعه على خبر ابنته ولانقاص فديته فطرح نفسه على اقدام لوكسلي وهمَّ بذيل ردائه ليقبله فتأخر هذا وقال · انهض يا اسحق فانا انكليزي واكره هذه العوائد الشرقية · انهض فانني بشري والسجود لله وحده

فصاح الرئيس أيمر « أَجَلْ يا اسحق اسجد لله في شخص خادم المذبح وما ادراني انك اذا احسنت التوبة واجزلت النذور يتوب الله عليك و يرجع اليك ابنتك · انني

احزن لمصرع ابنتك لانها حسناء وقد رأيتها في اشبي ولكن اعلم انني صديق للهيكلي وكلتي نافذة لديه ففكر في طريقة تنيلك وصاتي عنده »

— واحرباه ! احاطوا بي من كل الجهات لنهبي· وقعت فريسة للاشوريين وفريسة لصاحب مصر !

فقال ايمر « وهل ترجو غير ذلك يا اسحق ؟ ألم تسمع ما قال الكتاب لقد نبذوا كلمة الرب وزالت الحكمة من بينهم · فسادفع نساءهم الى الغرباء (يعني بذلك الهيكلي كما ترى) وكنوزهم الى الاجانب (يعني بذلك هولاء السادة)

فزفر اسحق وتأوَّه واستسلم للقنوط فقاده لوكسلي الى ناحية وقال « قبل نصيحتي يا اسحق وعليك بهذا الكاهن فهو شره طمَّاع يود اعادة ما خسره فاستخدمه وانت قادر على ذلك · اتخالني اصدق ادعاءك الفقر او تخالني اجهل الصندوق الحديدي والبلاطة الموجودة تحت شجرة التفاح في بستانك في يورك التي تؤَدي الى ذلك الصندوق » فاصفر وجه اسحق وارتعدت فرائصه فعقَّب لوكسلي قائلاً « ولكن لا تخشَ بأساً يا اسحق فان عهد صداقتنا قديم هل نسيت ذلك الرامي الذي احتملته ابنتك رفقه الى بيتك واقامت تعالجه من مرض المَّ به الى ان شفي ونفحته بقطعة من الفضة ؟ فوالله يا اسحق على الرغم من كونك مرابياً شديد الحذق لم تقرض عمرك درهماً عاد عليك برباً كذلك الدرهم لانه قد اعاد عليك خمسماية درهم في هذا النهار »

— وهل انت دِكن الملقب بلاوي القوس ؟ كنت والله اقول ان صوتك ليس بالغريب في اذني

— انا هو وانا لوكسلي ولي اسم آخر

— ولكنك قد اخطأت في مسألة البلاطة والصندوق لانه ليس في ذلك الدهليز سوى بعض الاقمشة التي سوف ارسل اليك منها بمئة يرد من اللون الاخضر

لتصنع منه اردية لرجالك وبئة عود اسبانيـة يصطنع منها رجالك اقواساً وبئة وتر حريرية متينة بشرط الاّ تذكر ذلك الدهليز

— قبلتُ واني ويعلم الله شديد الاسف على ابنتك وحبذا لو تمكنت من تخليصها ولكن رماح الهيكليين يا اسحق لا قِبل لرجالي بها فتعال اتوسط لك لدى الرئيس

— اعني اكراماً لله على استرجاع ابنتي !

— ذلك ما سوف افعله بشرط الاّ تتداخل في وقت يكون سكوتك فيه انجع دواء

وتحوّل لوكسلي فتبعه اسحق كظله الى ان اقترب من الرئيس ايمر فقال : « ايها الرئيس تحوّل معي الى هذه الشجرة ولما فعل قال : « يقال ايها المحترم انك ميّال الى الخمرة وتهوى ابتسامات الحسان ولكن هذا ليس من شأني ويقال ايضاً انك تود ان تملك عدداً من كلاب الصيد وجواداً سريعاً ثم اراك لا تكره كيساً مملوءًا ذهباً غير انني لم اسمع قط انك تميل الى المظالم وتود القسوة والعنف فهوذا اسحق يرضى بان يدفع لك مئة درهم بشرط ان تتوسط في امره مع الهيكلي وترجع اليه ابنته »

فصاح اسحق : « سالمة طاهرة الذيل والاّ كان تعاقدنا لغواً »

— اصمت يا اسحق والا تركتك وشأنك

فقال ايمر : « للمسألة وجهان لانني اذا احسنت من جهة كان الاحسان الى يهودي وهذا ما يأباه ضميري ولكن اذا عهد اليهودي بدفع شيء لبناء غرف النوم في الدير ربما تداخلت في امره »

— ما قولك بعشرين درهماً لهذه وشمعدان من الفضة للمذبح فوقها

فصاح اليهودي : « ويلاه يا سيدي القائد ! »

فنفد صبر لوكسلي وصاح : « يا سيدي اليهودي ! يا سيدي الحيوان ! يا سيدي الدودة اذا لم تنقطع عن الكلام تركتك وشانك ليذهب بك الشيطان الى جهنم بعد ان اسليك كل درهم تملكه »

فصمت اسحق وقال الرئيس : « وما هي الضمانة ومن يكفل لي قيام اليهودي بوعده »

— انا الضمين لك بذلك فان لم يدفع لك ما عهدت به عندما يظفر بنتيجة تداخلك كنت خصمه وهو يعي ما اقوله جيداً

— قبلت فاعطني ادواتك الكتابية ايها اليهودي ولكن قف تخير لي ان اصوم اربعاً وعشرين ساعة من ان المس قلمك

فقال لوكسلي : « اذا لم ترَ ضرراً من استعمال ورقه فعندي القلم » واذ قال هذا رشق اوزة راها في الهواء بسهم من سهامه فهوت الى الارض فقال : « عليها من الريش ما يكفي جميع رهبان ديرك مدة مئة سنة فخذ منه واكتب »

فتناول الرئيس ريشة وبراها واخذ الدواة والرقعة من يد اسحق وجلس وكتب رسالة ثم ختمها وناولها لليهودي قائلاً « خذ هذه وبواسطتها تتمكن من مقابلة الهيكلي واذا اجزلت له العطاء ردَّ عليك ابنتك فلا تطمع في استرجاعها دون ان تبذل مالك فالهيكلي احد اولئك الذين يطلبون بدلاً لكل عمل يهمون به

— لم يعد لي بك حاجة ايها الرئيس فاكتب وصولاً لليهودي بالست مئة درهم فانني قد رضيت به صرّافاً واعلم انك اذا انكرت الوصل عند المحاسبة احرقت ديرك ولو كان في ذلك تقريب اجلي عشر سنين

فجلس الرئيس ايضاً وكتب وصولاً بخمس مئة (ذكرنا ان اليهودي تكفل بدفع مئة من الست) واعطاه الوصول ثم قال : « والان ارجو ان تردُّوا عليَّ تابعيَّ وخيولي

وخواتي وسلاسلي

— اما تابعاك وخيولك فسنردها اليك ونعطيك من مالنا مايساعدك على الوصول الى يورك واما جواهرك وحليك فعار ان نردها لاننا مسيحيون نعتقد ان هذه الحلى تؤخرك عن القيام بواجباتك الروحية وترغّبك في الدنيا

فقال الرئيس : « انظروا في ما تفعلون يا سادتي فهذه الحلى مقدسة ولا يجوز لايادٍ علمانية ان تلمسها »

فقال الناسك : « لا باس عليك ايها الاخ فسالبسها بنفسي وانا احد رجال الكنيسة

— ايها الصديق او ايها الاخ ان كنت حقيقة احد رجال الكنيسة فانظر ما يكون جوابك عندما تُسال عن اعمالك في هذا النهار

— اعلم يا صديقي الرئيس اني رئيس ابرشية اقوم بامرها ومطران يورك ورئيس دير جورفولكس عندي سواء

— لم اعرف لك راساً من ذنب ايها الرجل فبينا تكون لصاً اعود فاراك انقلبت كاهناً فهل انت احد اولئك الذين يختلسون الجبة ويحفظون شيئاً من اللاتينية ليضل الناس ويعطيهم حجراً بدل الخبز كما قال الكتاب ؟

— لستُ من هولاء في شيء ولكنني اعلم بان ازالة ثقل الجواهر عن امثالك فرض واجب وعمل مسيحي لا شك فيه

— اراك احد اولئك الذئاب في ثياب الحملان . لصٌّ في الليل وكاهن في النهار

— وانا اراك شرًّا من اللص والهرطوقي وشرف القديس دنستان لن ارضى عن اهانتك لي امام رعيتي هذه فان لم تكفّ كسرت عظامك ليتم ما جاء في الكتاب

فصاح لوكسلي : « اخصام بين رجال الكنيسة فاكظم غضبك ايها الناسك

البار وانت ايها الرئيس لا تغضب الناسك ما لم تكن قد اعددت نفسك لملاقاة خالقك اصمت ايها الناسك وليذهب الرئيس بسلام فقد دفع فديته عن نفسه »

فتقدم اللصوص وفصلوا بين رجلي الله وكلٌّ منهما يشتم صاحبه باللاتينية . فركب الرئيس وبعُدَ وقد زالت عنه تلك الخيلاء التي عهدناها فيه واقام الناسك ينمغم (يبربر)

بقي اليهودي وامر فديته فكتب رسالة الى احد ابناء قومه في يورك يطلب اليه ان يدفع لحامله الف درهم ومتاعاً ذكره له في الرسالة ثم أُعطي بغلاً ورجلين لقيادته وحمايته وانصرف في طريق مجمع الميكليين يطلب ابنته فيه

واما الفارس الاسود فقد كان يراقب ما يجري باهتمام فلما قضي الامر دنا من لوكسلي وودّعه واظهر له اعجابه بطريقة حكمه وعدله وسياسته وهي امور لم يكن يأمل وجودها في جماعة يعيشون عيشتهم . فقال لوكسلي : « قد تحمل شجرة حقيرة ثماراً لذيذةً يا سيدي الفارس وظلم الايام قد لا يولد ظلماً بحتاً فبين هولاء اناس لم ينخرطوا في سلك هذه الجماعة الاّ ليقوموا باذية لا تُذكر اذا اضطروا الى ذلك وليتجنبوا الاذى ان امكن وغيرهم دخلها مكرهاً هرباً من ظلم ظالم

— واري مخاطبي احد هولاء الاخيرين

— يا سيدي الفارس لك سرّك ولي سرّي ولك ان تظن فيَّ ما شئت ولي ان اظن فيك ما شئت ولكن قد نخطيء كلانا واذ حبست عني اسرارك فلا تظن بي سوءاً اذا كتمت عنك سرّي

- تلطفت والله في التوبيخ ايها الشجاع فعفواً ولا بدَّ ان نلتقي يوماً لا حاجة لنا فيه الى هذا الخفاء ولكن سوف نفترق على احسن ما يكون اليس كذلك؟

— بلى والله وهذه يدي وهي يد انكليزي حرٌّ كريم على الرغم من تلوّثها بقطع

الطرق ما دعا اليه الوقت الحاضر

— وهذه يدي وارى في ملامستها كفك شرفاً لان من يعمل الحسن وهو قادر على الاساءة استحق الشكر ليس للاحسان الذي اتاه فقط بل لاجل الاساءة التي تجنبها ايضاً . استودعك الله ايها الشجاع

وركب الفارس الاسود جواده واختفى في الغابة

٣٦

كانت الولائم تقام تباعاً في قصر يورك حيث دعا اليه البرنس يوحنا الكهنة والنبلاء الذين طمع في مساعدتهم على استخلاص عرش اخيه ومبايعته . وكان فتزوور مدبره الحاذق والحكيم يسعى الى هولاء سرًّا ويشدّد عزائمهم ويستنهض هممهم لا ليخذلوا البرنس فيما هو آخذ فيه ولكن كان يؤخر تلك المبايعة غياب عدد من النبلاء الذين كان البرنس يعتمد عليهم مثل فرنت — دي — بوف الذي كان يعتدّ البرنس بشجاعته وقوّته ودي براسي وخفة روحه وشجاعته ايضاً والميكلي وشهرته في قيادة الجنود ومقدرته الحربية وبسالته المشهورة . ومن جهة اخرى كان اسحق اليهودي الذي عتمد البرنس عليه في عقد قرض مالي غائباً ايضاً

وبينا كانت الحال في يورك على نحو ما ذكرنا شاع ان دي براسي والميكلي وفرنت — دي — بوف قد سقطوا بحد السيف . فنقل فتزوور الاشاعة الى البرنس وزاد عليها بقوله انها لا تخلو من الصدق لما يعلمه من امر دي براسي ومهاجمته لسادرك السكسوني

ولم يكن البرنس ليهتم بامر كهذا لو كان في ظروف غير التي كان فيها ولعدّه نكتة مضحكة ولكنه اتى الان في غير وقته واعترض تدابير البرنس فاخذ يذكر التعدي والظلم بنغمة يعجز عن مثلها الملك الفرد العادل نفسه وعقّب قائلاً : « لو كنت ملكاً لاقتصصت لتعدٍّ كهذا وعلّقت القائمين به على ابراج معاقلهم »

فقال احد الاتباع : « ولكن لكي تصبح ملكاً ايها البرنس يقتضي ان تغض الطرف عن اعمال كهذه وزيادة على ذلك ينبغي ان تحمي القائمين به على رغم تلك الشرائع التي اراك تذكرها بحمية . ألا تدري انه اذا بلغت كلماتك هذه مسامع السكسون واخص بالذكر منهم سادرك ظن ان من غرضك هدم المعاقل وانزال مقام نبلاء المملكة الى مقام اوباش السكسون . فماذا يكون من امرنا حينئذ ؟ ثم يعلم سموكم انه من الخطإ ان تنقل قدماً قبل حضور فرنت — دي بوف و دي براسي والميكلي فان في ذلك خطراً يضاهي الخطر الذي يتهددنا اذا نحن انصرفنا عن عزمنا »

فصكّ البرنس جبهته واخذ يتخطر في ارض القاعة كمن فقد صبره وبعد هنيهة قال : « تبًّا للانذال ! ايتركني الجبناء وانا في اشد الحاجة اليهم ؟ »

فقال فتزور : « حاشا يا سموّ البرنس بل قل ان طيشهم يلفتهم عن المهم من الامور ليهتموا بما لا اهمية له »

فوقف البرنس بغتة امام فتزور وصاح : « ماذا تفعل يا فتزور »

— لقد فعلتُ ما يجب فعله في ساعة كهذه او تظن انني آتٍ لاندب سوء حظنا معك ؟

— انت ملاكي يا فتزور فاذا كان ليوحنا مشير عاقل مثلك كانت ايام ملكه اعجوبة العصر يخلد ذكرها . فماذا فعلتَ ؟

— امرت نائب دي براسي بنفخ ابواقه والاسراع برجاله الى نجدة قائدهم

فاحمرّ وجه البرنس شأن الولد المخنث عندما يعتقد انه قد لحقت به اهانة وقال : « اما والله يا فتزور لقد تجاوزت في عملك الحدود أتأمر بالابواق فتنفخ وبالرايات فتنشر في مدينة يورك من غير ان تعلمني »

فلعن فتزور في باطنه سخافة عقل البرنس وكبرياءه الباطلة وقال : « عفواً

يا صاحب السمو. رأيت قصر الوقت فزعمت انني مصيب في رفعي عن افكار سموكم ثقلاً كهذا فامرت بذلك وغرضي تخفيف اتعابكم

— لقد عفوت عنك فغايتك تبرر ذنبك ولكن من ذا ؟ دي براسي والله و بزيّ غريب

وكان دي براسي قد دخل القاعة يقطر الدم من مهاميزه وعلى درعه اثار النزال الاخير وهي ملطخة بالدم والغبار يكسوه من الخوذة الى المهاز ولما دخل القاعة نزع خوذته ووضعها على منضدة واقام هنيهة كانه يستجمع افكاره وقواه · فصاح البرنس : « ما هذا يا دي براسي ؟ تكلم ! هل ثار السكسون »

وقال فتزور : « تكلم يا دي براسي عهدتك باسلاً فاين خلّفت الميكلي وفرنت — دي — بوف ؟ »

— الميكلي هرب ولن تروا فرنت — دي - بوف فيما بعد لانه دُفن في قبر من اللهيب بين جدران معقله وقد نجوت انا وحدي لاخبركم

فقال فتزور : « اخبار باردة ولو كان موضوعها النار واللهيب ! »

فقال دي براسي : « لم تسمع المهم بعد » ثم تقدم من البرنس وهمس في اذنه قائلاً « ريكارد في انكلترا وقد رأيته وكلمته »

فاصفر وجه البرنس وارتعدت فرائصه وارتجفت اعضاؤه والتق بيده على الطاولة لئلا يسقط كرجل قد اخترق سهمٌ قلبه · اما فتزور فقال : « انت تهذي يادي براسي فهذا ما لا يصدَّق »

— هو الصدق بعينه وقد كنت اسيره وكلمته

— كلمت ريكارد بلنتجنت ؟

— ريكارد بلنتجنت عينه — ريكارد قلب الاسد — ريكارد ملك انكلترا

— وكنتَ اسيره فهو اذن في طليعة جيش

— كلاَّ ولكن يحيط به عدد من قطاع الطرق وهولاء لا يعرفون من امره شيئاً وقد انضم اليهم لمهاجمة معقل فرنت — دي — بوف وقد سمعته يقول ان في عزمه مفارقتهم

فقال فتزور وكأنه يخاطب نفسه : « هذا شأن ريكارد يسافر في البلاد منصرفاً عن مصالحها الى ما لا فائدة منه · بماذا تشير يا دي براسي ؟ »

— انا ؟ لقد عرضت على ريكارد خدمة رجالي فرفض فسوف اجمعهم واسافر الى الفلاندر فهلاَّ تركت السياسة يا فتزور واعتقلت الرمح ورافقتني فتقاسمني نصيبي ؟

— انا رجل قد ادركني الكبر ولي ابنة

— ازوجني من ابنتك وانا اعهد بحمايتها ورفع شأنها شأن الفارس النبيل

— ليس هذا بالرأي الصائب فسوف احتمي بكنيسة مار بطرس في هذه المدينة فاسقفها اخي

وكان البرنس قد استرجع قواه وثاب اليه رشده فاصغى وهو يقول لنفسه : « ينصرفون عني كالاوراق اليابسة عن الغصن فهلاَّ وجدت طريقة اخلص بها نفسي بنفسي ؟ » ثم قهقه وقال : « ظننتكما حكيمين باسلين فاذا بي اراكما على وشك السقوط كالعجائز انتصرفان عن النفوذ والغنى والرفعة التي تطلبانها وليس بينكما وبينها سوى ما يناله الرجل بضربة واحدة ؟ »

فقال دي براسي : « لم افهم قصدك يا مولاي واما ما افهمه فهو انه عندما يشيع خبر رجوع ريكارد ينضم اليه جيش جرار وحينئذٍ لا ينفع الكلام وريكارد في طليعة ذلك الجيش · ان قبلت نصحي ايها البرنس فاهرب الى فرنسا او الجأ الى الملكة والدتك »

— لا اهتم بامر نفسي لانني قادر على خلاصها بكلمة واحدة اقولها لاخي ولكن عليك يا دي براسي وعليك يا فتزور . اخاف ان ارى جثتيكما معلقتين على اسوار هذه المدينة . اتزعم يا فتزور ان الاسقف يمتنع عن تسليمك الى الملك ريكارد ولو كنت ممسكاً بقرون المذبح اذا اكتسب بعمله صفح ريكارد عنه ؟ ام هل نسيت يا دي براسي ان بينك وبين البحر اقطاعات ارل اسكس وهو يجمع رجاله ولا شك عندنا في غرضه من ذلك

فنظر الرجلان كل في وجه صاحبه برعب فعقَّب البرنس قائلاً : « ليس لنا الا طريق واحد للنجاة » واذ قال هذا اسودَّ جبينه وبرقت عيناه ثم قال : « هوذا من سبَّب كل هذا الرعب يسير فريداً في البلاد فيجب مداهمته »

فصاح دي براسي : « انا لست لهذه فلقد كنت اسيره وعفا عني كرماً فوالله لن امس ريشة واحدة من ريش خوذته بشرّ »

فضحك البرنس وقال : « من قال لك اننا نروم اذيته ؟ ولا يبعد ان تزعم انني اروم قتله . قتلك الله يا دي براسي فالسجن خير من القتل وهل من فرق بين سجن في انكلترا ومثله في النمسا ؟ نقبض عليه ونسجنه وبذلك يخفى امره ويعتقد الناس بقائه في سجنه في جرمانيا ونرجع الى حيث ابتدأنا من تنفيذ رغائبنا »

فقال فتزور . « خير السجون ما كان حارسه قندلفت الكنيسة (يعني القبر) وقد قلت قولي »

فقال دي براسي « اما السجن او القبر فانا اغسل يديَّ وانفض طوقي منها »

فصاح البرنس . « نذل ! واخالك تفشي سرَّنا »

فرفع دي براسي راسه بعظمة وصاح : « لم يفشِ ولن يفشي دي براسي سرَّ احد واما النذالة فلن تلحق باسمي »

— اصرف غضبك يا دي براسي واما انت يا مولاي فاصفح عن اوهام هذا الفارس الشجاع فاملي عظيم بازالتها من رأسه

فقال دي براسي: « ارى فصاحتك تعجز عن امر كهذا يا فتزور »

— لايليق بك يا دي براسي ان تجفل اجفال النعامة وتحوّل عن الطريق قبلما تعرف حقيقة الشبح الذي اجفلت منه. منذ ايام قلائل كانت اعظم رغائبك منازلة ريكارد يداً بيد

— كنت ارغب في ذلك في ساحة الحرب بين الصفوف وليس مهاجمته فريداً في اعماق الغابة

— آه يا دي براسي لستَ بفارس صادق ألم ينل الفارس ترسترام شهرته في اعماق الغابة ؟

— صدقتَ ولكني لا اخال ترسترام ولا غيره كفوءًا لفارس كريكارد ولا اخاله يهاجم فارساً فريداً على حين غرّة

— انت معتوه يا دي براسي! ألست قائد فرقة من الفرسان ابتعنا خدمتكم بالمال فتحجم عند العمل وتستند على هذه الاوهام وسلامتنا وغناك وغنى رجالك يتوقف على هذا العمل ؟

— قلت لك يا فتزور انه قد وهبني حياتي ولا انكر انه صرفني من امامه ورفض خدمتي وخدمة رجالي ولذلك كنت غير مرتبط معه بعهد ولكنني لا ارفع عليه يداً

— ما لك وله ابعث اليه نائبك ورجالك

— لديكم من الاوباش من يغنيكم عن رجالي

فقال البرنس « اتتركني يا دي براسي وقت الضيق وانت الذي طالما ذكر لي حسن ولائه وثباته على عهودي

— انا لك ايها البرنس في كل عمل شريف ان في الحرب او في السلم ولكنني ارفع من ان اقطع الطرق على الناس

فقال البرنس : « تعال يا فتزور فما اتعسني من امير · كان لابي رجال يتممون اوامره قبلما تخرج من فمه وقد كان في العالم رجل يدعى رجينالد فتزور ولكنه خلَّف وراءه ولداً تنقصه امانة وشجاعة ابيه »

— اخطأت ايها الامير فالولد قد ورث جميع خلال الوالد وحيث لا اجد بدلاً مني فسوف اقوم بهذه المهمة وعلم الله انني افضّل منازلة جماعة من القديسين على تسديد رمح نحو قلب الاسد · فانا لها كيف كان الحال واما انت يا دي براسي فاجهد النفس في تشديد عزائم رجالنا واسهر على سلامة البرنس · عليَّ ايها الخادم بحامل سلاحي ورجالي وقل لرئيس الادلة يوافيني الى ساحة القصر » ثم ودَّع وخرج

فقال البرنس : « هو ذاهب لأسر اخينا فعسى ان ينفذ ما أُمر به ولا يلحق الاذية بعزيزنا ريكارد »

فتبسم دي براسي فقال البرنس : « كانت اوامرنا ونور جبين العذراء واضحة صريحة وربما تسمعها لوقوفنا بجانب النافذة · اجل كانت صريحة والويل لفتزور اذا خالفها »

— ايأمر سموكم بذهابي الى مقرّ فتزور واطلاعه على ارادتكم لعله لم يسمعها نظيري ؟

— لا فقد سمعها فاقترب مني لاستند على ذراعك

فاقترب دي براسي من البرنس فتناول هذا ذراعه واخذ يذهب ويجيء في القاعة وعليه سمات الاخلاص والصداقة لدي براسي وبعد قليل قال « ما هو رأيك في فتزور يا دي براسي · يطمع الرجل في رئاسة الوزارة ولكنني سوف افتكر مرّتين

قبل ان القي بمقاليد منصب رفيع كهذا في كف رجل تكشَّف عن عدم اعتباره لدمنا الملوكي وذلك باسراعه الى القيام على اخينا ريكارد العزيز · هل تحسب يادي براسي انك فقدت مركزك في نظري لعنادك وعدم امتثالك اوامري ؟ لا · لا وابيك يا دي براسي فقد زدت في عينيَّ قدراً · قد تكون لدينا امور نكرهها وتقضي علينا الضرورة بالقيام بها ولكن من يرفض القيام لا يزداد في اعيننا الا اعتباراً فان كان القبول بالقاء القبض على اخينا يرقي فاعله الى رتبة الوزارة فالرفض يرفع الى رتبة مارشال · اذكر هذا يا دي براسي واخرج في شؤُون نفسك

فخرج دي براسي وهو يقول في نفسه : « تباً لك من ظالم متقلّب وساء مصير من يأْتمنك ولكن مارشال ! والله هذه جعالة تستحق التعب »

ولم يكد يخرج دي براسي من حضرة البرنس حتى نادى هذا خادمه وقال « عليَّ برئيس الادلة بعد ما ينتهي من امر فتزور »

فخرج الخادم واخذ البرنس يتنقل في القاعة الى ان دخل رئيس الادلة فسأَله البرنس عن طلب فتزور فاجاب انه طلب رجلين خبيرين باصقاع الشمال قد حذقا اقتفاء الاثار

— وهل اعطيته ؟

— نعم يا مولاي وهما من خيرة رجالي خبرتهم باقتفاء الآثار خبرة كلاب الصيد باقتفاء اثار الغزلان

— احسنت فهل رحل فتزور ؟

— رحل يا مولاي

فصمت البرنس هنيهة ثم قال : « راقب حركات دي براسي بكل دقة وتستر لئلا يعلم بذلك وانظر الى من يختلف وماذا يصنع »

فحنى الرئيس رأسه علامة الخضوع وسلم وخرج فقال البرنس لنفسه : « اذا خانني دي براسي — وظواهره تدل على ذلك — قطعت رأسه ولو كان ريكارد على ابواب يورك »

٣٥

نعود بالقارئ الآن لنسير به في اثر اسحق اليهودي

ترك اسحق لوكسلي وجماعته راكباً بغلة يحرسه رجلان قاصداً مجمع تمبلستون ليفاتح الهيكلي بامر ابنته وكان ذلك المجمع يبعد عن المعقل المتهدّم مسيرة يوم . فلما بلغ اسحق اطراف الغابة صرف حارسيه واعطى كلاً منهما قطعة من الفضة واسرع في طريقه ما مكنه تعبه وكلاله من الاسراع ولم يبقَ بينه وبين المجمع مسافة اربعة اميال حتى خارت قواه واحسَّ بآلام قتالة في ظهره واعضائه وعبثاً حاول الثبات على ظهر البغلة . وكان قد دخل بلدة صغيرة فيها يهودي يعرفه فطلبه في منزله وكان هذا اليهودي يدعى ناثان بن صموئيل بارعاً في الطب ويعرف اسحق فلما رآه على نحو ما ذكرنا رحب به مبالغاً في الشفقة والحنان شأن اليهودي نحو ابن ملته والحَّ عليه بتناول علاج كان مشهوراً في ذلك الزمان بشفاء الحمى التي لحقت باسحق نظراً لتعبه ورعبه واشتغال افكاره . ونام اسحق تلك الليلة ونهض في الصباح يريد السفر فمنعه ناثان مبيناً له ضرر السفر وربما كان فيه حتفه . فقال اسحق انه في شأن يتوقف عليه امر اعظم من الحياة وانه سائر له الى مجمع تمبلستون

فصاح ناثان مدهوشاً : « مجمع تمبلستون ! » ثم جسَّ نبض اسحق وقال في سرّه « قد فارقته الحمى ولكن افكاره مضطربة »

فقال اسحق : « وما يمنعني من الذهاب الى ذلك المجمع ؟ أُسلّم معك يا ناثان ان ذلك المكان مأوى من هم حجر عثرة في سبيل ابناء الموعد — مأوى العطاش الى

الدم وكن ألا تعلم ان اشغالنا كثيراً ما تذهب بنا الى منازل الفرسان المرّضين »

— لا اجهل ذلك ولكن ألا تعلم ان مرقس دي بومندار رئيس الهيكليين الذي يدعونه الرئيس الاعظم هو في ذلك المجمع الان ؟

— كنت اجهل ذلك لان آخر الاخبار التي وردت علينا من اخواننا في باريز تنبئ انه هنالك يستمدّ المعونة من فيليب ملك فرنسا لمناهضة الملك صلاح الدين

— ولكنه حضر بغتة وبذراع قوية ليؤدب ويقاص · وغضبه نار آكلة تلتهم اولئك الذين حنثوا بايمانهم من رجاله · ألا تعرف الرجل ؟

فقال اسحق : « يقول اخواننا انه رجل ذو حمية وغيرة على معتقده وشرائع دينه وقتل السلجوقي واضطهاد اليهودي عنده سواء »

— صدق مخبرك يا اسحق فهو رجل يختلف عن سائر الهيكليين اذ لا يميل الى الملذات ولا قيمة للذهب في عينيه · يسعى للحصول على ما يسمونه اكاليل الشهداء — ربّي انله ذلك الاكاليل في القريب العاجل · هو يعتقد ان قتل اليهودي يعادل دخان المحرقة الصاعد الى السماء وفضلاً عن هذا فهو يزعم ان ادويتنا وعلاجاتنا من اعمال ابليس فان شفت الجسد مرة اهلكت النفس مرّات · ليجازه الرب

— ولكن هذا لا يؤخرني عن الذهاب الى ذلك المجمع · ثم شرح لناثان غرضه وذكر له من امر ابنته · فتأثر هذا وشقّ جيوبه وصاح «وا حرباه! حسناء صهيون سبية ! اوّاه من لي بن يعيد سبي اسرائيل»

— عرفت الان غرضي وربما كان وجود الرئيس ما يساعدني لانه كما قلت حريص على سمعة رجاله غيورٌ على قوانين طغمته وقد يردّ عليّ ابنتي ويعترض بغية الهيكلي

فقال ناثان : « سر يا اسحق على بركات الله وكن حكيماً فان الحكمة اسعفت

دانيال في جب الاسود وليباركك الرب بحسب مشتهيات قلبك ولكن اجتهد الاً تواجه الرئيس بل كلّم بواجلبرت على حدة وقد شاع وجود خلاف في ذلك المجمع — زاد الله في خلافهم — ثم اذا انتهيت من شأنك فارجع اليَّ كما ترجع الى بيت والدك وارجو ان تكون رفقه معك »

فودَّع اسحق ناثان وسار ساعةً واذا به على ابواب المجمع

وكان المجمع اشبه بمعقل لان الهيكليين لم يكونوا ليهملوا امر تحصين مجمعهم وانكلترا على ما عرفنا من القلاقل والشغب · كانت تحيط به المروج الخضراء وفيها هبات المنتظمين في سلك الطغمة وعلى مدخله حارسان بلباس اسود وفي يد كل منهما فأس وعلى الابراج غيرهم باللباس نفسه يذهبون ويجيئون وهم اشبه بالاشباح منهم بالجند · وكان السواد لباس الطبقة الحقيرة من رجال الهيكل وقد استبدلوا به البياض عندما رأوا عدداً من السوقة ترَدَّوا البياض وتنسكوا في جبال فلسطين مدَّعين انهم من الهيكليين · وكان من الحين الى الآخر يظهر في عرصة دار المجمع فارس بلباسه الابيض الطويل رأسه مائل الى صدره ويداه مشبكتان عليه واذا التقى احد رفاقه من الفرسان حيَّاه بعبارات قصيرة رهيبة وبصوت منخفض تمسكاً بالقول : اذا اكثرت الكلام تعرَّضت للخطيئة وعلى اللسان يتوقف الحياة والموت · والخلاصة ان وجود الرئيس الاعظم في مجمع تمبلستون اعاد اليه الشرائع القاسية التي كان قد نبذها الهيكليون ظهرياً

وقف اسحق في المدخل واخذ يفكر في طريقة يتمكن بواسطتها من الدخول ولا يستنزل على رأسه سخط القوم · وكان في تلك الساعة الرئيس بومنوار في بستان داخل اسوار المجمع مهتماً بمحادثة احد اتباعه الذي كان قد تبعه من فلسطين

وكانت لحية الرئيس يخالطها البياض وقد تدلى شعر حاجبيه على عينين لم تقوَ

الايام على اخماد شعاعها · وكان جندياً شجاعاً لم تبق منه الحروب غير جلد منشور على عظام متينة تحيط به هيبة ربما اقتبسها من معاشرته وكثرة تردده على ملوك ذلك العصر وهو طويل القامة ثابت القدم على الرغم من سني التعب العديدة يستره ثوب ابيض تمّت فيه شروط لباس الطغمة اعني ان ثوبه كان ناصعاً ضيقاً وعلى صدره صليب احمر شعار الهيكليين ونظراً لكبر الرئيس كان لابساً سترة مبطنة بجلود الحملان (وهو ما لم تكن تمنعه قوانينهم) وبيده عصا الرئاسة القصيرة في طرفها قرص مرسوم عليه صليب الطغمة في وسط دائرة · اما لباس رفيقه فيماثل لباسه من جميع وجوهه غير ان الخضوع والاحترام اللذين كان يظهرهما دليلان على انه اخفض رتبة من رفيقه · وكان مسيره خلف الرئيس بحيث يسمع ما يخاطب به من غير ان يكلف رئيسه مؤونة الالتفات · وكان الرئيس يقول : ايها الرفيق — انت يا رفيق معاركي واتعابي ليس لي سوى صدرك الرحيب افرغ فيه احزاني · ليس لي سوى اذنيك أُفضي اليهما بالآلامي التي لقيتها منذ دخولي هذه البلاد التي لم ارَ فيها ما يسرّني غير قبور اخوتنا في العاصمة وكم تمنيت الانضمام اليهم لاريح النفس من ألم النظر الى شرائعنا تداس وطغمتنا تضمحلّ»

فقال الاخر وكان اسمه مونت فتشت : « حق ما نطقت به فاعمال الاخوة في انكلترا المغايرة تزيد عن اعمال الاخوة في فرنسا »

— ذلك لانهم يزيدونهم مالاً · انت ادرى الناس ايها الاخ بالعيشة التي عشتها — كنت فارساً صادقاً وكاهناً اميناً · حاربت الشيطان متجسداً وغير متجسد نازلت الاسد الذي يجول طالباً من يفترس ولكن والهيكل المقدس والحمية التي اكلت لحمي وعظامي لم اجد بين رجالنا من امدّ اليه يد الاخاء وافتح له ابواب قلبي غيرك وعدد قليل من رجال الهيكل · اذكر قوانيننا وانظر محافظة رجالنا على تلك القوانين ·

ألم تمنع القوانين التحلّي بالجواهر وتزيين الخوذ بالريش وتذهيب المناطق والمهاميز ؟ ألم تمنع التلهي بالقنص والصيد ؟ ومع هذا ترى الهيكلي اول من حثّ جواداً في طلب الغزال واول من اطلق بازياً وراء طائر. ألم تمنع قراءة الكتب واستماع الانغام الاّ الكتب المقدسة والاغاني الروحية ؟ ولكن انظر تَرَهم يقضون وقتهم في مطالعة الكتب المضرّة واستماع اغاني العامة. ألم تمنع تعلُّم السحر واقتباس الشعوذة ؟ فانظر ألا تجدهم يزاحمون اليهود في علومهم وقد فاقوا سحرة السلجوقيين . ألم تأمر بالزهد واكل البقول والحبوب عدا ثلاث دفعات في الاسبوع حيث تؤكل اللحوم ؟ ولكن انظر ترَ موائدهم مثقلة باللحوم والحلويات. كان شرابهم الماء الصرف والان اضحى شرب الهيكلي مضرب المثل — انظر الى هذا البستان وخضرائه وثماره الشرقية الاصل كانما اصحابنا اميرات منعمات وليسوا رهباناً ولو وقفوا عند هذا الحد لهان ولكنهم قد تجاوزوه الى ما هو اعظم شرًّا

تعلم ان قوانيننا قد ابعدت عنا النساء اللواتي كنّ يلحقنَ رجالنا للخدمة وهنّ نساء تقيات يقمنَ بذلك تكفيراً وتعبداً — ابعدوا لان العدو القديم كثيراً ما ابعد الرعية عن الحظيرة بواسطة المرأة ثم ألم تمنعنا من تقبيل النساء ولو كنّ اخواتنا »

« آه ايها الاخ ! نمت فرأيت في الرؤيا موسى جوفتنا القديسين المحيطين بعرش الله تذرف عيونهم دمعاً سخيناً . قالوا اتهجع يا بومندار ورجالك قد مالوا عن السراط المستقيم أترقد ورجالك قد دنسوا اثوابهم البيضاء واتخذوا لهم نساء علانية لقد حلّ الفسق بينهم ومدّ الشر اطنابه لم يكتفوا بالمسيحيات بل تجاوزوهنّ الى الوثنيات واليهوديات انهض وطهّر ذلك الدنس ! فاستيقظت وتلك الكلمات ترن في اذنيّ ولسوف اطهر ذلك الثوب وانزع من بناء هذا الهيكل كل حجر دنس »

وسكت الرئيس فقال التابع : ولكن هذه امور قد تأصلت في القلوب ايها المحترم

فاستعمل الحكمة والتأني

— اخطأت يا مونت فنشت يجب ان يكون التأديب بعصاً من حديد كان تقشفنا وتواضعنا وتعبدنا يكسبنا اصدقاء واما الان فالمخفخة والرفاهية والكبرياء تكسب العداء يجب ان نبعد المال الذي تحسدنا عليه الامراء وننزع الحيلاء التي يكرهوننا لاجلها. يجب ان نطهر سمعتنا لتطهير المسيحية في العالم وان لم نفعل ذلك أضمحلت طغمتنا واصبحت كيوم امس الذي عبر ولم يعد يعرفنا العالم

— ليبعد الله عنا هذه المصيبة

— آمين ! ربي آمين ولكن يجب ان نكون اهلاً لمعونة الله الحق اقول لك ايها الاخ — ان صرح مجدنا الذي بنيناه قد تداعى اساسه وكل حجر يضاف اليه ليزيده ارتفاعاً يزيده هبوطاً في الهاوية يجب ان نقف امام العالم ونريه اننا رجال الصليب الذين يضحون في سبيل حمايته ليس دماءهم وشهواتهم واميالهم فقط بل راحتهم ورفاهيتهم وعواطفهم الطبيعية ايضاً

وقطع كلام الرئيس اقتراب احد الخدم بثياب بالية (لان قوانين الهيكليين تقضي على الخدم بلبس ثياب الفرسان القديمة) وانحنى بين يديه ووقف ينتظر اذنه في الكلام فالتفت الرئيس الى رفيقه وقال : « كيف ترى أليس هذا الثوب اليق بخادم الرب وادلّ على تواضع رجال الكنيسة من الثوب المصبوغ والحلي التي رأيت هذا الرجل متحلياً بها من يومين ؟ تكلم ايها الرجل اننا نأذن لك »

— يهودي في الباب يطلب مخاطبة الفارس بواجلبرت ايها الرئيس الفائق الاحترام

— احسنت اذ اطلعتني لان رئيس المجمع في حضرتنا كاحد الخدم لا ارادة له ولا مشيئة . يسير حسبما يرى الرئيس ويهمني امر هذا المدعو بواجلبرت ووجهه عبارته

الاخيرة الى رفيقه فقال هذا : « يقال ان بواجلبرت على جانب عظيم من الشجاعة والبسالة »

— وهو كذلك ولكن الاخ بواجلبرت انخرط في سلكنا ليس عن توبة او زهد حقيقيين ولكنه لجأ مدفوعاً بخيبة امل من آمال العالم ولقد اصبح الان مسموع الكلمة رفيع الجانب على الرغم من تعاليمنا التي تاقي العكاز والعصا في يدي الرئيس ليعيد بالاولى ضعف الضعيف ويؤدب بالثانية المذنب · احضر اليهودي

فتراجع الخادم باحترام وما عتم ان عاد يقود اليهودي اسحق

لم يرَ عبد رقيق يقترب من مالك رقبته اكثر خضوعاً ومسكنة من اسحق عند اقترابه من رئيس الهيكليين ولما اصبح على بعد ثلاثة اذرع منه رفع هذا عصاه فتوقف اسحق وركع على التراب وقبّله باحترام ثم وقف ويداه متصالبتان على صدره وحنى رأسه · فقال الرئيس للخادم : « اذهب واعدّ لي حرساً يقوم بما سوف اطلبه حالما اطلبه وخذ علينا مدخل البستان لا يدخله بشر قبل خروجنا » ثم التفت الى اليهودي وقال بعظمة « ايها اليهودي اصغ الى كلامي ! لا يليق بمثلنا ان يطيل الحديث معك لان وقتنا اثمن من ان يضاع وعليه أجب على اسئلتي واوجز وأجب بالصدق والا قطعت لسانك »

فهمّ اسحق بالكلام فصاح الرئيس : « صه ايها الكافر اياك ان تنطق الاّ جواباً على اسئلتي · ماذا تطلب من اخينا بواجلبرت ؟ »

فارتعد اليهودي وخشي ان يذكر للرئيس خبر بواجلبرت فيعدّ ذلك اهانة منه للطغمة ويكون مانعاً يحول بينه وبين ابنته · فلحظ الرئيس خوفه فقال : « لا تخشَ شرّاً ايها الرجل بشرط ان تنطق بالصدق · ماذا تطلب من اخينا بواجلبرت ؟ »

— احمل اليه رسالة من أمير رئيس ديرجورفولكس

فتحوّل الرئيس الى رفيقه وقال : « ألم اتعوّذ من شرّ هذا الزمان أوَ لم اذكر لك فساده ؟ انظر رئيس دير يبعث برسائله الى احد جنود الهيكل مع يهودي · اعطني الرسالة »

فاخرج اسحق الرسالة من ثنيات عمامته وهمّ بالدنو من الرئيس فصاح هذا : « مكانك ! هات الرقعة يا مونت فتشت »

ولما انتهت الرسالة الى يد الرئيس همّ بفتحها فقال رفيقه : « أتفض ختامها ايها المحترم ؟ »

— وماذا عليّ اذا فعلت ألم يذكر في المادة الثانية والاربعين من قانوننا انه لا يؤذن لهيكلي استلام رسالة حتى ولو كانت من ابيه ما لم يقرأ محتوياتها امام الرئيس

ثم فض الختام وقرأ ما في الرقعة بسرعة ولون وجهه يتغير ثم اعاد قراءتها بتمهل ثم ناولها رفيقه وقال : « انظر رسالة خادم للكنيسة الى خادم آخر » وما لبث ان رفع نظره الى السماء وصاح « متى تحلّ بغضبك وتطهر الارض ! »

فهمّ مونت فتشت بالرسالة ليقرأها فقال الرئيس : « ارفع صوتك وانت ايها اليهودي تنبّه لما هو مذكور فيها لانني سوف اطرح عليك بعض الاسئلة مما يتعلق بها »

فقرأ التابع ما يأتي :

من أيمر بنعمة الله رئيس دير جورفولكس الى السر براين دي بواجلبرت احد فرسان الهيكل المقدس سلام وانعام الملك باخوس وسيدتي فينس · وبعد فانا ايها الاخ اسير بعض اللصوص الذين لم تمنعهم هيبتنا عن القاء الايدي علينا ولا عن طلب الفدية وقد علمت منهم بمصرع فرنت — دي — بوف وبانك قد هربت بتلك الساحرة رفقه التي سحرتك عيناها · فرحنا لنجاتك ولكننا نحذرك من صاحبة عين دور الثانية لانه قد بلغني ان رئيسكم على وشك القدوم من نورمانديا ليقلّل افراحكم ويقمع عصيانكم

وعليه ارجوك ان تضاعف السهر لئلا ينقب جدارك السارق وانت غافل · ولما كان اسحق اليوركي وهو غني قد طلب وساطتي اتقدّم اليك مستنداً على ما قدمته اعلاه ان تسلمه الفتاة مقابل مال يدفعه لك تتمكن بواسطته من ابتياع خمسين فتاة مثلها ولا تنسَ نصيبي من هذه الغنيمة شأن الاخوة الصادقين وكما قال الكتاب : ما اجمل ان يسكن الاخوة معاً - والان استودعك الله الى ان نلتقي (أمير)

حاشية : سرعان ما فقدت تلك السلسلة الذهبية التي ربحتها منك فقد اخذها احد اللصوص وهو يحملها حول عنقه الان وينادي كلابه بالصفارة المعلقة عليها

ولما انتهى التابع من قراءة الرسالة صاح الرئيس « كيف ترى ؟ لست اعجب بعد هذا من خسارتنا الاراضي المقدسة وتقهقرنا امام المسلمين وفي بلادنا المسيحية كهنة كأمير هذا · من يعني بصاحبة جان عين دور الثانية ؟ »

فاجاب التابع وكان عارفاً (ولعله بالممارسة) بهذا المجاز « ربما عنى بها بعض النساء من معارفها »

فلم يكتفِ الرئيس بهذا الايضاح وقال : « اخطأت التفسير فرفقة هذه تليذة مريم التي سمعتَ بها · ايها اليهودي ابنتك في اسر بواجلبرت ؟ »

— نعم ايها المحترم وانا ارضى بدفع ما يتمكن رجل فقير من دفعه · · ·

— صه ! الم تمارس ابنتك هذه فن التطبيب ؟

— فعلت ايها السيد وكم من فارس ورام شفاهما علاجها بعد ما عجزت عن ذلك كل قوة بشرية

— أرأيت يامونت فتشت كيف يبتاع الشيطان عذاب نفس الى الابد بايام قليلة يهبه اياها على هذه الارض ؟ صدق الكتاب حيث قال : « انهضوا على الاسد · اقتلوا الصياد · اي والهيكل يجب فناؤهم » ثم اخذ يهزّ عصا الرئاسة في الهواء وهو يقول

لاسحق « ابنتك تشفي باستعمال التعاويذ والرقى · برسم العلامات والطلاسم »

— كلاّ ايها المحترم · تشفي بفضل المراهم

— كيف توصلت الى سرّ ذلك المرهم ؟

— بواسطة مريم احدى فاضلات قومنا

— نعم ! مريم ! تلك التي شاع خبر سحرها في كل بلاد مسيحية ؟ قال هذ ورسم الصليب ثم قال : « تلك احرقوها وذروا رمادها في الفضاء وليناني ما نالها ان لم يكن نصيب ابنتك كنصيبها ايها الخادم خذاليهودي واقذفه خارج المجمع وان ابى الذهاب فاقتله وسنحاكم ابنتهمحاكمة مسيحية كما يقتضي منصبنا لاستخدامها السحر مع احد اخوتنا الصالحين » ·

وعليه اخرج اسحق قسراً ولم يغنهِ صراخه ورجاؤه فتيلاً ورجع الى بيت ناثان ليعلم بمساعدته ما يؤول اليه امر ابنته التي كان يخشى على شرفها فاصبح يخشى على حياتها

واما الرئيس الاعظم فامر برئيس المجمع الذي هم فيه ليحضر بين يديه

٣٦

كان رئيس مجمع تمبلستون واسمه البرت ملفوازين اخاً لفيليب ملفوازين الذي يعرفه القارئ وكان كاخيه محباً وحليفاً للهيكلي بواجلبرت · ولم تكن وظيفته تمنعه من مشاركة الفاسقين من الهيكليين وتولي اعمالهم ولكنه كان مخالفاً لبواجلبرت لانه يعرف كيف يخلع ثوب الاهواء ويخلد الى التعبد والتدين ويلبس ثوب الرياء لدى الحاجة · فمقدرته هذه ساعدته على طرح العوائد الذميمة عندما بلغه الرئيس الاعظم في وسطها والاسراع الى الاصلاح الذي اشار به ذلك الرئيس بطريقة لفتت اليه انظار الرئيس واكسبته اعتباره واعتقاده انه رجل صالح باطناً لكن الشيطان اضله مرة

ومن منا لم يضله الشيطان ؟

فلما علم الرئيس بان البرت قبل داخل مجمعه يهودية وهي ربما كانت خليلة بواجلبرت تزعزع اعتقاده وقابله عندما مثل بين يديه بالجفاء والعبوسة وقال : « في هذا المجمع المكرّس لله امرأة يهودية اتى بها اليه احد الاخوة برضاك يا سيدي »

فسقط في يد البرت ملفواز بن لهذه الشكوى واخذت منه الحيرة كل مأخذ وامتنع عليه الكلام لانه كان قد اخفى رفقه في جانب منفرد من البناء واتخذ ما امكن من الحيطة ليبقى امرها مكتوماً فانى للرئيس معرفة امرها ؟ ثم كان يقرأ على وجه الرئيس الاعظم حكم خرابه وخراب بواجلبرت ان لم يسارع ويكتشف عذراً ينجي به نفسه ورفيقه

فقال الرئيس : « هل انت ابكم ؟ »

— « وهل يؤذن لي في الكلام ايها الرئيس المحترم ؟ » ولم يكن غرضه من هذا سوى اكتساب بعض الدقائق يجمع بها افكاره · فقال الرئيس : « انا اذناً لك فتكلم وقل لي هل تذكر احد قوانيننا الذي يحظر علينا مخالطة المومسات »

— اعرفه ايها الرئيس الفائق الاحترام فهل يصدّق ان رجلاً يرتقي الى رتبة رئيس مجمع وهو يجهل واحداً من اهمّ قوانين طغمته

— فكيف تأذن والحالة هذه لاحد الهيكليين ان يأتي بخليلته وهي ساحرة يهودية الى هذا المكان المقدس ؟

— ساحرة يهودية ! احمينا ايتها الملائكة

— ساحرة يهودية ايها الاخ هذا ما قلته فهل تنكر وجود رفقه ابنة اسحق اليوركي المرابي وتلميذة اللعينة مريم في هذا البناء ؟

— لقد زحزحت بحكمتك السامية ايها الجزيل الاحترام غيوم الجهل عن

بصيرتي . الان اعرف سبب تعلق الاخ بواجلبرت بتلك الفتاة التي لم اكن لاقبلها في مجمعي هذا لولا ضني بالاخ بواجلبرت وخوفاً من وقوعه في حبائلها وتوصلاً الى طريقة اقطع بها العلائق بينه وبينها

— ألم يدنس بواجلبرت ذيله بعد او لم يحنث باليمين المغلظة التي حلفها عند انخراطه في سلكنا ؟

فرسم ملفوازين الصليب على صدره وصاح . « تحت سقف هذا المجمع ! معاذ الله . قد اذنبت في قبولي هذه اليهودية في مجمعي ولكنني فعلت ذلك لانني رأيت ميل الاخ بواجلبرت اليها شديداً وهو اقرب الى الجنون منه الى التعقل فقلت هذا مسٌّ من الجن وربما تمكنت من شفائه اذا استعملت اللين وابعدته عن سببه شيئاً فشيئاً . واما الان فقد عرفت السبب والفضل في ذلك لحكمتكم السامية ايها المحترم . ماذا يمنع ان تكون تلك اليهودية قد اوقعت بواجلبرت في حبائلها السحرية ؟ »

— هذا هو الصواب . أرأيت يا مونت فتشت حذق الشيطان بنصب حبائله ينظر الرجل الى المرأة ليتنزه انظاره فيما يسمونه الجمال الجثماني الذي يعتقدون انه مجلبة لانشراح الصدر وانبساط النفس ثم يأتي عدوّ البشر القديم بتجاربه ويتم عملاً كان في بداءته غباوة وجهلاً . ولا يبعد ان يكون الاخ بواجلبرت بعمله هذا حقيقاً بالشفقة بدلاً من التأديب — معونة العكاز بدلاً من قرع العصا . وربما كانت نجاته وارجاعه الى اخوته متوقفة على الصوم والصلاة

فقال مونت فتشت : « يعز على الهيكل ورجاله فقد اعظم الاخوة بسالة وذلك في زمن هم في اشد الحاجة الى الاشداء من الرجال لان بواجلبرت هذا قد ذبح بيده ثلاثمائة سلجوقي »

— لقد كانت تلك الدماء كبخور يحرق على مذبح تمجيد القديسين الذين سوف

نستمد مساعدتهم في انتشال اخينا من حبائل الشيطان واما تلك الساحرة فسوف تموت

وسرَّ ملفوازين لاتجاه افكار الرئيس الى ذلك السبيل ورأى املاً عظيماً بخلاص رفيقه ولكنه خشي تطوُّح الرئيس فقال : « ولكن شرائع انكلترا . . . »

فقطع الرئيس كلامه وقال : « شرائع انكلترا ؟ شرائع انكلترا تأذن لكل متسلط ان ينفذ تلك الشرائع في منطقة سلطته فهل يحرم هذه الميزة رئيس الميكليين الاعظم في احد مجامع طغمته بينما يمارسها احقر النبلاء مقاماً ؟ لا وابيك فسوف نحاكم اليهودية ونصدر الحكم بمعرفتنا فالبلاد يجب ان تطهر من السحرة ويجب ان نسعى في استنزال المغفرة والمساعدة لضحاياهم أعدّ قاعة المجمع العظمى لمحاكمة الساحرة »

فانحنى ملفوازين وتراجع ليس ليعدّ قاعة المجمع بل ليبحث عن بواجلبرت وينهي اليه ما سمعه من الرئيس فالتقى به في بعض الاروقة يرغي ويزبد لرفض رفقه طلبه مرة اخرى فلما رأى ملفوازين صاح : « الكافرة النعمة الناكرة الجميل قد صدَّت الذي اخترق بصدره سداً من الاعداء وخاض الدم وغالب النار لينجيها قسماً بالسماء يا ملفوازين لم اترك المعقل حتى اخذت ابراجه في السقوط حولي واحداً واحداً وكان جسمي هدفاً لمئات السهام التي كانت تتساقط على درعي كانها البَرَد على السطوح . اهملت امر نفسي وسترتها بترسي . هذا فعلته معها فماذا كان منها ؟ ماذا لقيت منها ؟ ماذا كان جزائي ؟ اللوم لاني لم اتركها وشأنها تأكلها النيران وليس هذا فقط بل ابعدتني وقطعت كل امل لي في استرضائها في المستقبل كانما عفريت العناد الذي اخنص الشيطان شعبها به قد جمع كل قواه فيها »

— يخال لي ان الشيطان قد حلَّ فيكما كليكما طالما نصحت لك يا بواجلبرت بوجوب الحذر . الم اقل لك انه يوجد حسان مسيحيات يعددنَ صدَّ رجل مثلك خطيئة ويمكنك الاستغناء بهنَّ عن هذه اليهودية العنيدة ؟ ووالله لا يبعد ان يكون

بومنوار العجوز مصيباً بقوله انها قد اوقعتك في اشراكها السحرية

— وهل بلغ منك ان اطلعت بومنوار على وجود رفقه في المجمع ؟

— لم يكن ذلك بارادتي ولا اعلم كيف بلغ مسامع الرئيس خبر الفتاة التي اتخذت ما لا يقوى بشريٌّ على اتخاذه من الحيطة لابقي امرها مكتوماً لا ادري كيف بلغه خبرها اللهمَّ الا ان يكون الشيطان نفسه قد اطلعه عليه ولكن الان يا بواجلبرت انكر حبك لرفقه فتخلص لانه يزعم انك مسحور وانها ساحرة ويجب ان تلاقي جزاء الساحرة

— لا يكون ذلك وبواجلبرت في قيد الحياة

— بلى وحق السماء لانك لن تقوى ولن يقوى غيرك على خلاصها فالرئيس قد عزم على قتل الفتاة وبذلك يكفّر عن كل المواقف الغرامية التي وقفها الهيكليون عموماً وهو قادر كما تعلم وارادته لا تُردّ

فاخذ بواجلبرت بالتخطر وهو مقطّب الجبين ثم قال : « ترى هل تصدّق العصور المقبلة ان هذا كان غاية ادراك اهل هذا العصر ؟

— لا يهمني حكم العصور المقبلة ولا اروم معرفته واما ما اعرفه فهو ان تسعة وتسعين كاهناً وعلمانياً في المئة من اهل هذا العصر يوافقون الرئيس على عمله ويمتدحونه عليه

— لقد وجدت طريقة لنجاتها وانني اتكل على صداقتك يا البرت والصديق يظهر في الضيق يجب ان ترى لنا طريقة لاخراجها من المجمع حيث احملها بمساعدة اخيك الى مكان امين

— حبذا ذلك ايها الصديق ولكنه بعيد المنال واقرب الى المستحيل منه الى الممكن ألا ترى المجمع مزدحماً باتباع الرئيس المخلصين له؟ ثم لا اكتمك يابواجلبرت

انني لا اميل الى ركوب هذا المركب الخشن ولو كان امل السلامة فيه عظيماً . قد ضحيت في سبيل صداقتك ايها الرفيق اشياء عديدة فيما مضى ولم يكن نجاتي من مغبتها الا من سعد الطالع واما الان فانني اكره ان تلحقني اهانة وافقد رئاستي اكراماً لقطعة لحم يهودية . فاذا قبلت نصحي ارتدّيت عن هذه الطريدة واذخرت قواك لفرصة اخرى . اذكر يا بوجلبرت ان مستقبلك العظيم يتوقف على اعتبار الرئيس ورجاله لك . ألا تعلم انك اذا حافظت على هذه العلاقة مع رفقه تمكّن الرئيس من طردك ووالله لا اراه الا فاعلاً لانه غيور على رتبته ويكره سقوط عصا الرئاسة من قبضته الضعيفة وهو يعلم جيداً ان يدك القوية ممدودة لتناول تلك العصا وهل يجد الرئيس فرصة احسن من هذه ليزيلك من السبيل . يا بواجلبرت انبذ اليهودية الان فاذا آن الوقت واصبحت رئيساً تمكنت من جميع بنات يهودا تقتمهنّ او تحرقهنّ كما تشاء »

فصاح بواجلبرت وقد قامت عيناه في ام رأسه : « انت والله يا ملفوازين . . »

فقطع كلامه وقال : « صديق مخلص ولذلك اخلص لك النصح . هاءنذا اقول لك مرة اخرى انك لا تستطيع انقاذ رفقه واقول لك مرة اخرى ايضاً انك اذا حاولت ذلك هلكت معها . اذهب واطرح نفسك على اقدام الرئيس وقل له . . . »

— اطرح نفسي على قدميه ! لا والله سوف اقول له في وجهه . . .

— كما تشاء . قل له في وجهه ان شئت انك تحب هذه الفتاة للموت وان لا طاقة لك على نواها وبالغ ما شئت فمبالغتك تحمل الرئيس على الاسراع في قتل الفتاة وعلى طردك وحينئذٍ تضمحلّ كل امالك اللامعة ولا يكون امامك غير طريقة واحدة وهي حمل رمحك على كتفك والانخراط كاحد المتطوعة في المناوشات بين الفلاندر وبرغنديا

فصمت الهيكلي هنيهة كان يعمل في اثنائها فكرته ويقلّب وجه الحيلة ثم قال : « صدقت يا ملفوازين فسوف لا ادع للرئيس فرصة ليتخلص بها مني واما رفقه فهي لا تستحق كل هذا العناء وهي ولو عزّت لا تعوّض عليَّ الشرف والمجد اللذين اتخلى عنها لاجلها · سوف اتركها وشأنها ما لم · · · »

فقطع ملفوازين كلامه قائلاً : « لا تستثنِ امرًا في تصميمك هذا لان النساء متاع تزيد بواسطتهنَّ ساعات الفراغ لذة واما المعالي فهي غاية الحياة الوحيدة · ايهالك الف من مثل هذه الفتاة قبلما تقف لك قدم عن متابعة السير في سبيل المجد الذي انت سائر فيه · ساتركك الان ويجب الاّ يعلم الرئيس انني قد فاتحتك بهذا الصدد وها انا ذاهب لاعدّ القاعة للمحاكمة »

— بهذه السرعة ؟

— نعم · فما اسرع المحاكمة اذا كان القاضي قد اعد الحكم !

قال هذا وانصرف وخلّف رأس بواجلبرت مثارًا للافكار المتضاربة · وبعد طويل افتكار قال مخاطبًا نفسه « قد تكلفينني يا رفقه كل عزيز لديَّ · لماذا لا اقوى على تركك وشأنك كما اشار هذا المرائي ؟ ساعطيك فرصة اخرى ولكن الويل لكِ ان لم القَ منكِ غير الصد · الويل لكِ ! سوف يكون بغضي معادلاً لحبي فشرف بواجلبرت يجب ان لا يضحّى امام من لا يقبله ويجب ان لا يذهب سدًى »

ولم يكد ينتهي ملفوازين من اصدار اوامره للخدم حتى اتاه مونت فتشت يحمل اليه امر الرئيس بوجوب محاكمة اليهودية كساحرة في تلك الساعة

فقال ملفوازين : « اعرف عددًا عظيمًا من اليهود الذين ندعوهم سحرة ولكنني والله لم ارَ احذق منهم في التطبيب »

— ولكن الرئيس يعتقد خلاف ذلك ولا اخفي عنك ايها الاخ ان الاولى موت

اليهودية ولا تفقد الطغمة رجلاً كبواجلبرت او تشتق لاجله · انت تعلم شهرة الرجل ورفعة مقامه في عيون العدد العظيم من الاخوة ولكن ذلك لا يمنع رئيسنا من تنفيذ ما يعتقده عدلاً اذا اعتقد انه شريك اليهودية وليس فريستها · فالاولى كما قلت ان تموت رفقه ولو كانت فيها فضائل وقوة الاثني عشر سبطاً ولا يشار كما بواجلبرت في هلا كها

— قد صرفت ساعة في محاولة اقناع بواجلبرت بوجوب تركها ولكن هل من بينات ثابتة لمحاكمتها وهل يعتمد الرئيس على هذه البينات الضعيفة ؟

— يجب ان تقوّى هذه البينات · هل فهمت ؟

— فهمت ولست ممن يتوقف عن تعزيز جانب جوقتنا باية واسطة كانت ولكن الوقت اقصر من ان نجد شهوداً يقومون بما نطلب

— يجب ان تجدهم يا ملفوازين على الرغم من قصر الوقت · انت تعلم ان هذا المجمع حقير فقير وتعلم نفوذي لدى الرئيس فاوجد هولاء وانا زعيم لك برئاسة مجمع اعظم من هذا

— اعرف رجلين ممن تبعوا بواجلبرت الى هذا المكان كانا سابقاً في خدمة اخي فيليب وانتقلا الى خدمة فرنت — دي — بوف وربما يعرفان شيئاً عن سحر هذه الفتاة

— اسرع واحضرهما واذا اقتضى الامر قطعتي ذهب او ثلاثاً لتنبيه ذا كرتيهما فلا تبخل عليهما بها

— هما رجلان يقسمان على ان المرأة التي ولدتهما ساحرة مقابل درهم واحد

— اسرع واحضرهما فستبدأ المحاكمة وقت الظهر ووالله لم ارَ رئيسنا في هذه السرعة منذ حاكم حماه الفيجي الذي ارتدّ الى الاسلام

ولما قرع جرس المجمع الكبير مؤذناً بحلول الظهر سمعت رفقه خفق نعال عديدة على السلم فاستبشرت لانها كانت تخشى قدوم الهيكلي منفرداً لشراسته ووعيده ثم

فتح الباب وظهر فيه مونت فتشت وملفوازين واربعة من الحراس بثيابهم السوداء وفؤوسهم على مناكبهم · ولما دخلوا صاح ملفوازين قائلاً : « انهضي ايتها اللعينة واتبعينا »

— الى اين ولماذا ؟

فقال مونت فتشت : « ليس من شأنكِ ايتها الفتاة السؤال بل الطاعة ولكن لا بأس فاعلمي انكِ سوف تمثلين بين يدي رئيس طغمتنا الاعظم لتعطي حساباً عن اثامك

فرفعت رفقه عينيها ويديها نحو السماء وقالت « حمداً لك يا اله ابرهيم · اسم القاضي يكفي لان يلقي الرعب في قلب يهودية نظراً لعدائهم لنا ولكن هذه اللفظة قد وقعت في اذنيَّ الان وقوع لفظة مخلص · هاءنذا ايها السادة فاسمحوا لي بلف راسي ببرقع »

وبعدما لفَّت راسها ببرقعها تبعت الهيكليين وسار خلفها الحراس الاربعة الى ان دخلوا بها القاعة الكبيرة

وكانت قد ازدحمت بالاقدام في قسم القاعة ما يلي المدخل فلاقى قائدا رفقه صعوبة في تفريق الجمع والاقتراب بها من المجلس الذي اعدَّ لها · وبينا كانت رفقه في وسط ذلك الجمع ورأسها منحنٍ على صدرها احست برقعة دسَّت في كفها فقبضت عليها كانها حبل النجاة امام الفريق وتشددت عزائمها لعلمها انه لا يخلو ذلك الجمع من صديق لها · فرفعت رأسها والقت بنظرها على ما سوف نأتي على بيانه في الفصل التالي

٣٧

اعدَّت المقاعد لقضاة المحكمة التي تألفت لمحاكمة تلك الفتاة البريئة والتاعسة على المسطبة التي ذكرنا في غير هذا المكان انها كانت مختصة بمن كان رفيع الرتبة · وكان

مجلس الرئيس رفيعاً قبالة مجلس المتهمة وخلفه على مسافة قصيرة من كرسيه وعلى مقاعد منخفضة من مجلسه قليلاً اربعة من رؤساء المجامع وخلف هولاء على مقاعد دون مقاعدهم فرسان الهيكل ووراء هولاء كانت حملة السلاح والخدم والرماة وقوفاً . وكان الرئيس يحمل بيمينه عصا الرئاسة التي وصفناها في غير هذا المحل وامام منصته منضدة جلس اليها كاتبان بثياب سوداء يدوّنان ما يجري في تلك الجلسة

وكانت هيئة القاعة مهيبة جداً اذ كان في طرفها الواحد عدد غفير من فرسان الهيكل تبدو البسالة على وجوههم مقرونة بالوقار الذي لم يكونوا ليهملوه في حضرة رئيسهم وفي الطرف الآخر عدد غفير ايضاً من خدم الهيكل وخدمة اتباع الرئيس وعدد من اهالي القرى المجاورة دخلوا المجمع لمشاهدة الرئيس الاعظم والساحرة

ولما انتظم عقد الجمع تلا الرئيس بصوت رهيب منخفض مزموراً من مزامير داود ثم رفع الهيكليون اصواتهم الرفيعة بترنيمة روحية وكان صدى اصواتهم يرن في قبب تلك القاعة كانه خرير مياه كثيرة

ولما فرغوا من الترنيم ساد السكوت والتفت الرئيس حوله فرأى احد كراسي روساء المجامع فارغاً وكان لبواجلبرت فبحث عنه بعينيه فوجده واقفاً حذاء مقعد الفرسان وكفه الواحدة على جبهته والاخرى على مقبض سيفه يرسم به وهو في الغمد خطوطاً لا معنى لها على ارض المسطبة الخشبية . فتحوّل الرئيس الى مونت فتشت والشفقة والحنان باديان على وجهه وقال : « لله ما اتعسه ! اراَيت يا مونت فتشت كيف يخوّفه عملنا هذا المقدس وهو لا يجسر ان يرفع عينيه الينا . اراَيت كيف يُسقط ملاك الشر فارساً قوياً على الرغم من قوّته ؟ اراَيت كيف يرسم رموزاً ربما علّمته اياها تلك الساحرة وربما كان الغرض منها اذيتنا ولكن بعون الله وبركته لسنا نخافه بل نضحك من خزعبلاته »

ثم رفع صوته وخاطب الحضور قائلاً : « يا فرسان الهيكل ورؤساء مجامع الهيكليين البواسل والمحترمين — يا اخوتي واولادي · وانتم ايها الاتباع الذين يطمعون يوماً ما في لبس هذه الاثواب الطاهرة وانتم ايها الاخوة المسيحيون الموجودون في هذا المكان ليكن معلوماً لديكم ان ما الجأني الى عقد هذه الهيئة ليس العجز عن القيام باعباء الحاكمة وحدي لانكم تعلمون انني قادر على الحكم بما اراه مناسباً وارى فيه مصلحة وشرف طغمتنا المقدسة وعلى تنفيذ ذلك الحكم بمقتضى القوة التي تخولني اياها هذه العصا · ثم اعلموا انه لي وحدي القوة بمنطوق المادة التاسعة والخمسين من قانوننا ان ادعو اعضاء هذه الطغمة الى عقد جلسة في الاحوال التي نراها موافقة لنا بحسب حكمنا ومعرفتنا وبذلك ترون انه لنا الخيار ان نستشير الاخوة في امورنا ولكن لاجزم بوجوب الاعتماد على مشورتهم · غير انه عند ما هاجم الذئب القطيع واختطف احدى نعاجه رأينا ان نستعين باخوتنا لكي يساعدونا على طرده او قتله لان قانوننا يقول ان الاسد المفترس يستحق القتل · وعليه قد اتينا بامرأة يهودية تدعى رفقه ابنة اسحق اليوركي وهي امرأة قد اشتهرت بسحرها التي سممت بواسطته دم احد اخوتنا واثرت به على دماغه · واما ذلك الاخ فهو ليس بالحقير بيننا ولا بالساقط المنزلة وليس فارساً فقط بل رئيس مجمع من مجامعنا رفيع الرتبة مسموع الكلمة ومن يجهل الاخ بواجلبرت الذي ذاع صيته وكثر تحدُّث الخاصة والعامة باعماله المملوءة حمية وغيرة على الصليب المقدس في فلسطين وغيرها وفضلاً عن هذا فان رجال الطغمة ينظرون الى بواجلبرت نظرهم الى قائد مدرَّب ورئيس حكيم وقد علَّقوا امالهم على طرح هذه العصا في كفه عند ما يشاء الرب ويدعونا للمثول بين يديه · فاذا سمعنا ان رجلاً كالذي ذكرته لكم طرح ذاته الى الرياح بغتة ودنَّس نذره لله وحنث بيمينه له ونسي واجباته لنفسه واخوته وانضم الى فتاة يهودية يحميها ويهمل امر نفسه ويسير بصحبتها في اماكن

مقفرة ثم يحضرها الى احد الجامع المقدسة — اذا سمعنا هذا ماذا نقول ؟ ألا نقول ان شيطاناً قد دخل ذلك الرجل وانه قد فعل ما فعله مدفوعاً بقوة سحرية شيطانية ؟ فلو امكنني ان اردّ هذه المسببات الى اسباب اخرى واقتنعت بها لما اوقفني صيت او سمعة او رتبة عن قصاص المذنب بمقتضى قوانيننا العادلة . والخلاصة ان الاخ المذكور قد اقترف ذنوباً نذكرها : اولاً سلك بحسب مشيئته مخالفاً المادة ٣٣ — ثانياً اختلط بشخص محروم من الكنيسة حسب المادة ٥٧ — ثالثاً حادث امرأة غريبة . رابعاً لم يهتم بالابتعاد عن تلك المرأة وربما قبّلها . وهذه ذنوب لو كان بواجلبرت فاعلها المختار لكانت كافية لان تطرده من بيننا مهاناً محتقراً

وسكت الرئيس مدة يستعيد بها انفاسه ثم استأنف الكلام فقال: «هذا يكون جزاء احد رجال الهيكل اذا خالف قوانين الهيكل ولكن اذا نصب الشيطان ـ ذلك العدو الشديد ـ الاشراك واوقع ذلك الرجل فيها بواسطة جمال قد استغوى القلب وجب ان نرثي لحالته ونشفق عليه ونرحمه ونفرض عليه فروضاً يكفّر بالقيام باعبائها عن الخطيئة التي ارتكبها ويطرد بواسطتها ذلك المجرّب ونحوّل غضبنا الى الآلة التي كانت سبب شقائه ونصب على رأسها الجزاء العادل الذي كان يستحقه هو لولا ما ذكرنا . فعليه ليتقدم ويشهد كل من لديه شهادة يظهر بواسطتها اعمال هذه المرأة حتى اذا كانت تلك الشهادة كافية نالت الفتاة جزاءها والا تحوّلنا الى الرجل وحاكمناه »

وعندئذٍ نودي بعدد من المحاربة ليشهدوا بما رأوا من اعمال بواجلبرت في المعقل ولما كان هولاء من العامة يميلون بالطبع الى المغالاة والاعتقاد بالغرائب ورأوا ان شهادتهم قد تسرّ ذلك الرئيس العظيم بالغوا فيها ما شاؤا وشاءت تصوراتهم حتى اضحى عمل بواجلبرت بفضل روايتهم ماثلاً لاعمال ابطال خرافات الاقدمين . ثم دعي رئيس مجمع تمبلستون ليشرح للقضاة كيفية دخول بواجلبرت المجمع . فوقف

ملفوازين واتى على حديث كان قد دبَّره ورتبه من قبل وكثيراً ما ذكر ان حركات وكلمات واعمال بواجلبرت وميله الغريب الى الفتاة كانت اشبه باعمال رجل مدخول اومسكون واظهر ملفوازين ندمه العظيم على قبوله ذلك الرجل وخليلته في المجمع ثم قال: « ولكنني قد اوضحت في اعترافي لرئيسنا الفائق الاحترام السبب الذي حملني على قبولها فان كنت مصيباً بعملي او مخطئاً فها ءنذا واقف بخضوع وخشوع لاسمع الحكم عليَّ والقيام بما يفرض عليَّ تكفيراً عن ذنبي »

فقال الرئيس: « احسنت ايها الاخ البرت فمقاصدك كانت حسنة لانك جاهدت لان تردع بواسطتها الساقط عن سقوطه ولكنك مخطئٌ لانك لم تتخذ السبيل القويم فكنت كمن يوقف جواداً جموحاً بامساك عرقوبه بدلاً من عنانه فيناله الاذى بدلاً من ان ينال بغيته وعليه سيكون قصاصك ان تضاعف عدد الصلوات التي فرضتها قوانيننا وهي ثلاث عشرة في الصباح وتسع في المساء فضاعف هذه وامتنع عن اكل اللحوم التي اجازتها قوانيننا ثلاث دفعات في الاسبوع مدة ستة اسابيع . هذا قصاصك »

فانحنى ملفوازين باحترام زائد ورجع الى مقعده . فقال الرئيس ألا ترون ان من الصواب ايها الاخوة ان نبحث قليلاً في اقوال واعمال هذه المرأة الساقطة لنتأكد لنا استعدادها للسحر وامكان استخدامها اياه في معاملتها لاخينا ؟ »

فوقف احد رؤساء المجامع وكانوا اربعة كما ذكرنا وهم ملفوازين ومونت فتشت وبواجلبرت وهذا وكانت الحروب العديدة قد رسمت آثارها على وجهه وجسده وكانت له منزلة بين الهيكليين — وقف وانحنى للرئيس الاعظم وقال: « اذا حسن في عيني الرئيس المحترم ان اسمع ما يقوله الاخ بواجلبرت في هذه التهم الموجهة اليه »

فصاح الرئيس: « براين بواجلبرت . سمعت سؤال اخينا فاجب عليه وانا آمرك

بذلك · فرفع بواجلبرت نظره الى الرئيس ولم ينبس بحرف · فقال الرئيس : « ارى ان الشيطان الذي دخله ابكم · اخرج ايها الشرير وتكلم يا بوجلبرت فاني آمرك بما تخولنيه هذه العصا من السلطة»

فهمّ بواجلبرت ان يظهر ازدراءه بالعصا وحاملها ولكنه علم ان عمله يجلب عليه الويل فردّ الكلام الذي بلغ حلقومه وقال : « ان بواجلبرت ايها الرئيس المحترم لن يجيب على هذه التهم الغريبة ولكنه ان لحق بشرفه عار حماه بجسده وبسيفه الذي تعرفه المسيحية »

فقال الرئيس : « نعذرك على افتخارك باعمالك وهو امر مصدره الشيطان ايضاً الذي يوهم الناس ان الفخر فيما يعملونه عائد عليهم وحدهم · نعذرك لاننا نعتقد انك لست انت المتكلم» فنظر بواجلبرت الى الرئيس نظرة ازدراء · فاستأنف الرئيس الكلام وقال : « واذ لم ينل اخونا جواباً مفيداً على سؤاله نبحث في هذه المسألة التي امامنا الى نهايتها · هل بينكم من يعرف شيئاً عن ماضي هذه المرأة ؟ »

ولم ينته الرئيس من سؤاله حتى سمع في طرف القاعة الآخر حركة وجلبة فسأل عن السبب فقيل له ان هنا مقعداً عادت اليه عافيته بواسطة مرهم عجيب اعطته اياه اليهودية · واذا بجماعة يقودون المقعد وكان سكسونياً وهو يكاد يموت جزعاً وخوفاً من تبعة قبوله الشفاء من يد فتاة كافرة وكان يستعين على المشي بعكازين · فجيء به الى الرئيس واخذ هذا يسأله وذاك يجيب مكرهاً والدمع يسيل من عينيه وملخص قصته انه كان قبل ذلك بسنتين في يورك يخدم اسحق اليهودي ففي بعض الايام اصيب بفالج وعجز عن تحريك اعضائه فعالجته رفقه ببعض العلاجات بينها مرهم طيب الرائحة فعادت اليه بعض القوة ثم صرفته بحقة من ذلك المرهم وقطعة نقود ليرجع الى بيت ابيه بجوار المجمع ولما انتهى الرجل من حكايته استأنف وقال : « ولكن ايها الرئيس الفائق

الاحترام لا ارى الفتاة قد ارادت بي شرًّا ولا اذية لانني كنت ولا ازال اصلي صلاتي عندما استعمل المرهم فلا تزول خصائصه ويبقى على ما هو»

— اصمت ايها العبد وامض في سبيلك ايخلق بفقير ضعيف مثلك ان يلمس هذه العلاجات الشيطانية ألا تعلم ان ابليساً كثيراً ما يجلب على الانسان مرضاً ثم يشفيه منه و ينال منه بغيته ؟ اين تلك الحقة التي ذكرتها

فادخل الرجل يده في صدر ثوبه واستخرج حقة صغيرة عليها احرف عبرانية . وكانت هذه الاحرف لديهم برهاناً كافياً لاعدام رفقه زعماً انها رموز سحرية غير ان الرئيس كان عارفاً باللغات الشرقية فرسم الصليب وتناول الحقة وقرأ ما عليها فاذا هو هذا : « هوذا قد غلب الاسد الذي من سبط يهوذا » . ولما قرأ هذه الكلمات صاح : تباً لابليس ما اعظم شرّه انظروا كيف يحوّل معاني الايات المقدسة ولا عجب فهو قادر على دس السمّ في الذّ المآكل طعماً ألا يوجد هنا طبيب يحلّل هذا المرهم ويذكر اجزاءه »

فتقدم رجلان احدهما راهب والاخر حجّام . وبعد الفحص اتفقا على انهما يجهلان تركيب المرهم ولكن قالا ان رائحته تشبه رائحة المرّ والكافور ولما كان تركيبه غريباً وهما عارفان بجميع اسرار الحشائش والعقاقير وجب ان يكون مسحوراً ومن عمل الجن ولما انتهى هذان من بحثهما الكيماوي تقدم المقعد وطلب حقته فقال الرئيس : « ماذا تدعى ايها الرجل »

— ادعى هك بن سنل

— يا هك بن سنل خيرٌ لك ان تصرف حياتك في الفراش من ان تبرأ بعلاج دبّرته يدٌ غير مسيحية وخير لك ان تنهب اليهودي من ان تستعين على المعيشة بدراهمه النجسة هبة كانت او اجوراً . انصرف وافعل ما امرتك به

فصاح المسكين : « وا حسرتاه حبذا لو اتاني هذا الانذار قبل الان ولكنني سوف انفع به اخويَّ اللذين يخدمان ناثان بن صموئيل واقول لهما ان نهب ماله خير من نقاضيه بضعة اجور »

— « اصمت ايها المهذار ! » فانسحب الرجل واختلط بالجمع ليسمع الحكم الذي سوف يصدر

عندئذٍ امر الرئيس رفقه بنزع برقعها فقالت :« لا يليق بفتاة نظيري ان تكشف وجهها بين هذا الجمع وهي فريدة وحيدة »

وكان صوتها لطيفاً يفعل بالآذان ما تفعله الخمرة بالرؤوس وتظهر الدعة والرقة في نبراته فتأثرت قلوب السامعين لسماعه ورحموا الفتاة . اما الرئيس فلما كان يعتقد ان قمع كل عاطفة بشرية تعترض واجباته الموهومة يُعدُّ فضيلة امر الفتاة ثانية برفع برقعها فلم تفعل . فتقدم منها بعض الحرس وهمُّوا بالبرقع لينزعوه فنهضت رفقه وقالت :

« اكراماً لبناتكم . . . ولكن وا حسرتاه لا بنات لكم ! ردُّوا هولاء الخدم عني اكراماً لذكر امهاتكم واخواتكم واكراماً لشرف النساء »

وكان صوتها مملوءاً جزعاً وخوفاً فتحرَّك له قلب الرئيس نفسه ثم قالت : « وحيث لا بدَّ من امتثال امرك فهاءنذا اكشف وجهي . انكم شيوخ قومكم الآمرون فيهم وتجب طاعتكم . انظروا في وجه هذه الفتاة التعسة »

ثم نزعت برقعها وقد كست وجهها حمرة الخجل ورفعت عينيها الى الجمع فبهتوا لذلك الجمال الفتان ونظر الفتيان من فرسان الهيكل كل في عيني زميله كأنه يقول : سحر عينيها فعل ببواجلبرت وليس سحر يديها . واما المقعد فلما وقع نظره على وجه رفقه صاح : « وا حسرتاه ! دعوني اخرج من هذا المكان لانه اذا وقعت هاتان العينان عليَّ ثانية متُّ جزعاً لانني اكون شريكاً لقاتليها »

فقالت رفقه : « لا تيأس ايها الرجل فنواحك هذا لا ينفعني كما ان صدقك في الكلام لا يؤذيني · اذهب الى بيتك وانجُ بنفسك »

وحينئذٍ امر الرئيس ان يؤتى بالشاهدين اللذين يتوقف على شهادتهما الحكم فأُتي بالرجلين اللذين ذكرهما ملفوازين وكان قد اعتنى بتلقينهما ما ينبغي ان يقال · فتقدم احدهما وقال انه كثيراً ما سمعها تتغنى باغاني لم يفهم معناها ولكن صوتها كان يقع في اذنيه فكان يفقده الصواب فيخفق قلبه وترتعد فرائصه وقال ان ثياب رفقه مقطوعة بطريقة غريبة والرسوم الموجودة على اثوابها وبرقعها اشبه بالرموز السحرية ثم قال · « وبينا نحن في معقل فرنت — دي — بوف رأيتها مرة تشير بيديها فوق جرح جريح وتهينم واذا بنصل الحربة قد خرج من الجرح ونهض الرجل معافًى واعانني في ترتيب الاقواس على الاسوار »

ثم دنا رفيقه وقال : « كنت واقفاً على الابراج فرأيت هذه الفتاة واقفة على برج آخر وبينا انا انظر اليها رأيتها قد اتخذت لها صورة إوَزّة ناصعة البياض وحلّقت في الهواء هنيهة ثم عادت فاستقرّت على البرج واستعادت صورتها الاصلية »

ولما انتهى الرجل تحوّل الرئيس الى رفقه وقال : « سمعتِ الشهادة فبماذا تجيبين؟

فنهضت رفقه وقد زادها الموقف هيبةً وجمالاً وقالت بصوت رخيم ملؤه التأثر « عبثاً استثير شفقتك وهي ولو كانت ما يطمع فيه لعددت طلبها حطة ودناءة · ثم انني اعلم ان تنبيهك الى ان ربنا هو ربكم قد امر بمساعدة المسكين والجريح والمريض لا يجدي نفعاً · واعلم ايضاً ان تفنيد اقوال هؤلاء الشهود واظهار بعدها عن الحقيقة يذهب ضياعاً وانا اراك قد ملت الى تصديقها وما يقال في هذه يقال في اثوابي ولغتي وهي لغة ابائي التي . نجهلها · ثم انني اعظم شرفاً من ان ابرّر نفسي باتهام ظالمي الذي اراه واقفاً هنالك محصاً لحنوّكم وشفقتكم بدلاً من سخطكم وغضبكم فليقض الله بيني

و بينه وخير لي ان ينالني الجزاء الذي ترون مجازاتي به معها كان من ان اوافقه على طلبه الشرير . هو احدكم واصغر كلماته تدحض اقوى براهيني وعليه لا آمل ان اظهر لكم براءتي بتذنيبه ولكن اياك اخاطب يا براين بواجلبرت واياك اسأل فاجبني اليست هذه التهم باطلة ألا يعادل جورها بطلها ؟ »

وسكتت رفقه وساد السكوت في القاعة وتحولت جميع الانظار الى بواجلبرت فعقبت رفقه قائلة : تكلم ان كنت رجلاً . تكلم ان كنت مسيحياً . تكلم بحق هذا الزي الذي تستر به جسدك والاسم الذي ورثه عن ابائك ورتبة الفروسية التي تفاخر بها وشرف والدتك التي حملتك . تكلم وقل هل في هذه التهم ذرة من الصدق »

فقال الرئيس : « تكلم ايها الاخ اذا رأيت الى الكلام سبيلاً وارغمت العدو الذي يحاربك في الداخل »

وكانت فرائص بواجلبرت ترتعد واطرافه ترتجف وبكل مشقة تمكن من رفع رأسه ومخاطبة رفقه قائلاً : « الرقعة . الرقعة »

فصاح الرئيس : « لا يقوى المسكين على النطق ولا اراه يقوى على غير ذكر الرقعة وهي ولا شك الرقعة التي رسمت عليها طلاسمها »

ولكن رفقه فهمت من كلام بواجلبرت غير ما فهمه الرئيس فالقت بنظرها على الرقعة التي وضعت في كفها عند ما دخلت القاعة فرأت مكتوباً فيها باحرف عربية هذه الكلمات : « اطلبي فارساً يثبت حقوقك بحد السيف » . ولم تكد تنتهي رفقه من قراءة الرقعة حتى سمعت الرئيس يقول

اراكِ يا رفقه عاجزة عن الحصول على شهادة هذا الاخ الذي استعان بالشيطان فتغلب على عواطفه فهل بقي شيء تريدين قوله ؟ »

— بقي لي طريقة واحدة للخلاص وذلك ما تخوّلنيه شرائعكم الظالمة· حياتي كانت مرّة ولكنني لا انبذها نبذ النواة لانها هبة الخالق وتجب المحافظة عليها بقدر الامكان ·· انا انكر هذه التهم واصرّح بانني بريئة لم اقترف ذنباً ايها الرئيس واعلن ما نسبتموه اليّ وسوف اثبت كلامي هذا في ساحة الميدان حيث اظهر وبجانبي محام يثبت براءتي وينفي عني هذه التهم بحد سيفه

— ومن تراه يحامي عن ساحرة ؟ ومن تراه يمتشق حساماً في سبيل يهودية ؟

— سوف يقيم لي الله محامياً ومساعداً لانه لا يصدّق ان انكلترا السعيدة التي انبتت الوفاً من الفرسان الذين ينازلون اقرانهم حباً بالشرف والمجد لا تنبت بين هؤلاء فارساً ينازل فارساً آخر حباً بالعدل· ولكن كفى فقد طلبتُ وهذا رهني

ثم نزعت قفازها الحريري المطرّز وطرحته عند اقدام الرئيس بعظمة وبساطة عظيمتين اكبرهما الحضور

≺ ٣٨ ≻

وتأثر الرئيس نفسه وخفق قلبه حنواً لمنظر رفقه وحركاتها لان هذا الرجل لم يكن بالطبع قاسياً او ظلوماً ولكنه لما كان بارد العواطف شديد التمسك بما يظنه واجبات مقدّسة زادته ممارسة الحروب برودة والسلطة المطلقة صلابة واعتقاداً بوجوب قطع دابر من لا يقول قول المسيحيين ولا يعتقد اعتقادهم

فلما تأثر الرئيس وانبسط جبينه وزالت العبوسة من وجهه لمرأى تلك الفتاة واقفة امامه تثبت حقوقها وتظهر براءتها بشجاعة غريبة· فاخذ يتأمل في وجه الفتاة ثم رسم الصليب ثلاثاً كأنه شك في صدور تلك العواطف عن قلب يعهده اشد صلابة من فولاذ سيفه ثم قال : « اذا كان ما اشعر به نحوكِ ايتها الفتاة مصدره العلم الشرير الذي تشتغلين به كان الويل لكِ ولكنني اراني اميل الى الاعتقاد ان هذا

الشعور سببه الشفقة على هذا الجثمان الذي تمت فيه شروط الجمال واللطف وان يكن اناء نجساً. اعترفي بخطإكِ يا ابنتي وانبذي علومكِ السحرية ومعتقدكِ الباطل وضمي هذا الصليب المقدس الى صدركِ وادخلي احضان احدى الرهبنات حيث تكفّرين عن ماضيكِ فتخلصي. بماذا عادت عليكِ شرائع موسى حتى تفضلين الموت في سبيلها؟

تلك شريعة اباني التي أُنزلت على جبل سينا في وسط رعود وبروق ووسط سحابة وعمود من نار. فان كنتم مسيحيين اشترعتم بتلك الشريعة ولكنكم تزعمون ان الله قد استردّها منا وهذا ما لست اعتقده ولا يمكن ان اسلم به

— ليتقدم احد كهنتنا اللاهوتيين ويبرهن ....

— عذراً ايها المحترم على قطع كلامك فانا فتاة تجهل العلوم اللاهوتية ولا قبل لها باثبات معتقدها بالبراهين التي هي من خصائص اهل اللاهوت ولكنني اعرف كيف اموت في سبيل ذلك المعتقد. فما هي مشيئتك بخصوص المحامي الذي ذكرته؟

— «عليّ بالقفاز» ولما اصبح في كفه تأمله ملياً ثم قال: «رهن حقير ولكن اعلمي يا رفقه ان نسبة قفازكِ هذا الى قفازنا الحديدي نسبة احتجاجكِ الى التهم الموجهة اليكِ والتي اذنبتِ بها الى طغمتنا المقدسة»

— اضف اليه براءتي ايها المحترم تجده قد رجح على القفاز الحديدي

— الا تزالين مصرّة على انكار ذنبكِ وعلى عزمكِ بخصوص النزال؟

— لا ازال ياسيدي النبيل

— ليكن ما تريدين وليظهر الله الحق

فصاح الجميع آمين!

فقال الرئيس: «ايها الاخوة تعلمون انه كان في امكاننا ان ننكر على الفتاة طلبها ولكنها ولو كانت كافرة ويهودية فهي وحيدة لا معين لها بيننا ولا محامٍ وحاشا لله ان

يقال اننا منعنا عنها شيئاً قد يظهر براءتها وزد على ذلك اننا فرسان وجنود وعار على الفارس ان يرد طالب نزال وعليه ان رفقه ابنة اسحق اليوركي المتهمة باستعمال السحر وايقاع احد اخوتنا في شرّه تكر هذه التهمة وتروم اثبات براءتها في ساحة الميدان فلمن ترون انه يجب ان يعطى قفازها هذا ليكون فارسنا الذي يظهر عدالة اتهامنا ؟ »

فقال رئيس المجمع الذي تكلم سابقاً : « لبواجلبرت فهو ذو علاقة بهذه اكثر من غيره وهو يعرف ولا شك صدق كلامها من بطلانه »

— وربما كان بواجلبرت باقياً عرضة لمفعول ذلك السحر ؟ اقول هذا من جانب الاحتياط لانني لا اجد بين رجالنا من هو اعظم اهلية لعمل كهذا من فارسنا المشهور وسيفنا الماضي »

— ايها الرئيس المحترم لن تقوى الطلاسم على من يدافع عن حقوق الله ويظهر عدله وحكمه !

— صدقت ايها الاخ . يا البرت ملفوازين احمل هذا القفاز الى بواجلبرت ونريد منك يا بواجلبرت ان تحارب هذه الحرب التي سوف تظهر الحق من غير بد وانت يا رفقه اعلمي اننا قد عينا اليوم الثالث من هذا النهار ليظهر فيه الفارس الذي يحارب عنك

— هذه المدة ايها المحترم اقصر من ان تتمكن فيها فتاة غريبة ومن معتقد غير معتقدكم على ايجاد فارس ينازل من تدعونه سيف الهيكل الصارم

— يجب ان احضر النزال بنفسي ويجب ان يكون قبل رحيلي لان اموراً ذات اهمية تضطرني الى ترك هذا المكان في اليوم الرابع

— لتكن اذن مشيئة الله فهو حسبي وعليه اتكل فهو لا حدَّ للزمن في عينيه

ولا يعجز عن اقامة محامٍ عني في دقيقة واحدة اذا شاء

— احسنتِ ايتها الفتاة ولكن نحن ادرى الناس بذاك الذي يظهر احياناً بشبه ملاك النور . ولم يبقَ غير تعيين ساحة النزال والاعدام ايضاً في حين انخذال فارسك . اين رئيس هذا المجمع ؟

وكان ملفوازين لا يزال واقفاً بجانب بواجلبرت مهتماً بمحادثته والقفاز في يده فصاح الرئيس : « هل أبى بواجلبرت ؟ »

فاخفى ملفوازين القفاز في صدره من غير ان يلحظ الرئيس عمله وتحوّل الى الرئيس وقال « لم يأبَ ايها المحترم وسيقوم بما يطلب منه واما ساحة النزال فأرى ان تكون في ميدان مار جرجس حيث يزاول رجال هذا المجمع حركاتهم الحربية التمرينية »

— حسناً فالى تلك الساحة يجب ان تحضري فارسكِ يا رفقه في اليوم الثالث فاذا تأخرتِ وشاء الله وانخذل حاميكِ وجب ان تموتي موت الساحرة . ليدوّن الكتبة حكمنا هذا ويقرأوه على رؤوس الملا لكي لا يحتجّ احدٌ انه لم يسمعه

وكان احد الكاتبين اللذين ذكرنا جلوسهما امام منصة الرئيس يملي على رفيقه وهذا يكتب فلما انتهى من الكتابة وقف وقرأ ما يأتي

« رفقه فتاة يهودية وابنة اسحق اليوركي المتهمة باستخدام السحر واستغواء احد رجال الهيكل المقدس تنكر هذه التهمة وتقول ان الشهادات التي شهد بها الشهود في هذه الحضرة باطلة كاذبة لم ينزل الله بها من سلطان وتقول انها مستعدة ان تظهر براءتها في ساحة الميدان ولما كانت امرأة لا تقوى على النزال أُذن لها ان تنتخب فارساً يحامي عنها بحسب شروط النزال وبالسلاح المعروف . هذا من جهة ومن الجهة الاخرى سوف يُثبت التهمة ويظهر ان الحكم الصادر على براين دي بواجلبرت احد

افراد الهيكليين هو عادل وذلك باشارة رئيس الهيكليين الاعظم مرقس مركيز بومنوار الذي اصدر الحكم وعين اليوم الثالث من تاريخه ليجري فيه ذلك النزال في ساحة مار جرجس التابعة لاوقاف مجمع تمبلستون · وقد صدر امر الرئيس الاعظم المذكور الى رفقه المشار اليها لتظهر بجانب فارسها في الوقت المعين والا نالها الجزاء والى فارس الهيكل والا لحقه جزاء المارق المخالف لامر رئيسه وشروط الفروسية وعدّ شريكاً للساحرة في ذنبها وقد امر الرئيس الاعظم ايضاً ان يجري النزال في حضرته بحسب ما تقتضيه شروط النزال المعروفة · وليساعد الله البري و يظهر الحق »

فقال الجمع « آمين » · واما رفقه فرفعت نظرها الى السماء و بقيت على هذه الحالة هنيهة كانها تستمد معونة من فوق ثم ذكرت للرئيس وجوب تخويلها فرصة تتمكن بها من مخاطبة اقربائها

فقال الرئيس «هذا من حقوقكِ فاختاري لنفسكِ رسولاً »

فخاطبت رفقه الجمع قائلة : « هل يوجد بينكم رجل يقوم بهذه الخدمة اما حباً بالانصاف والعدل او حباً بالمال ان وجد فليتقدم و يحمل رسالة هذه المخلوقة التعسة »

فساد السكوت ولم يجبها احد · فاصفرّ وجهها وقالت « ايليق ان احرم في هذه البلاد التي اشتهر رجالها بالنخوة مساعداً ؟ وهل يسدّ في وجهي باب النجاة الوحيد ؟

فقال المقعد « انا رجل عاجز واما ما نلته من قوة الحراك فقد نلته بواسطتها » ثم خاطب رفقه قائلاً « ساقوم بخدمتكِ ايتها الفتاة وحبذا لو كنت صحيحاً لاعوّض عن الاذية التي لحقتكِ بواسطتي · وا اسفاه زعمت ان مفاخرتي بحذقكِ وحنوّكِ يكونان سبباً لنجاتكِ فكان عكس ذلك »

فقالت رفقه « كلنا في يدي الله فهو القادر على كل شيء والمقعد والصحيح في عينيه واحد لا يفضل احدهما الاخر اذا شاء الله ان يستخدمه في حاجاته و يظهر مجده

بواسطته · خذ هذه الرسالة الى اسحق اليوركي وسر وليباركك الرب واعلم ان عليك تتوقف حياة وموت انسان · ان في داخلي من يناجيني انني لا اعدم صديقاً وانني سوف احيا »

فتناول المقعد الرسالة وقال : « سوف اركب فرس جاري ايتها الفتاة واستمد معونة الله » وخرج

ولم يبعد كثيراً حتى التقى برجلين عرف من لباسهما انهما يهوديان على بغلتين فاقترب منهما فاذا به يرى اسحق اليهودي الذي خدمه سابقاً وناثان بن صموئيل وكانا قد ركبا واقتربا من المجمع ما امكن لعلهما يعلمان شيئاً من امر رفقه وكان اسحق يقول « لا اعلم يا اخي ابن صموئيل لماذا احشائي تضطرب والخوف قد اخذ مني كل مأخذ فتهمة السحر لا ينجي منها المتهم بها غير الموت »

فقال رفيقه : « تشدّد ايها الاخ فانت غني ولك سلطة على هولاء النصارى كما كان لخاتم سليمان الحكيم سلطة على الجن فتشجع ولكن من هذا القادم · معوز فيما ارى · مكانك ايها الرجل انا لا ابخل على المريض بما اعرفه من الطب ولكنني لا ارى خيراً في الاحسان بالمال · اذا عجزت عن استخدام رجليك فاستخدم يديك ولا تخلد الى الكسل · · · »

وقطع كلامه زفرة زفرها اسحق الذي كان قد تناول الرسالة من يد المقعد وقرأها فتحوّل اليه فرآه قد ارتخت اعضاؤه وسقط الى الارض

فوثب ناثان واخرج من جيبه ادوات الحجامة وهمّ باسحق ففتح هذا عينيه وعاوده شعوره فنزع عمامته وحثا التراب على رأسه واستغرط في النواح · فظن ناثان ان رفيقه قد اصابه مسٌ وهمّ بمعالجته فاوقفه اسحق عن عمله هذا وصاح : « وا ابنتاه ! وا رفقتاه ! كان الاولى بك ان تدعي بن أوني (ولد احزاني) وليس رفقه لماذا ينزل

موتك شيبتي برارة الى القبر حتى اجدّف على الله في آخر حياتي وأموت ؟ »

فقال ناثان كالموبّخ « ايها الاخ اتكون شيخاً في اسرائيل وتجدّف هذا التجديف وهل ماتت ابنتك ؟ »

« لم تمت ولكنها كدانيال الذي دعي بلتشاصر في جب الاسود . هي اسيرة في يدي هولاء القساة الذين سوف يحل غضبهم عليها غير مشفقين على شبابها وجمالها . أوّاه كانت اكليل غار لهذه الشعور البيضاء وهوذا سوف تيبس في مدة الليل . ايتها الحمامة الطاهرة يا ثمرة حبي ويا ركن شيخوختي . اواه يا رفقه يا ابنة راحيل سوف يكتنفك الموت بظلاله ويحجبك عن نظري »

— اعد قراءة الرسالة يا اسحق لعلنا نجد طريقة لنجاتها

— خذ واقرأ ايها الاخ فعيناي ينبوع ماء . فتناول ناثان الرقعة وقرأ

« على اسحق بن ادونيقام الذي يدعوه النصارى اسحق اليوركي سلام ورحمة وبركات الموعد مضاعفة . يا ابتِ حكم عليَّ بالموت لذنب لست اعرفه — حكم عليَّ بالموت بدعوى السحر . يا أبتِ اذا وجدتَ فارساً يحامي عن حقوقي حسب عوائد النصارى في ميدان مجمع تمبلسون وذلك في اليوم الثالث من تاريخه واذا وضع الله في يد ذلك الفارس قوة وقهر خصمه نجوت وظهرت براءة ابنتك الضعيفة . واما اذا عجزتَ عن ايجاد ذلك الفارس فادعُ عذارى قومي ليَنحنَ ويندبنَ هذه التعسة ويبكين الغزالة التي سفك دم قلبها الصياد والزهرة التي قطعها منجل الحصاد . واذ قد عرفت حالتي فانظر فيما انت فاعله . بين النصارى رجل لا اراه يمتنع عن المحاماة عني وهو ولفرد بن سادرك السكسوني الملقب بايفنهو ولكنني لا اراه قادراً على لبس درعه وركوب جواده ولكن كيف كانت الحال اطلعه على خبري فيساعدك لنفوذه بين قومه وقل لايفنهو هذا ان رفقه بريئة مما اتهمت به ولو ماتت . ثم اذا عدمتَ واسطة

يا ابتِ وماتت ابنتك فاهرب من هذه البلاد والجأ الى ابي عبد الله ملك الاندلس فهو شفيق وقومه الاسلام يحمون المستجير ولا يكرهون اليهود كره النصارى لهم وبذلك تنجو من مظالم هذه البلاد »

واصغى اسحق بينما كان ناثان يقرأ حتى اذا اتى هذا على آخر الرسالة عاد اسحق الى النواح وحثو التراب والصياح « وا بنتاه · وا بنتاه · يا لحم لحمي وعظام عظامي »

فقال ناثان « يا اسحق لا يجديك هذا النواح نفعاً · قم كرجل وشدّ حقويك واطلب ايفنهو هذا فربما وجدت فيه عوناً · يقال انه مسموع الكلمة مقرَّب من الملك ريكارد الذي شاع خبر رجوعه الى هذه البلاد فلعلك تحصل منه على امر بايقاف هولاء الذئاب وابعادهم عن فريستهم وربما تمكن من تأديب هولاء الرجال الذين اتخذوا اسم الهيكل فاهانوه »

— سوف اطلب هذا الشاب فهو حسن الطوية رؤُوف ببني اسرائيل ولكنه جريح يعجز عن حمل سلاحه ومن ترى يقدم غيرة على حرب لنجاة فتاة صهيون ؟

— كلامك يا اسحق كلام رجل خفيت عليه حقيقة احوال الوثنيين · اتجهل انك تتمكن من ابتياع بسالتهم كما تبتاع سلامتك من ظلمهم ؟ فانهض وتشجع واطلب ايفنهو وسوف اسعى معك لانه من العار ان اتخلى عن ابن شعبي في ضيقه فساذهب الى يورك ولا اشك في انني اتمكن من ابتياع احد الفرسان هنالك لان المال رب لهولاء القوم وبالمال تبتاع دناءهم واخراهم ولا اراك يا اسحق الا قائماً بما يتم عليه الاتفاق بيني وبينهم

— ساقوم بما تطلب والحمد الذي اوجد لي معزّياً في ضيقي ولكن لا تتسرَّع يا ناثان ان تمنحهم طلبهم لانهم كثيراً ما يطلبون المثاقيل وهم يرضون بالدراهم ولكن اعمل بحكمتك السامية وما هي منفعة المال اذا هلكت ابنتي ؟

— استودعك الله يا اسحق وليمنحك الله جميع مشتهيات قلبك

وهنا تصافحا ومضى كلٌّ في طريقه واقام المقعد ينظر اليها هنيهة ثم قال : « ذهب الكافران دون ان يلتفتا اليَّ كانني عبد ومن غير ان يجيزا تعبي بقطعة واحدة من النقود . لم يضطرّني احد الى حمل هذه الرسالة وما ادراني انني مسحور او ان قطعة الذهب التي اخذتها من رفقه سوف تكون سدًّا بيني وبين معلم اعترافي قبل الفصح المقبل واضطرّ الى دفع قطعتين مثلها لاستجلاب رضاه ؟ . . . ولكن من يقوى على الاقتراب من تلك الفتاة وسماع طلبها ولا يقوم به فوالله لو طلبت مالي وبيتي وادواتي ساعتئذٍ لما وجدتني قادرًا على ردّ طلبها ولما كنت ابخل عليها الان لو كانت تنقذ حياة تلك الفتاة

٣٩

أُرجعت رفقه الى حبسها فاقامت فيه تراقب الشمس في مسيرها الى ان غابت فاخذت بصلاة حارّة لتستعيد بها ما فقدته من الرجاء عندما شاهدت الشمس تغيب والنور يزول ويحل محله الظلام

ولم تكد تنتهي من صلاتها حتى سمعت قرعاً خفيفاً على الباب فقالت : « أُدخل ان صديقاً او عدوًّا فلا قِبل لي بمنعك لانني لست الآمرة هنا »

ففتح الباب واذا بالهيكلي بواجلبرت وهو يقول : « ان شئتِ كنت صديقاً وان شئتِ كنت عدوًّا فعلى مشيئتكِ يتوقف الامران »

فارتعدت فرائص رفقه لمرأى هذا الرجل الذي كانت ترى فيه سبب عذابها وشقائها وتراجعت الى احدى زوايا الغرفة ووقفت كمن يستعد للمدافعة لآخر نقطة من دم في عروقه . فقال الهيكلي : « ليس ما يوجب خوفكِ وذعركِ يا رفقه وبعبارة اوضح سوف لا اقدم على ما يخيفكِ »

— لست اخافك يا سيدي الفارس فرجائي قوي بالله لا ولا اخاف بشراً ·
قالت هذا على رغم نَفَسها المتقطع وقلبها الخفوق الذي لم يكن سببه غير الخوف

— قلتُ يا رفقه انه ليس ما يخيفكِ الان لانني لو عدت الى ماضي تهددي نادیت حرّاسكِ وهم غير بعيدين وهولاء وان يكن غرضهم سوقكِ الى الموت الا انهم لا يسمحون لانسان باهانتكِ ولو كان ذلك الانسان بواجلبرت نفسه

— حمداً لله فالموت احدى الراحتين !

— أَجَلْ ما اسهل الموت اذا اتى بغتة وكان فيه اجتناب الوقوع في العارفطعنة رمح وضربة سيف لا تعدّان شيئاً عندي اذا سلِمَ معها شرفي · والوثوب من برج مرتفع او طعنة خنجر لا تحسب شيئاً عندكِ بجانب خلاص نفسك من العار · رفقه! ربما كانت محافظتي على شرفي تعادل قوة محافظتكِ على شرفكِ فهذا ليس بالامر الكبير وهو ما لست اعلمه · ولكن الذي اعلمه هو اننا كلينا نعرف كيف نموت ذباً عن الشرف والمعتقد

— وهل قضي عليك ايها التعس ان تتظاهر باعتقاد ما لا تقتنع بصحته ؟ اذن قد استبدلت مالك بغير الخبز · ولكن قد يتغير حكمك يا سيدي الفارس وتنقله الامواج من مكان الى آخر وذلك بخلاف حكمي لان اساسه صخر الدهور

— مهلاً ايتها الفتاة واليكِ عن هذا البحث فهو لا يعود بفائدةواسمعي لما اقوله « حُكم عليكِ بالموت وذلك ليس مما يرحّب به الشقاء ويقتضيه التعس — حكم عليكِ بالموت موتاً بطيئاً مؤلماً · يزعم هولاء الجهال بجهلهم انه موت يكفر عن الذنب الموهوم الذي اتهموكِ به غباوة وجهلاً

— ومن كان سبب هذا المصرع ؟ أليس الرجل الذي اتى بي الى هذا المكان لينفذ فيَّ ارادته الوحشية وينال مني مبتغاه الحيواني والذي اراه الان بالغ في آلام

موتي لمأرب في النفس

— لا يجولنّ في خاطركِ يا رفقه انني نزلت بكِ الى هذا الويل مختاراً وانني ويعلم الله مستعدٌ لان ادرأ عنكِ هذا المصرع بتعريض كل عزيز في عيني كما كشفت جسدي للسهام فردّها عنكِ

— لو كان غرضك شريفاً لما تأخرت عن شكرك لا بل لم تكن لتجد مخلوقاً يشعر بفضلك شعور هذه الفتاة اليهودية به ولكنك قد اكثرت من ذكر عملك هذا فرأيت ان اقول لك ان لا قيمة للحياة عندي اذا خلصتَ وطلبتَ مقابل تخليصها ما طلبته انت

— اقصري عن هذا الكلام فعندي من الاحزان ما يكفيني فضلاً عن لومكِ

— ما هو غرضك اذن من هذه المقابلة؟ اذكره وان كان مخالفاً لسابق اغراضك التي اتيتني بها ثم اتركني لاعدّ نفسي للخطوة القصيرة الفاصلة بيني وبين الابدية

— ألا تزالين يا رفقه تضغطين على عنقي بذكر الويل الذي حلّ بكِ والذي كنتُ اود الاّ ينالكِ منه ذرّة واحدة؟

— آبى التذمر والشكوى والتأنيب ايها الفارس ولكن الست انت سبب هذا الويل كله؟

— تخطئين يا رفقه تخطئين! لانني لم اعطَ معرفة الغيب ولم يكن في امكاني التكهن بقدوم ذلك الاحمق بغتة فيفسد عملي. قلت الاحمق وهو الصواب لانه رجل يملك نصيباً من الشجاعة العمياء لا غير ولكن مديح بعض الاغبياء قد رفعه الى هذه الدرجة فاعتقد انه ارفع من البشر وارفع مني قدراً وفهماً بل ارقى من المئات التي نتألف منها طغمتنا المستهزئة باعتقاداته الباطلة وهوذا نرى ثمرة احدها

— ولكن على رغم كلامك هذا رأيتك جالساً مجلس القضاة ولك بعض

الفصل في اصدار هذا الحكم الجائر وفيما اظن سوف تكون انت محامي الهيكل وتنازل. الفارس الذي سوف يرسله الله الى نجدتي

— صبرًا ايتها الفتاة · انتِ وشعبكِ ادرى الناس بالمسير مع مجرى الزمن واعلمهم كيف يجب ان يُلبس لكل حالة لبوسها

— لا كانت الساعة التي علّمَتْ قومي هذا التعليم ولكن الشقاء ايها الفارس يفعل بالهمة ما تفعله النار بالفولاذ الصلب · هذه هي اللعنة التي حلّت علينا جزاء ما جنت ايدينا وايدي آبائنا واما انت فكثيرًا ما تفاخر بحرية افكارك واعمالك وتقول انها حقوقك الشرعية فوالحالة هذه كيف تهمل تلك الحرية وتجاري امرءًا في اباطيله وتسير معه يدًا بيد ؟ عار مَن اعظم عار المسيِّر ام عار المخيَّر ؟

— ما امرّ كلماتكِ ايتها الفتاة وما اشدّ وقعها · اعلمي ان بواجلبرت لا يخضع لرجل ولو دلّت الظواهر الحاضرة على خلاف ذلك واضطرته الظروف الى الخروج عن السنَّة التي سنها لنفسه لمأرب في النفس · اعلمي ان ارادة بواجلبرت كمجرى ماء منحدر من قمة جبل وقد يقوى احد الصخور على تحويل مجراه الا انه لا يمنعه من بلوغ البحر · رفقه ما تقولين في تلك الرقعة التي دسّت في يدكِ في القاعة ؟ وهل تظنين ان رجلاً غير بواجلبرت يقدم على دسها ؟

— لم تكن الاّ لتؤخر ساعة الموت ولكنها لن تمنع اقترابها وما هذا كل ما يجب ان تفعله لخلاص تلك التي اثقلتَ قلبها بالحزن وجلبت عليها الشقاء وقدتها الى الموت بيمينك

— نعم ليس هذا كل ما نويت عمله · غرضي من تلك الرقعة تنبيه افكاركِ الى الطلب الذي طلبته ثم لما كنت اعلم ان من حق فرسان الهيكل العاديين القيام ببراز كهذا وليس روساء المجامع · قلت : سوف تطلب الفتاة تبرئة نفسها في الميدان فاذا

حانت الساعة واجتمع الهيكليون في الميدان ودخله الفارس الذي انتخبوه استترت بزي الجوالة من الفرسان الذين يطلبون النزال سعياً وراء الشهرة وبرزت له كمخلص يمد يده لينقذكِ وما كنت اشك في خلاصكِ لانني اعلم انني كفوء لايّ منهم فرادى او مثنى ولكن حال دون هذا العزم رئيس ذلك المجمع الذي اشار بانتخابي وكان ماكان

— نفر وادعاء! هذا ما كنت قد عزمت عليه ولكنك رأيت التحوُّل عنه اقرب الى الصواب فتحوَّلت . لقد تناولت قفازي يا سيدي الفارس وسوف تكون خصماً للفارس الذي يقيمه لي الله لحمايتي واراك فوق ذلك كله تدَّعي الوفاء والاخلاص

— ولا ازال صديقكِ ولكن بشرط ان تقومي بما اطلب لانني بالعمل الذي سوف اعمله اعرّض باسمي للعار واقول : سلام على الشرف والصيت . ولما كان هذان في عينيَّ اثمن من الحياة نفسها ذكرتهما قبل ذكر العمل لاكون على ثقة من ان ما اضحيه لا يذهب ضياعاً

— افصح لانني لم افهم ما تعني

— اصغي لكلامي اذن فسوف يكون ككلام الخاطىء التائب امام معلم اعترافه . اذا لم اظهر في ساحة الميدان بارفقه خسرت شهرتي ورتبتي واعني بهما اعتبار وميل رفاقي وامل تناول عصا الرئاسة من يد ذلك الضعيف بومنوار . هذا ما اخسره اذا لم اظهر في الميدان وانازل فارسكِ . فلعن الله الذي كان سبباً في انتخابي ولعن البرت ملفوازين الذي منعني عن ضرب وجه الرئيس بذلك القفاز وتوبيخه لجلوسه مجلس القاضي يحكم جهلاً في امرٍ لم ينزل الله به من سلطان وفي تهم باطلة موجهة الى فتاة عندها من التعقل نصيب وافر ومن الجمال كماله

— لا خير في الاطراء والمديح الان وماذا يجدي الكلام ؟ خلاصة كلامك انك اذا تأخرت عن النزال خسرت خسارة انت ادرى بقدرها واذا اقدمت عليه لم

يعد للفتاة المتهمة رجاء في النجاة فوالحالة هذه ترى ما الفائدة من بحثنا · لقد خُيّرت ايها الفارس واخترت

فتقدم الهيكلي من رفقه وهو يقول : « اخطأت ِ ايتها الفتاة فانني لم اختر بعد وعليك ِ يتوقف الاختيار · اذا ظهرت في الميدان وجب ان احافظ على سمعتي السابقة بكل قواي واذذاك لا بد من موتك ِ لانه ليس في انكلترا فارس لا يقيس الارض بطوله اذا سددت اليه رمحاً غير الملك ريكارد قلب الاسد وتابعه ايفنهو · وايفنهو كما لا يخفى عليك ِ جريح لا يقوى على لبس درعه والملك ريكارد مسجون في بلاد غريبة والخلاصة انني اذا ظهرت في الميدان مت ِّ لا محالة

— فهمت كلامك ولكنني لم اعرف غرضك من تكراره مراراً

فقال : « اكرره لانبهك ِ الى وجوب النظر في حالتك من جميع الجهات »

— رأينا باطن القماش فأدر ظاهره لنراه

— اذا ظهرتُ هلكت ِ واذا لم اظهر فقدتُ الاسم الذي صرفت السنين الطوال وسفكت الدماء الغزيرة في سبيل تعزيزه واصبح مضغة في افواه السوقة · اخسر الشرف · اخسر آمالاً اعظم ارتفاعاً من الجبال · ثم طرح نفسه على قدميها وهو يقول: « ولكنني اترك الشرف غير مأسوف عليه · احوّل ظهري للسمعة والصيت · اغمض عينيَّ عن الرفعة والسلطة — اترك كل هذه يا رفقه اذا قلت ِ لي يا بواجلبرت انت حبيبي وانا احبُّكَ »

— مستحيل يا ذا الفارس · فاذا اردت خلاصي ولم تشأ تعريض نفسك للعار فاسرع الى الملكة او الى البرنس يوحنا ابنها واطلعها على امري لانني لا اراهما الا متداخلين في امري محافظةً على شرف الشريعة الانكليزية

فقال الهيكلي وقد تناول ذيل ردائها : « ما لي ولهولاء · انا اخاطبك ِ وعليك ِ

لتوقف النتيجة. يا رفقه لنفرض انني الشيطان نفسه ألا تلجإين اليّ هرباً من الموت ؟ ليس لي من مزاحم غير الموت ! »

فقالت رفقه وقد خشيت تحريك غضب الرجل برفض صريح : « كن رجلاً يا سيدي وتشدّد . انت مسيحي أُمرتَ بعمل الرحمة فاعملها ولا تطلب جزاء لئلا تخسر عائدة عملك »

فوثب الهيكلي واقفاً وصاح : « لن اذعن الى براهينكِ هذه . تخلّيتُ عن الشرف لاجلكِ فاذا رضيتِ هربنا معاً . اعلمي يا رفقه ان انكلترا واوربا ليستا العالم باجمعه . سوف نذهب الى فلسطين ونقيم في جوار مركيز منسرّات فهو صديق لي وحرٌّ نظيري لم تستعبده الخرافات او نسكن جوار صلاح الدين نفسه وذلك خير لنا من الاقامة تحت سماء هذه الاوهام والوساوس الخرافية . حينئذٍ افتح لنفسي باباً للشهرة بحد سيفي وتسمع اوربا جمعاء وقع اقدام ذلك الرجل الذي نبذته بيد ابنائها . اعلمي ان ما عجزت عنه ملايين الصليبيين ومئات الوف سيوفهم ورماحهم سوف اناله بسيفي وسيوف الاخوة الذين يلحقون بي قسراً عن الرئيس الاعظم وازحف على تلك البلاد التي اصبحت مطمح انظار العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً زحف المنتصر الظافر والسيد المالك وارفع لكِ عرشاً على جبل حرمون واضع على رأسكِ تاجاً واستبدل العصا التي كنت اتطال اليها بالصولجان »

— حلم ! اضغاث احلام ! وهب انها في اليقظة وانني رأيت ذلك العرش وذلك التاج رأي العين فليس بيني وبينها سوى قيد باع امدّ يدي واتناولها ما طمعت بهما ولم يؤثرا عليّ لانني رغماً عن حقارة قومي وانخفاض جانبي بين البشر لا ارضى عن الاشتراك مع رجل يهمل واجباته ويحنث بعهوده ليشبع جوعاً حيوانياً من فتاة ليست من قومه . لا تساومني على خلاصي يا سيدي الفارس . وتعرض كرمك للبيع كسلعة .

انقذ المظلوم حباً بالعدالة نفسها واكراماً لوجه الحق وليس طمعاً بنال بنية · اقصد يا سيدي الفارس عرش انكلترا فصاحبه ريكارد لا يتأخر عن انقاذ المظلوم مجاناً »

فقال الهيكلي بعظمة « اذا تركتُ الطغمة تركتها لاجلكِ ولكن شرف النفس لا احب ان افقده ولا احب ان اهين نفسي اذا رفضتِ حبي · أأذهب الى ريكارد ذلك المملوء كبرياء واسأله حاجة والقي طغمتي بشخصي عند اقدام ذلك الرجل ؟ · لا يا رفقه اذا كان ولا بد من تضحية شرفٍ ما فالاولى ان اعرّض شرفي الذاتي ويبقى شرف طغمة الهيكليين رفيعاً لا تناله الالسن ولا الاعين »

— اعنّي اذن يا اله السموات فمون البشر لا رجاء فيه

— لقد وجدتُ كبرياؤكِ شبيهاً لها في صدري · اذكري يا رفقه انني اذاظهرت في الميدان لن تقوى قوّى او اميال بشرية على منعي عن ابداء كل ما لديَّ من البسالة والاقدام · اذكري انكِ سوف تحرقين على نار بطيئة ويذرّى رمادكِ في الهواء ويزول كل اثر لهذا الصبا الجميل · اذكري كل هذه الامور يا رفقه واذعني لارادتي

— يا بواجلبرت اما ان تكون جاهلاً اطوار النساء او انك لم تحادث في ما مضى من عمرك غير اللواتي فقدنَ عواطفهنَّ الشريفة وهو الحق اقوله لك ايهذا الهيكلي المتكبر انك لم تلاقِ من الآلام والشدائد في معاركك السابقة عشر ما تقوى على احتماله امرأة في سبيل المدافعة عن عواطفها او واجباتها · انا امرأة رقيقة العواطف وبالطبع اخشى المخاطر ولا قِبل لي باحتمال الآلام ولكن عند ما نظهر في ذلك الميدان انت لتحارب وانا لاتألم لا اشك في ان شجاعتي سوف لا تنقص عن شجاعتك فالوداع الان لان ما بقي لي من العمر يجب ان اصرفه في غير الذي نحن فيه · يجب ان اشكو امري الى ذلك المعزّي الذي يحجب وجهه عن مخلوقاته ولكن عينه ساهرة ابداً واذنه مصغية دائماً لمن يطلب معونته بتوبة واخلاص

— سنفترق اذن على هذه الصفة · ليتني لم ارك يا رفقه او ليتك كنت مسيحية شريفة المحتد كريمة الاباء والاجداد · لا بل عندما انظر اليك وافكر في مصيرك اود لو كنتُ واحداً من قومك اقلب الفضة والذهب بدلاً من الرمح والسيف · احني الجبهة لكل مار وعابر السبيل · منخفض النظر الاّ في وجه المديون المفلس · افضّل هذه مع البقاء بجانبك على الاشتراك مع قاتليك في قتلك

فقالت رفقه : « ذلك الرجل الذي صوّرته بكلامك هو اليهودي وما بلغ اليه بفضل ظلمكم · فان يكن الله قد طرده من بلاد اجداده فقد فتح له باب الكسب والاجتهاد وبذلك استرجع السلطة التي فقدها · اقرأ تاريخ قومي القديم واخبرني اذا وجدت بين من قرأت عنهم المرابي والبخيل الذي تراه في هذه الايام · تفاخرون يا سيدي بانسابكم القديمة فهل هي اقدم من انساب اولئك الذين يعدّون بين اجدادهم رجالاً سكنوا الارض ايام كان يحلّ الله فيها وترتجف الارضون والسموات لحلوله »

واحمرّت وجنتا رفقه تحمساً وبرقت عيناها هنيهة ثم زال ذلك الاحمرار والبريق بغتة وقالت : « هذا ماضي رجال يهوذا ولكن ذلك الماضي قد اكلته الايام فهم الان كالعشب المقطوع تدوسه الاقدام وتخلط الوحول به · غير ان بينهم من لا يخشى الانتساب الى ذلك الشعب ولا يرى فيه حطة وابنة اسحق بن ادونيقام واحدة منهم · الوداع ايها الفارس فانا لا احسدك على نسبك الموروث وشرفك الطارف والتليد ولا احسدك على دينك الذي موضعه منك الشفتان واما قلبك فبتعد عنه بعيداً

— صدق ذلك الرئيس الاحمق فانا مسحور وشاهدي عظم كرهي للابتعاد عنك لانه غير طبيعي · ثم اقترب من رفقه باحترام عظيم وقال « من ترى يرى هذا الجمال وهذا الصبا وهذا الازدراء بالموت ولا يبكي ؟ الدموع التي لم تعرفها عيناي من عشرين سنة قد اغرقها النظر اليك بهما · ولكن لم يعد في القوس منزع ويجب ان تموتي

لاننا غرضان والقدر يسير بنا لغاية معروفة او مجهولة · سفينتان تتقاذفهما الامواج فاقتربتا الواحدة من الاخرى والتطمتا فغرقتا الى القاع · اغفري اذن ما اقترفته نحوكِ ولنفترق كصديقين · لقد صدمت ارادتكِ وعدت بالخيبة فسوف اتبع ارادتي لارى نهاية المقدور

— على هذه الصفة يسند الرجال نتائج اميالهم واهوائهم الى المقدور ولكن كيف كانت الحال فانا اصفح عن زلتك يا بواجلبرت ولو جلبت عليّ الموت · صدرك لا يخلو من عاطفة شريفة ولكن هي الاشواك قد شاخت فيه ولا بد لها من خنق الازاهر الطيبة الرائحة

— صدقت يا رفقه فانا جاهل شرس معجب بنفسي لانني ارفع قدراً من القوم المحيطين بي والذي شاء القدر ورماني بينهم · انا رب المعارك منذ كنت صبياً صلب العنق لا يقف في وجهي شيء وليس ما يمنعني عن اتمام رغائبي · وسابقى على ما انا عليه الى ان اموت · يا رفقه اتصفحين عن زلتي ؟

فقالت : « صفحتُ صفح الضحية للذي ضحاها »

— « الوداع اذن » وخرج

وكان رئيس المجمع البرت ملفوازين ينتظره في حجرة محاذية فلما خرج اليه قال : « لقد اطلت الاقامة يابواجلبرت وكنت انا هنا على مثل الجمر خوفاً من الرئيس او احد جواسيسه · مالك ايها الاخ فانني ارى اقدامك غير ثابتة واطرافك ترتجف وجبينك شديد السواد · فهل انت مريض »

فقال بواجلبرت « مريض كتلك التي سوف تموت عما قليل ولكن لا فهي اشد عزيمةً واحسن حالاً مني لان بين الناس من لا يهتم بالموت اكثر مما يهتم لخلع رداء قديم عن منكبيه وحق السماء يا البرت قد نزعت تلك الفتاة الرجولة والثبات من

صدري واكاد اذهب الى الرئيس وارفض الاشتراك في عمله الشيطاني هذا »

— انت مجنون يا بواجلبرت اتزعم انك بعملك هذا ترد الرئيس عن عزمه ؟ لا وابيك بل تجلب الهلاك على نفسك وتلجئ الرئيس الى تعيين غيرك من رجالنا لهذه الحرب وعلى كلتا الحالتين لا تنجو هذه اليهودية التي تحبها

— سلمتُ ولكن ما قولك اذا حميتها انا بنفسي وكنت فارسها · انت تعلم انني اذا فعلت ذلك لا القى بين فرسان الهيكل من يثبت في وجهي ويبقى في سرجه ورمحي في يدي وبذلك تنجو رفقه

— لا انكر صدق كلامك ولكن هل غرب عنك انه ابعد من السهى منالاً · سر الى بومنوار وقل له انك قد نقضت عهدك للهيكل وانا زعيم بانك لا تخرج هذه الكلمات من فمك حتى تصبح في قبو الدير مقيداً بالسلاسل لتحاكم محاكمة من يحنث بيمينه · او اذا شاء بومنوار اثبت جنونك وارسل بك الى قبو بعض الاديرة والله يعلم في ايها تقيم باقي حياتك · مضجعك المشيم وطعامك الخبز اليابس يصب على رأسك الماء المقدس كل صباح ومساء الى ان يخرج منك الشيطان الذي شاءت ارادة الرئيس واوجدته فيك · والله وحده يعلم متى يكون خروج ذلك الشيطان · بواجلبرت ! يجب ان تظهر في الميدان والاّ فقدت شرفك وحياتك معاً

— ساهرب اذن من هذا المكان الى بلاد لم تصل اليها بعد وساوس الدين وخرافاته فذلك خير لي من ان يكون لي يد في سفك نقطة واحدة من دم هذه المخلوقة العجيبة

— وهذا الباب قد اقفل ايضاً لان حركاتك واطوارك في هذه الآونة الاخيرة قد لفتت اليك الانظار · اذهب الى الحرس على الباب ومرهم بانزال الجسر المتحرّك واصغِ لما يقولون · اراك قد تعجبت وقد ظهر الغضب في عينيك ! هب انك هربت

يا بواجلبرت وهو امر صعب المنال لما ذكرتُ فماذا تكون النتيجة؟ تكون النتيجة تحقير اسم ابائك والحاق العار به — عار لا يمحوه كرور الاعوام والاجيال · وهب انك لا تهتم لهذا أَلا تهتم بحالة رفاقك الذين حاربوا معك ووقفوا وقفتك في الصفوف عندما يذكر اسمك وهو اشرف الاسماء فترتفع اصوات السامعين بالازدراء والاشمئزاز هب انك هربت ولم تبالِ بالعار الذي يلحق باسمك ولا بحالة رفاقك أَلا تهتم باسف بلاط فرنسا عندما يبلغه خبرك؟ انني والله ارى اسار بر ريكارد تنبسط سروراً وازدراء معاً للعار الذي لحق بالفارس الذي زاحمه في فلسطين وكاد يحجب شمس شهرته وكل ذلك لاجل يهودية! وليتك مع كل ذلك تقوى على خلاصها»

فصاح بواجلبرت «شكراً لك يا ملفوازين فقد لمستَ اكثر اوتار قلبي شعوراً وتأثراً مَن لي بريكارد او احد اتباعه الانكليز يلقاني في هذ الميدان ولكن لا اخال احداً يُقدم على مساعدة تلك البريئة المتروكة»

— وذلك من حسن بختك لانك اذ ذاك لا تكون شريكاً في قتل الفتاة بل تلحق التبعة بذلك الرئيس الاحمق

— صدقت اذا لم يظهر من يأخذ بيدها كنت كاحد المتفرجين يلحقني من الاثم ما يتبع المتفرّج· صدقت يا ملفوازين! لقد احتقرتني وابعدتني واهانتني وقطعت كل امل لي فهل تستحق على عملها هذا بذل كل عزيز لديَّ؟ ملفوازين! سوف اظهر في الميدان من كل بد

قال هذا وخرج من الحجرة مسرعاً فتبعه ملفوازين ليشدده في عزمه لان ملفوازين كان يطمع بفوائد جمة ينالها بواسطة بواجلبرت اذا اصبح رئيساً فضلاً عن الرتبة التي وعده بها مونت فتشت اذا نجح في اثبات التهمة الموجهة الى رفقه لينال رئاسة مجمع ارفع درجة من مجمعه وان يرتقي بواجلبرت الى رتبة الرئاسة لينال منه

اضعاف تلك نظراً للصداقة . وعليه كان دأبه مراقبة بواجلبرت لئلا يترك المجمع وابعاده عن الرئيس لئلا يصرّح بافكاره والاكثار من ذكر العار والحطة التي تلحق به اذا رآه متردّداً

< ٦٠ >

لنعد الان الى الفارس الاسود . قلنا ان الفارس ودّع لوكسلي وتركه والان نقول انه ترك لوكسلي وطلب ديراً في الناحية واسع الاملاك يدعى دير القديس بدكولف وكان غرضه من الذهاب الى ذلك الدير رؤية ايفنهو لانه عندما خلصه من المعقل سلمه الى كارث وومبا وامرهما بنقله الى ذلك الدير . ولما بلغه اختلى بايفنهو مدة طويلة كانت نتيجتها ان انفذ رئيس الدير عدداً من الرسل الى جهات متعددة . وبات الفارس تلك الليلة في الدير وعند الصباح سافر ودليله ومبا . ثم طلب ايفنهو لوداعه فوجده على باب الدير فاقترب منه وقال :

« سوف نلتقي يا ايفنهو في قصر اثلستاين حيث ابوك مهتم بدفن قريبه لانني احب زيادة التقرّب من قومك وسوف اسعى بحضورهم لازالة ذات الخلاف بينك وبين والدك »

فجهد ايفنهو باقناع الفارس ليسمح له بالمسير بصحبته فابى هذا عليه وقال تعوزك الراحة اليوم لكي تتمكن من السفر في الغد وتوافيني الى المكان الذي اشرتُ اليه ثم انني لا اروم رفيقاً غير ومبا الذي يقوى على تمثيل دور الكاهن ودور المهرّج كما اشاء وتشاء الاحوال

فقال ومبا : « وانا لك باجمعي يا سيدي غير انني اروم حضور حفلة دفن المرحوم اثلستاين لانه ان لم يكن الطعام جيداً قام من بين الاموات ووبّخ الطاهي والخدم وجميع الموجودين وهو مشهد حرام ان يفوتني . ثم ارجو يا سيدي الفارس من بسالتك

ان نتوسط في امري لدى سيدي لابتعادي عنه اذا عجزتُ بحكمتي وذكائي عن تسكين غضبه

فقال الفارس « وماذا تنفع البسالة اذا عجز الذكاء ؟ »

— اعلم يا سيدي الفارس ان الذكاء رجل شديد الخبث سريع الحركة يرى مواقع الضعف في جاره ويهاجمها ولكنه يخلد الى السكينة اذا اشتد الغضب . واما البسالة فهي فتىً شجاع شديد العصب لا فرق عنده عصفت الريح او تعالت الامواج وعليه ارجو يا سيدي الفارس ان تتداخل اذا اشتد غضب سيدي فتصرفه بينما اغتنم فرصة سروره فاسعى في الاعتذار

فقال ايفنهو : « ارى يا سيدي الفارس الاسود انك قد اتخذت لك دليلاً كثير الكلام والهذر ولكنه عارف بمداخل ومخارج الغابات كاحد الصيادين وهو امين كما رأيت »

فقال الفارس : « اذا كان دليلي حاذقاً في مسالك الغابات واهلاً لان يخرجني منها لا ارى وجهاً للتذمر اذا سعى في تسليتي ومسرَّتي . استودعك الله يا عزيزي ولفرد وآمرك بالاّ تبرح هذا المكان قبل الغد ان لم يكن بعده »

واذ قال هذا مدَّ يده لايفنهو فتناولها هذا وقبَّلها باحترام ثم ودَّع الفارس رئيس الدير وركب جواده وخرج بصحبه ومبا . فاقام ايفنهو يرقبهما الى ان غابا بين الاشجار فدخل الدير وقصد غرفته ولكنه لم يقم فيها طويلاً حتى بعث يطلب رئيس الدير الشيخ فدخل عليه وسأل عن حاله فقال « اجدني باحسن حال يا سيدي الرئيس وقد نلتُ من القوة ما لم اكن احلم بالحصول عليه في هذه المدة القصيرة فاما ان يكون الفضل عائداً الى ذلك المرهم الغريب او ان جرحي لم يكن شديد الخطر واراني الان قادراً على لبس درعي وهذا ما يسرّني لان افكاراً تجول في خاطري تستحثني

على العمل والابتعاد عن هذا الخول »

فقال الرئيس : « أليس من العار يا سيدي ان نأذن لابن سادرك ان يخرج من هذا الدير قبلما تبرأ جراحه ؟ »

— « وانا اكره الابتعاد عن هذا المكان الذي لقيت فيه من الراحة وحسن الضيافة والعناية ما ينطق لساني بشكرك والثناء عليك ايها الاب المحترم ولولا ثقتي بمقدرتي على لبس الدرع واسباب ضرورية تضطرني الى الرحيل لما نقلت قدماً من فناء ديركم »

— وما هو ذاك السبب الذي ظهر بغتةً

— ألم يحدث لك ان شعرت ايها المحترم بهاجس ينذرك باقتراب شرّ عظيم منك لا تعرف له سبباً ولا تقوى على ردّ ذلك الشعور الى مسبب معقول ؟ الم تشعر احياناً بظلمة تكتنف افكارك وقلبك وتؤثر فيه كما تكتنف الغمامة السوداء مرجة خضراء وتؤثر في رونقها ؟ ألا تظن ان مصدر شعور كهذا هو ملاك كنا الحارس ينبهنا به الى شرّ لا بد من وقوعه واتقائه

فرسم الرئيس الصليب ثم قال : « لا انكر ان ما ذكرته كثير الوقوع وانه كثيراً ما تكون مصدره السموات ولكن ماذا ينفعك اقتفاء اثار رجل لا تستطيع مساعدته وانت على ما انت عليه من الضعف هذا اذا سلمنا بامكان وقوعه في خطر »

— اخطأت في حكمك يا سيدي فانا الان اهلٌ لنزال اي من البشر ولكن كثيراً ما يسعف الانسان قريبه بالراي والنفوذ . انت تعلم ان السكسونيين يبغضون النورمانديين عموماً وما ادراني ان في دخول احد هولاء الى مسكن سكسوني خطراً عليه والسكسون ثائرون الان لموت اثلستاين فضلاً عما سوف تضيفه الخمرة الى رؤوسهم من النزوع الى الشر . ولذلك تراني قد عزمت على اللحاق به ومقاسمته الخطر ان كان

ثة من خطر اذا لم اقوَ على تحويله عنه · فهل لديك يا ايها الاب مطية اجد في سرجها راحة لا اجدها في سرج جوادي

— عندي ما تطلب يا بني فساقدم لك حجري ولا اراك تجد حجراً تعادلها في لين المراس وسهولة السير

— مُرْ يا سيدي اذن من يسرج لي هذه الحجر وينادي لي خادمي كارث ليأتي بسلاحي

ولم يمضِ طويل وقت حتى جاء كارث بسلاح سيده واخذ في افراغه عليه ثم جيء بالحجر فركب ايفنهو وودّع الرئيس وسار في إثر الفارس الاسود يتبعه خادمه كارث

واما الفارس الاسود فامعن في الغاب وبجانبه ومبا يترنم آونة بنغم حربي ويطارح ومبا الحديث آونة اخرى ويمازحه مرة وينشده ذاك ويمازحه اخرى · فتصوّر فارساً بصفات الفارس الاسود التي اتينا على ذكرها فيما تقدم من الفصول — فارس على جواد ينازع الليل سواده شديد القوائم كانما خُلق ليركبه هذا الفارس ويدفعه بين اشجار الغاب الملتفة وفارسه قد رفع من الخوذة ما يستر وجهه بحيث يتمكن من تنسم الهواء بسهولة ويبقى وجهه مستوراً لا يتمكن من يراه من معرفته · يسير والاقدام والترحيب بالمخاوف والاخطار بادٍ على وجهه · لا جزع ولا خوف مفاجيء يعترض ابتسامات فمه وعينيه — هذا من جهة ومن الجهة الاخرى كان رفيقه ومبا بلباسه المتعدّد الالوان وعلى جنبه يطقان قد استبدل به سيفه الخشبي وترس من الفولاذ راكباً على برذون يسير الى جانب الفارس الاسود ولما كان حمق ومبا من النوع الذي لا يمكّن صاحبه من الثبات في مركز واحد مدة طويلة او اتباع موضوع واحد بل يضطر الى التنقل ان في المجلس او في الكلام او غيره كنت تراه دائم الحراك على ظهر

البرذون يقعد الاربعاء في السرج مرة والقرفصاء اخرى ثم يدير وجهه الى ذنب مطيته ثم يركب على عرفه ويشير باشارات اشبه باشارات القردة الى ان نفد صبر البرذون فاغتنم فرصة غفول ومبا ورماه الى الارض فهاج هذا العمل الضحك في الفارس واضطر ومبا الى مراقبة مطيته والتقليل من حركاته

وكانا عند ما ادركناها في طريقها يتغنيان باغنية غرامية ينشد الفارس دوراً ثم ينشد ومبا الى ان انتهى ومبا من بعض الابيات فقال الفارس :

— حبذا لو سمع غناءك صاحبنا لوكسلي فانه ولا شك يطرب لها

— لولا هذا البوق المتدلي من حزامك لما وددت ظهورهم في هذه الساعة

فقال الفارس « هذه هبة لوكسلي لاذكره بها ولا اشك في انني اذا نفخت فيه الثلاث نفخات التي ذكرها لوكسلي احاط بي جماعة من اولئك الشجعان الذين لا اخالك نسيتهم يا ومبا ولكن لا اراني في حاجة اليهم »

— ولو لم يكن ذلك البوق علامة رئيسهم لما اذن لنا ملوك هذه الغابة في المرور

— وماذا تعني اتزعم انه لولا هذا البوق لهاجمنا اللصوص ؟

— لا اقول شيئاً لانني اعتقد ان للشجر آذاناً كالجدران ولكن اجبني على هذا السؤال يا سيدي الفارس متى يكون فراغ كأسك من الشراب وكيسك من الدراهم خيراً من امتلائهما

— الخير كل الخير في امتلائهما دائماً ايها الرفيق لان المملوء ليس كالفارغ

— لا تستحق عمرك كأساً او كيساً مملوءاً جزاء هذا الجواب البسيط · اعلم انه خير لكأسك ان تكون فارغة اذا ناولتها سكسونياً وكيسك عند ما تمرّ في الغابة

— فاصحابنا اذن في معتقدك لصوص

— وهل نطقت بهذا الكلام من فمي ؟ قد يكون تخفيف احمال مسافر رحمة له

— ولنفرض انهم ستة ونحن كما ترى ننقص عن الرجلين الا تذكر بوقك لو كسلي ؟

— واطلب المساعدة ؟ كلاً ولو كانوا عشرين لان الفارس الصادق يجب ان يلاقي برمحه وسيفه اكثر من عشرين من هولاء الانذال

— ألا تأذن لي في تفحص هذا البوق

فنزع الفارس البوق من وسطه ودفعه الى ومبا فتناوله وعلّقه في عنقه وهو يقول « ترا — ليرا — لا · ترا — ليرا — لا · »

— ما هذا يا ومبا ؟

فقال ومبا : « آه يا سيدي الفارس لا تخشَ شرًّا فبوقك في محل امين واعلم انه اذا صحبتْ البسالة الحماقة وجب ان يكون القرن (يعني البوق) حمل الحماقة لانه من بعض خصائصها وهي امهر في النفخ

— لقد تجاوزتَ حدَّك ايها الخبيث حذارِ من اثارة غضبي

فقال ومبا وقد ابتعد عن الفارس : « اياك والغضب يا سيدي وحذارِ من العنف لئلا يريك الحمق ظهره ويترك البسالة تبحث عن مخرج من هذه الغابة »

فقال الفارس : « تبًّا لك من خبيث ما كرعرفتَ موضع الضعف فضربت · ابق البوق كما تشاء وهيًّا لان وقتي اثمن من ان اضيعه باستماع هذرك »

— اتعهد بعدم اذيتي اذا اقتربت منك

— اعهد

— « اقسم لي بشرف الفرسان » · فاقسم · فاقترب ومبا وهو يقول : « لا اطمع يا سيدي بلطمة كالتي نالت الناسك · ولكن المياه قد عادت الى مجاريها بين البسالة والحمق فالحمق يطلب الى البسالة ان تكون على جانب من الحذر لانه يخال لي ان جماعة تنتظر قدومنا في ذلك المضيق

— وما يحملك على هذا الظن

— شاهدت سناناً يلمع بين اوراق الشجر فلولم يكن غرض ناقله الحاق الاذية لسار على الطريق.

فأنزل الفارس القسم المرفوع من خوذته وهو يقول: « صدقت يا ومبا »

ولم يكد ينتهي الفارس من عمله هذا حتى تساقط على صدره ورأسه ثلاثة اسهم وارتدّت بفضل درعه وخوذته فقال الفارس:

« شكراً لكِ ايتها الدرع الامينة يا ومبا اتبعني » . واذ قال هذا اقتحم بجواده الناحية التي رأى السهام تخرج من بين اشجارها ولم يكد يبلغها حتى رأى امامه سبعة من المحاربة ورماحهم مسدّدة . فلما رأوه اعملوا مهاميزهم في شواكل جيادهم فخرجت كالبرق ولم يكن الاّ كتصعيد النفس وتصويبه حتى اطبقوا على الفارس الاسود من كل الجهات وناله ثلاثة برماحهم فتحطمت كانها اصطدمت ببرج من الفولاذ . فقدحت عينا الفارس شرراً واذا بمهاجميه يستلون سيوفهم ويطبقون عليه من سائر الجهات وهم يصيحون: « مُتْ ايها الظالم »

وكان قائم سيف الفارس في كفه فلما اقتربوا منه ضرب اولهم فسقط ثم ضرب الثاني فسقط وهو يقول: « مار ادورد ! مار جرجس ! اخيانة وخونة ! »

فارتد مهاجموه امام تلك الضربات الماحقة على رغم استبسالهم واذا بفارس بدرع زرقاء كان واقفاً خلف المهاجمين لا يبدي حراكاً قد سدّد رمحه وهجم بجواده على الفارس الاسود وبدلاً من ان يصيب الفارس بالسنان اصاب الجواد عمداً فسقط وسقط الفارس الاسود معه وهو يقول: « يا لعار الفرسان ! اخيانة وجبن (١)

ولم يلامس جسد الفارس الارض حتى نفخ ومبا في البوق لان ما جرى جرى بسرعة

(١) اشارة الى ان طعن الجواد يعد جبناً في عرف الفرسان وغدراً

كلية لم يتمكن معها ومبا من النفخ في البوق قبل تلك الدقيقة · فاجفل المهاجمون لصوت البوق وارتدوا عن الفارس الساقط فهجم ومبا يبرذونه وصاح في اذن صاحب الدرع الزرقاء : « اتجفل ايها النذل لصوت بوق نفخ فيه مهذار ؟ »

فتحمس المهاجمون لكلام ومبا وضايقوا الفارس الاسود الذي لم يجد بعد نهوضه من الارض خيراً من اسناد ظهره الى شجرة يتلقى الطعنات بصدره · وكان صاحب الدرع الزرقاء قد ارتد قليلاً وتناول رمحاً غير رمحه المكسور ولما رأى رجاله قد ضايقوا خصمهم هجم هو بدوره راجياً ان يناله برمحه وهو على تلك الحال فاعترضه ومبا وضرب جواده فوثب به في الهواء ثم سقط الى الارض وسقط فارسه معه · غير ان هذا النقص في قوّة المهاجمين لم يأتِ الفارس الاسود بفائدة تذكر لكثرة عدد المحيطين به ولاضطراره الى حماية نفسه من جهاته الست · وبينا هو في هذا الضيق وقد كلّ اذا بسهم قد اخترق صدر اكثر مهاجميه مضايقة له فسقط الى الارض وظهر من بين الاشجار جماعة من الرماة يتقدمهم لوكسلي والناسك · فانقضوا على المهاجمين انقضاض الصواعق ولم يمضِ الا القليل حتى لم يبقَ منهم سوى الجريح الذي يلفظ نفسه الاخير فشكر الفارس الاسود للوكسلي ورجاله حميتهم بعظمة لم يشاهدوها فيه من قبل ثم قال « قبلنا افيكم حقكم ايها الشجعان من المديح والشكر يجب ان اعرف قائد هذه الحلة · ارفع يا ومبا خوذة صاحب الدرع الزرقاء »

فاقترب ومبا منه وكان لا يزال تحت الجواد الجريح ونزع خوذته فظهر للفارس الاسود وجه رجل لم يأمل ان يراه في تلك الحالة وفي ذلك المكان · فصاح منذهلاً :

« ولدمير فتزور ! ما الذي حملك ايها الرجل على ما انت فيه من رفيع المنزلة على القيام بامر فيه من الدناءة ما فيه »

فاجاب فتزور : « بئس المعرفة معرفتك البشر اذا جهلت اطماعهم وجهلت الحالة

التي يقودهم اليها انتقامهم ! »

— الانتقام ولِمَ تنتقم مني يا فتزور وانا لم ينلك مني اذية

— رفضت ابنتي زوجة لك ألا تعدّ ذلك اذية لشريف نورماندي

— ابنتك ! برهان قاطع · وهل يحملك ذلك الرفض على القيام بعمل دموي وسافل كهذا · تأخروا ايها السادة عنا · ولما ابتعدوا قال لفتزور « من وسوس لك بهذه الخيانة يا فتزور » .

— ابن والدك الذي اراد الانتقام منك لعصيانك اوامر والدك

فقدح الشرر في عيني ريكارد لكنه تغلب على غيظه وقال : « اراك لا تطلب العفو ولا تسعى في خلاص نفسك »

— وهل يرجو الواقع بين براثن الاسد وانيابه نجاة ؟

— عفوت عنك اذن لان الاسد لا يطمع بالجيف ولكن بشرط ان تخرج من هذه البلاد بعد ثلاثة ايام وترجع الى نورمانديا وألاّ تذكر في حياتك اسم يوحنا اوف انجو كشريك لك في خيانتك هذه · فاذا رأيتك في انكلترا بعد الايام الثلاثة موتاً تموت او اذا سمعت انك بطريقة ما الحقت العار باسم عائلتي بذكرك اخي لم ينجك المذبح اذا تمسكت بقرونه

ثم تحوّل الى لوكسلي وقال « اعطِ هذا الفارس جواداً يا لوكسلي فاني ارى رجالك قد رجعوا بما جمع منها »

فقال لوكسلي : « لولا اكتشافي في صوتك نبرات تضطرني الى امتثال اوامرك لوضعت سهماً في قلب هذا الخائن ووفرت عليه مشقة السفر »

— ارى بين جوانحك يا لوكسلي قلباً انكليزياً لا غش فيه فوالحالة هذه اراك احق البشر بامتثال اوامري · انا ريكارد ملك انكلترا

ولفظ ريكارد اسمه بعظمة توازي رفيع رتبته فجثا الرماة على التراب واعلنوا خضوعهم للملك واستمدُّوا عفوه عن زلاتهم السابقة

فقال الملك بصوت لطيف ورقة طبيعية : « انهضوا ايها الاصدقاء فقد كفَّرتم عن سيئاتكم مهما كانت بتخليصكم رعاياي في معقل فرنت — دي — بوف وبالخدمة التي خدمتم بها ملككم الان . انهضوا وحافظوا على حسن السمعة في المستقبل واما انت يا لوكسلي . . . . . »

فصاح لوكسلي : « لا تدعني يا مليكي بلوكسلي فيما بعد بل فادعني بالاسم الذي حملته الرواة الى جميع انحاء العالم انا روبن هود »

فقال الملك : « انت ملك قطاع الطرق ولكنك امير الشجعان وسيّد الكرام وقد بلغ اسمك اذنيَّ في فلسطين فلا تخشَ شرًّا لانني اعفو عن ذنوب اضطررتَ الى ارتكابها نظرًا للفوضى والظلم الذي خيَّم على البلاد في غيابي »

فاقترب منهما ومبا وقال : « صدق المثل القائل عندما تغيب القطط تكثر الجرذان »

فقال الملك : « هذا انت يا ومبا لقد طال عهدي باستماع صوتك وخلتك هربت »

— انا اهرب معاذ الله يا مولاي وهل ينفصل الحمق عن البسالة ؟ انا اهرب معاذ الله ! لا انكر انني بقيت بعيداً عن الرماح لان مدرعتي هذه لا ترد عني اذيتها ولكنني طرحت ذلك الجواد بضربة واحدة وحبذا لو كان فارسه في مكانه . اذا لم اقدم اقدامك يا مولاي فلا اخالك تنكر عليَّ فضل النفخ في بوق الهجوم

فقال الملك : « وتبويقك اتى بنتيجة حسنة . ثق ايها العبد الامين انني لن انساك »

واذا بصوت بجانب الملك يقول باللاتينية : « العفو ! العفو ! ولكنني عاجز

عن ايضاح افكاري باللاتينية انا اعترف بخطاياي فاجعلني في حلّ منها يا مولاي قبل سوقي الى القتل »

فالتفت ريكارد فرأى الناسك على ركبتيه وبيده سبحته وهراوته التي ابلت البلاء الحسن في تلك الموقعة على الارض بجانبه وعيناه مرفوعتان الى السماء

فقال الملك : « وما يخيفك ايها الرجل ؟ هل تخشى اطلاع رعيتك على شدّة تمسكك بخدمة شفيعك والسيدة العذراء · انهض فريكارد الانكليزي لا يبوح باسرار بلغته فوق كاس الخمر »

— لست اخشى سخط رعيتي فهي ادرى الناس بامري ولكنني اخشى تبعة تلك اللطمة · وا حرباه اتلمس يدي رأس مسيح الرب ولا اهلك ! »

فقهقه ريكارد وقال : « ارى ما وراء الاكمة وقد كدت انسى تلك اللطمة التي رنت في اذني رنين الجرس ولكن شهودي هذه الجماعة فهم ولا شك يشهدون انني اعدت ما اخذته كما يجب غير انك اذا زعمت انه لم يصلك حقك في تلك الصفعة فاستعد لصفعة اخرى »

فصاح الناسك ؟ « وصلني حقي يا مولاي مع الربا الفاحش وفى الله ديون الملك على هذه الصفة ولكن كل هذا لا ينفع لانني لا ادري بماذا اكفّرعن ذنبي »

— تناسَ الامر ايها الاخ لانه لا تكبر عليّ لطمة خادم لله متنسك وقد نالني من الكفرة مئات مثلها ولكنني ارى يا حضرة الناسك ان انال رخصة من المراجع الدينية في خلع هذه الجبة عنك واستخدامك في حرسي تحميني كما كنت تحمي مذبح القديس دنستان

— عفوك يا مولاي ولو عرفت كسلي وحبي للخمول لعفوت عني · اعلم يامولاي ان سيدي القديس الذي اخدمه لا يتحرّك من مكانه على المذبح غبتُ او حضرته

صليت او شمت ولا يؤنبني · تراخيت في خدمته او لم اتراخَ · صرفتُ الليل مترقباً الغزلان او قضيته بجانبه ابتهل اليه واوقد الشموع فاذا تركت هذا السيد واستبدلته بمولاي الملك احمي شخصه انعكس الامر وصرت اذا تحوّلت الى زاوية اعزّي ارملة ما او ارمي غزالاً سمعتُ احد رفاقي يقول اين الناسك الخنزير · وغيره يقول اين النذل المحروم · وغيره يقول بصيد الغزلان · والخلاصة انني افضّل يا مولاي البقاء على ما وجدتني عليه واذا شئت تغيير حالتي فليكن ذلك بهبة الى كنيسة القديس الذي اخدمه يرتفع قدره بها وبالتالي قدر خادمه »

— فهمت كلامك وعرفت غرضك فابقَ كما تشاء ولك ان تصيد من احراجي في تلك الناحية ثلاثة وعول كل موسم ولا اكون مسيحياً ان لم تتخذ سماحي هذا عذراً لصيد ثلاثين

— سأجد طريقة وذلك ببركة القديس دنستان لمضاعفة هبة جلالتكم

فقال الملك : « لا اشك في صدق كلامك ايها الاخ · ثم لما كان اللحم طعاماً جافاً سيصدر امرنا الى ساقينا ان يرسل اليك كل عام برميل خمر عادية وبرميل من خمر ملفواز وثلاثة براميل مزدوجة من الجعة فان لم تروِ هذه عطشك فاذهب الى القصر وتعرّف بالساقي »

— هذه لي واما القديس دنستان

— لجبة حبرية ومشمعة وغطاء للمذبح · ولكن لا يليق بنا ان نُدخل الله وقديسه في حديثنا ما لم نعطهم المجد والاحترام الواجب

— انا زعيم لك برضى شفيعي

— فقال الملك : « كن شفيع نفسك ! » ولاحظ الناسك نغمة صوت الملك فسكت فمد الملك يده فجثا الناسك وقبّلها فقال الملك « ارى احترامك لكفي المقبوضة

يزيد عن احترامك لكفي المفتوحة لانك جثوت لهذه وانطرحت على الارض لتلك »
فلم يجب الناسك خوفاً من زلل اللسان وحذراً من اغضاب الملك. واذا برجلين
قد انضما الى الجماعة

﴿ ٤١ ﴾

وكان القادم ايفنهو على حِجْرِ رئيس الدير وخادمه كارث راكباً جواد سيده .
ولا تسأل عن دهشة ايفنهو عندما رأى مليكه واقفاً بين اللصوص وقد تلطخت درعه
بالدم واحاط به عدد من قطاع الطرق ولم يدرِ أيخاطب ريكارد بالملك ام يخاطبه
كالفارس الاسود الجوالة. فلاحظ الملك دهشته وتردده فقال « لا تخشَ يا ولفرد من
مخاطبة ريكارد بلنتجنت باسمه ولقبه وحوله عدد من الانكليز الصادقين الذين ربما
تجاوزوا الحدود المعروفة لاسباب يُعذرون لاجلها »

فاقترب قائد اللصوص من ايفنهو وقال : « اؤكد لك يا سيدي ولو كان كلام
مليكنا لا يحتاج الى التأكيد انه ليس في العالم قلوب اشد اخلاصاً وامانة له من
القلوب التي تخفق حوله الان »

فقال ايفنهو : « لا اشك في صدق كلامك ايها الشجاع وكفاني برهاناً وجودك
بينهم ولكن ما هذه الجثث وهذا الدم »

فقال الملك : « خيانة يا ايفنهو. ولكن الخائن قد لقي جزاءه ولكنني اراك يا ايفنهو
خائناً ايضاً اذ خالفت اوامرنا. ألم نأمرك بعدم ترك الدير قبل الغد ؟ »

— لقد شُفيت جراحي يا مولاي. ولكن لماذا تعذّب قلوب محبيك وخدمك
يا مولاي باسفار كهذه وحيداً كأن حياتك لا تزيد قيمة عن حياة احد عامة الفرسان
او كمن ليس غرضه من هذه الحياة سوى ما يعود به عليه سيفه ورمحه ؟

فقال الملك : « وريكارد لا يرجو خيراً من الشهرة التي ينالها بحد سيفه وسنان

رمحه · وريكارد يفضل عملاً يقوم بمساعدة ذلك السيف والرمح على قيادة جيش عرمرم الى ساحة الحرب

— ولكن مملكتك يا مولاي · مملكتك التي يتهدّدها الانحلال والحروب الاهلية ورعاياك الذين تتهددهم المصائب والضربات اذا فقدوا ملكهم القادر · اتترك هذه وشأنها يا مولاي وتعرّض نفسك للمخاطر لا تعود بفائدة وهذه بعض نتائجها

فقال الملك كانما صبره قد فرغ : « مملكتي ورعاياي ! ! الحق اقول لك يا سر ولفرد ان اعظم رعاياي اخلاصاً لا يتأخر عن مقابلة اعمالي الجنونية بالمثل ومثال ذلك ولفرد اوف ايفنهو الذي يدعو نفسه اشد خدم الملك امانة قد عصى امر ذلك الملك ثم اخذ يعظه ويؤنبه لانه لا يسير بحسب مشورته فاينّا يستوجب اللوم يا ولفرد ؟ · ولكن عفواً يا تابعي الامين · انا اعرف قلبك وحبك لي واعلم ان وقت ظهوري لم يأتِ بعد لانني اذا ظهرت وجب ان اظهر في طليعة جيش عظيم ترتعد له فرائص اعدائي واتمكن بواسطته من اخماد الفتنة كما اخبرتك في الدير ولكي اظهر في طليعة ذلك الجيش يجب ان اعطي اتباعي وقتاً يجيشون فيه الرجال · فاستوتفيل وبوهن لا يجتمع لديهما قوة كافية للزحف على يورك قبل اربع وعشرين ساعة وينبغي ان اعرف اخبار سالسبوري من الجنوب وبوكامب ومولتون من الشمال ويجب ان استوثق من نجاح نائبي في لندن فاذا ظهرتُ بغتة وجدتني في خطر لا تكون هذه المخاطر في جانبه شيئاً مذكوراً فضلاً عن شجاعة روبن وسهامه الصائبة وصديقي الناسك وهراوته الضخمة ووميا وبرقه

فحنى ولفرد رأسه علامة الخضوع وهو يعلم ان لا فائدة من محاجة مولاه لما يعلمه من عناده وميله الى اقتحام اخطار كان في امكانه تجنبها ان لم نقل ان اقتحامه اياها خطأ فاضح في حد نفسه — فسرّ الملك لسكوت ولفرد مع علمه ان كلامه (ولفرد) هو

الصواب بعينه وتحوّل الى روبن وقال « ألا يوجد لدى ملك قطاع الطرق من المنعشات ما يقدمه لاخيه بعد كل هذا التعب »

فقال روبن « مخازننا ولا اخفي عليك يا مولاي مملوءة . . . » وسكت كانه يخشى التلفظ فقال الملك : « مملوءة بلحم الغزلان . هذا خير ما تقدمه لي ولا لوم عليك لانه اذا غاب ملك عن املاكه فلا لوم على من يرى الغزلان ولا يصيدها وصاحبها قد اهمل امرها »

فقال روبن : « فاذا تنازل مولاي الملك اذن » وذهب بصحبة روبن الى احدى زواياه في الغابة وجد فيها جانباً من الصيد وشيئاً من الخمر »

قال هذا وتقدّم الملك يقوده بين الاشجار الباسقة والملك جذل طروب ولا شك ان سروره من مصادفة روبن ورجاله واشتراكه معهم في طعامهم كان اعظم مما لو كان في قصره جالساً الى مائدة احاط بها اشراف المملكة لان ريكارد كان رجلاً شديد الميل الى المعيشة الطبيعية والابتعاد عن العوائد والاصطلاحات الفارغة يحب من المعيشة قلبها وروحها ويبغض اثوابها وزخارفها . اجتمعت فيه صفات ابطال الروايات يفضّل عملاً ينيله الشهرة الحربية على سياسة تعود على البلاد بالمنفعة ولذلك كان ملك ريكارد اشبه باحدى ذوات الاذناب من النجوم ظهرت في السماء لامعة ولكن نورها عديم الفائدة ثم اختفت وابتلعتها الظلمة . وعليه كان في اعمال ريكارد مادّة تحيك منها الشعراء قصائدهم ولكنها كانت خالية من كل ما يحب التاريخ تدوينه في بطونه وجعله انموذجاً تسير عليه العصور المقبلة

وبعد مسير لم تطل مدته صار الملك الى شجرة عظيمة أُعدّ له تحتها مقعد فقعد واحاط به قطاع الطرق ووُضع الطعام وأُحضر الشراب ولم يمضِ طويل زمن حتى اخذ الآكلون يتجاذبون اطراف الحديث واخذوا يقصون اعمالهم وما جرى لهم

ودار المزاح ونسي القوم ان جليسهم سيد البلاد فخشي روبن تطرُّف رجاله لخشونتهم فتحوّل الى ايفنهو وقد رأى جبينه مقطباً وقال :

« لقد نلنا بوجود ملكنا بيننا شرفاً ولكن ألا ترى ان الاولى به عدم اضاعة وقت قد تكون البلاد في اشد الحاجة اليه »

فقال ايفنهو : « اصبت ايها الشجاع وازيدك انني لا آمن على من يعبث ببراثن الاسد من انيابه »

— هذا ما اخشاه فرجالي من الخشونة على جانب وغضب الملك قريب كحلمه ومجاملته فوالحالة هذه ينبغي ان ننهي امر هذه الوليمة

فقال ايفنهو · « ذلك اليك لانني لا اقدم للملك نصيحة الا وفعل بعكسها »

فقال روبن : « وهل اعرّض بالعفو الذي نلته منه بهذه السرعة ولكن لا بأس فان لم اعرّض نفسي للهلاك في سبيله كنت لا استحق عفوه وثقته · يا سكاثلوك (احد رجاله) سر الى ما وراء تلك الاجمة وانفخ في بوقك نفخة نورماندية »

فاختفى الرجل ولم يمضِ على اختفائه اكثر من خمس دقائق حتى دوت جوانب الغابة بصوت بوق فذُعر الآكلون للصوت وتناول كلٌّ سلاحه وصاح الطحان «هذه رجال ملفوازين » ووثب على قدميه وتناول قوسه ورمى الناسك كاساً كانت في يده وتناول هراوته وقطع ومبا هرجه وتناول سيفاً وترساً واما الملك فلم يتأثر كانه لا يرى في المناوشة التي استعد لها من احاط به سوى ثقة لسروره فنادى كارث ليأتي بخوذته وقطع درعه التي كان قد خلعها وبينما كان كارث يفرغها عليه التفت الى ولفرد وقال :

« اياك والدخول في هذه المناوشة فقد حاربت لاجلي مستبسلاً فيما مضى والان آمرك بان تقف بعيداً وترى محاماة ريكارد عن اتباعه ورعاياه

وكان روبن قد فرّق رجاله في جهات مختلفة ليستطلعوا خبر العدوّ الموهوم ولما

رأى ان الملك قد لبس درعه وخلا المكان من الرماة اقترب منه وجثا امامه وطلب عفوه. فقال الملك :

« عفوًا ايها الشجاع وعمّ ذا ؟ ألم اعفُ عن آثامك السابقة ام هل تظن ان كلامنا كالريشة في مهب الريح هذا فضلاً عن قرب عهدك بذلك العفو ولا اخالك تمكنت في هذه المدة القصيرة من ارتكاب اثم آخر »

فقال روبن : « اجل ارتكبت ذنباً يا مولاي اذا عدّت خديعة مولاي في امر يعود عليه بالفائدة ذنباً فذلك البوق ليس من ملفوازين في شيء بل انا امرت بنفخه لافرط عقد هذا الاجتماع ضناً بوقتك الثمين »

قال هذا ونهض واقام ينتظر جواب الملك بخضوع شأن من يعلم انه اذنب ولكنه يعلم ايضاً ان النتيجة التي طلبها تبرّر الواسطة . فاحمرّت عينا الملك غضباً في بادي الرأي ولكنه ثاب الى حلمه المعهود وقال « ايضن ملك هذه الغابات على ملك انكلترا ببعض اللحم والخمر . آه ايها الصديق اذا زرتنا في لندن لا نبخل عليك بشيء . اصبت ايها الشجاع فوقتنا اثمن من ان يضاع هنا فينبغي ان نركب وخصوصاً لانني لاحظت جبين ايفنهو مقطباً منذ جلسنا كانه غير راضٍ عن فعلنا . قل لي يا روبن هل بين رجالك من يشير عليك بما يعتقده صواباً ثم اذا تبعت مشورة نفسك غضب عليك ؟ »

فقال : « نعم يا مولاي وذلك الرجل نائبي في القيادة وهو الان على حدود اسكتلندا . ذاك رجل كثيراً ما يشير عليّ بامور تستفز غضبي اولاً ولكنني عندما اتدبر كلامه اراه مملوءًا من الغيرة على مصلحتي والحمية في خدمتي »

— صدقت فلو كان لي مرشد حكيم مقطّب الجبين كايفنهو يلقي في اذن واحدة مشورته ومشير آخر خبيث يضطرني الى اتباع مشورته بالحيلة نظيرك كنت ملكاً لا

رأي له في ادارة شؤون نفسه · هلموا ايها السادة الى قصر المرحوم الثلستاين وتناسوا هذا الموقف

ثم ركب الملك بعد ما ذكر له روبن انه ارسل جماعة من رجاله يستطلعون طلع الطريق الى القصر حتى اذا اكتشفوا كميناً او خطراً ارسلوا بمن يطلع الملك وجماعته على الخطر فينضم الى جماعة اخرى يقودها روبن بنفسه على مسافة قصيرة خلف الملك وبذلك يسير الملك بين قوتين لا يباغته مفاجئ ·

فاعجب الملك لحكمة روبن وتأثر من اهتمامه بامر سلامته فمدّ له كفه واكّد له عفوه التام ووعده بهبات جزيلة في المستقبل واصلاحات عديدة في شرائع الغابات التي اضطرّت شدّتها عدداً عظيماً من الانكليز الى العصيان وخلع طاعة الملك ولكن حالت دون الملك وعزمه هذا يد الموت فانتزعته من عرشه قبلما ينال من زمانه بعض امانيه · وهكذا سار الملك وبجانبه ايفنهو وخلفهما كارث وومبا الى ان رُفع لهما قصر الثلستاين والشمس تفارق افق المغرب

يندر ان تجد في انكلترا منظراً جمع من جمال الطبيعة ما جمع في البلاد المحيطة بالقصر المذكور الذي كان بلاطاً لملوك السكسون قبل الفتح النورماندي · كان القصر مبنياً على قمة جبل يغسل حضيضه نهر الدُن بمياهه الصافية تحيط به غابة من الاشجار الباسقة تتصل اطرافها بمروج خضراء كانها إطار بصورة اشتركت في رسمها يد الطبيعة ويد الانسان معاً · ثم تنحدر تلك المروج بلطف الى ضفة النهر · وكان القصر كثير المتاريس والاسوار والابراج تحدق به الخنادق من جميع الجهات بحيث كان قصراً ملكياً في وقت السلم وحصناً منيعاً زمن الحرب

واقترب قلب الاسد من القصر فرأى راية سوداء تخفق على برجه العظيم اشارة الى ان ساكنيه في حزن وان الميت لم يدفن بعد · ولم يكن على الراية علامة او شعار

لان هذه كانت من ابتداع النورمانديين لم يقتبسها السكسون غير انه كان يخفق فوق مدخل القصر راية رُسم عليها جواد ابيض اشارة الى منزلة الفقيد من السكسون لان تلك الراية كانت راية بطل السكسون هانجست احد اجداد اثلستاين

ولما كانت عوائد ذلك العصر تقضي بفتح ابواب قصر الميت ليس لاقاربه فقط بل لكل عابر سبيل يدخله ويشارك اهل الميت في الوضيمة واذ كان اثلستاين غنياً ورفيع المنزلة بين قومه كنت ترى القصر كانه خلية نحل حافلة بالرجال يذهبون ويجيئون في فنائه واروقته وقاعاته وقد ضاق بهم على اتساعه

ودخل الملك فناء القصر فوجد الطهاة يشغلون جانباً منه يشوون الثيران والكباش المسمنة وقد شغل الجانب الآخر براميل الخمر والجعة يتناولها من اراد الشرب متى شاء والضيوف يزحم بعضهم بعضاً هذا يأكل وذاك يشرب وبينهم المنشد السكسوني يعدد اوصاف الفقيد واعماله • وغيره يذكر للسامعين نسبه — دخل الملك الفناء وبجانبه ايفنهو فرآهما رئيس الخدم فاقترب منهما لانه عدَّ زيارة فارسين قصر سيده فخراً وتقدمهما الى المدخل • واما كارث وومبا بين الجموع فالتقيا ببعض المعارف

٤٢

وتبع الملك ريكارد وتابعه الامين ايفنهو الخادم على سلم ضيقة الى الطبقة الثالثة من القصر ودخلوا قاعة مستديرة في وسطها منضدة كبيرة جلس اليها نحو من اثني عشر شريفاً من اشراف السكسون وممثلي البطون المختلفة وكان ايفنهو قد ستر وجهه بردائه لانه رأى الاَّ يظهر نفسه الى ان يظفر الملك برضى سادرك

وكان الجالسون شيوخاً قد اشتعلت رؤوسهم شيباً لان الشبان كانوا قد اختلطوا بالنورمانديين وهدمت الحواجز التي كانت تفصل الغالب عن المغلوب • شيوخ قدزادتهم ظواهر الحزن هيبةً ووقاراً وشعورهم الطويلة مسترسلة على اكتافهم ولحاهم البيضاء

الطويلة تستر صدورهم . سكوت والحزن قد خيّم على القاعة . وكان سادرك على رغم مساواته لرفاقه بالمنزلة والشرف قد ترأس الحفلة بالاتفاق نظراً لتقرّبه من الفقيد وعائلته . فلما دخل الملك ولم يكن هنالك من يعرفه غير سادرك ولكن ليس كريكارد قلب الاسد بل الفارس الاسود نهض ورحب به رافعاً كأساً كانت امامه وشرب منها وكان الملك عارفاً بعوائد السكسون فردّ تحية سادرك وتناول كأساً من يد الخادم وشربها ثم فعل ايفنهو فعل الملك من غير ان يتكلم بل رد تحية والده بحني رأسه . ثم مدّ سادرك يده وقاد الملك الى مصلّى القصر وهو عبارة عن حجرة مظلمة يدخل اليها النور من ثقب مستطيل في الجدار اشبه بمرامي السهام ينيرها شمعتان فتظهر بنورها جدران عارية ومذبح من الحجر عليه مصلوب . ولما دخلوا المصلى اشار سادرك باصبعه الى نعش اثلستاين امام المذبح وقد جثا ثلاثة من الرهبان الى الجانب الواحد وثلاثة غيرهم الى الآخر يصلون ويستمطرون الرحمة والرضوان على الفقيد الكريم ويطلبون لنفسه خلاصاً ومسكناً علوياً ثم رسم سادرك الصليب على صدره ففعل الرجلان فعله وصلى كلٌّ منهما صلاة قصيرة ثم تبعا دليلهما الى قاعته بجانب المصلى فدخلوها ووجدوا فيها امرأة مهيبة الطلعة نالها الهرم ولكنه لم يقوَ على محو اثار جمال فتان كان بعض عدّة شبابها . تستر جسدها اثواب الحداد الطويلة بما يزيد بياض جسدها اشراقاً وقد انسدل شعرها الاشقر الطويل الذي لم تغير السنون من لونه على منكبيها وامامها منضدة من الحجر عليها مصلوب من العاج بجانبه كتاب للصلاة في اطار من الذهب

فوقف سادرك هنيهة امام تلك السيدة كانما غرضه اغتنام فرصة قبل الكلام يتمكن الرجلان بواسطتها من التأمل في تلك المرأة ثم قال « ايتها الشريفة هوذا سيدان قد قدما الينا ليقاسمانا احزاننا واخص بالذكر هذا القارس الذي نلنا من فضله نصيباً وافراً والذي سعى في خلاص فقيدنا من سجنه »

فقالت السيدة : « اشكر له فضله واقدامه اللذين لم تشأ السماء ان يأتيا بفائدة واشكر له ولرفيقه تلطفهما في دخول هذا المنزل ومقاسمة الثكلى احزانها فاعتنِ بامرها ايها النسيب الشريف ولا تمنع عنها شيئاً معها كان من شأنه زيادة راحتها

فانحنى الرجال للمرأة وخرجوا من الغرفة يتقدم سادرك الزائرين واصعدها على سلم لولبية الى قاعة تشبه التي دخلاها اولاً وفي الطبقة الرابعة من القصر ولما اقتربوا من الباب سمعوا اصوات نساء ينحنَ ففتحوا الباب ودخلوا فرأوا القاعة مزدحمة بشريفات السكسون وروانا في مقدمة اربع منهنَّ يترنمنَ بترنيمة روحية

وبينما كانت النسوة الاربع يترنمنَ بذلك النغم المحزن كان عدد من النساء في القاعة يطرزنَ كفناً من حرير للفّ رفات الفقيد وغيرهنَّ يضفرنَ اكاليل من الزهر توضع على النعش . ولما دخل الرجال القاعة تحوَّلت اليهم الانظار واحمرَّت وجنات الفتيات بينهنَّ لنظر الغريبين واما روانا فحنت رأسها لمنجيها ولكن مسحة الحزن العميق لم تفارق وجهها وربما كان منظر الفارس مما زادها حزناً لانه ولا شك ذكَّرها بايفنهو الجريح الذي لم تبلغها اخباره ولم تكن تدري احي هو ام ميت . اما سادرك فظن ان موت اتلستاين هو الذي سبب لروانا هذا الحزن العميق فتحوَّل الى الرجلين وقال « كان الفقيد خطيبها ! »

وبعد ما سار سادرك بالزائرين من قاعة الى اخرى واراهما الاستعدادات المتعددة دخل بهما قاعة ضيقة واخبرهما ان هذه القاعة قد خصصت لاستقبال الزائرين من ذوي المكانة ممن ليس لهم علاقة بالفقيد او ذوي قرباه وهمَّ بالخروج فتناول الملك ذراعه وقال :

« اذكِّرك ايها الشريف بوعدك لي عند ما افترقنا »

— لك ما تريد من غير ان تذكره ولكن في موقف الاحزان هذا ....

فقال الملك : « لم اسمْ عن ذلك ولكن وقتي محدود واود ان ندفن مع بقايا المرحوم وساوس واحقاداً لا خير في بقائها . . . »

فاحمرّ وجه سادرك وقاطع الملك بدوره وقال : « لك ما تريد يا سيدي بشرط ان يكون ما تطلبه مختصاً بشخصك واما مايتعلق بشرف بيتي وصيته فلا اخالك تلومني اذا قلت انني لا احب تداخل الغريب في شؤونه »

فقال الملك « وانا آبى التداخل في شؤون سواي ما لم يكن ذلك مما يهمني مباشرةً ولي به مصلحة شخصية . تعرفني يا سيدي سادرك بلقب الفارس الاسود فاعرفني الان باسمي الحقيقي انا ريكارد بلنتجنت »

فصاح سادرك وقد اخذت منه الدهشة مأخذاً وتأخر الى الوراء : « ريكارد قلب الاسد ريكارد اف انجو »

— لا ايها الشريف بل ريكارد انكلترا الذي يعد اعظم ايام حياته بركةً يوماً يرى فيه القلوب الانكليزية مرتبطة برباط متين . ولكن ألا تجثو يا سيدي امام مليكك»

— لم تنحنِ لي ركبة قط امام رجل يسري في عروقه دم نورماندي

— اذن ابقِ هذا الخضوع الى ان ابرهن لك بأعمالي ان الانكليزي والنورماندي في نظري سيان وان سهري على مصلحة الانكليز تفوق سهري على مصالح النورمانديين

— لم ابخس شجاعتك قدرها قط ايها الامير ولا انكر ان في عروقك دم متيلده ابنة ملك اسكتلندا وهو دم ملوك السكسون ولكنني انكر ان متيلده كانت وريثة العرش الشرعية

— لا احاجُّك في نسبي ولكن اطلب اليك ان تسمي لي رجلاً احقّ بالعرش مني

— « وهل اتيت الى هذا المكان لتذكر لي هذا الامر » ثم اسودّ جبينه فقال : « لتذكره في هذا المكان وقبلما يرتد التراب على آخر فرع من تلك الشجرة القديمة

والشريفة ·اسأت التدبير يا سيدي »

فقال الملك « لا والسيدة العذراء ! لم يكن ما قلته سوى ما يقوله كل شريف شجاع لشريف شجاع في عرض الحديث · لم اقصد اهانة او فتح جراح قديمة ابتاع برءها بدمي »

— احسنت وعظام ابي يا سيدي الملك · لانك ملك وستكون ملكاً على رغم مقاومتي الضعيفة ولانني لا اجسر ان اغتنم هذه الفرصة التي سنحت لي بحضورك لبلوغ مآربي لانها لا تليق بي

فقال الملك « فلنعد الان الى الطلبة · فانا اذكرها بالحرية التي انكرت بها عليّ حقوقي الملكية · اطلب اليك كرجل شريف رهن كلمته فاذا اخلف وعداً لحق بشرفه عار لا يمحى وقرن الى اسمه الاحتقار الابدي وكان اسمه سبة لنسله ولقومه من بعده — اطلب اليك يا سيدي ان تفتح ذراعيك وتقبل بحنوّ ابوي ابنك ولفرد اف ايفنهو ولا تقدر ان تنكر علاقتي الشخصية بهذا الطلب اذ به انال عفواً لأحب اتباعي اليّ وانزع الشقاق من بين رعاياي »

فاشار سادرك باصبعه الى ايفنهو وقال « وهذا ولفرد ؟ »

فصاح ولفرد « ابتي ! ابتي ! » وطرح نفسه على قدميّ والده وهو يقول « جد عليّ بعفوك يا والدي »

فقال سادرك وهو ينهض ابنه « عفوت يا ولدي فوالدك لن يخلف وعداً · ولكنني احب ان اراك في لباس اجدادك لان ابن سادرك ينبغي له ان يظهر بما يدل على نسبه · ثم اراك على وشك الكلام واخالني اعرف غرضك منه · يجب على روانا ان تقضي سنتين في الحداد حسب عوائدنا قبل ان آذن لك في اتخاذها زوجة لاننا ان لم نفعل ذلك خالفنا العوائد المقدسة وجلبنا على رأسينا تعيير قومنا وقام اثلستاين من

قبره ومنعنا عن تلطيخ اسمه بهذه الوصمة »

ولم يكد ينتهي سادرك من التلفظ بآخر كلماته حتى فُتح الباب وظهر فيه اثلستاين نفسه ملتفاً بكفنه ووقف امامهم وقد غشيت وجهه صفرة الموت (١)

ولا نسأل عن الدهشة التي استولت على الثلاثة لمشاهدة الميت واقفاً على الاقدام فسادرك تقهقر الى ان منعه الجدار من متابعة التقهقر فوقف وقد فُغر فاه وجحظت عيناه وقفّ شعر رأسه واخذ يحدّق في وجه صديقه كالمأخوذ واما ايفنهو فاخذ يرسم الصليب وترديد الصلاة في كل لغة يعرفها وصاح الملك « ارحمني يا الله حسب كثرة رحمتك ! »

وبينا اصحابنا على نحو ما ذكرنا علت الضجة في انحاء القصر وسُمع قوم يصيحون « اقتلوا الرهبان الخونة ! زجوهم في سجون القصر ! اطرحوا بهم من اعالي الابراج »

وكان سادرك قد عادت اليه قوّته الناطقة فصاح « تكلم ان كنت بشرياً وان تكن روحاً ظهرت لتؤنبنا على اهمالنا الصلاة او طلب المغفرة فتكلم فسادرك لايتأخر عن خدمتك . سادرك يكلمك فكلمه يا اثلستاين ان بشراً او روحاً »

فقال الخيال « سأتكلم بعد ما ترجع اليّ انفاسي وارى منكم اذاناً مصغية اجل انا حي يا سادرك ولكن قوتي هي قوة رجل لم يدخل فمه غير الخبز والماء من ثلاثة ايام هذا ما اتيت لاطلعك عليه يا ابتي سادرك »

فصاح الملك « انظر كيف تقول ايها الشريف فانا رأيتك رأي العين تسقط

---

(١) شدّد المنتقدون النكير على المؤلف لالتجائه الى هذه الطريقة من اقامة الميت التي تعد غريبة ان لم نقل مستحيلة وهي كما لا يخفى مما يضعف قوّة مؤلفه ولكن الحاح اصدقائه وملتزم طبع الرواية الذين استاؤا لموت اثلستاين اضطرّوا المؤلف الى اقامته من الاموات . هذا عذر المؤلف وبه يتقدم المعرّب الى القراء

تحت ضربة الهيكلي وذكر لي ومبا ان السيف فلق رأسك الى الاسنان »

فقال اثلستاين « كذب ومبا فشكراً للهيكلي وشلّت يمينه الضعيفة لانه عندما ضربني بسيفه تلقيته بحربة كانت بيدي ولم يلحق رأسي غير صفحته فسقطت مغشياً عليّ ولكنني لم اجرح ولما استفقت وجدتني امام مذبح توقد حولي الشموع وترن في اذنيّ اصوات المرتلين فعطست فتقدم اليّ احد الرهبان فطلبت شراباً فاعطيت منه شيئاً ولكن الكفرة لما كانوا يأملون الحصول على املاكي لم يشاؤا ان يروني حياً فوضعوا مخدراً في الخمر · فحالما شربته غبت عن الوجود ولما استفقت وجدت نفسي في قبو مظلم رطب تنبعث منه روائح العفونة وبجانبي رجلان مقنعان واقفان اخذا يقنعانني انني في المطهر ولكنني عرفت صوت الرئيس — ذلك الكلب الذي كاد يميتني جوعاً وهو الذي كان يأكل لحومي ويشرب خموري »

فقال الملك « تمهل يا سيدي تمهل ولا تجهد نفسك لاننا نود استماع قصتك الغريبة التي هي اشبه بالاساطير بالتفصيل »

فقال اثلستاين « ولكنها الحقيقة بعينها · رغيف من دقيق الشعير وابريق من الماء كان كل ما سمحت به نفس ذلك الرئيس النذل الذي اغنى والدي ديره وملأت مخازنه محصولات املاكي والله لاحرقنّ ديره ولو حُرمت »

فصاح سادرك « وكيف نجوت من ذلك الخطر ؟ هل تحركت قلوبهم وندموا على فعلتهم واطلقوك ؟ »

فقال اثلستاين « تحركت قلوبهم ! وهل تصهر حرارة الشمس الصخور الصماء ؟ بينا كنتُ في ذلك السجن سمعت حركة في فناء الدير وسمعت اصوات المرتلين وقد عرفت الان ان تلك الترانيم كانت تتقدم نعشي الفارغ بينما كنت اموت جوعاً في ذلك القبو · وبعد انتظار طويل سمعت خفق نعال خازن الدير ثم فتح الباب فرأيت

في يده كأساً كبيرة من الخمر وقطعة من اللحم ورأيت الخازن يترنح سكرًا فعلمت انهم قد تركوه فريداً في الدير فاغتنم فرصة غيابهم للعبث بمؤونة الدير . ووضع الخازن الاكل امامي وخرج ولكن لما كان ثملاً لم يحسن اقفال الباب ولم يكد ينزع المفتاح منه ويدير ظهره حتى انفتح . فاكلت وشربت وطابت نفسي وتنشقت الهواء المنعش الداخل من الباب فانتعشت . وكنت اعتقد ان السلاسل التي قيدني بها الرئيس متينة ولكن بعد الفحص وجدتها قد اكلها الصدأ »

قال الملك : « تمهل ياسيدي واشرب هذه الكأس وتناول شيئاً من الطعام لتعود اليك قواك » فقال اثلستاين « شيء من الطعام ! قد فرغت من الاكلة الخامسة آنفاً ولكنني سأشرب فاشربوا لشربي » فشربوا وكانت امه قد دخلت القاعة لانها عندما رأت الميت الحي يدخل القاعة اصدرت بعض الاوامر للخدم وتبعت ابنها الى قاعة الضيوف يتبعها عدد من النساء والرجال حتى ضاقت القاعة بهم فوقفوا على السلم المؤدية اليها واخذوا يتناقلون كلام اثلستاين بابدال وزيادة ونقص كما توحي اليهم تصوراتهم

وشرب اثلستاين الكأس وعاد الى سرد قصته فقال : « ولما نزعت السلسلة من الجدار ورأيت نفسي حرًّا خرجت من القبو وتلمست الطريق الى السلم ومررت في تلك الاروقة المظلمة يهديني صوت مغنٍّ الى ان بلغت باباً ففتحته فوجدت الخازن ورفيقاً له في الكهنوت كبير الجثة يشربان ويطربان . فلما وقع نظرهما عليَّ ذهلا فتقدمت من الخازن وانا ارسف في قيودي يسترني هذا الثوب مما جعلني اظهر بمظهر احد سكان العالم الثاني ولطمته بكل قواي فهوى الى الارض فاقتربت من رفيقه فبادرني بضربة من هراوة ضخمة لو اصابتني لفلقت الرأس الذي عجز عن فلقه الهيكلي »

فالتفت الملك الى ايفنهو وقال « صديقنا الناسك » فقال اثلستاين « ناسكاً كان او شيطاناً فانني اقتربت منه فلجأ الى الفرار وترك الدير فتناولت مفاتيح الخازن

وزعت فيودي وكدت اقتله لولا تذكري كأس الخمر وقطعة اللحم ثم التهمت ما وجدته امامها وقصدت الاصطبل فرأيت اجود افراسي فركبته وخرجت من الدير اقصد هذا المكان والناس في الطريق يفرّون من وجهي فرارهم من الطيف الى ان بلغت مدخل القصر حيث وجدت مشعوذاً يضحك الجمع الذين أتوا ليشاركوا قومي في البكاء والحزن فزعم الحراس انني تابعه فلم يمنعوني من الدخول فدخلت وذهبت الى والدتي ثم تناولت شيئاً من الطعام وطلبت صديقي سادرك »

فقال سادرك : « وقد وجدته على قديم عهده يكرّس النفس والنفيس في سبيل مشروعنا الشريف لنجاة قومنا من ربقة الظلم والعبودية »

فقال اثلستاين « لا تذكر لي نجاة احد فانني لا اكاد اصدق بنجاة نفسي فهمّي الان مجازاة ذلك الرئيس الكافر وسأعلقه على برج هذا القصر وان لم نتمكن من الصعود به على سلالمه لسمنه رفعناه من الخارج الى اعاليه »

فصاحت امه : « ولكن هل نسيت ياولدي رتبته المقدسة »

فقال اثلستاين : « وهل انسى ايامي الثلاثة عندهم اذ كدت اموت جوعاً . أحرّق فرنت دى بوف لذنب لا يعدّ بجانب هذا شيئاً فهو قد اطعمني واشبعني بقطع النظر عن الثوم الكثير في طعامه) واما هولاء الانذال فلم يطعموني لا ثوماً ولا بصلاً فموتاً يموتون »

فصاح سادرك : « والبابا ايها النبيل ! »

فقال اثلستاين : « موتاً يموتون ولو كانوا اعظم رهبان الارض قداسة فبموتهم لا تلحق العالم خسارة تذكر »

فقال سادرك : « باللعار ايها الصديق أينسيك عمل هولاء غرضك الشريف وهل تقف في سبيل المجد لتقاصّ هولاء المرائين . قل لهذا الامير النورماندي ريكارد

انه سوف يجد في هذه البلاد من ينازعه التاج وهو احق به منه »

فصاح اثلستاين : الملك ريكارد العظيم هذا ؟ »

فقال سادرك : « ريكارد بلنتجنت نفسه ولكن لا تلجئني الى تنبيهك انه ضيفك ولا ينبغي لك ان تخلّ بشروط الضيافة»

فقال اثلستاين : « صدقت وابيك وليس هذا فقط بل ينبغي ان ارفع اليه خضوعي واقدم واجباتي كاحد رعاياه »

فصاحت امه : « اذكر اصلك يا ولدي »

وصاح سادرك : « اذكر حرّية انكلترا »

فقال اثلستاين : « يا امي ويا صديقي اعلما ان الصوم يعلم الانسان ما لم يكن يعلم وهاءنذا قد خرجت من القبر احكم مني عند ما دخلته . نصف آمالي الفارغة وسوس بها اليّ رئيس ذلك الدير وقد رأيتم مقدار اصالة رايه واخلاصه . وعدا ذلك فهذه النهضات والدسائس لم تعد عليّ بغير الاسفار البعيدة وعسر الهضم والجراح العديدة فخير لي ان اكون ملكاً في املاكي لا ينازعني فيها منازع وتكون اوّل اعمالي شنق ذلك الرئيس »

فقال سادرك : « وهل تترك روانا »

فقال اثلستاين : « لا تحد عن الصواب يا ابتي سادرك انت تعلم ان السيدة روانا تفضّل خنصر فتاز نسيبي ولفرد عليّ باجمعي وها هي واقفة هنالك توافق على كلامي هذا . لِمَ هذا الاحمرار ايتها السيدة ؟ وهل يخجل من يفضل فارساً قد ربي في قصر الملك على فلّاح لم يرَ غير الزرّاع والزرع ؟ و لِمَ هذا الضحك يا روانا ؟ وهل يضحك من يقع نظره على كفن ميت ؟ هاتِ يدكِ ايتها السيدة . انا اتخلى عن هذه اليد يا ابن العم — ولكن اين ابن عمنا ولفرد ؟ هل اخلي وقد رأيته بعيني رامي

في هذا المكان ؟ »

وكان ايفنهو قد ترك القاعة ولم يشعر به احد لاهتمامهم بحديث اثلستاين فطلبوه فلم يجدوه ثم عرفوا من احد الخدم ان يهودياً دخل القصر وطلب الفارس ايفنهو ولما اجتمع به اوحى اليه بما اوحى فنادى ايفنهو كارث وذهب الى حيث لا يدرون

ولما بلغ الخبر اذان اثلستاين قال : « واما انتِ يا ابنة العم الحسناء ٠٠٠٠ » ونظر حيث كانت روانا فلم يجدها لانها كانت قد خرجت هرباً من موقفها الصعب فقال :

« اجلْ فالنساء اقل الحيوانات امانة واقراراً بالجميل عدا الرهبان و روساء الاديرة كنت ارجو قبلة منها تظهر بها شكرها ولكنها هربت كانما هذا الكفن طلسم ينفر الناس مني · فلم يبقَ لي غيرك يا مولاي · · · »

ورفع نظره الى حيث عهد الملك جالساً فلم يجده لانه كان قد خرج ايضاً فبحثوا عنه فعلموا من بعض الخدم ان الملك خرج الى الفناء وطلب اليهودي الذي اتى في طلب ايفنهو وبعد ان حادثه هنيهة نادى ومبا وطلب جواده وصحب اليهودي الى حيث لا يدرون

وكان اثلستاين واقرباؤه لا يزالون في القاعة فلما بلغهم خبر الملك قال اثلستاين « كانما اله الشر قد حلَّ في قصري مدة غيابي فلا اكلّم رجلاً الاّ ويختفي عن بصري ولكن ما لنا ولهم لهم دينهم ولي ديني

هلموا معي ايها النبلاء الى قاعة الطعام نأكل ونشرب ونستبدل الوضيعة بالوليمة واسرعوا لئلا يخفي الشيطان طعامنا اذا تاخرنا »

٤٣

نعود بالقاري الان الى داخل مجمع تمبلستون قبيل الساعة المعينة للنزال · وكانما المجمع كان معرضاً تعرض فيه غرائب الزمان فقصده اهل البلاد المجاورة يزحم بعضهم

بعضاً ليشاهدوا ذلك العمل الدموي وكلهم مسرور فرح كانه قادم على تمثيل احدى الروايات المزلية وليس لمشاهدة فاجعة مؤلمة . ووقف المتفرجون بعضهم على مقربة من مدخل المجمع ليراقب القوم يخرجون بالساحرة وبعضهم احاط بالميدان الذي كان عبارة عن سهل من الارض بجوار المجمع قد احدق به سياج متين ولما كان الهيكليون كثيراً ما يدعون الناس لمشاهدة تمريناتهم الحربية كانت المقاعد عديدة بحيث يتمكن كل الحضور من الجلوس ومشاهدة الميدان في وقت واحد

وكانوا قد نصبوا للرئيس الاعظم عرشاً على الطرف الشرقي تحيط به مقاعد رؤساء المجامع وفرسان الهيكل تخفق فوقه راية الهيكليين ووضعوا قبالة العرش في الطرف الغربي حزمة من الحطب اليابس حول عمود تتدلى منه السلاسل لتقيد بها فريستهم فتحرق وكان القائمون بامر الحطب والنار اربعة من الزنوج الافريقيين ولم يكن الزنوج معروفين قبل ذلك في انكلترا . فلما رآهم الجمع صامتين لا يأتون عملاً سوى ما يأمرهم به رئيسهم واذا نطقوا انفرجت شفاههم الغليظة وبرزت اسنانهم البيضاء لم يشكّوا في ان هولاء بعض الارواح التي كانت تستخدمها الساحرة في سحرها اتت لتساعد في اعدامها

وبينا كان الجمع مدهوشاً من منظر الزنوج وكلٌ يبدي افكاره الخرافية بخصوصهم التفت احدهم الى رفيقه وقال : « هل بلغك ان الشيطان حمل اثلستاين السكسوني وطار به الى حيث لا يدري احد

فاجاب : « ولكنه ارجعه ببركة القديس دنستان »

فاقترب منهما رجل كان واقفاً هنالك وعليه ثوب اخضر معلّم بالذهب يتبعه صبيٌ يحمل قيثاراً مما دلَّ على ان سيده احد شعراء ذلك العصر يجوب الآفاق و يتسقط كل غريبة وعجيبة و يضيف اليها ما شاءت مخيلته ثم يتغنى بها على مسامع الناس

توصلاً الى نوالهم · وكان على ذراع الشاعر الايمن صفيحة من الفضة وبدلاً من ان يكتب عليها اسم النبيل الذي ينتمي اليه ذلك الشاعر حسب عادة ذاك العصر من انتماء كل نبيل الى شاعر مخصوص كان منقوشاً على الصحيفة كلمة (شارْوُد) — فلما اقترب الشاعر من الرجلين وقال : « وكيف كان ذلك ؟ كنت اطلب موضوعاً لقصيدة انظمها فوجدت اثنين »

فقال اكبر الرجلين : « اكّد لي مخبري ان اثلستاين السكسوني مات منذ اربعة اسابيع »

فقال الشاعر : « كيف ذلك وانا رأيته بعيني في ميدان اشبي »

فقال الاصغر : « ولكنه مات وقد سمعت الرهبان يصلون ويترغنون بترانيمهم مستمدين لليت الرحمة »

فقال الاكبر · « مات حقيقة وتلك خسارة للسكسونيين لان فيه دم ملوكهم »

فصاح الشاعر : « ولكن كيف كان ذلك ؟ »

واذا براهب عظيم الجثة قد وقف بجانب الشاعر وبيده عصاً اشبه بعمود منها بعكاز وقال : « قصاً علينا الحديث قبل ان يتصرّم النهار »

فقال الكبير : « اذا حسن لديك ايها المحترم : «ذهب احد الكهنة في اثناء سكره الى زيارة خازن الدير · · · »

فقطع الراهب كلامه وقال : « لا يحسن في عينيّ ان ارى كاهناً ثملاً ولا ان ارى احد العامة يذكر ذلك على رؤوس الاشهاد · قل ان الكاهن كان غارقاً في بحار تأملاته الروحية مما يدوّخ الراس ويقلقل القدم فيظن الناظر اليه ان راس الكاهن مملوء بالخمر الجديدة · وكثيراً ما جرى ذلك لي انا »

فقال الرجل : « كما تشاء ايها المحترم · وكان الكاهن احد اولئك المتزيين بزي

الكهنة يصلّون امام الناس في النهار ويصيدون الغزلان في الليل · يفضلون الخمرة على الماء المقدس ونخذ الخنزير على السبحة · والرقص مع الحسان على اتمام الفروض ولكنه كان اشد من حمل هراوة واشد حامليها حذقاً في استعمالها واما عن قوسه فحدّث ولا حرج »

فقال الشاعر : « لولا عبارتك الاخيرة ايها الصديق لما كانت تسوى حياتك درهماً واحداً لتعرضها للهلاك »

فقال الرجل : « لست اخافه ايها الصديق · لا انكر ان الكبر قد اضعف اعصابي وعضلاتي ولكنني لما كنت شاباً و . . . »

فصاح الشاعر : « هات القصة فما لنا ولشبابك الان »

فقال الرجل : « الخلاصة انهم دفنوا اثلستاين في الدير »

فصاح الراهب : « كذبة عظيمة لانني رأيتهم بعيني رأسي ينقلون جثته الى قصره »

فصاح الرجل : « لماذا لا تقص القصة بنفسك وتكفيني مؤونة الكلام ؟ »

وهمّ بتركهم فامسك به رفيقه ورجاه هو والشاعر ان يتم الحكاية فقال : « بينا كان خازن الدير وضيفه منهمكين في شرب الخمر والجعة دخل عليهما اثلستاين يرسف في قيد ثقيل وقد ستر الكفن جسمه وقال — ايها الراعيان الشريران »

فقاطعه الراهب وقال : « كذبت فهو لم ينطق بحرف »

فالتفت الشاعر الى الراهب وقال : « وهل نفرنا طريدة ثانية ! » وتحوّل به عن الرجلين · وكان صاحبنا الناسك بعينه « الحق اقول لك يا ألن — أ — دايل انني رأيت اثلستاين بهذه العين تنبعث منه رائحة القبور والله لا يقوى برميل من الخمر على ازالة ذلك المشهد من ذاكرتي »

فقال الشاعر : « انت تمزح يا ايها الناسك »

فصاح الناسك : « لا وابيك لانني لما رأيته تناولت هراوتي التي تعرفها واهويت بها عليه تخرقته ولكنه لم يتأثر كانما جسده عمود من الدخان وهراوتي قضيب من الصفصاف »

فقال الشاعر : « قصتك غريبة ايها الناسك خليقة بان تنظم في قصيدة وتلحن على وزن الاغنية القديمة المدعوة (زارت الاحزان قلب الناسك)

فصاح الناسك : « لك ان تضحك ما شئت ولكن ليذهب بروحي ان تغنيت بهذا النغم فيما بعد · وخلاصة الامر انني تركت الدير وطلبت عملاً صالحاً فسمعت بهذا الاجتماع هنا واتيت لاساعد في احراق الساحرة »

وقطع حديثهما جرس المجمع الكبير برنين متقطع بحيث لا يكاد يزول صوت الرنة الواحدة من الاذان حتى تسمع الاخرى · فتحوّلت الابصار الى مدخل المجمع ولم يكن الا القليل حتى أُنزل جسر المجمع المتحرّك وظهر فارس من فرسان الهيكل على جواد مطهّم يحمل راية الهيكليين يتقدمه ستة مبوقين ويتبعه فرسان الهيكل بصف طويل سار فيه كل فارسين معاً وخلف الجميع الرئيس الاعظم على جواد من جياد الخيل في غاية من البساطة وخلفه براين دي بواجلبرت ينشاه الحديد والفولاذ من قمّة الراس الى اخمص القدم يحمل ترسه ورمحه وسيفه اثنان من خدمه يسيران وراءه · وكان وجه بواجلبرت شديد الاصفرار كمن لم يذق النوم من ايام تتنازعه دلائل الاقدام والتردد معاً · وكان ملفوازين ومونت فتشت الى جانبي بواجلبرت بثيابهما البيضاء يتبعهما عدد عظيم من الاتباع باثواب سوداء (وكان هولاء ممن يتطال الى رتبة الفروسية) وتبع هولاء عدد عظيم من خدم المجمع وحرّاسه باثواب سوداء ايضاً يسيرون على الاقدام وبينهم رفقه شاحبة الوجه تسير الى حتفها بقدم ثابتة وكانوا قد نزعوا عن رفقه جميع حليها لئلا يكون بينها تعويذة من عمل الشيطان تستمد

بواسطتها مساعدته فيمنعها عن الاقرار بجرمها ولو كانت تحت عذاب أليم واستبدلوا
لباسها الشرقي بثوب ابيض خشن لم يقلل من جمال ملامحها الملائكية وظهر بالمعارضة
لون شعرها الاسود الطويل المسترسل على كتفيها فيحيط بوجهها كانه اطار للصورة التي
رسمتها اصبع الرحمن وافرغ فيها الحسن كله حين رسم طلعة لم ترها عين الا وبكت
اشفاقاً على ذلك الشباب الذي سوف تضمه ذراع النار وتلحسه السنتها المندلعة واسفاً
على ذلك الجثمان العجيب يسكنه الشيطان وجنوده

واقترب القوم من الميدان بترتيب وانتظام ودخلوه وداروا فيه مرة من اليمين
الى اليسار . ولما تمت الدورة وقف الجميع وترجل الرئيس فترجل الجميع واسرع الخدم
الى الافراس واخرجتها من الميدان وصعد الجميع الى مقاعدهم عدا بواجلبرت ورفيقيه
ملفواز بن ومونت فتشت . وسير برفقه الى كرسيّ اسود بجانب الحطب فجلست ولفتت
راسها فوقعت عيناها على الموقد فارتعدت فرائصها واغمضت عينيها وتحركت شفتاها
هنيهة ثم انفرجت اجفانها واستقرّ نظرها على الحطب والوقود وبقيت على هذه الحالة
هنيهة كانها تعوّد عينيها النظر اليه فتألفه نفسها ثم تنهدت وادارت راسها

وكان الرئيس قد تربع في العرش المنصوب له واحاط به فرسان طغمته من
اليمين والشمال والوراء بحسب الرتب . ولم يستتب بهم الجلوس حتى نُفخ في الابواق
ايذاناً بانتظام المجلس فاقترب ملفواز بن من عرش الرئيس وقفاز رفقه في كفه وطرحه
عند قدميه وقال :

« ايها السيد القادر والرئيس المحترم هوذا الفارس بواجلبرت احد افراد ورئيس
مجمع من مجامع الهيكليين المقدسة معلناً بحضوره قبوله بالغرض المفروض عليه واستعداده
لاثبات صحة التهم الموجهة الى اليهودية رفقه وعدالة الحكم الصادر عليها من مجلس
قضاة الهيكل المقدس وذلك بما وهبه الله من البسالة والمهارة . وها هو مستعد لنزال

عنيف لا يحيد فيه عن الشروط المعروفة والتي تربط الفرسان النبلاء فلا يخلُّون بها هذا اذا اذنتم سيادتكم وصرَّحتم بارادتكم

فقال الرئيس — وهل اقسم يمين الاقتناع بصدق مدَّعاه ؟ هاتوا الصليب

فقال ملفوازين — قد اقسم ايها الرئيس المحترم وذلك على يد الاخ مونت فتشت ولما كان خصمه كافراً لا يقسم لا ارى موجباً لاعادة القسم الان

فاكتفى الرئيس مما زاد سرور ملفوازين لانه علم بوجوب القسم امام ذلك الجمع ثم امر الرئيس بالبوقات فنفخت ونادى المنادي قائلاً : هوذا الفارس النبيل براين بواجلبرت امامكم مستعد لان ينازل فارساً من رتبته بمقتضى شروط النزال بلا غدر ولا خيانة ينوب عن المتهمة وذلك بسماح من الرئيس الاعظم وبحضوره . وتلت مناداته اصوات الابواق ثم ساد سكوت عميق اقلقه الرئيس بقوله : لا ارى لليهودية محامياً اذهب ايها المنادي المحكوم عليها واسألها عما اذا كانت تأمل حضور من يحارب من اجلها

فقصد المنادي مقعد رفقه وكان بواجلبرت قد ادار رأس جواده الى مقعد رفقه وقصده رغماً عن احتجاج ملفوازين وبلغه عندما بلغه المنادي فسأل ملفوازين الرئيس قائلاً — ألا يخلّ عمل بواجلبرت بشروط النزال ؟

فقال الرئيس — لا يا ملفوازين لان تلك الشروط تسمح للخصمين بمبادلة الكلام لان ذلك قد يكون سبباً لاظهار الحق

وكان المنادي قد اقترب من رفقه كما ذكرنا فقال لها — يود الرئيس الاعظم ايتها الفتاة معرفة ما اذا كنتِ تنتظرين محامياً ام تقرّين بذنبكِ وعدالة حكمه

فقالت رفقه — قل للرئيس انني لا ازال اصرّح ببراءتي وقل له ايضاً انني اطلب ان أُعامل بعدل وان لا أُحرَم فرصة الانتظار التي تمنحني اياها شروط نزال كهذا النزال

فعاد المنادي بجواب رفقه فقال الرئيس — معاذ الله ان نخلّ بتلك الشروط وان تحرم المرأة يهودية كانت او وثنية فوائدها فسنقيم في هذا المكان الى ان تصبح الشمس في افق المغرب فاذا ظهر فارسها نازلناه والا نفذ فيها الحكم

فنقل المنادي كلام الرئيس لرفقه فحنت راسها بخضوع وضمت ذراعيها الى صدرها ورفعت نظرها الى السماء كأنها تستمدّ منها المعونة التي شكّت في حصولها عليها بين البشر · وبينا هي في هذا الذهول سمعت صوت بواجلبرت يهمس في اذنها فاجفلت له كانه نفخ في الصور وكان بواجلبرت يقول — أسامعة انت يا رفقه ؟

فقالت رفقه — ما لي ولك يا قاسي القلب

فقال بواجلبرت — هل تفهمين كلامي لانني لا اعلم ماذا اصابني فصوتي غريب في اذني وكدت اجهل هذا المكان الذي نحن فيه والسبب الذي لاجله اتوا بنا اليه · اعرف الغرض من هذا الكرسي وهذا الحطب واعرف غرضهم ولكنني اشبه بمن يرى رؤيا لا نصيب لها من الحقيقة

فقالت رفقه — اما انا فحواسي لا تخفي عني الحقيقة مطلقاً انا اعرف الغرض من كل ما يحيط بي واعرف ان هذا الحطب سوف يكون مدخلاً شديد الالم ادخل منه الى عالم يفوق هذا العالم راحةً وحبوراً

فقال الميكلي : « اضغاث احلام يا رفقه رفضها الصدّوقيون من قومكِ · قولي فقط فأردفكِ على جوادي هذا الذي غنمته من ملك ترابزون ولم يخذلني قط واسير بكِ الى حيث لا يدري احد وليقل قومي فيّ ما شاؤوا قوله وليسقطوا اسمي من سفر اسمائهم فساطهر كل لطخة تلحق باسمي بنهر من الدم اجريه »

فقالت رفقه : « اذهب عني ايها المجرّب لانك لن تقوى على تجربتي ولو كنتُ في آخر دقائقي وحولي كما ترى الشياطين في صوَر البشر »

وازعج ملفوازين تأخر بواجلبرت بجانب رفقه فاقترب منه وقال « هل اقرّت بذنبها ام لا تزال مصرّة »

فقال بواجلبرت « مصرّة »

فقال ملفوازين « هلمّ اذن ايها الصديق وعد الى موقفك فقد اقترب وقت الزوال . هلمّ يا رجاء طغمتنا الذي سوف يكون رئيساً لها في القريب العاجل » وكان ملفوازين يتكلم ويده على عنان جواد بواجلبرت فصاح هذا « ماذا تقصد بامساك عنان جوادي ايها النذل المهان اليك عني ! ثم نزع يد صديقه وهمز جواده فسار به كالبرق الى طرف الميدان الاخر . فقال ملفوازين لمونت فتشت « لا تزال فيه بقية من الحمية ولكنها كالنار اليونانية تلتهم كل من داناها »

وكان الناسك في غضون هذه الحوادث يخاطب رفيقه بقوله « يحق احراقها لانها يهودية ولكن يسوءني ان ارى هذا الجمال تأكله النار وليس من يصونه . فوالله لو ان فيها ذرة من دم نصراني لجعلت هذه الهراوة ترن على خوذة الهيكلي رنين الظهيرة

وكان الرئيس وجماعته قد قطعوا الامل من ظهور محامٍ واخذ ملفوازين يهمس في آذان رفاقه ان الوقت قد فات وان الشمس آذنت بالمغيب فتناقل هولاء هذه العبارات الى ان بلغت اذن الرئيس فوقع في حيرة بين ان ينتظر بعد او يأمر بالاحراق واذا بفارس قد ظهر في طرف السهل يستحث جواده فارتفعت الاصوات وصاح المتفرجون « محامٍ محامٍ »

واقترب القادم من الميدان وتأمله الناس فوجدوا جواده قد انهكه التعب فلا يكاد يقوى على الوقوف والفارس يوشك ان يسقط من سرجه لضعفٍ او كلال . ولم يكد يقف في الميدان حتى سأله المنادي عن شأنه ونسبه فقال « انا نبيل ومن قوم نبلاء اتيت هذا المكان لاحارب عن السيدة اليهودية رفقه ابنة اسحق اليوركي واثبت

براءتها بقوّة الذراع والسلاح مصرّحاً بان براين بواجلبرت خصمها قاتل وخائن وكذّاب · لهذا اتيت وعلى هذا فليساعدني الله والسيدة العذراء ومار جرجس سيّد الفرسان »

فصاح ملفوازين « يجب ان يذكر اسمه ونسبه لان الهيكلي لا ينازل ما لم يعرف خصمه ويتحقق جدارته »

فرفع القادم خوذته وقال « انا من قوم تعرفهم يا ملفوازين انا ولفرد اوف ايفنهو

فقال بواجلبرت « لا انازلك ما لم تبرأ جراحك وتستبدل جوادك وحينئذٍ ارى في نزع وساوسك الصبيانية من رأسك »

فقال ايفنهو « ها · ها ايها الهيكلي ! هل نسيت سقوطك دفعتين تحت طعنات هذا الرمح ؟ ويك وهل نسيت ميدان عكا وميدان اشبي وهل نسيت ادعاءك في منزل والدي عندما رهنت سلسلتك الذهبية ورهنتُ ذخيرتي على ان تنازل ايفنهو انّي التقيت به واسترجعت مقامك المفقود ؟ واني لاقسم بتلك الذخيرة وبما حوته من الذخر المقدس ان انت لم تنازلني نشرت اسمك في الآفاق ورفعت به صوتي في كل مجمع من مجامع طغمتك وصرّحت بنذالتك وسفالتك »

فتناول الهيكلي رمحه متردّداً ثم حوّل نظره الى رفقه ثم الى ايفنهو وصاح : « تناول رمحك ايها النذل السكسوني واستعد لموت انت مريده لنفسك »

فصاح ايفنهو : « وهل لدى الرئيس الاعظم ما يعترض به على عملي ؟ »

فقال الرئيس « كلاّ اللهمّ الاّ ان تكون الفتاة راضية عنك كمحامٍ عنها وحبذا لو كنت ايها الفارس صحيح الجسم لانني رغماً عن عداوتك لطغمتنا آبى ان يلقاك احدنا وانت ضعيف »

فقال ايفنهو : « ورب فئة ضعيفة غلبت فئة قوية فالامر بيد الله يظهر فيه عدله

ويجازي الظالم وينصف المظلوم . يا رفقه قولي اترضين بي محامياً عن حقوقك ؟ »
وكان قد اقترب منها

فصاحت رفقه « رضيت ! رضيت ! » وظهرت على وجهها علائم لم يظهرها فيه اقتراب الموت ثم صاحت « لا.لا . جراحك لم تبرأ بعد فلماذا تموت انت ايضاً ؟ لا.لا »

ولم يسمع ايفنهو عبارتها الاخيرة لانه كان قد رجع الى موقفه الاول وسدّد رمحه ففعل بواجلبرت فعله وانزل على وجهه القسم الذي يستر الوجه من الخوذة فلاحظ المحيطون به ان وجهه الذي لم يفارقه الاصفرار مدة النهار قد كسته حمرة شديدة تضرب الى السواد

ولما وقف المتحاربان كلٌّ في موقفه المعيّن له رفع المنادي صوته ونادى ثلاثاً « حاربوا حرب الفرسان » ثم تحوّل عن الميدان ونادى في الجمع ان من يتداخل في امر النزال ان بكلمة او بصوت او بحركة كان جزاؤه الموت ثم وقف الرئيس وفي كفه قفاز رفقه وطرحه الى الارض وصاح باعلى صوته « الى الامام ! »

ولم تخرج الكلمتان من فم الرئيس حتى نفخ في الابواق واعملت المهاميز في شواكل الجوادين فخرجا بفارسيهما كمرق السهم او كالصاعقة واصطدما في وسط الميدان فسقط ايفنهو وجواده الى الارض وهو ما كان ينتظره الناظرون لما كان يبدو على الجواد والفارس من علائم الكلال والتعب ولم يكد ايفنهو يلامس بجنبه الارض حتى مال الهيكلي عن سرجه وسقط الى الارض ايضاً مما اذهل الجميع لان رمح ايفنهو لم يكد يلمس ترس الهيكلي

وتملّص ايفنهو من جواده الساقط واستلّ سيفه وهجم على الهيكلي ووطئ بقدمه على صدر خصمه العنيد وامره باختيار التسليم او الموت فلم يحر الهيكلي جواباً

فصاح الرئيس « لا تذبحه ايها الفارس وهو لم يعترف ولم يتزوّد بالاسرار المقدسة تمهل ايها الفارس لا تقتل الجسد والروح معاً فقد حكمنا لك بالغلبة عليه »

واذ قال هذا انحدر الى الميدان وامر بنزع خوذة بواجلبرت ففعلوا ورأوا عينيه مغمضتين والاحمرار لم يفارق جبينه بعد ثم انفرجت الاجفان وجحظت العينان وكلح لون الوجه واسلم بواجلبرت روحه ولا اثر للجراح فيه بل قضى فريسة لعواطفه المتهيجة وتأثره المظيم

فلما رأى الرئيس الاعظم ذلك صاح « فليكن اسم الرب ممجداً الى الابد » حقاً ان في هذا اعلن الله عدله

وما من يدٍ الا يدُ الله فوقها   وما ظالمٌ الاّ ويبلى بأظلمِ

﴿ ٤٤ ﴾

ولما زالت الدهشة سأل ايفنهو الرئيس (لانه كان الحكم) عما اذا كان قد قام بعمله بمقتضى الشروط فاجاب الرئيس « اجلْ وبشجاعة وحق فالفتاة بريئة وحرّة وسلب الميت لك »

فقال ايفنهو « لا انزع عنه سلاحه واُلحق بجثته الاهانة لانه رجل حارب في سبيل المسيحية ويد الله التي كانت الضاربة الان وليس يدي فادفنوه بسكينة لانه قضى كمجرم واما الفتاة . . . »

وقطع كلام ايفنهو وقع حوافر خيول عديدة اهتزّت لها الارض وظهر الفارس الاسود في طليعة كوكبة من الفرسان والرماة . ولما دخل الملك الميدان صاح « تأخرت وابي فقد كنت اذخر بواجلبرت لضربات فأسي . ايفنهو ! اتعد عملك هذا حكمة ؟ »

فقال ايفنهو « كانت السماء الضاربة يا مولاي لانها لم ترضَ ان يموت موت الرجال من يد رجل »

فقال الملك وقد حدّق بالجثة « رحمه الله فقد كان شديد البأس وقضى في درعه كفارس . ولكن يجب ان لا نضيع الوقت عبثاً يا بوهان قم بواجباتك »

فتقدم احد الفرسان ممن كان مع الملك ووضع كفه على كتف ملفوازين وقال « انت اسيري واتهمك بدس الدسائس والخيانات الفظيعة »

وكان الرئيس الاعظم لم ينطق بعد بحرف بل اقام يراعي عمل القادمين منذهلاً فلما رأى فعل الفارس صاح : « ومن يجسر على القاء القبض على رئيس مجمع من مجامع الهيكليين في مجمعه وفي حضرة رئيسه الاعظم وبأمر من تلقي القبض »

فاجاب الفارس « انا بوهان ارل اسكس ملاحظ الامن العام في انكلترا »

عندئذٍ كشف ريكارد وجهه وقال : « وهو يلقي القبض على ملفوازين بامر ريكارد بلنتجنت الواقف امامكم واما انت يا مونت فتشت فحبذا لو كنتَ احد رعاياي اذن كنت موتاً تموت واما البرت وفيليب ملفوازين فسينتقلان الى خدمة ملك اعظم من كل ملك قبل انصرام الاسبوع »

فقال الرئيس مخاطباً ملفوازين « لا تخف فساعترض واسعى في نجاتك »

فقال الملك : « خسئت فانظر علم انكلترا يخفق فوق مجمعك فكن حكيماً يابومنوار فيدك في فم الاسد »

فقال الرئيس : « سوف ارفع الى رومية واشكو هذا الاختلاس ووضع اليد على مال الهيكليين الممنوح لنا فضلاً عن امتيازات اخرى خصوصية »

فقال الملك : « افعل ما بدا لك ولكن لا يذكرنّ فمك الاختلاس . فاجمع رجالك وسر الى مجمع غير هذا اذا وجدت لك في انكلترا مجمعاً غير جامع الدسائس لمناهضة ملك انكلترا او فاقم ضيفاً علينا لترى عدلنا بعينيك »

فصاح الرئيس : « أأنزل ضيفاً في بيت انا صاحبه ؟ ارفعوا اصواتكم ايها الكهنة

وانتم ايها الفرسان سيروا تحت علم الهيكل »

وفاه الرئيس بهذه الكلمات بعظمة مماثلة لعظمة ريكارد نفسه فثابت الى اتباعه شجاعتهم واحاطوا به كغنم تفزع الى الكلب الذي يحميها اذا طلع الذئب وظهر في اعين بعضهم شرر الغضب . فسار الرئيس وتبعه رجاله ولما ابعد قليلاً وقف فهمز ارل اسكس جواده واخذ ينظم رجاله استعداداً لامر يظهر من الهيكليين واما الملك فكأنه استخف بالخطر فاقترب من الهيكليين وقال « اتدبرون ايها السادة وبهذه السرعة ايضاً ألا يوجد بينكم من يقوم على تحطيم رمحه مع ريكارد ؟ »

فقال الرئيس: « لا آذن لاحد رجالي ان ينازل احداً في حضرتي وعلى الاخص ريكارد لانه سوف يحكم بيني وبينه البابا وملوك اوربا ونكون في غنى عن الهجوم والدفاع ثم انني أكل الى شرفك امر الحرس على ما خلفناه في المجمع الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً » واذ قال هذا امر بابواقه فنفخت واصطفت رجاله صفوفاً وراءه وساروا ببطء ليظهروا ان طاعة رئيسهم تضطرهم الى الذهاب وليس خوفهم من الملك ورجاله

واما الملك فوقف يراقبهم وهو يقول « من الخسارة ان لا يكون هولاء الهيكليون اهلاً للثقة وهم على ما هم عليه من النظام والشجاعة »

واما رفقه فلما رأت ما آل اليه امرها ورأت ان الخطر قد اضحى بعيداً عنها طفح السرور على قلبها وغشيت دموع الفرح عينيها فاقامت لا تبصر ولا تعي الى ان احست بذراعين قد احاطا بعنقها وصوت ابيها يقول « هلمَّ نذهب يا ابنتي هلمَّ نطارح نفسينا على اقدام الشاب الكريم »

فصاحت رفقه « لا . لا . لا . يجب ان لا اراه الان لئلا انطق بما لا اريد النطق به واظهر . . . لا لا يا ابتي سر بنا من هذا المكان »

فقال اسحق « أتترك الرجل الذي نجّاكِ وعرّض نفسه للخطر ليخلصكِ وانت غريبة عنه من شعب غير شعبه . يجب ان تشكريه يا رفقه »

فقالت « نعم يجب . نعم يجب وسوف يرى انني لا انسى فضله ولكن ليس الان يا ابتي اكراماً لوالدتي سر بنا الان من هذا المكان »

فقال اسحق « اذا ذهبنا يا رفقه قيل اننا لا نذكر المعروف وكنا ادنى من الكلاب »

— ألا ترى الملك ريكارد

فصاح اسحق : « صدقتِ يا ابنتي فما احكمكِ . اجلْ ريكارد هنا وهو عاد من فلسطين لا مال له وقد يتخذ علاقتي مع اخيه ذريعة يستنزف بها مالي »

ثم تناول يد ابنته وخرج بها من الميدان واركبها مطية كان قد اعدّها وسار بها الى بيت ناثان . واما الشعب فلما رأى رفقه وقد كانت محوراً دارت عليه اعمال ذلك النهار تسير بصحبة ابيها تحوّلوا الى الفارس الاسود واخذوا يصيحون « ليحيَ ريكارد قلب الاسد وليسقط الهيكليون »

واما ايفنهو فكان واقفاً بجانب ارل اسكس فلما سمع هتاف الشعب قال « اصاب الملك اذ اتى بك ايها النبيل وبهذا العدد من رجالك لانني لا اثق بهتاف الشعب لانه سريع التقلب »

فتبسم ذلك الارل وانغض راسه وقال « انت ادرى الناس يا ايفنهو بمليكنا فهل تعلم مما تعرفه عنه انه ممن يصيبون مثل هذه الاصابة ويتخذون مثل هذه الحيطة ؟ كنت اقترب برجالي من يورك لانني سمعت ان البرنس يوحنا جمع رجاله الى تلك المدينة وبينا انا في بعض الطريق التقيت بالملك يركض جواده قاصداً هذا المكان فتبعته قسراً ومخالفاً ارادته »

فقال ايفنهو « وما هي اخبار يورك ايها النبيل هل عزم العصاة على نزالنا في تلك المدينة والوقوف في وجهنا »

— اجلْ يقفون في وجهنا وقوف ثلج كانون في وجه شمس تموز وقد اخذت تلك القوات تضمحل فلما رأى البرنس يوحنا نفسه فريداً احمل تلك الاخبار بنفسه الينا »

فصاح ايفنهو: « ذاك الخائن المختلس ? وهل امر ريكارد بسجنه »

— لا وابيك بل قابله كانهما في حفلة صيد وحياه تحية الاخاء ثم تحوّل الينا وقال له انظر ايها الاخ ترَ حولي رجالاً قد اخذ الغضب منهم كل مأخذ فاحمل الى والدتنا احترام واكرام ابنها واقم عندها الى ان تنفثئ سورة غضبهم

فقال ايفنهو: « وهل كان هذا كل ما قاله له ? من يسمع كلام هذا الملك ولا يقول انه به يشجع رعاياه على شق عصا الطاعة ? »

فقال الارل: « صدقت كما يقول من يراك ان اقدام رجل جريح على نزال عنيف فيه دعوة للموت »

— اعذرك يا سيدي على مزاحك ولكن اعلم انني عرَّضت نفسي فقط واما الملك فعلى شخصه تتوقف مصلحة مملكة باسرها »

فقال الارل: « من لا يهتم بامر نفسه يا سيدي كثيراً ما يهمل امر السوى ولكن ما لنا ولهذا الان فلنسرع الى القصر لان في عزم الملك مجازاة بعض الذين اشتركوا في تلك الخيانة رغم صفحه عن رئيسهم »

وكان ما ذكره الارل لان المجلس الذي عقد عقيب ذلك حكم على دي براسي بالنفي فلحق بفيليب ملك فرنسا وانتظم في سلك خدمه واما البرت وفيليب ملفوازين فحكم عليهما بالاعدام ونجا ولدماير فتزور وهو الذي اوقد تلك الشعلة في قلب البرنس وكان قلبها وروحها واما البرنس فنال الصفح من اخيه الكريم

ولما حكم المجلس بما حكم ارسل الملك في طلب سادرك الى قصره الموقت في يورك ليتمكن بواسطته من تسكين قبائل السكسون الذين شقوا عصا الطاعة عندما رأوا البرنس يتطال الى عرش اخيه فزعموا ان الفرصة قد سنحت لارجاع الملك الى اصحابه السكسون نظرًا لانشقاق النورمانديين وتفرُّق كلمتهم ولكنهم لما عرفوا برجوع صاحب العرش الى عرشه خابت آمالهم جميعًا لان ريكارد كان محبوبًا لصفاته الشخصية ولشهرته الحربية رغم اعماله التي لم تعد على بلاده بعظيم منفعة· وعرف سادرك انه عبثًا يحاول جمع كلمة السكسون وتحريضهم على انتزاع الصولجان من يد رجل كريكارد وتحقق ان زواج روانا من اثلستاين لا يعود على السكسون بفائدة تذكر فضلاً عن كره روانا لاثلستاين وامتناع هذا عن متابعة التقرُّب من السيدة· غير انه لم يلقِ حبل اثلستاين دفعة واحدة بل طلبه في قصره مرة اخرى ليطلع على افكاره من هذه الجهة فرآه في حيرة عظيمة من جرَّاء منازعة عنيفة بينه وبين رئيس الدير المهود لان اثلستاين على رغم مقاومة والدته قبض على رئيس ذلك الدير ورهبانه وزجهم في سجون قصره حيث اقاموا ثلاثة ايام بلياليها يأكلون الخبز ويشربون الماء ثم أُطلقوا فرفع الرئيس صوته بالشكوى ونظم لائحة طويلة بانواع الاذيات التي لحقت برهبانه في الاعضاء والاطراف والمِعَد مهددًا اثلستاين بحرمانه حقوقه الدينية وعليه عندما فاتحه سادرك بامر روانا تناول كأْسًا من الخمر وقال ساشرب هذا نخب السيدة راجيًا لها ولابن العم ولفرد عمرًا طويلاً وعيشًا رغيدًا وصبيانًا وبنات فانقطع كل امل لسادرك في اثلستاين ولم يبقَ ما يمنعه عن الاذعان لارادة ابنه سوى امرين عناده الطبيعي وبغضه للدولة النورماندية اما الاوَّل فزال شيئًا فشيئًا بفضل مساعي روانا من جهة واحدة وشهرة ابنه التي كان يفتخر باعماله من جهة اخرى فضلاً عن سروره القلبي بمزج دمه بدم سليلة الفرد العظيم· واما بغضه للدولة الحاكمة فزال بفضل اعمال الملك واتباعه

الدائم الى راحة سادرك واكتساب رضاه القلبي · قال وددود في تاريخه ولم يقم سادرك في قصر الملك اكثر من سبعة ايام حتى اذعن لارادة الملك ورضي عن زواج ابنه من السيدة روانا اتم الرضى

ولم يمضِ طويل زمن حتى سير بايفنهو وروانا الى الكنيسة باحتفال عظيم حضره الملك بنفسه مما حوّل قلوب السكسون اليه وحاز على رضائم واخلاصهم

وكان كارث مترديًا اثوابًا لم يكن يحلم بمثلها فيما سبق يسير خلف مولاه الفتى · وومبا وقد استبدل (قاووقه) بآخر جديد تتدلى منه الاجراس الفضية يتقدّم العروسين ليشاركا سيدهما في افراحه كما شاركاه في اتراحه

ولم يكن هولاء كل من اشترك في ذلك الاحتفال ولكن حضره عدد غفير من اشراف النورمانديين فنتج عن ذلك ان اقترب الجنسان احدهما من الاخر واخذا يمتزجان بواسطة الزواج حتى كادت تزول الحواجز الجنسية من بينهما وبقي سادرك حيًّا الى ان شاهد ذلك الامتزاج بعينيه غير ان الافرنسية بقيت لغة القصر الى ايام ادورد الثالث فاستبدلت باللغة الانكليزية المعروفة وزالت الفوارق تمامًا ولم يعد يعرف النورماندي من السكسوني

***

في صباح اليوم الذي عقب العرس دخلت خادمة روانا على سيدتها وذكرت لها ان سيدة على الباب تطلب الاختلاء بها · فدهشت روانا لامر هذه السيدة وامرت خادمتها بادخالها ففعلت ثم انسحبت الخادمة من القاعة

وكانت الزائرة طويلة القامة مهيبة الطلعة يستر وجهها قناع ابيض مما زاد حركاتها اجلالاً وهيبةً · ولم تكد ترد الخادمة الباب وراءها حتى جثت الزائرة عند اقدام روانا وتناولت طرف ثوبها وقبّلته باحترام

فصاحت روانا : « من انتِ ايتها السيدة وما غرضكِ

فنهضت السيدة وقالت : « اما غرضي فهو اداء واجب شكر لا اقدر على ادائه لغير السيدة ايفنهو واما من انا فانا رفقه اليهودية التي عرّض زوجكِ ولفرد اوف ايفنهو نفسه للخطر في سبيل نجاتها » .

فقالت روانا : « لم يقم ولفرد في ذلك بغير الجزء اليسير مما يتوجب عليه نحوكِ فانتِ صاحبة الفضل لاعتنائكِ به والسهر عليه في مرضه والاحسان اليه في ضيقه فاذكري لي ايتها السيدة بماذا يقوى ولفرد او زوجته على مكافأة تلكِ حق المكافأة ».

— بابلاغه شكري القلبي ووداعي

فقالت روانا « وهل تتركين انكلترا ؟ »

— نعم وذلك قبل ان يتصرّم هذا الشهر لانني سوف اصحب والدي الى الاندلس حيث اخوه مقرَّب من محمد ابي عبد الله ملك الاندلس وحيث ندفع الجزية التي يفرضها المسلمون علينا فننجو من الاضطهاد والعذاب

— وهل انتِ عرضة للاضطهاد في هذه البلاد اذن يتداخل زوجي في امركِ لانه نافذ الكلمة لدى الملك والملك نفسه كريم عادل

— لا اشك في صدق كلامكِ يا سيدتي ولكننا قوم على جانب عظيم من الجبن والخوف والانكليز قوم اشداء يميلون الى الحرب وسفك الدماء يحيط بهم اعداؤهم من سائر الجهات فعليه ليست هذه البلاد ببلاد تليق بنا او نليق بها

فقالت روانا وقد نهضت متحمسة « ولكن ليس ما يخيفكِ انت يا سيدتي فالفتاة التي سهرت بجانب فراش ايفنهو يجب ان لا تخاف شرًّا ولا حيفًا في بلاد سوف يتسابق النورماندي والسكسوني على السواء الى مرضاتها »

فقالت رفقه « كلامكِ حسن واحسن منه قصدكِ ولكنه لا يكفي لان يزيل

الحاجز بين اليهودي وغيره لان الهوَّة الكائنة بيننا وبينكم لا يتمكن بشر من ردمها فالوداع يا سيدتي ولكن هل تهبيني امنية اطلبها · هلاَّ رفعتِ هذا البرقع عن وجهك لارى ذلك الجمال الذي تغنَّت به الشعراء »

— افعل بشرط ان تفعلي فعلي · ثم رفعت برقعها وقد صبغ الخجل وجهها وعنقها بلون احمر شغاف واحمرَّ وجه رفقه ايضاً ولكن احمرارها زال بسرعة ووقفت تتأمل في روانا هنيهة ثم قالت :

« سترتسم هذه الطلعة في مخيلتي يا سيدتي ابداً لانني قد رأيت في وجهكِ سمات الدعة والحنو والرحمة ولا عجب اذا وهبت السماء اجمل مخلوقاتها اجمل صفات السماء · سوف يبقى هذا الوجه في مخيلتي ابداً يا سيدتي واخرج راضية لحصول مخلّصي على ... »

وقطعت رفقه كلامها وسالت الدموع على وجنتيها ولكنها مسحتها بسرعة واجابت على اسئلة روانا قائلة « لا يا سيدتي · فانا صحيحة بحمد الله ولكن ما يبكيني هو ذكرى معقل فرنت دي بوف وميدان تمبلستون فالوداع اذ لم يبقَ لي غير امر طفيف اقوم به · أتتنازلين الى قبول هذا الصندوق مني ؟

فتناولت روانا الصندوق وفتحته فوجدت فيه عقداً من اللؤلؤ وحجرين من الماس ثمينين فقالت : « لا يمكن ان اقبل هديتكِ يا سيدتي فهي غالية لا اتجرأ على لمسها »

— هي لكِ يا سيدتي · انتِ واسعة السلطة والنفوذ وبذلك قوّتكِ ونحن قوم قد تجمع لدينا القناطير المقنطرة من الذهب وبها قوّتنا وضعفنا معاً · وهذه الجواهر لا توازي بقيمتها عشراً واحداً من نفوذ كلمة واحدة من كلماتكِ فاقبليها فهي لا قيمة لها عندي لانني سوف لا البس حلياً في المستقبل وهي لا قيمة لها عند والدي لانها لا

تعد شيئاً في جانب شرف ابنته »

فقالت روانا وقد اثر فيها كلام رفقه « اذن انت شقية يا سيدتي . ابقي معنا فاكون لك اختاً وساسعى بمساعدة حكماء ديننا على اقناعك بصحته »

— لا يا سيدتي فهذا امر مستحيل لانني لا اروم خلع دين ابائي كرداء لايوافق طبيعة البلاد التي نسكنها ولا اروم زيادة تعسي من جهة اخرى فالذي سوف اكرّس نفسي له هو وحده يعزّيني »

— وهل عندكم اديرة يلجأ اليها التاعسون ؟

— كلاّ ولكن بين قومنا نساء كرّسنَ انفسهنّ للسماء واعمالهنّ لبني البشر يسهرنَ على المريض ويطعمنَ الجائع ويكسونَ العريان فستكون رفقه احداهنّ اذكري هذا لزوجك اذا ما سأل يوماً عن مصرع الفتاة التي نجّى حياتها »

وفاهت رفقه بعبارتها الاخيرة بصوت ملؤه الحزن وتمازجه رقة لم تكن تريد اظهارها فاسرعت في توديع روانا وقالت : « الوداع الوداع يا سيدتي وليحفظك الرب الذي خلقنا جميعاً بعنايته ويمطر عليك رحمته وبركته مدراراً » واذ قالت هذا انسحبت من الغرفة مخلّفة روانا على اشد ما يكون من الدهشة ولما دخل زوجها اعادت عليه ما سمعته من رفقه فتأثر ايفنهو اشد التأثر لعلمه من امرها ما لم تكن زوجته تعلم

وقضى ايفنهو مع زوجته سنيناً طوالاً بارغد عيش يذكران احزانهما السالفة فيزدادان تحاباً وينظران الى سعادتهما الحاضرة فيزدادان املاً بالمستقبل وايفنهو يخدم الملك ريكارد قلب الاسد بامانة زادته في عيني سيده رفعةً وكانت تزيد وتسير بايفنهو الى اعلى مراتب انكلترا لو لم يمت قلب الاسد قبل اوانه امام معقل تشالوز مخلفاً رعية تبكي ملكاً باسلاً وتندب بموته امالاً لها كانت به عظيمة

انتهت